سلسلة
تاريخ العرب والاسلام
٢

تاريخ خلافة بني أمية

تأليف
الدكتور نبيه عاقل

دار الفكر

سلسلة

تاريخ العرب والاسلام

٢

خلافة بني أمية

تأليف

الدكتور نبيه عاقل

دار الفكر

الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ. — ١٩٧٥م.

المقدمة

كان الكتاب الاول في هـذه السلسلة : « تاريخ العرب القـديم وعصر الرسول » محاولة لاستقصاء تاريخ العرب منذ أقدم العصور وحتى انتقال الرسول الكريم الى جوار ربـه • ويقتضي التسلسل التاريخي السليم أن يكون الكتـاب الثاني حول « خلافـة الراشدين » ، ولكني آثرت أن انتقل مباشرة الى « خلافة بني أمية » لا جهلاً بأهمية فترة الراشدين ، ولا انتقاصاً لقدر «الأربعة العظام» الذين كانوا بعد الرسول الأعظم حملة رسالته والأمناء على دين أمته ودنياها ، لكن لأن البحث في خلافة بني أمية اقتضى أن اتعرض لشطر هام من خلافتهم بأحداثها ومنجزاتها والأسس التي أرسوا عليها أصول الحكم والتبدلات التي دخلت على جسد الجماعة الاسلامية بعد عصر الفتوح الكبرى التي بدأت في زمنهم • لهذا كله آثرت أن أكتفي الآن بهذا القدر من أخبارهم ، آملاً أن يكون لهم في هذه السلسلة ، في مستقبل قريب ما يفيهم بعض حقهم من دراسة مستقلة تسلط فيها أضواء الحقيقة التاريخية عـلى ما كان لهم من دور بارز في تاريخ أمتنا •

وكتابنا هذا ، محاولة في دراسة خلافة بني أميـة ، قدمت لهـا كمـا أسلفت ، بدراسة لاهم الأحداث والظروف التي أدت لانتقال الخلافة مـن الراشدين الى الأمويين • وقـد خصصت لهذا الجزء قسماً مسقـلاً مـن الكتاب • وفي هذا القسم حـاولت أن أتناول بالبحث القضايا التي طرحها انتقال الجماعـة الاسلامية من طور كـانت فيه الجزيرة العربيـة الاطـار الجغرافي الذي يؤوي الدولة الاسلامية الوليدة، الى طور خضعت فيه ممتلكات فارس وبيزنطة لهـذه الدولة ، وانتقـل العرب بعـد ردة بعضهم للسكنى والعيش في هذه الأمصار المفتوحـة ولاشادة دولـة تتعدد فيهـا الجنسيات وتتشابك المصالح وتتنافر الأهواء ، فتتقسم الحزبية السياسية والدينية كثرتهم ، ويغدو السيف فيصلاً في كثير من أمور دينهم ودنياهم •

أما القسم الثاني فقد خصصت فيه الفرع السفياني من البيت الأموي بالدراسة ، وتناولت فيه بالبحث خلافة معاوية مؤسس هذا البيت الحاكم وأهم أحداث فترة حكمه واتبعتها بدراسة لفترة حكم ابنه وخليفته يزيد بن معاوية الذي بدأت في عهده نيران الفتنة الثانية تندلع لتهدد وجود الأمويين ولتجعلهم على شفا خطر ما حق لا يتهدد حكمهم فحسب ، بل يعرض وحدة الأمة الى محنة الفرقة والانقسام والحرب الأهلية ، وقد استطاع مؤتمر الجابية وما وقع في مرج راهط أن يرأب الصدع ويجمع شمل الفرقاء المتنافسين من أفراد البيت الأموي ليقفوا في وجه خصمهم الأول ابن الزبير وغيره من الخصوم الذين استغلوا فترة الاضطراب هذه ليشرعوا معاول الهدم في وجه الأسرة الحاكمة ٠

ويجيء القسم الثالث من الكتاب والذي خصصته لدراسة خلفاء الفرع المرواني من البيت الأموي ليبحث في أهم منجزات فترة حكم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك وأولاد عبد الملك الذين آلت إليهم الخلافة بعد أبيهم، وخلافة عمر بن عبد العزيز حتى هشام بن عبد الملك الذي اعتبرته آخر خلفاء فترة القوة ٠ وفي هذا القسم تبرز أحداث جسام تعمل عملها في مسيرة الدولة وحياة الناس ، حاولت أن أضعها في موضعها من التفسير والشرح حتى لا يكون الحادث التاريخي قصة تسرد ، بل ظاهرة لها مدلولاتها وانعكاساتها ، بقدر ما كان لها من مبررات وجود أعطتها مسارها ورسمت لها معالمها ٠

أما القسم الرابع والأخير فقد عالجت فيه فترة حكم الخلفاء الذين بدأت مع ارتقائهم العرش بوادر الضعف والانهاك تسم جسد خلافة بني أمية بسماتها والذين وضحت في زمنهم مسيرة الحكم الأموي نحو هاوية السقوط ٠ فالفتنة الثالثة التي أطلت برأسها منذ خلافة الوليد بن يزيد والصراع على العرش بين أفراد البيت الأموي ونشاط آل البيت من شيعة وعباسيين لاستعادة المسلوب من حقهم في الحكم ، وعرب المشرق وما كان لهم من دور في زعزعة أركان حكم بني أمية ، والموالي وما كان لهم من أثر في فرقة الصف وازكاء نيران الثورات التي لا تنتهي وانضمامهم الى كل تحرك يهدف إلى أقصاء من طبعوا حكمهم بطابع العروبة ، وصراع العصبيات وما خلفه من جبهة عربية مشتتة لا ينتظمها شعور من رابطة قومية عليها أن تقف موحدة في وجه ما يتهددها من أخطار ، كلها أمور وقفت عندها في هذا القسم من الكتاب وحاولت أن أوضح ابعادها والنتائج التي ستترتب عليها

من خلال حديثي عن خلفاء هذه الفترة الذين كان آخرهم مروان بن محمد الذي وضعت معركة الزاب خاتمة غير سعيدة لحكمه كفرد ، وكخليفة ينتمي الى بيت حاكم كان هو آخر من حكم باسمه ٠

وأود أن أعترف مسبقاً بأن دراستي لخلافة بني أمية لم يكن الهدف منها استقصاء جميع أحداث فترة حكمهم ، بل رسم الخطوط العريضة لأهم هذه الاحداث ٠ ولكن الذي أوليته ما استطعت من عناية هو محاولة رسم صورة أقرب ما تكون إلى الواقع من خلال مصادر محددة كتبت بأيد لا تكن وداً كبيراً للأمويين وفي ظل حكم العباسيين الذي قام على انقاض حكمهم وبعد ثورة عارمة قادها ضدهم ٠ وطبيعي أن يكون ما هو موجود في هذه المصادر غير متسم بالحياد التام أو النظرة الموضوعية الخالصة ٠ وأود أن أذكر هنا بما هو معروف عند الكثير من المشتغلين بتاريخ العرب والاسلام عامة والعصر الأموي بخاصة ، ألا وهو أن هذا العصر بأحداثه ورجالاته ومنجزاته كان موضع ظلم فادح من الذين كتبوا عنه ٠ وقد حاولت ما وسعتني المحاولة أن أرفع هذا الظلم حين استطعت إلى ذلك سبيلا لا انحيازاً إلى مواطنتي لـ « بلاد الشام » ، ولكن انصافاً للحقيقة التاريخية التي هي رائد كل تلميذ مخلص ، ورغبة في إلقاء نور أسطع على حقبة من تاريخنا كانت فيها العروبة منارة عالية تسمو على كل ما عداها ٠

وبعد فان كان في جهدي ومحاولتي شيء من جديد ، فهذا حسبي وفيه ما رجوت من مكافاة ، وان كان فيه ما يقصر عن الهدف ، ولا أبرأ نفسي ، فأملي أن يكون في محاولاتي القادمة ما يعوض عما فات ٠ والله من وراء القصد ٠

دمشق في شباط ١٩٧٢

الدكتور نبيه عاقل

القسم الأول

من الراشدين إلى الأمويّين



من الراشدين إلى الأمويين

الاحداث التي انتهت بانتقال الخلافة الى بني أمية :

حين انتقل الخليفة عمر بن الخطاب إلى جوار ربه ، قامت مشكلة الخلافة من جديد وعاد النقاش الحاد حول من هو صاحب الحق بالخلافة ليشغل الجماعة المؤمنة في المدينة بشكل خاص ، وليقض مضاجع قلة قليلة في الأمصار •

كان كل ما فعله عمر بن الخطاب ، الخليفة المطعون ، بهذا الخصوص أنه أوصى بتشكيل لجنة شورية تبحث أمر الخلافة وتقرر العهدة بها لمن تراه مناسبا ويكون له الحظ في نوال إجماع المسلمين • ولم تكن جماعة الشورى التي أوكل إليها أمر اختيار الخليفة تمثل الجماعة الاسلامية آنذاك بكافة اتجاهاتها وميولها وأهوائها ومصالحها ، كما أنه لم يكن في عداد أفرادها من يمثل الأمصار المفتوحة، أو قطاعات الرأي المختلفة داخل العاصمة وخارجها• لقد كان الرجال الذين عهد إليهم عمر بالمهمة ، أقدم ستة قرشيين من صحابة رسول الله ما يزالون على قيد الحياة ، ولا يجوز في رأي عمر أن تكون الخلافة لواحد سواهم • وكان عليهم أن يتفقوا على واحد من بينهم يتولى الخلافة باجماعهم أو اتفاق غالبيتهم ؛ ومن ثم يعرض اسمه على الجماعة ليبايع ويحكم • وكأن حق الجماعة لا يعدو المبايعة الشكلية لمن وقع عليه اختيار رجال الشورى •

وبعد مداولات واستشارات لا مجال للدخول في تفاصيلها استقطب الرأي حول مرشحين : علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان • وكان علي

بحكم كونه ابن عم النبي وزوج ابنته وصاحب اليد الطولى في نصرة الاسلام والدفاع عنه ، يشعر أنه أحق من غيره في ولاية أمور المسلمين • وقد تخطي في السابق حين انتخب للخلافة أبو بكر وعمر ، وجاء الآن أصحاب الشورى يتخطونه من جديد ولا يعترفون له بالحق الأول في هذا المنصب ويفضلون عليه الصحابي المسن عثمان بن عفان سليل الأسرة الأموية •

وقد وقع عثمان ، بعد أن ولي الخلافة ، تحت تأثير جماعته من أفراد البيت الأموي • وبنو أمية ، كأسرة الرسول الكريم ، من بيت عبد مناف ، ولكنهم كانوا في الماضي أشد قوة وأعظم شأناً من أولاد عمومتهم من آل هاشم والمطلب • ولما قام الاسلام ، ووقف بنو أمية منه أول الأمر موقف المعادي وقامت الحروب بينهم وبين الرسول وصحبه وهزموا في هذه الحروب ، ظلوا يتمتعون بنفوذ قوي بين قومهم ولم يفقدوا مكانتهم واعتبارهم • وقد ساعدهم في حفظ مكانتهم انضمامهم الى صف الرسول وهجرتهم إلى المدينة ، عاصمة الدولة الجديدة • وقد استطاع أولاد أبي سفيان ، ومنهم يزيد بن أبي سفيان ومن بعده أخيه معاوية ، أن يشقوا طريقهم في الدولة الجديدة وأن يحصلوا على مكانة رفيعة في مجتمع المدينة زمن أبي بكر وعمر • ومن المهم في هذا المجال أن نلاحظ أن بروز يزيد وأخيه معاوية لم يكن في المدينة ، بل كان ، الأمصار • ولما آلت الخلافة الى عثمان ارتفع شأن الأمويين كثيرا وأصبح بيدهم تصريف الأمور • فقد عزل هذا الخليفة معظم العمال الذين كان قد ولاهم عمر بن الخطاب ، وعين بدلا عنهم أقرباءه من الامويين : فقد ولي ابن عمه مروان بن الحكم على المدينة وكتب له بخمس غنائم افريقية ،[1] كما [illegible] لى أخاه بالرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر [2] عوضاً عن عاملها الكفء عمرو بن العاص ، وعبد الله بن عامر وهو ابن خاله على البصرة •[3]

---

(١) البلاذري : انساب الأشراف ، ج ٥ ، ط • غويتاين ، ص ٢٥ •
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٦ •
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٠ •

هذا فضلا عن سعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة[1] وسعيد بن العاص ، وكلهم من أقربائه ، وقد ولاهم الكوفة على التوالي • وكان معظم هؤلاء الأشخاص لا يملكون من مؤهلات الولاية سوى قرابتهم للخليفة ، كما أنه كان لبعضهم ماض معادٍ للاسلام : فالحكم ، أبو مروان بن الحكم ، كان كما يقول البلاذري : « مغموضاً عليه في إسلامه وكان إظهاره الاسلام في يوم فتح مكة ، فكان يمر خلف رسول الله (ص) فيَخْلِج بأنفه ويَغْمِز بعينيه ، فبقي على ذلك التَخلج وأصابته خَبْلَة • » •[2] وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح كان مطعوناً في خلقه ودينه ، وقد هدر النبي دمه بسبب تغييره في القرآن عند كتابته الوحي لو لاشفاعة عثمان به•والوليد بن عقبة كذب على النبي ونزلت بسببه الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ••• » • وسعيد بن العاص كان قليل الأمانة يود أن يقيم ملكاً لنفسه ويقول : إنما هذا السواد بستان لقريش •[3]

وقد أثار عثمان بعمله هذا حفيظة الكثيرين ، ولا سيما رجال الشورى انفسهم كعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص •

أما سياسة عثمان وطريقته في إدارة الأمور وأسلوبه في الحكم ، فقد كان لها آثارها في ازدياد النقمة عليه وحفز الناقمين للقيام بثورة تبدل الأوضاع وتعيد الحق الى نصابه • ولسنا هنا في مجال سرد التفاصيل المتعلقة بسياسة عثمان وطريقته في تسيير شؤون الدولة ، فالمصادر حافلة بالأمثلة على لين جانبه وميله إلى الترف والتهاون في حقوق بيت المال وغير ذلك • كما أننا لا نريد أن نستعرض جميع الحوادث والخطوات التي أدت إلى الثورة ، ولكنا نود أن ننبه إلى أن انتماء عثمان إلى البيت الأموي ، جعل بني هاشم يقفون له بالمرصاد ، يحسبون عليه خطواته ويعدون عليه أنفاسه ، لما بين

---

(١) الوليد بن عقبة هو أخو عثمان لامه ، انظر ، الأنساب ، ج ٥ ، ص ٢٩ •
(٢) الأنساب ، ج ٥ ، ص ١٢٥ •
(٣) انظر من أجل هذه الأخبار والأقوال ، والأنساب ، ج ٥ ، ص ٣١ ، ٣٥ ، ، ٤٠ •

البيتين من عداء قديم يرجع الى أيام الجاهلية ، حين كان بنو هاشم في منزلة أدنى من منزلة آل أمية ، وفي وضع مادي واجتماعي لا يداني وضع ابناء عمومتهم الأمويين • وحين تنزل الاسلام على قلب رجل من بينهم شعروا بالزهو والفخار وبنعمة الله عليهم • ولما جاء عثمان الآن ليعيد التسلط الأموي القديم ويسلم أهله وجماعته ، لا لكفاءة أو فضل ، مقاليد الأمور من جديد ، ثارت ثائرة بني هاشم وانتكأت جراحاتهم القديمة • وقد وجد بنو هاشم لهم داعية جريئاً في شخص عبد الله بن سبأ ، الملقب بابن السوداء ، والذي تزعم المصادر أنه كان « يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان • ثم تنقل في بلدان المسلمين »[1] فجاب الحجاز والعراق والشام ومصر داعياً ضد عثمان الذي اغتصب الخلافة من علي صاحب الحق فيها ووصي محمد• ووجدت دعوى ابن سبأ في أن عثمان بَدَّل السور التي تشير إلى وصاية النبي لعلي في إمامة المسلمين ، سنداً في التهمة الكبرى الموجهة لعثمان من أنه أحرق مصاحف الصحابة •[2]

وإذا تركنا الصراع الهاشمي الأموي القديم وما كان له من آثار جانبا، فلا بد لنا من أن نثبت حقيقتين هامتين لهما مساس بقضية الشكوى من عثمان ، أولهما أن الشكوى قد تعاظمت للحد الذي شعر معه رؤوس الجماعة الاسلامية في المدينة أن الشاكين محقون ، وأنه لابد من العمل لازالة أسباب هذه الشكوى ، وثانيهما أن العناصر التي كانت تجأر بالشكوى من عثمان لم تكن كلها عناصر فساد وشغب ، بل كان بينها عناصر صلاح وتقوى ، هذا فضلاً عن بعض الزعماء الذين امتلأت نفوسهم مرارة وأسى مما آلت إليه حال الدولة ، وكان قصدهم إعادة الأمور إلى نصابها ، وليس قتل الخليفة بأي حال من الأحوال • وإذا أردنا مثلاً على هذا النوع من

---

(١) انظر ، الطبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ • وانظر أيضاً من أجل أصل عبد الله بن سبأ وحياته وأعماله : النوبختي ، كتاب فرق الشيعة ، ط • ريتر ، استانبول ١٩٣٠ ، ص ٢٠ وما بعدها •

(٢) من أجل قضية احراق عثمان للمصاحف بعد جمعه للقرآن ورده على هذه التهمة ، انظر ، الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦٢ ـ ٦٣ •

الناقمين ، فليس أجدر من أن نذكر اسم عبد الرحمن بن عوف رئيس جماعة الشورى وصاحب اليد الطولى في انتخاب عثمان . فقد بلغ من نقمة ابن عوف على تصرفات عثمان ويأسه من جدوى نصحه أنه خاصمه وحلف ألا يكلمه حتى يُفرّق الموت بينهما .[1] وقد برّ بقسمه حتى أنه حين حضرته الوفاة ودخل عليه عثمان ليعوده ، أدار وجهه إلى الحائط ولم يكلمه . وما قلناه عن ابن عوف يصح على طلحة وعلي بن أبي طالب وعمار ابن ياسر وأبي ذر الغفاري وغيرهم من وجوه المسلمين .

وقد ظهر التبرم من سياسة عثمان أول ما ظهر في المدينة . فعثمان الذي خلف عمر بن الخطاب في إدارة شؤون المسلمين لم يسر على نهجه ولم يتبع سياسته . فقد عتب المدنيون على عثمان مثلاً بذخه وترفه وأكله نين الطعام وشده أسنانه بالذهب وقارنوا كل ذلك بما كان يفعل عمر . وكان جواب عثمان حين وصله عتب أهل المدينة قوله : « يرحم الله عمر ! ومن يُطيق ما كان عمر يُطيق » .[2] ولم يقتصر الأمر على بذخ عثمان وترفه وقلة حرصه على أموال بيت المال ، بل تعداه إلى تسلط أهله وأقربائه على شؤون المسلمين وتوزيعه الأعمال والامارات بين أهل بيته وأنسبائه مما أثار الخواطر وزاد في حدة النقد[3] . ويحدثنا الطبري ن علياً خاطب عثمان في أمر استعماله أقاربه وفساد هؤلاء الأقارب وتصرفهم بالأمر من دونه ، وضرب مثلاً بمعاوية ، فأجابه عثمان : « هل تعلم أن عمر ولّى معاويةَ خلافته كلها ؟ فقد وليتُه » . فأجابه علي بأن معاوية يتصرف بالأمور دون الرجوع إليك ويقول : « هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تُغَيِّر على معاوية » .[4] ويبدو أن عثمان كان يعرف خشية الناس لعمر وبأسه . حتى أنه قال مرة يخاطب الناس الذين عابوا أفعاله وذكروه بابن الخطاب

---

(١) الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٧ .

(٢) الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٤٠١ .

(٣) انظر ، مثلا ، المصدر السابق ، ص ٣٤٨ .

(٤) انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ .

وطريقته في سياسة الدولة : « ألا والله فقد عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما احببتم أو كرهتم ، ولِنْتُ لكم ، وأوطأت لكم كتفي ، وكففت يدي ولساني عنكم ، فاجترأتم علي » . (١)

ولم تظهر النقمة على عثمان في المدينة فحسب ، بل ظهرت أيضاً في الأمصار التي يقطنها بدو جفاة كانوا قد هاجروا من الجزيرة واستقروا في المراكز الجديدة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ، أو في المدن القديمة العامرة كأجناد سورية ومدن خراسان وغيرها . وقد استقر هؤلاء البدو في هذه المراكز مع أهليهم وأسرهم ، ونقلوا إليها مصالحهم وفعالياتهم ، وغدا ولاؤهم لها لا إلى أقاليم الجزيرة التي انطلقوا منها . وقد استقطبت هذه المراكز السكنية الجديدة الشيء الكثير من الفعالية الاقتصادية للمجتمع العربي آنذاك ، وغدت باستثناء مكة والمدينة محور الفعالية الاقتصادية للدولة العربية الاسلامية الفتية . وتدفقت الأموال على بعض هذه المراكز نتيجة لاشتغال سكانها بالتجارة والأعمال المتعلقة بالجيش من تموين وتسليح وما شابه ، هذا فضلاً عن امتلاك البعض للأرض وإفادة عامتهم من الغنائم التي حصلت لهم بنتيجة اشتراكهم في عمليات الفتوح . وقد أدى هذا الازدهار الاقتصادي للأمصار إلى تخفيف حدة الصدام بين الاسلام كعقيدة ومثل أعلى ، وبين القبلية كأسلوب في الحياة والسلوكية ، هذا الصدام الذي طبع العلاقات بين الدولة المسلمة وبين أتباعها من رجالات القبائل لفترة طويلة من الزمن ولا سيما بعد موت الرسول وتسلم قريش زمام السيادة في الدولة الجديدة . وكانت المشكلة دوماً بين دعاة القبلية ودعاة السلطة المركزية في الحكم هي الدور الضئيل الذي تبقى لرجال القبائل في الدولة بعد أن غدت السلطة من نصيب قريش ومن سار في ركابها من أئمة الدين الجديد . وكان لبدء عصر الفتوح أثر هام في تخفيف حدة التوتر بين الاتجاهين

---

(١) الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

المتصارعين ، وانصرف رجال القبائل إلى حمل السلاح لنشر الدين وإعلاء كلمة الله ، الأمر الذي امتص طاقاتهم وأخمد جذوة الثورة في نفوسهم • وقد ساعد تدفق الغنائم عليهم بنتيجة هذه الفتوح إلى عدم محاسبة الدولة والتدقيق في أعمالها واستقصاء الهنات التي يمكن أن تؤخذ عليها • هذا فضلاً عن وجود أشخاص كأبي بكر وعمر على رأس هذه الدولة ، وما كان لهما من رصيد شخصي ساعد على إخفات الأصوات المعارضة •

ولكن حين مات عمر وآلت الخلافة إلى عثمان وتوقفت الفتوح وقل دخل رجال القبائل من الغنائم وأخذت الشكوى من سياسة الخليفة المسن تظهر في حاضرة حكمه ، انتقلت الأصداء إلى الأمصار وتفجرت الأزمة فيها وأخذت جماعات من قبائل الكوفة ومصر تفد على المدينة لتبدي رأيها صريحاً فيما آل إليه أمر الدولة • ويشعرنا تدفق وفود الأمصار على العاصمة أن هناك توتراً بين هذه الأمصار وبين الحكومة المركزية ، وأنه غدا للأمصار رأي في أمور الدولة لم يكن لها فيما سبق حين كان كل شيء يتم في المدينة ويدبر بمعرفة رجالاتها ، فتقبل به الأمصار وتنصاع لمشيئتها •

وكان أهم العوامل التي فجّرت الأزمة في الأمصار هو توقف الفتوح وما أدى إليه من قلة موارد رجال القبائل من الغنائم واقتصار رزقهم على العطاء • لقد دفعتهم الحال الجديدة إلى التفكر في شؤون الدولة وأوضاعها ، بعد أن كانوا لايبالون بما تفعله بأموال الفيء وريع الأراضي التي تضمها من البلاد المفتوحة • أما الآن فقد شعرت القبائل أنها حرمت من ثمار فتوحاتها ، فالأراضي لم توزع على الفاتحين واعتبرت ملكاً لبيت المال وتركت بيد أصحابها الأول يستغلونها ويؤدون عنها الخراج • وإذا تجاوزنا أمر المال وانتقلنا إلى ميدان السلطة لوجدنا أنّ الأزمة القديمة بين رجال القبائل وقريش قد عادت للظهور سيما وأن رجال القبائل قد شعروا بأهميتهم الآن لما كان لهم من دور بارز في عملية الفتوح•ويلخص فلهاوزن الحالالجديدة

التي نشأت زمن عثمان بقوله :[1] « فكان الخراج الذي يدفعه المغلوبون يجري كله ، مع بقية أنواع دخل الدولة ، إلى بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطي للمحاربين العرب من ذلك سوى أعطيات فرضتها لهم ، فاستولت الحكومة على الأموال التي كانت في الحقيقة من نصيب الجيش • واستطاعت الحكومة بفضل الفتوحات التي تمت على يد الجيش ، والتي هي بحكم القانون ، غنيمة له ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، بل استولت على الخراج الذي يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار للحكومة والاعتماد عليها عن طريق أعطيات كانت الدولة تستطيع أن تمنحها بالمقدار، وإلى المدى ، الذي تشاؤه ، وكانت تستطيع أن تمنعها أيضاً • فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش،أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة• فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الحكومة قد غلبتهم على حقوقهم وعرّتهم من أموالهم وأخذتها لنفسها وأنها تستند إلى الخزانة ، فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم • فزعموا أن المال الذي يجتمع من الخراج ، إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله وتمسكوا بدعوى أن أموال الفيء يجب أن تقسم ، وفي بعض الأحيان نهبوا بيوت المال في الأمصار » •

ولا بد لنا أن نضيف في هذا المجال ، أنه إذا كان توقف الفتوح قد أدى الى سوء حال الأعراب في الأمصار الجديدة وتفكر المقاتلة فيما آلت اليه حالهم ، فان الأرستقراطية القرشية القديمة ممثلة ببعض رجالاتها الكبار الذين كان لهم باع طويل في ميدان التجارة والمعاملات المالية منذ الفترة السابقة للاسلام قد استغلوا فرصة الفتوح وانتقال مركز الثقل المالي للدولة الجديدة من الحجاز الى الأمصار ليعاودوا نشاطهم الاقتصادي القديم وليثروا ثراء وصل حد الفحش ، الأمر الذي أدى إلى قيام فوارق طبقية ضخمة فتحت عيون المحرومين وجعلتهم يجأرون بالشكوى • وسنقدم في هذا المجال

---

(١) يوليوس فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، سلسلة الألف كتاب ، ص ٤١ وما بعدها •

وصفا مأخوذا عن طبقات ابن سعد لثروة شخصين من رجال الارستقراطية المكية القديمة الذين وسعا مجالات عملهما بعد عصر الفتوح ومدّا نشاطهما الاقتصادي على بعض المراكز الجديدة في العراق ومصر • ففي صدد الحديث عن ثروة الزبير بن العوام حين توفي يقول ابن سعد(١) أنه كان يملك : « إحدى عشرة دارا بالمدينة وداريـن بالبصرة ، ودارا بالكوفة ودارا بمصر » • وأن ما كان عليه من ديون يوم توفي : « ألفي ألف ومائتي ألف » • ثم يقدر مجموع ثروته فيقول : « فجميع ما له خمسة وثلاثون ألف ألف ومائتا ألف » وعلى تقدير آخر لراوية ثانٍ : « اقتُسِم ميراث الزبير على أربعين ألف ألف • » • وفي تقدير ثالث : « كانت قيمة ما ترك الزبير احدى وخمسين أو اثنتين وخمسين ألف ألف » • وعن عروة أنه قال : « كان للزبير بمصر خطط ، وبالاسكندرية خطط ، وبالكوفة خطط ، وبالبصرة دور ، وكانت له غُلاّت تقدم عليه ومن أَعراض المدينة • » •

وجاء في نفس المصدر(٢) عن ثروة طلحة بن عبيد الله ما يلي : « كان أبو محمد طلحة يغل كل يوم من العراق ألف درهم ودانقين • وجاء : ••• كان طلحة بن عبيد الله يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف والى خمسمائة ألف ، ويغل بالسراةعشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر•» • وسأل معاوية بن أبي سفيان ابن طلحة موسى بن طلحة عن المبلغ الذي تركه أبوه حين مات فقال: « ترك ألفي ألف درهم ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، وكان ماله قد اغتيل ، كان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة وغيرها • » • وجاء : « كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والأموال •• ثلاثين ألف ألف درهم ، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار ، والباقي عُروض • » • وجاء : « ••• قال عمرو ابن العاص : حُدِّثْتُ أن طلحة بن عبيد الله ترك مائة بُهار في كل بُهار ثلاث قناطر ذهب ، وسمعت أن البُهار جِلْد ثور • » •

---

(١) انظر ، ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ط • دار صادر ودار بيروت ، ج ٣ ، ص ، ١٠٨ ، ١٠٩ ـ ١١٠ •

(٢) ج ٣ ، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ •

ورغم ما قد يكون في هذه الأرقام من مبالغات وبعد عن الدقة ، فانها تظهر تكدس ثروات طائلة في يد هذه الفئة من القرشين الذين كانوا موضع ريبة قديمة بالنسبة لرجالات القبائل • ولم يقتصر الأمر على هذه الفئة فحسب ، بل كانت هناك فئات أخرى أثرت ثراءا غير مشروع منذ زمن عمر ، وأهمها فئة الولاة التي حاسبها عمر حساباً شديداً[1] ، ولم يتعرض لها عثمان بأي حساب على ما جنت يداها من أموال وهبات وهدايا حصلت عليها بسبب المركز الذي كانت تحتله • يضاف الى هذا ما قام به عثمان من توزيع الأراضي والأموال على أهل بيته وأقربائه[2] ، الأمر الذي زاد في عدد الأصوات الثائرة وأضاف الى النقمة والشعور بالفوارق الطبقية عوامل جديدة تبررها • فارتفعت أصوات المعارضة لا من رجالات الأمصار فحسب ، بل من أشخاص عرفوا بتقواهم وصلاحهم كأبي ذر الغفاري الذي رفع الصوت عالياً يدعو الناس الى الزهد وينهي عن اقتناء الأموال ويحض الأغنياء على الخروج عن أموالهم الى الفقراء • ويقول الطبري : « وقام ابو ذر بالشام ، وجعل يقول : يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم • » ويعلق الطبري على أثر دعوة أبي ذر بقوله : « فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك ، وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس • »[3] • وقد اشترك في المعارضة القراء ورجال التقوى في الأمصار •[4] وأخذت جماعات منهم تشترك في التحريض على عثمان الذي ساعدت ساسته المالية على إقامة فوارق طبقية في مجتمع كانت الدعوة الى المساواة أساساً مكيناً من أسسه •

الى جانب هذه الأسباب والعوامل التي أججت نيران المعارضة ، لا بد

---

(١) انظر بعض الامثلة على محاسبة عمر لولاته في : تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ، نشر النسخة المصورة وكتب المقدمة بطرس غرياز نيوريج ، موسكو ١٩٦٧ ، ص ١٤٢ آ ـ ١٤٣ ب •

(٢) انظر مثلا ، الطبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ •

(٣) الطبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٢٨٣ •

(٤) انظر ، الأسباب ، ج ٥ ، ص ٤٤ •

لنا أن نشير الى ظرف طارىء جديد • لم يسبق لـه وجود زمن الخلفـاء السابقين ، وهو نشوء عصبية اقليمية أخذ معها رجالات القبائل الذين نزحوا من الجزيرة واستقروا في المدن الجديدة أو الحواضر المفتوحـة يشعرون بنوع من الاقليمية تشدهم الى مواطنهم الجديدة • وقد أدى هـذا الشعور الى قيام عصبية قبلية إقليمية أخذت معها هذه القبائل تنظر بزهو وفخر الى مواطنها الجديدة وتربط مصالحها بمصالح هذه المواطن • ويصدق هـذا النوع الجديدة من العصبية الذي تمتزج فيه القبلية بالاقليمية على القبائـل التي أقامت في الكوفة كما يصدق على القبائل التي أقامت في الشام • وإذا أضفنا الى هذا الشعور ، عدم نمو فكرة الدولة بالنسبة لهم الى الحد الذي يجعلهم ينصهرون في بوتقة واحدة ويتخلون عن فرديتهم وتكتلاتهم الضيقة، لوجدنا تفسيراً لتمسكهم بعصبتهم الاقليمية الجديدة • وصـادف في الفترة التي كانت تنمو فيها هذه الاقليمية وتتمكن من نفوس رجالات القبائل أن توقفت موجة الفتوح فزاد هذا الحـال في الثغرة بين المدينة وبـين الأقاليم ورجالاتها •

وكان من الممكن أن تواجه المدينة هذه التحركات القبلية بحزم أكبر لو أن قريشاً ، القبيلة التي تمد الدولة بالخلفـاء وكبار المسـؤولين ، كانت موحدة الصف لا تتمزقها الخلافات والمطامع السياسية المتنـافرة • ولكن الخلاف بين الفئات القرشية المختلفة والصراع بين المهاجرين والانصار من ناحية أخرى ، سهل مهمة الناقمين وأوجد المناخ المناسب لثورتهم • وقـد أدت الأسباب المذكورة بمجموعها الى حدوث تحول اجتماعي اتجه بالقبائل شطر الثورة ، التي تهدف الى قلب نظام المجتمع ووضع حد للمتسلط فيه • ويلخص الدكتور عبد العزيز الدوري هذا التحول بقوله : « ••• فالقبائل تحولت من حياة تنقل الى حيـاة استقرار ، ومن الاعتماد على الرعـي الى الاعتماد على العطاء والرزق (مع الغنـائم) ، ومن وحدات منفصلة لها كيان ورأي في أمورها ، الى وحدات اجتماعية في دولة ذات سلطة مركزية تخطط

وتوجه • ورغم مشاركة الكل في الفتوحات ، فان قلة أثرت بالقياس الى عامة القبائل • • » •[1]

والحقيقة التي لا بد من الاشارة اليها في مجال الحديث عن الجانب الاقتصادي من الأزمة التي أطلت برأسها زمن عثمان وحركت القبائل للعمل ضد الخليفة ونظام حكمه ، هي أن عثمان براء من هذا النظام وأن الذي بدأه هو الخليفة عمر بن الخطاب الذي انتزع الفيء من الجيش وجعله للدولة • ولم يكن في عمل عمر هذا بدعة أو مخالفة للأحكام التي وردت في القرآن الكريم والتي كانت تقضي بتوزيع الفيء على النحو التالي: « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ••• » •[2] فكان عمر في ذلك إذن يقتفي خطى الرسول الذي جعل لبيت المال ما يقع في يد المسلمين من غير حرب • وقد استطاع هذا الخليفة أيضاً أن يمنع تقسيم أراضي السواد وأن يدخل ريعها في بيت المال دون أن يحدث عمله ضجة في صفوف المسلمين • ولكن حين جاء عثمان وشعر الناس بلين جانبه تجرأوا عليه ورفعوا أصواتهم بالثورة على أشياء لم يجرأوا وأن يثوروا من أجلها زمن عمر • وقد عرف عثمان هذا فقال مرة لعمرو بن العاص : « والله لو أخذتك بما أخذك به عمر لاستقمت ، ولكني لنت لك فاجترأت علي • • » •

وهكذا اجتمع على بغض عثمان والكيد له أهل الأمصار ووجوه أهل المدينة وكبار صحابة رسول الله من مهاجرين وأنصار ؛ هذا فضلاً عن رجال الجيش وغيرهم من العناصر • وكان علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام على رأس الناقمين على عثمان ، ولكنهم لم يشاؤوا أن يسفروا في عدائهم للخليفة ، أو أن يكتلوا أهل المدينة في ثورة ضده ، بل أرادوا أن تنبع الثورة من الأمصار التي كانت مركز الثقل الحربي والمادي للدولة ، في حين كانت المدينة رمزاً أدبياً أكثر منه واقعياً بالنسبة لقوة

(١) عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٠ •
(٢) سورة الحشر ، الآية ٧ •

الدولة • ويظهر من خبرين يوردهما الطبري [1] أن الصحابة في المدينة كاتبوا زملاءهم الموجودين في الأمصار وحضّوهم على الحضور إلى المدينة للاطاحة بالخليفة عثمان • وقد لاقت هذه الدعوة قبولاً سريعاً عند من كانوا في الأمصار ، ولا سيما في الكوفة التي كانت أكبر مركز للمعارضة ، ومصر التي كانت تعاني أبشع أنواع الجور وسوء الادارة في ظل واليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح •

وبدأت ثورات الأقاليم على عثمان تندلع منذ العام ٣٤ هـ ، ففي أواخر هذا العام قامت ثورة الكوفة بقيادة مالك الأشتر ، وهو من زعماء اليمانية الموالين لعلي ، وقد استطاع مالك وصحبه أن يمنعوا سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان من العودة إليها بعد أن كان في مكة لمقابلة الخليفة • وقد أذعن عثمان لمطالب معارضيه وعزل سعيداً عن ولاية الكوفة وولاها أبا موسى الأشعري « استصلاحاً لأهل الكوفة وإسقاطاً لحجتهم » [2] فهدأت ثورة الكوفيين مؤقتاً •

ولكن ما كادت نفوس الكوفيين تهدأ قليلاً حتى ثارت ثائرة المصريين وتدفقت جموعهم على المدينة • ويبدو أن عزل عثمان لعمرو بن العاص وتعيينه ابن عمه عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وما قام به ابن ابي سرح من أعمال والدور الذي لعبه عمرو بن العاص في التشنيع على عثمان والدعاية

---

(١) يقول الطبري في الخبر الأول نقلا عن الواقدي : « لما كانت سنة ٣٤ هـ كتب أصحاب رسول الله (صلعم) بعضهم الى بعض أن أقدموا ، فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد • وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد ، وأصحاب رسول الله (صلعم) يرون ويسمعون ،ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب الا نفر منهم زيد بن ثابت•••» (طبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٣٦ _ ٣٣٧) • ويقول في الخبر الثاني: «لما رأى الناس ما صنع عثمان كتب مَن بالمدينة من أصحاب النبي (صلعم) الى مَن بالآفاق منهم _ وكانوا قد تفرقوا في الثغور _ : انكم انما خرجتم أن تجاهدوا في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد (صلعم) ، فان دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك ، فهلموا فأقيموا دين محمد (صلعم) • فأقبلوا من كل أفق حتى قتلوه • » • (طبري،ط• ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) • وانظر أيضاً ، الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦٠ •

(٢) انظر . الطبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٣٥ . ٣٣٦ •

ضده ، [١] كانت كلها من بين العوامل التي فجرت ثورة مصر على الخليفة الضعيف • وكان من بين الثوار محمد بن أبي حذيفة ، [٢] ومحمد بن أبي بكر وغيرهما • وقد عابوا على عثمان ما عابه عليه الجميع من لين ومحاباة لأقربائه وتبذير في الأموال ، وأخذت دعوتهم تلاقي قبولاً عند عرب مصر ، حتى تجمع عدد منهم لا يقل عن الخمسمائة وتوجهوا إلى المدينة ، وقدموا مطالبهم للخليفة وهددوه إن هو لم يستجب إليها باستعمال القوة • واضطر عثمان الذي لم تكن له قوة تحميه أن يرضخ لمطالب الثوار المصريين ووعدهم بالعمل على إزالة الأسباب التي أدت إلى شكواهم واقنعهم بالعودة إلى مصر بعد أن اعترف لهم بكل مطالبهم •

ولم يكن الوفد المصري وحده في المسير إلى الحجاز، إذ يذكر البلاذري أن وفوداً تمثل الأمصار الثلاثة : الكوفة والبصرة ومصر قد التقت في العام السابق لقتل عثمان في مكة ، وعقدت مؤتمراً تدارست فيه حال الخلافة وقر رأيهم أن يعود رؤساء الوفود الثلاثة إلى أمصارهم للاتصال بمؤيديهم ، على أن يعودوا في العام التالي « وأن يوافوا عثمان •• في داره فيستعتبوه فان أعتَب وإلا رأو رأيهم فيه » • [٣] ولما حال الحول خرج وفد الكوفة قاصداً المدينة ، كما خرج وفد مصر لنفس الغرض ، وانضم إليهم في المدينة بعض رجالها ومن بينهم عمار بن ياسر ورفاعة بن رافع الأنصاري وغيرهما ، فحصروا عثمان الحصار الأول • [٤]

أما الشام فلم تكن ممثلة في هذه الوفود ، ويبدو أن الكوفيين حاولوا تحريض أهل حمص ولكن مساعيهم لم تأت بنتائج إيجابية • [٥]

---

(١) انظر ، الطبري ، ط • ابو الفضل ابراهيم ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ •

(٢) من أجل القرابة بين محمد بن أبي حذيفة وعثمان وأسباب ثورته ، انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٩٩ ، ٥٤٧ • وانظر أيضا ، الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦١ •

(٣) الأنساب ، ج ٥ ، ص ٥٩ •

(٤) المصدر السابق •

(٥) انظر ، الأنساب ، ج ٥ ، ص ٤٤ •

ويبدو أن الحصار الأول قد رفع عن عثمان بعد أن اعترف لمحاصريه بأنه أخطأ ووعدهم باصلاح الأخطاء . فقبل أغلب المحاصرين أن يعودوا إلى أمصارهم بعد أن وعدهم علي بن أبي طالب باسم عثمان بأن تزال جميع أسباب الشكوى ، وبعد أن كتب لهم عثمان بذلك كتاباً تعهد فيه بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وجاء فيه أن علي بن أبي طالب هو الضمين للمؤمنين على عثمان بالوفاء بما في هذا الكتاب . وشهد عليه في ذلك الزبير وطلحة وغيرهما من كبار الصحابة . وقد أرخ هذا الكتاب في ذي القعدة سنة ٣٥ هـ . (١)

وقد ساعد هذا الكتاب على تهدئة الخواطر وأخذ المصريون يعدون عدتهم للعودة إلى بلدهم . ولكن مروان بن الحكم ، كما تجمع المصادر ، ساءه أن يزداد نفوذ الأمصار ، وأن يخرج الخليفة عن طاعته ويأخذ بنصائح علي وغيره من الصحابة ، فلعب لعبة قذرة بأن زور رسالة على لسان عثمان وأرسلها إلى عامل الخليفة في مصر يأمره فيها بقتل وجلد وحبس المتمردين . (٢) وقد وقع هذا الكتاب في أيدي المصريين ، فعادوا إلى المدينة ليجابهوا الخليفة بهذا الكتاب الذي يناقض ما كان قد قطعه لهم من عهود ، وأنكر عثمان أن يكون له علم بالكتاب وحلف لعلي أنه لم يأمر بكتابته . ولما أبلغ علي المصريين برد عثمان اعتبروا أن جهله بما يصدر باسمه من أوامر لهو جريمة أشد ، وحاصروه وقطعوا عنه الماء والطعام حتى يخلع نفسه ، ولكنه رفض وكتب إلى معاوية وغيره من عماله في الأمصار يطلب النجدة . (٣) ولما بلغ المحاصرين ذلك تَسَوَّروا عليه ودخلوا بيته وقتلوه وهو جالس يقرأ القرآن . ويبدو أنه كان للمصريين الدور الأكبر في الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان ، ولكنهم لم يكونوا وحدهم ، إذ أن البلاذري يذكر أنه كان معهم جماعة من الكوفة تبلغ عدتهم المائتين وعليهم مالك بن

---

(١) انظر نص الكتاب في : الأنساب ، ج ٥ ، ص ٦٤ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

الأشتر النخعي ، وجماعة من البصرة تبلغ عدتهم مائة رجل ، ورئيسهم حكَيْم بن جبلة العبدي .[1] ولم يلعب أهل المدينة دوراً بارزاً في الأحداث المباشرة التي انتهت بمقتل عثمان وخلوا بين المحاصرين وبين ما أرادوا أن يفعلوا ولم يتدخلوا لمنعهم . أما كبار الصحابة فقد خرج بعضهم من المدينة حتى ينفوا عن أنفسهم تهمة التدخل في الفتنة ، ولا تذكر المصادر شيئاً واضحاً وأكيداً عن الدور الذي لعبه علي بن أبي طالب في الساعات القليلة التي سبقت مقتل عثمان وما إذا كان له جهد واضح في سبيل إنقاذ حياة الخليفة المحصور .

وليس مهماً ان نسترسل أكثر من هذا في ذكر التفاصيل والأحداث التي انتهت بمقتل عثمان ، ولكن لابد لنا من المسارعة إلى القول بأن مقتله كان من الخطورة والأهمية بمكان كبير، إذ أنه منذ ذلك الحين أصبح للسيف القول الفصل في تقرير أمر رئاسة شؤون المسلمين ، وفتح باب الفتنة الذي لم يغلق بعد ذلك أبداً ، وانشقت الجماعة الاسلامية شيعاً وأحزاباً ، يحاول كل منها أن يفرض وجهة نظره بقوة السيف . وهكذا يمكننا القول أن مقتل عثمان كان نقطة البدء في الصراع السياسي الذي طبع تاريخ العرب والاسلام بطابعه قروناً طويلة ، وانقسم الناس الى شيع واحزاب ، واستحال صفاؤهم إلى دماء تراق وأرواح تزهق . وشاع سؤال بين الناس وتردد على الأفواه ، فكان الواحد منهم يلقى الآخر فيبادره بالقول : ما قولك في مقتل عثمان ؟! وعلى أساس من الجواب الذي يعطى على هذا السؤال كانت تتحدد الهوية السياسية للمجيب ، وتتعين حزبيته وهواه .

خلافة علي بن أبي طالب والحرب الأهلية :

كان علي بن أبي طالب ، بعد مقتل عثمان وموت أبي بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف من قبل ، أكبر الصحابة سناً وأكثرهم حظاً في

---

(١) الأنساب ، ج ٥ ، ص ٩٧ .

تولي الخلافة ، لأنه اكبر مقاماً من طلحة والزبير ، وكان أثناء الحصار الذي فرض على عثمان هو الذي يؤم الناس في الصلاة ، [1] على أن الذي رأس الحج لذلك العام كان عبد الله بن عباس ، لأن موسم الحج حلّ وعثمان محصور ، فطلب من ابن عباس أن يقوم مقامه في أداء الفريضة بالناس .[2] وقد يستدل من هذا التدبير الذي لجأ اليه عثمان أنه كان يريد أن يبعد علياً عن أية مهمة عامة قد ترشحه لخلافته في المستقبل ، كما أنه قد يستدل منه أيضاً على الود المفقود بين الرجلين ، وليس بمستغرب أن يكون لمروان بن الحكم وغيره من رجالات بني أمية يد في هذا التدبير .

ولا بد من التنويه في هذا المجال بأن علياً كان يتمتع بثقة الأنصار التامة ، حتى أن الطبري يذكر أنه لم يتخلف أحد منهم عن بيعة علي . .[3] كما أن هوى المصريين كان معه ، وكانت خطتهم في التخلص من عثمان تقضي أن يكون الأمر له بعد عثمان . وقد تلقى علي البيعة في نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان ، وفي المصادر خلاف حول الطريقة التي تمت فيها له البيعة ، وعن مدى اجماع الناس على بيعته ، ففي حين تذكر بعض الروايات أن بيعته كانت جماعية شارك فيها الأنصار والمهاجرون وغيرهم من الناس ،[4] كما كان لطلحة والزبير دورا رئيسيا وفعالا ، فيها ،[5] فان بعض الروايات الأخرى تنكر ذلك ولا تقبل الاجماع على بيعة علي ، وتظهر وجود معارضة شديدة له يتزعمها فئة من كبار رجالات المدينة كسعد بن أبي وقاص وابن عمر وصهيب وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وغيرهم ممن لم يبايعه[6] . وكذلك الحال بالنسبة لطلحة والزبير وموقفهما منه ، فكما أن هناك من يظهر حماسهما له وبيعتهما الطوعية . هناك من ينكر هذا الحماس

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ .
(٢) انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٠٥ وما بعدها .
(٣) انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣١ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٢٧ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٢٧ ـ ٤٢٨ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٤٣١ .

ويرفض أنهما بايعا عن طواعية ورضى وانهما إنما بايعا مكرهين .[1] وأغلب الظن أنه لم يكن هناك إجماع على بيعته ، وأن هذه العملية الأولى التي واجه فيها جمهور الناس بينت له أن مهمته لن تكون سهلة وأن طريقه لن تكون مفروشة بالورود .

وكان لا بد له حتى تستكمل سلطته جميع أوجه الشرعية المطلوبة أن يرسل الكتب الى الأقاليم والأمصار يشرح فيها ظروف توليه السلطة ويطلب البيعة من الحكام والناس . وهكذا انتقل الصراع على السلطة من المدينة الى الأقاليم ، وانقسم الناس هناك الى فئات تؤيد الخليفة الجديد ، وفئات تقف منه موقف المعارضة ، وتطرح قضية رئاسة الأمة الاسلامية من وجهات نظر أخرى . وقد زاد الأمر سوءا بالنسبة لعلي أنه بادر ، وبتحريض من الثوار على عثمان ، الى عزل عمّال عثمان ، وتولية أشخاص غيرهم . وقد أذعن جميع عمال الأمصار الى طلب الخليفة الجديد ، ما عدا والي الشام معاوية ابن أبي سفيان ، الذي فتح امتناعه عن الانصياع لأوامر الخليفة المنتخب صفحة دامية من صفحات التاريخ العربي الاسلامي .

ويذكر الطبري في حديثه عن امتناع معاوية عن بيعة علي بن أبي طالب ، أن علياً في مطلع عام ٣٦ هـ فَرَّق عماله على الأمصار ، فبعث عثمان ابن حُنَيْف على البصرة ، وعمارة بن شهاب على الكوفة ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، وقيس بن سعد على مصر ، وسهل بن حُنَيْف على الشام .[2] أما سهل فانه خرج حتى صار بتبوك فلقيته خيل أهل الشام فردوه الى علي . وكان إرجاع سهل أول بادرة شامية برفض سلطة علي ، وتوالت بعد ذلك المراسلات بين علي ومعاوية مما لا مجال للدخول في تفاصيله[3] ، وكل يحاول إثبات وجهة نظره وحقه في الأمر . وكانت نائلة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣١ مثلا والصفحات التالية التي تحوي الكثير من التفاصيل والروايات المتناقضة .

(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٤٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤٣ وما بعدها .

بنت الفرافصة زوج الخليفة المقتول عثمان قد كتبت الى معاوية، كما يذكر أبو مخنف في رواية له ينقلها صاحب الأغاني ، تخبره بمقتل زوجها وأرسلت اليه قميصه الملطخ بالدم، وأنهت كتابها بالآية الكريمة: « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي ، حتى تفيء الى أمر الله، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين • » •[1] أما الطبري[2] ، فيذكر أن النعمان بن بشير هو الذي قدم على معاوية ومعه قميص عثمان الملطخ بالدم وأصابع نائلة المقطوعة ، وأن معاوية وضع القميص على المنبر وكتب بالخبر الى الأجناد ، وأنه ظل مدة سنة كاملة يعرض القميص والأصابع في المسجد حتى يثير نقمة الناس ضد علي • وكأن راوي الخبر في الطبري يريد القارىء أن يفهم بأن نائلة لم تكن هي التي أرسلت القميص •

واتخذ معاوية من قضيته تهاون علي في قصاص قتلة عثمان حجة للخروج عليه وادعى أنه وليه وأنه إنما يعمل بقوله تعالى : «ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل•» ،وأن أهل الشام مجمعون على الأخذ بثأر الخليفة المقتول وأنه إنما ينفذ رغبتهم ورغبة قومه من بني أمية الذين أغضبهم مقتل قريبهم[3] • وقد جرت بين علي ومعاوية مراسلات طويلة في شأن الخلافة، وتحفظ لنا المصادر الكثير من هذه المراسلات وما دار فيها من نقاش بين الرجلين وأحقية كل منهما في قيادة الجماعة الاسلامية•[4] والواقع أنه ليس هناك مايدل على أن معاوية كان عثمانياً مخلصاً في عثمانيته لايهمه إلا الوصول لقتلة عثمان وإنزال العقاب بهم ، ثم ترك أمر الخلافة لشورى الأمة تختار من تريد فينزل هو عند إرادتها • فهذا لم يكن بحال من الأحوال ما فكر به

---

(١) الحجرات ، الآية ٩ • وعن أجل ارسال نائلة قميص عثمان الى معاوية ، انظر الأغاني ، ط • دار الكتب ، ج ١٦ ، ص ٣٢٥ •

(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٢ •

(٣) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٤ ، حيث توجد أبيات من الشعر بعث بها الوليد بن عقبة الى معاوية يحثه فيها على الأخذ بثأر عثمان •

(٤) انظر مثلا الأخبار الطوال ، للدينوري ، ط • عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٤١ •

معاوية ، وإن كان هناك فريق من المؤرخين يرى في موقف معاوية مناورة القصد منها حفاظه على ولاية الشام ،[1] وضم ولاية مصر إليه التي كان لابد له من فرض سيطرته عليها إذا أراد حماية ظهره وتمتين موقفه في الشام • ويضيف هذا الفريق إلى ذلك أن عمرو بن العاص دفعه أيضاً لاتخاذ هذا الموقف طمعاً في استعادة ولايته على مصر التي طرده منها عثمان •[2]

ولم يكن معاوية عدو علي الوحيد ، بل كان له كما ذكرنا ، اكثر من منافس أو حاسد أو عدو • وقد تجمع عدد كبير من الأمويين المعادين لبيعة علي في مكة ،[3] وخرجوا من المدينة هاربين • كما وصل إلى مكة طلحة والزبير اللذين كانا يكيدان لعثمان في حياته ويبديان ميلاً لعلي ، ولكنهما بعد أن صار الأمر له انقلبا عليه واتهماه بأنه كان من المشاركين في التدبير لمقتل عثمان ، وكانت ام المؤمنين السيدة عائشة زوج الرسول قد سبقتهما إليها إذ يقول الطبري أنها كانت مقيمة بمكة تريد عمرة المحرم ، ولما علمت بمقتل عثمان آثرت البقاء في مكة •[4]

وقعة الجمل :

يتطلب البحث في هذه المعركة تحديد واستجلاء بعض النقاط التي لم يلق المؤرخون المحدثون ضوءاً كافياً عليها • فمن هذه الأمور التي لابد من إيضاحها سبب تغير موقف طلحة والزبير من علي وانقلابهما من مناصرين متحمسين له قبل توليته الخلافة إلى خصمين لدودين يخوضان معركة ضارية ضده بعد توليه هذا المنصب • وكذلك موقف السيدة عائشة التي كانت اثناء الثورة على عثمان تتعاطف مع الثائرين وتجد لهم العذر في ثورتهم حتى أنها قالت حين كانت في مكة قبل مقتله ، وقد بلغها أن عثمان

---

(١) انظر ، الأخبار الطوال ، ص ١٤٢ •
(٢) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٩٨ ــ ١٠١ •
(٣) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ •
(٤) المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ •

قتل المصريين الذين جاءوا يطالبونه بالاصلاح : « إنا لله وإنا اليه راجعون • أيقتلُ قوماً جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم » • [1] والذي يزيد الأمر تعقيداً تضارب الرواة والروايات وعدم مقدرة الباحث أن يفصل بنظرة عجلى في هذه التناقضات • وكمثال على هذه التناقضات نذكر أن المصادر بينها من يؤكد بأن طلحة مثلاً كان أول من بايع علياً بالخلافة ، [2] في حين أن مصادر ورواة آخرين يذكرون تردد طلحة والزبير في البيعة وانهما إنما بايعا مكرهين • [3]

ومن أجل الفصل في قضية موقف طلحة والزبير من علي واختلاف هذا الموقف قبل بيعته وبعدها ، لابد أن نعود للتذكير بما أسلفنا من حديث عن أسباب النقمة على عثمان ولا سيما الجانب الاقتصادي من هذه النقمة بسبب توقف الفتوح واستئناف الارستقراطية المكية القديمة نشاطها التجاري ونقلها لهذا النشاط من الحجاز إلى الأمصار حيث أثرى بعض رجالات قريش ثراءاً فاحشاً • وكنا قد ضربنا مثلاً بما حصل عليه كل من طلحة والزبير من أموال ومتاع وعقار وعبيد جعلتهما من كبار رجال رأس المال الذين يهمهم جداً أن تكون أمور الدولة بيد رجل يقبل بأن تسير الأمور على هواهما ووفق مصالحهما • وعلي رجل جد واستقامة ودين ، ويعرفان سلفاً أنه قد يقف حجر عثرة في طريق مصالحهما المادية ، ولو آلت الخلافة لواحد منهما على ماله من سابقة في الاسلام وعضوية في شورى عمر، لضمنا لأنفسهما يسراً في الأمور لن يتحقق لهما في ظل خلافة شخص كعلي • وقد يعترض معترض على هذه الفرضية التي لانقدم ما يؤيدها مما تورده المصادر ، إلا أن بعض النصوص التي يوردها الطبري في تاريخه قد يكون

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٤٩ •

(٢) انظر مثلا : القلقشندي ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ط • الكويت ١٩٦٤ بتحقيق عبد الستار احمد فراج ، ج ٣ ، ص ٣٤١ •

(٣) انظر مثلا ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣١ وما بعدها • وانظر أيضاً ، تاريخ الخلفاء ص ١٢ ب ، وانظر أيضاً الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ ، حيث نقرا « وقال بعضهم : لم يبايعه الزبير » •

فيها ما يساعد على تقبل هذه الفرضية . وفيما يلي هـذه النصوص حسب تسلسل ورودها في تاريخ الطبري :

١ ـ يقول الطبري أثناء حديثه عن موقف عائشـة من فتنـة عثمـان وموقفها منه وكيف تبدل هذا الموقف من المعارضة له في حياته إلى تأييـده والدفاع عنه بعد مقتله، أن عائشة بعد أن أدت عمرة المحرم وعثمان محصور، أرادت العودة من مكة إلى المدينة فبلغها خبر مقتل عثمـان « ... فرجعت (أي عائشة) إلى مكة ... حتى نزلت على باب المسجـد ... واجتمـع الناس أليها فقـالت : يا أيهـا النـاس : إن **الغوغاء** من أهـل الأمصـار **وأهل المياه وعبيد** أهل المدينة اجتمعوا أن عاب **الغوغاء** على هذا المقتـول (أي عثمان) بالأمس الارْب [1] واستعمال مَنْ حَدَثَتْ سنُه ، وقـد استُعمل اسنانهم قبله ، ومواضع من مواضع الحِمى حمـاهـا لهم ، وهي أمور قد سُبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم ، فلما لم يجدوا حجَّةً ولا عذراً خلجوا وبادَوا بالعدوان ونبا فِعْلُهُم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام **واخلوا المال الحرام** ...» [2]

٢ ـ وفي نص آخر حول نفس الموضوع ينقل لنا الطبري عن الشعبي قوله : « خرجت عائشة رضي الله عنها نحو المدينة من مكة بعد مقتل عثمان، فلقيها رجل من أخوالها ، فقالت : ما وراءك ؟ قال : قُتِل عثمان واجتمـع الناس على علي ، **والأمر امر الغوغاء** .. فانصرفت راجعـة إلى مكة ، حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي ، وكان أمير عثمان عليها ، فقال : ما ردَّك يا أم المؤمنين ؟ قالت : ردَّني أن عثمان قتل مظلوما ، وإن الأمـر **لايستقيم ولهذه الغوغاء أمر** فاطلبوا بدم عثمان تُعزّوا الاسلام . » [3]

٣ ـ وفي الحديث عن طلحـة والزبير وموقفهما بعد أن بويـع علي

---

(١) الارب : بالكسر الدهاء كـالاربـة ، ويضم والنكر والخبث والغائلـة والعضـو والعقـل والدين ... (مادة أرب) القاموس المحيط .

(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤٩ .

بالخلافة وخروجهما الى مكة يقول الطبري : « ... ثم قدم عبد الله بن عامر ، ثم قدم يَعْلى بن أمية ، فاتفقا بمكة ، ومع يَعْلى ستمائة بعير وستمائة الف ، فأناخ بالأبطح معسكراً ، وقدم معهما طلحة والزبير ، فلقيا عائشة رضي الله عنها ، فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا : وراءنا أنا تحملنا بقلّيتّنا[1] هُرّاباً من المدينة من **غوغاء وأعراب** ، وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون انفسهم . قالت : فائتمروا أمراً، ثم انهضوا الى هذه **الغوغاء** . . »[2] .

٤ - في الحديث عن النقاش الذي جرى بين عائشة التي كانت تريد من خصوم علي المجتمعين في مكة الخروج لقتاله في المدينة ، وبين طلحة والزبير اللذين كانا يريدانها أن تخرج معهما الى البصرة حيث لهما قوة وجماعة تؤيدانهما يقول الطبري أن عائشة اقتنعت بالتوجه مع طلحة والزبير الى البصرة وأن المنادي نادى بأن عائشة تريد البصرة ، ولكن لم يجتمع لها أكثر من ستمائة بعير ، وحتى يحث المنادي الناس على الانضمام الى عائشة وطلحة والزبير في سيرهم الى البصرة أخذ يقول للناس « إن عائشة تريد البصرة ، وليس في ستمائة بعير ما تُغْنُون به **غوغاء وجَلَبة الأعراب،وعبيداً** قد انتشروا وافترشوا أذرعهم .... »[3]

٥ - يقول الطبري أثناء حديثه عن مسير طلحة والزبير وعائشة من مكة الى البصرة أنهم أثناء مسيرهم بمن خرج معهم من الناس مر الزبير بشخص فسأله هذا الشخص:«....يا أبا عبد الله (يقصد الزبير)،ماهذا ؟قال (أي الزبير) : عُدِيَ على أمير المؤمنين رضى اللّهعنه (يقصد عثمان) فقُتِل بلا تَرةٍ ولا عذر ، قال : ومن ؟ (أي من قتله ؟) قال : **الغوغاءُ من الأمصار ونزّاع القبائل** ، وظاهرهم **الأعراب والعبيد** . » . (٢)

---

(١) ارتحل القوم بقليتهم : أي لم يدعوا وراءهم شيئاً .

(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥٠ .

(٣) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٦١ .

إن هذه الاشارات الى الغوغاء والاعراب والعبيد التي لا نجدها في مصادر أخرى ، جديرة ، بأن تفحص فحصا دقيقا من حيث سلاسل الرواة والمحتوى وأن ينظر فيما إذا كان لها دلالات تلقي ضوء على موقف طلحة والزبير من علي وتوضح التحول الذي طرأ على هذا الموقف •

إن المدقق في الروايات الخمس السابقة يلاحظ أنها جميعا مسبوقة بالعبارة التالية التي يوضح فيها الطبري كيف وصلت اليه : « كتب إلي السري عن شعيب عن سيف ••• الخ » • فالسري ، رأس هؤلاء الرواة تميمي كوفي ، ويصفه صاحب « الجروح والتعديل » بأنه « كان صدوقاً »[1] وقد روى عنه الطبري لا في تاريخه فحسب ، بل في تفسيره أيضا •[2] وكذلك شعيب فهو كوفي أيضا كما يذكر الذهبي في « ميزان الاعتدال » • أما سيف بن عمر[3] ، وهو الأهم في هذه السلسلة من الرواة ، فهو الى جانب كونه كوفي الأصل أيضا ، كان من المهتمين بقضية وقعة الجمل بصورة خاصة إذ أنه ألف كتابا تناول فيه « الفتنة » وخص فيه وقعة الجمل بحديث مستفيض • وسيف الى جانب كونه يقدم في الأساس النظرة ا لعراقية ويستفيد بشكل خاص من روايات قبيلته تميم ، فانه يستفيد من الروايات المدنية في أخباره ويأخذ في بعض الأحيان عن هشام بن عروة وابن اسحاق وغيرهما من رواة المدرسة المدنية • وما دام السري وشعيب وسيف من الكوفة ، وما دام السري وسيف من قبيلة تميم ، فان ابسط ما يمكن أن ينصرف الذهن اليه ، هو أن هذه الروايات تمثل موقف القبائل الكوفية ، وتميم على رأسها ، من وقعة الجمل ، هذا إذا لم نغفل أن الكوفة كانت معقل جماعة علي الذين وقفوا معه ضد البصريين أصحاب طلحة والزبير والمناصرين لهما في وقعة الجمل التي نحن بصدد الحديث عنها •

---

(١) الجرح والتعديل ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٨٥ •

(٢) انظر مثلا ، تفسير الطبري ، ج ١ ، ص ١٢٧ •

(٣) من أجل سيف ، انظر : الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، ط بيروت ١٩٦٠ ، ص ٣٧ •

وإذا تركنا هـذا الاستعراض للرواة وهويـاتهم وميولهم وعدالتهـم وضبطهم جانباً ، وانتقلنا الى مضمون الروايات الخمس لوجدنا أن عائشـة من جهة ، وطلحة والزبير من جهة أخرى يحاولون وصف الثائرين على عثمان بأنهم **غوغاء وعبيد واعراب** ، والغوغاء كما هو معلوم وصف « للسِفْلة من الناس والمتسرعين الى الشر »[1] • وهذا الوصف للثـائرين الى جانب كونه وصفاً غير صحيح ، لأنه كان من بين الثـائرين على عثمـان أشراف وسادة وأبناء صحابة ورجال فضل ودين ،هذا فضلاعن عامة رجالالقبائل في الأمصار وبعض من أهل المدينة ، فانه يمثل في رأينا تشويهاً مقصوداً لطبيعة الثورة والقائمين بها ومحاولة لصبغها بصباغ اللا شرعية • وإذا صح أن الذين أطلقوا على الثائرين هذه الأوصاف هم عائشة من جهة ، وطلحة والزبير من جهة أخرى ، وأن الذين وصلتهم هـذه الأوصاف ونقلوهـا الينـا هم رواة كوفيون ومن رجال القبائل والأمصار التي شاركت في الثورة على عثمان ولم تناصر طلحة والزبير ، فان الأمر قد يحتمل تفسيراً يوضح لنا لماذا أطلق طلحة والزبير هذه الأوصاف على الثائرين • إن طلحة والزبير ، كما أسلفنا في فقرة سابقة ، كانا من رجال الارستقراطية القرشية الذين استفادوا من عصر الفتوح فائدة ضخمة وكدسوا أموالا وثروات طائلة ساهم حكم عثمان المتسامح في تسهيل الحصول عليها وإتاحة الفرص الواسعة لرجـال رأس المال والاعمال لاستغلال نفوذهم السياسي ومواهبهم التجارية في سبيل إثراء اعتبره رجال القبائل أثراءاً غير مشروع لا سيما بعـد أن توقفت الفتوحات وقلّ نصيب المقاتلين وغالبيتهم من رجال القبائل من الغنائم وما أدى اليه كل ذلك من اعتمادهم على العطاء فقط وهو ضئيل إذا ما قورن بما كان يصلهم من أموال الغنائم التي جعلتهم لا يلتفتون الى ما يصيبـه البعض من أمـوال طائلة اعتبروها الآن من حقهم ، ولهم أن يطالبوا بها • وعلي بن أبي طالب الذي استقطب ولاء غالبية الثائرين على عثمان ولا سيما رجال الأمصار من

---

(١) انظر ، اللسان ، مادة « غوغ » •

القبائل ، لا بد آخذ بمطالب الثائرين ومن بينها القضايا الاقتصادية وإثراء البعض على حساب مجموع الأمة . فخلافته خطر على مصالح طلحة والزبير ولا بد من إيجاد وسيلة أو حجة يتستران بها لتبرير ثورتهما عليه ، فكان إعلانهما بأن الثائرين على عثمان **غوغاء وعبيد وأعراب** ، وفي هذا مبرر كاف للانقلاب على علي الذي ناصر هؤلاء الغوغاء والعبيد والأعراب ، وقبل الخلافة منهم ، على حد زعم طلحة والزبير . وفي جلب عائشة الى جانبهما قوة لهما لما لهذه السيدة من مكانة في نفوس المسلمين ولما لها من كلمة مسموعة في نفوس الكثيرين . وإذا أضفنا الى هذا ما كان في نفس عائشة ، من عدم رضى عن علي منذ حديث الافك لوجدنا أن دعوة طلحة والزبير لها قد تجد صدى في نفسها وتستهويها . والذي يعطي بعضاً من قوة لفرضيتنا هذه هو أن أصحاب الروايات الخمس موضوع حديثنا كلهم كوفيون يمثلون وجهة النظر القبلية المعارضة لطلحة والزبير . وإذا جاز أن يتطرق شكنا الى صدق هذه الروايات فلا أقل من أن نعتبرها تمثل وجهة نظر الفريق المعادي لطلحة والزبير ، أو التفسير الذي أطلقه هذا الفريق على لسان هذين الرجلين لتبرير انقلابهما على علي ، وفي ذلك دليل على أن الفريق الكوفي ومن شايعه من رجال القبائل كان لا يجد تبريرا لتحول الرجلين عن ولائهما لعلي سوى ما يكون قد اعتمل في نفسيهما من خوف على مصالحهما الاقتصادية ، فوصفا الثائرين بالغوغاء والأعراب والعبيد ، وفي هذا الوصف ما فيه من حط لقيمة علي لقبوله بالخلافة من فئات كهذه . ويبدو أن طلحة والزبير لم يصلا الى حد إشهار السيف على علي بن بي طالب إلا بعد أن استنفذا كل الأساليب في استبعاده عن الخلافة ، أو تأمين مصالحهما أثناء خلافته ، حتى أنهما فاوضاه قبل مبايعته مكرهين وهربهما الى مكة ومنها الى البصرة ، بأن « يؤمّرهما على الكوفة والبصرة »[1] ، فرفض علي ذلك ، فلما تيقنا بأنه لن يكون لهما أي نصيب في السلطة ، ولن يستطيعا بالتالي حماية مصالحهما

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ .

في هذين المصرين هربا الى مكة ومنها الى البصرة حيث التحما مع الخليفة في معركة حامية كانت نتيجتها وبالا عليهما •

وكما أشرنا في مطلع حديثنا عن وقعة الجمل من أن الحديث عن هذه الوقعة لن يكون بقصد سرد أحداثها واستقصاء تفاصيل خبرها ، بل بقصد استجلاء بعض ما غمض من الظروف والأحداث والمواقف التي أحاطت بها ، الأمر الذي يقتضي منا أن نذكر أن موقف طلحة والزبير من علي لم يكن مفاجأة لكثيرين من المراقبين ، ، فهذا ابن عباس يقول لعلي « ••• إني لا آمن طلحة والزبير أن يكرّا عليك »[1] ، وفي هذا القول دليل على شك كان يخامر شخصاً كابن عباس في نوايا هذين الرجلين • وهناك أمر آخر لا بد من الاشارة اليه ألا وهو أن علياً حين آل الأمر اليه وخلع ولاة عثمان وسرح ولاته الى الأمصار وجاءه رسول معاوية يرفض البيعة ويطالب بالأخذ بـدم عثمان[2] قرر المسير بجيش الى قتال معاوية والقضاء عليه[3] ، وبينا هو يعد العدة لذلك جاءته أخبار خروج طلحة والزبير وعائشة الى البصرة فاضطر لأن يغير وجهته وأن يسير الى قتالهم عوضاً عن المسير الى الشام[4] ويبدو أن أغلب من كان من بني أمية في المدينة حين قامت فتنة عثمان قد هجرها الى مكة بعد مقتله تحسباً وخوفاً ، ولما خرجت عائشة ومعها طلحة والزبير الى البصرة خرج معها مروان وسائر بني أمية في الحجاز إلا نفر قليل[5] ، ابتعد عن الفتنة وتحاشاها • وقد يتبادر الى الذهن سؤال حول مقدار الاتفاق بين طلحة والزبير وما إذا كانا متحدين في غير عدائهما لعلي بن أبي طالب • ويأتينا الجواب ، من قضية اختلافهماعلى إمامةصلوات الجيش المرافق لهمافي مسيرتهما الى البصرة ، وكيف حلت عائشة هذا النزاع بأن أمّرت ابن اختها

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ •
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٤٤ •
(٣) المصدر السابق ، ص ٤٤٥ •
(٤) المصدر السابق ، ص ٤٤٦ •
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٥٤ •

عبد الله بن الزبير حسماً للنزاع حول هذا الأمر بين طلحة والزبير ، فكان عبد الله يصلي بهم حتى قدموا البصرة ، وقد علّق أحد أصحابهما على هذا الأمر بقوله : « والله ، لو ظفرنا لافتتنا ، ما خلّى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلّى طلحة بين الزبير والأمر • » •[١] وفي هذه النبوءة دليل على أن الاتفاق اتفاق مصلحة جمعتهما ضد عدو مشترك هو علي بن أبي طالب ، فاذا ما انتهى امرهما بالفوز عليه فلا بد من نشوب خلاف جديد بينهما •

سار علي بالجيش الذي كان قد أعده كما ذكرنا لقتال معاوية ، ولما وافى ذا قار[٢] ، وكان عدد الذين خرجوا معه من المدينة سبعمائة رجل على حد زعم الطبري[٣] • وفي ذي قار بلغه وصول طلحة والزبير وعائشة وصحبهم الى البصرة ومبايعة أهل البصرة لهم • ولما بلغه ذلك وجّه بعض وجوه صحبه ومعهم ابنه الحسن الى الكوفة ليستنهضوا أهلها ، وقد نجح وفد علي في مهمته في الكوفة وحصل على تأييد واسع حتى بلغ عدد الذين انضووا تحت لواء الخليفة تسعة آلاف وستمائة وخمسين رجلا[٤] ، اجتمعوا إليه في ذي قار وسار بهم حتى نزل « الخُرَيْبَة »[٥] ولم يشأ علي بعد أن عبأ جيشه وقسمه الى كتائب وعقد الألوية والرايات أن يبدأ المعركة مع خصومه، بل أقام كما يذكر الدينوري، « ثلاثة أيام يبعث رسله الى هل البصرة فيدعوهم الى الرجوع الى الطاعة والدخول في الجماعة ، فلم يجد عند القوم اجابة » •[٦] وحاول أن يقيم حواراً مع الزبير بقصد التفاهم ، وعدم اللجوء الى القتال ، ولكن ذهبت محاولته أدراج الرياح، مما اضطره لخوض المعركة يوم الخميس العاشر من جمادي الآخرة سنة ٣٦ هـ • وكانت عائشة في

---

(١) انظر الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ •

(٢) ذي قار ، مكان قريب من البصرة ، وهو المكان الذي جرت فيه المعركة المشهورة بين العرب والفرس •

(٣) الطبري ، ج ٤ ، ص ٤٥٥ •

(٤) انظر ، الاخبار الطوال ، ص ١٤٥ •

(٥) الخريبة محلة من محال البصرة ينسب اليها كثيرون •

(٦) الاخبار الطوال ، ص ١٤٧ •

هودجها أمام البصريين . ولما احتدم القتال ولاح النصر العلي وتزعزعت صفوف البصريين ورأى الزبير أن ميزان المعركة يميــل بشكل واضح الى جانب خصمه دنا من ابنه عبد الله الذي كان يحمل راية البصريين وأبلغه أنه لا جدوى من الاستمرار في القتال وانه قرر الانصراف ، وطلب من ابنه أن يتبعه فأجابه عبد الله ، كما يقول الدينوري : « والله لا أرجع أو يحكم الله بيننا » .[1] فترك الزبير ابنه ومضى نحو البصرة ، ليتحمّل منها ويمضي نحو الحجاز . ويتابع الدينوري حديثه فيقول : « ويقال : إن طلحة لما علم بانصراف الزبير همّ أن ينصرف ، فعلم مروان بن الحكم ما يريده ، فرماه بسهم ، فوقع في رُكْبته ، فنزف حتى مات . » .[2] أما الزبير فقد سار حتى دخل البصرة وأمر غلمانه أن يتحمّلوا وأن يسيروا معــه الى الحجاز . ويقول صاحب الأخبار الطوال أن الأحنف بن قيس الذي كان قد اعتزل الحرب وجلس في فناء داره وحوله قومه رأى الزبير يمر به بطريقــه الى الخُرَيْبة فأرسل في إثــره رجــلا من اتباعه ليستطلع خبره ويتعرف على وجهته ، فسار هذا الرجــل واسمــه عمرو بن جُرْموز في إثر الزبير وحادثه في مر الحرب ، ولما حان وقت صــلاة الظهر ووقف الزبير وعمرو لأدائها « ... وقام الزبير في الصلاة ، فلما سجد حمل عليه عمرو بالسيف فضربه حتى قتله ، وأخذ درعه وسيفه وفرسه »[3] وجاء القاتل علياً بالدرع والسيف والفرس ، فتأثر علي لما حل بالزبير ، وأمر ابنه محمد بن الحنفية بمتابعة قتال البصريين الذين التفوا حول عبد الله بن الزبير الذي آلت إليــه الرئاسة بعد مقتل أبيه وطلحة . وتجمع البصريون حول الجمل الذي كانت تركبه السيدة عائشة واعتبروا الدفاع عنه سبيلهم إلى النصر ، وشدد جماعة علي حملتهم على الجمل بقصد تشتيت شمل البصريين ، وتمكن رجل من

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٨ . من أجل مقتل طلحة انظر أيضاً ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٠٨ و ٥٠٩ .

(٣) الأخبار الطوال ، ص ١٤٨ ، والطبري ، ج ٤ ، ص ٥٠٩ و ٥١٠ .

الكوفة من جماعة علي من ضرب عرقوب الجمل بسيفه فسقط ومال الهودج بعائشة ، فأمر علي محمد بن أبي بكر ، أخا عائشة ، أن يتقدم لانقاذ أختها وتفقدها وليتبين ما إذا كانت أصيبت بأي سوء . وتبين له أن ساعدها أصيب بخدش بسيط ، وأن حالها حسنة ، فأمر بنقلها وانزالها في احدى دور البصرة حتى تتهيأ للسفر إلى المدينة . وأمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يصحبها في رحلتها إلى المدينة وأن يلحق به بعد ذلك في الكوفة .[1] ودخل علي البصرة وجمع أهلها في المسجد وخطب بهم وعنّفهم على موقفهم منه ، وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم . ثم ما لبث أن ولى على البصرة عبد الله بن عباس وانصرف هو إلى الكوفة ، وكان مقدمه إليها يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رجب سنة ست وثلاثين للهجرة .[2] ومن هناك أخذ يرتب شؤونه ويوجه عماله إلى الأقاليم المختلفة . وصارت العراق إلى علي ، وبقيت مشكلة الشام ومعاوية بانتظار الحل .

وهكذا أسفرت وقعة الجمل عن فوز الكوفيين برئاسة علي بن أبي طالب ، ومقتل طلحة والزبير . أما عائشة فقد انسحبت إثر هذه المعركة من المسرح السياسي وعاشت عيشة هادئة حتى ماتت سنة ٥٨ هـ أي بعد ما يقارب السبعة والأربعين عاماً من وفاة الرسول الكريم . وغدت الكوفة حاضرة الخلافة الجديدة ومستقر الخليفة الجديد . وإذا كان لوقعة الجمل من نتائج إلى جانب النصر الذي حققه علي ، فان اهمها هو انتقال مركز الثقل السياسي إلى خارج الجزيرة العربية ، والقضاء على قدسية الخلافة والاجماع الذي كان حتى الآن منعقداً حولها نتيجة للشورى التي كانت طريق الوصول إلى هذا المنصب ، وصار الأمر إلى السيف الذي حل محل الشورى في تقرير اسم الخليفة الجديد . وهكذا وبانتقال مركز الثقل السياسي من وسط الجزيرة العربية إلى أطرافها أصبحت قوة الدولة في الأمصار ، لاسيما بعد

---

(١) من أجل هذه الأحداث ، انظر الاخبار الطوال ، ص ١٤٩ ـ ١٥٢ .
(٢) الأخبار الطوال ، ص ١٥٢ .

أن هاجرت إليها قبائل كثيرة سكنت فيها وقطعت صلتها بالجزيرة • ويلقي البعض باللوم على أهل المدينة انفسهم ويقولون إن اهل المدينة هم الـذين تنازلوا عن المركز الأول الذي كان لهم حين دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم وطلبوا إليهم أن يشتركوا في تقرير مستقبل الأمة السياسي ، بعد أن كـان القول الفصل في هذه الأمور لأهل المدينة عامة وكبار الصحابة خاصة ، وأنه منذ ذلك الحين هبط مستوى المدينة السياسي ، وهبط معها مستوى الجزيرة العربية عامة • وفي هذا القول إغفال لحقيقة هامة ، وهي أنـه بعـد عصر الفتوح وهجرة القبائل إلى الأمصار واتساع رقعة الدولة وتشابك مصـالح الناس ونشأة الحزبية السياسية ، كان من الطبيعي ألا تستطيع المدينة والقلة من الناس الذين ظلوا يسكنونها المسيطرين الوحيدين على تسيير دفة الأمور • وما حدث في وقعة الجمل وما سيحدث بعدها كان نتيجة طبيعية لتغير ظروف الدولة الجديدة •

وقعة صفين :

استطـاع علي من عـاصمتـه الجـديـدة ، الكـوفـة ، أن ينشر سلطانه السياسي على أغلب أقاليم الدولة الاسلامية ما عدا الشام • فقد انتظم له الأمر في العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس الجبل وخراسان وغيرها • وظل معاوية والي الشام لايبايع • ومن أجل موقف علي من معاوية لا بد من أن نذكر أن علياً بعد أن بويع بالخلافة استدعى قيس بن سعد وهو ابن سعد بن عبادة الزعيم الانصاري المعروف وولاه مصر وحمله كتاباً إلى اهلها • يطلب إليهم أن يبايعوا كما بايع غيرهم ، فبـايـع النـاس واستقامت مصر لعلي ، وكان ذلك قبل خروجه إلى أهل الجمل• [1]ويذكر الطبري أن خضوع مصر لعلي قد أغاظ معاوية كثيراً وجعله يشعر بالخطر لقرب مصر من الشام ومخافته أن يلجأ علي إلى خطة الاطباق عليه بجيش يقدم به قيس بن سعد من مصر ، وجيش يقـدم بـه علي من العراق بعـد

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٥٠ •

خضوعها لها ، فيقع بين فكي كماشة قوية لا قبل له بمجابهتها .[1] وأراد معاوية أن يستميل قيساً إليه فكتب له محاولاً استجلابه وممنياً إياه إذا انحاز إليه بأنه سيوليه العراق وسيولي من يشاء من أهله (أهل قيس) الحجاز ، وسينفذ له كل طلب أو أمر . وبعد مراسلات عديدة أظهر قيس فيها ولاءه الأكيد لعلي ووقوفه إلى جانبه دون تحفظ لاعتقاده بأن علياً صاحب الحق في الخلافة [2] ، رأى معاوية أن مناورته مع قيس فاشلة ، فلجأ إلى تشويه موقف قيس ودس جواسيسه في العراق ليوصلوا لعلي أخباراً مشككة في ولائه له [3] ، ويبدو أن خطة معاوية نجحت وتسرب الشك في ولاء قيس إلى نفس علي فعزله عن ولاية مصر وعين عليها بدلاً عنه محمد بن أبي بكر . وقد عرف علي بعد عزله قيساً ، أن قيساً بريء مما دس ضده ، وأنه تسرع في عزله .

ويذكر الطبري [4] أن علياً بعد أن فرغ من أمر الجمل وجه جرير ابن عبد الله البَجَلي إلى معاوية وحمله كتاباً يذكر له فيه أن الناس جميعا بايعوه وأنه لم يبق سواه وأهل الشام من غير بيعة ، وفي هذا خروج على الطاعة والجماعة ، ويهدده في نهاية الكتاب باضطراره إلى قتاله إذا استمر في مخالفته لما أجمع عليه الناس في مختلف الأمصار .[5] ولما وصلت رسالة علي إلى معاوية جمع إليه اشراف أهل بيته واستشارهم في أمره فنصحه أخوه عتبة بن أبي سفيان أن يستعين على أمره بعمرو بن العاص الذي كان مقيماً بضيعة له في فلسطين وقد اعتزل الفتنة ، فكتب معاوية الى عمرو يدعوه إليه ليستشيره فيما آل إليه من حال .[6] ولبى عمرو دعوة معاوية وجاء إليه وبعد مساومات طويلة بين الاثنين وافق عمرو على الانضمام إلى معاوية في صراعه مع علي على أن تكون لعمرو مصر طعمة ما دامت لمعاوية

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٥٠ .

(٢) من أجل هذه المراسلات ، انظر الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٥٠ — ٥٥٥ .

(٣) الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٥٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٦١ .

(٥) انظر نص الكتاب ، في الأخبار الطوال ، ص ١٥٧ .

(٦) الأخبار الطوال ، ص ١٥٧ .

ولاية . [1] وتتحدث المصادر عن المراسلات التي جرت بين علي من جهة ، وكل من معاوية وعمرو بن العاص من جهة أخرى والتي حاول فيها علي أن يثبت لخصميه احقيته في الخلافة وأهمية عدم خروجهما عما أجمع عليه الناس . [2] ولم تؤد هذه المراسلات إلى أية نتيجة ، وظل معاوية في الشام لايبايع ولا يقر بخلافة علي ويسانده في هذا الموقف عمرو بن العاص للأسباب التي أشرنا إليها آنفاً .

وتأهب معاوية للقاء علي ، وأعد العدة لهذا اللقاء بأن سعى إلى تحسين علاقته بالبيزنطيين فرد أسراهم وعقد معهم صلحاً مخافة أن ينتهزوا فرصة الحرب المتوقعة بينه وبين علي فيهاجموا الشام . [3] ويذكر ڤلهاوزن أن معاوية وعمرو توجها إلى مصر قبل صفين و « نجحا في استدراج محمد بن أبي حذيفة والي مصر من قبل علي ، حتى أخذاه أسيراً ، ولكنهما اضطرا إلى الرجوع لكي يتوجها إلى قتال علي نفسه » . [4] ويذكر كمصدر لمعلوماته الجزء الأول من تاريخ الطبري ، ص ٣٢٥٢ فما بعدها ، و ، ص ٣٤٠٧ فما بعدها (طبعة دوخوية) ، ومن الرجوع الى الصفحات المذكورة من طبعة (دوخويه) من تاريخ الطبري لا نجد ما يؤيد ادعاء ڤلهاوزن هذا ، ففي الصفحة ٣٢٥٢ وما بعدها ينقل الطبري نبوءة سمعها عمرو من حَبْر لقيه في عُمان وذلك اثناء وجوده هناك في مهمة أرسله فيها الرسول ،وفي الصفحة ٣٤٠٧ يتحدث عن مقتل محمد بن أبي بكر والي علي على مصر على يد عمرو بن العاص وذلك في صفر سنة ٣٨ هـ أي قبل التحكيم بأشهر قليلة لان التحكيم جرى في شعبان من نفس العام . وأما عن قضية مقتل أو أسر محمد بن حذيفة فيذكر الطبري في نفس الصفحة (٣٤٠٧) واثناء حديثه عن أحداث عام ٣٨ هـ أنه في هذا العام (أي

---

(١) من أجل هذه المساومات بين عمرو ومعاوية ، انظر ، الأخبار الطوال ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

(٢) من أجل هذه المراسلات ، انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦١ ـ ٥٦٢ ، والأخبار الطوال ، ص ١٦٢ ـ ١٦٤ .

(٣) من أجل موضوع السلم بين معاوية وبيزنطة ، انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ط . ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٦

(٤) تاريخ الدولة العربية ، ترجمة أبو ريدة ، ط . القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧٢ .

٣٨ هـ) قتل محمد بن أبي حذيفة ويقول « اختلف أهل السير في وقت مقتله. فقال الواقدي : قتل في سنة ٣٦ .... وذاك قبل أن يبعث علي الى مصر قيس بن سعد . وأما هشام بن محمد الكلبي فانه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قُتِل محمد بن أبي بكر ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها (أي العام ٣٨ هـ) ...» ، ورواية الكلبي أقرب إلى الصحة وسياقها أقرب إلى الواقع لأن محمد بن أبي حذيفة لم يكن والي مصر من قبل علي ، بل كان من الذين حرضوا المصريين على الخروج الى المدينة لحصار عثمان، ولما ساروا الى عثمان وحصروه وثب على عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح عامل عثمان على مصر وطرده منها وصلى هو بالناس، ثم لما قتل عثمان وبايع الناس علياً عين قيس بن سعد ، فكان أول والٍ لعلي على مصر وذلك سنة ٣٦ هـ .[1] ويعلق الطبري على رواية هشام بن محمد الكلبي ويقول : « قال أبو جعفر (أي الطبري نفسه) : فخبر هشام هذا يدل على أن قيس بن سعد ولي مصر ومحمد بن أبي حذيفة حي».[2] وهذه القرائن والروايات جميعاً تنفي ادعاء فلهاوزن من أن معاوية وعمرو بن العاص قد توجها الى مصر لاخضاعها لنفوذهما قبل صفين، وأنهما أسرا أو قتلا محمد بن حذيفة الذي يسميه فلهاوزن « والي مصر من قبل علي » ، هذا فضلا عن أن محمد بن أبي حذيفة لم يكن والي علي على مصر ، وأن هذه الأحداث جميعاً جرت قبيل وقعة الجمل أي في الوقت الذي لم يكن فيه عمرو قد انضم الى معاوية أو قام بينهما أي تحالف .

بعد هذا التصحيح الذي وجدنا أننا مضطرين للدخول في تفاصيله لاعتماد رأي فلهاوزن من قبل بعض المصادر الحديثة دونما تمحيص أو تدقيق ، نعود لمتابعة الحديث عن موقف علي بن أبي طالب الذي بعد أن دانت له العراق وحاول استجلاب معاوية وعمرو الى الجماعة دونما جدوى ، استكمل عدته وأمر مناديه أن ينادي بالخروج الى المعسكر بالنُخَيْلة[3] .

---

(١) انظر الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٧ .
(٣) النُخَيْلة موضع بالبادية قرب الكوفة على سمت الشام .

وخرج الناس واستخلف على الكوفة ابا مسعود الأنصاري [١] وخرج هو وأقام بالنخيلة معسكراً وكتب الى عماله بالقدوم عليه • [٢] ولما اكتملت كتائبه وبلغ عدد رجاله أكثر من ثمانين ألف مقاتل على ما يزعم الدينوري ، [٣] سار حتى نزل نهر البليخ [٤] ، فأقام ثلاثة أيام ، نصب أثناءها جسرا على النهر ليعبر عليه جنده ، وتقدمت طلائع جيشه حتى انتهت الى مكان يعرف ب « سور الروم » حيث التقت بطلائع جيش الشام ، ولم يحدث قتال طويل بين طلائع الجيشين ، وعاد كل قائد بفصيلته الى حيث يعسكر جيشه • وكان معاوية وعمر بن العاص قد وصلا برجالهما الى صفين [٥] ، وسبق معاوية علياً في الوصول الى هذا الموضع وعسكر في موضع سهل قريب من شريعة ماء على الفرات لم يكن في ذلك الموضع اسهل منها لمن يريد ان يستقي • اما علي وجيشه فقد حيل بينهم وبين الماء • وقد طلب علي من معاويـة أن يخلي بينه وبين الماء بالحسنى ولكن معاوية رفض فتمكن جيش علي من ان يغلبهم على الماء ، وحين أراد جيشه منع جند معاوية من الشرب كما فعلوا معهم سابقا رفض علي وأمر جيشه أن يخلو بين الشوام والماء • [٦] وقد بعث علي بعد هذا الى معاوية يدعوه الى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين ولكن معاوية رفض • وطالت المراسلة بينهما واتفقوا على الموادعة الى آخر شهر محرم من عام ٣٧ هـ • وفي أول صفر مـن عام ٣٧ هـ عبأ علي جيشه وخرج للقاء الشوام فاقتتلوا سائر اليوم • واستمر القتال بينهم بضعة أيام قتل فيها خلق كثير من الجانبين ، ولاح النصر في نهاية القتـال لعلي وصحبـه فتفتق ذهن عمرو بن العاص عن حيلة ينهي بها القتـــال فأشار على الناس قائلا : ايها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه • فكثر في جيش

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١٦٥ •

(٢) المصدر السابق ، ص ١٦٥ •

(٣) الأخبار الطوال ، ص ١٦٦ •

(٤) البليخ نهر بالرقة •

(٥) يذكر الدينوري أن صفين هي قرية خراب من بناء الروم وأنها قريبة جدا من نهر الفرات ، انظر ، الاخبار الطوال ، ص ١٦٧ •

(٦) من أجل تفاصيل موقعة صفين ، انظر : الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٦٩ وما بعدها ، والاخبار الطوال ، ص ١٦٧ وما بعدها •

الشوام رفع المصاحف حتى بلغ على زعم بعض الرواة خمسمائة مصحف ، ونادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لجهاد الروم ، ومن للترك ، ومن للكفار ؟؟ فلما رأى بعض أهل العراق ذلك قالوا نجيب الى كتاب الله وننيب اليه ، وحاول علي ان يثنيهم عن موقفهم وقال : « ... وما رفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة ، فقالوا له : انه ما يسعنا ان ندعى لكتاب الله فنأبى أن نقبله ، فقال : ويحكم ، انما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب ، فقد عصوا الله فيما أمرهم ونبذوا كتابه ، فامضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في قتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص .. وعدداً غير هؤلاء ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، وأنا أعرف بهم منكم .. » . ولكن هذا الكلام لم يوقف حدة الجدل فاقترح الاشعث بن قيس ان يذهب الى معاوية وان يسأله ما يريد ، فقبل علي وذهب الاشعث الى معاوية فسأله فقال له معاوية : نرجع نحن وأنتم الى كتاب الله والى ما أمر به في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق ان يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه ، وننقاد جميعا الى ما اتفقا عليه من حكم الله . وراقت الفكرة للأشعث ونقلها لعلي واقترح ان يكون ابو موسى الاشعري ممثل العراقيين في التحكيم المقترح .ولكن علياً حاول جهده حين عرف ان مرشح الشوام هو عمرو بن العاص ان يقنع جماعته بأن يكون ممثلهم عبد الله بن عباس ولكنهم رفضوا بحجة انه مضري ، وعمرو بن العاص مضري ولا يريدون ان يحكم فيهم مضريان . واضطر علي أن يرضخ لمشيئة جماعته وقبل بأبي موسى الأشعري ، وتقرر أن يكون موعد صدور حكم المحكمين في رمضان التالي في مكان يقع بين الشام والعراق .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ما جاء عن موقعة صفين عند الطبري مأخوذ في غالبيته من رواة المدرسة العراقية (أبو مخنف وسواه) ، ويشكل في مجموعه حكاية طويلة جداً يتخللها اضطراب واضح في بعض الروايات وإغراق في تفاصيل المبارزات الفردية والأحداث الصغيرة الجانبية ، الأمر

الذي يجعل استخلاص صورة دقيقة لما جرى مشكلة عسيرة الحـل ، ولا يستطيع الباحث أن يكون منها وحدة منسجمة الأجزاء متسقة التسلسل .
أمّا الدينوري ، فرغم أنه يذكر أدق التفاصيل نراه لا يدخل في متاهـة الروايات المتعددة ويعطي القارىء صورة أقرب الى ما هو مقبول ومفهوم . وهو في بعض أخباره يتفق وما جاء على لسان سيف بن عمر من روايات في الطبري . ويبدو أن السبب الذي جعل أخبار الطبري على النحو الذي ذكرنا هو أنه يأخذ من رواة ينتسبون الى قبائل عدة ، وكان كل راوٍ يحاول أن يجعل من أخبار قبيلته والدور الذي لعبته مركز الثقل في المعركة . لذا كثرت عند الطبري مثلا أخبار المبارزات والبطولات الفردية التي قام بها أشخاص بعينهم دون غـيرهم يحاول الـراوي ان يبرز أهمية الدور الذي لعبـوه في وتظل أخبار المعركة كما وصلتنا ، سواء عن الطبري أو عن غيره من المؤلفين، ممثلة لوجهة النظر العراقية، ولم يصلنا وصف للمعركة وأخبارها من الجانب الشامي . وطبيعي أن تكون الصورة التي رسمناها للمعركة صورة غير كاملة لأنا أخذناها من جانب واحد ولم نستمع الى رواية الطرف الآخر الذي يمثل معاوية وأهل الشام . وكدليل على أن لأهل الشام على ما يبدو رأياً آخـر في تفاصيل المعركة ، يمكننا أن ننقل ما يذكـره المؤرخ البيزنطي ثيوفانس حول قضية القتال من أجل الماء التي جرت قبل المعركة . يقول ثيوفانس : « إن من كان مع معاوية تغلبوا واستولوا على الماء ، ومن كان مع علي تركوا القتال وفروا بسبب العطش . على أن معاوية لم يكن يريد أن يقاتل لكنـه أحرز النصر بدون مشقة . »[1] . وغير خاف أن مصدر معلومات ثيوفانس هذه هو أهل الشام لأنه بيزنطـي ، وألف موسوعته التاريخية بـين سنتي ٨١٠ ــ ٨١٤ م أي قبل الطبري بقرن من الزمن تقريباً [2] ، وبعد مالا يزيد بأكثر من ستين سنة على قيام دولة بني العباس ، فهو إذن أقرب الى زمن الحادث من الطبري .

---

(١) النص منقول عن فلهاوزن ــ تاريخ الدولة العربية ، ص ٧٧

(٢) توفي الطبري سنة ٣١٠ هـ/٩٢٢ م .

ولا بد من التذكير في نهاية هذا الحديث عن موقعة صفين أنه قد وقر في أذهان الكثيرين أن جيش علي قد استقطب جميع أبناء الصحابة والقراء ورجال الدين ، وأن جيش معاوية كان لا يضم إلا أهل الشام ومن كانوا يؤثرون الدنيا على الآخرة ، وهذه ناحية لا بد من تصحيحها • فالبخاري يذكر مثلا أن أخا علي ، عقيل بن أبي طالب كان يحارب في صفوف أعدائه[1] ، كما أن الدينوري يذكر أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب لحق بمعاوية[2] وأن معاوية جعله على ميمنة جيشه الذي قاتل به في صفين[3] • هذا فضلا عما يذكره أبو مخنف من وجود أربعة آلاف من القراء في جانب أهل الشام •

التحكيم والخوارج والنهروان :

بعد توقف القتال والاتفاق على التحكيم[4] وقعت الفتنة في جيش علي وانقسم الناس الى شيع واحزاب في أمر التحكيم والقبول به أو رفضه ، وتطور الجدل الى تضارب القوم بالمقارع والسيوف ولوم بعضهم بعضاً ولوم علي لقبوله به رغم أنه لم يوقف القتال الا مضطرا وتحت ضغط رجاله • وأمر علي جيشه بالمسير نحو الكوفة كما سار معاوية بجيشه الى الشام • وفي الكوفة خرج اثنا عشر ألف رجل من القراء وغيرهم من جيش علي وعسكروا في حروراء (قرية من قرى الكوفة) ، وكان شعارهم : لا حكم الا لله : وكان رؤساء هذه الجماعة المنشقة شبث بن ربعي الرياحي وعبد الله بن الكواء اليشكري ويزيد بن قيس الأرحبي وهم من زعماء تميم وبكر وهمدان وغيرها من قبائل الكوفة • وقد خرج علي الى المنشقين وجادلهم في رأيهم واقنعهم بالعودة الى صفه فاقتنعوا ودخلوا معه الكوفة وانضموا اليه • وقد سميت هذه الجماعة الاولى باسم الحرورية لاجتماعهم في حروراء •

---

(١) البخاري ، ط • بولاق ١٢٨٩ هـ ، ج ٢ ، ص ٦٧ وما بعدها ، و ص ١٣٩ ، ١٤٥ ، و ج ٣ ، ص ١١ •

(٢) الأخبار الطوال ، ص ١٦١ •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٢ •

(٤) من أجل أخبار التحكيم والروايات المتعلقة به أنظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٦٤ ـ ٩٣ ، والأخبار الطوال ، ص ١٨٩ ـ ٢٠٢ •

ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا عهدهم وعادوا للعصيان بحجة ان علياً وعدهم أن يسير بهم دون ابطاء لمحاربة أهل الشام ، فلما لم يفعل وأرسل أبا موسى الاشعري لحضور جلسة التحكيم اعتبروا انفسهم في حل من طاعته وخرجوا عليه من جديد وانتخبوا خليفة من بينهم هو عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي وبايعوه في العاشر من شوال سنة ٣٧ هـ . وكان العصاة قد بدأوا يتسللون من الكوفة ويتجمعوا في النهروان (موقع على الضفة الاخرى من دجلة من أعمال المدائن) حيث سيلقاهم الخليفة علي بن ابي طالب في معركة النهروان المشهورة . وهكذا نشأت النواة الاولى لفرقة الخوارج التي ستظل الشوكة الكبيرة في حلق الدولة العربية الاسلامية طوال حكم علي بن ابي طالب والدولة الاموية من بعده ، ولن ينجو العباسيون من شرورهم وستظل فلولهم حتى يومنا هذا .

وهناك اضطراب في الروايات التي ينقلها الطبري والتي تتعلق بزمان ومكان التحكيم والنهروان . ومما لا شك فيه ان النهروان وقعت بعد التحكيم ولذلك لا يصح لنا ان نقبل رواية ابي مخنف الواردة في الطبري والتي تنص على أن وقعة النهروان قد حدثت في الشهرين الاخيرين من عام ٣٧ هـ . وقد اعترض الطبري نفسه على هذا التاريخ[١] ، ويؤيد هذا الاعتراض ما ورد في كتاب انساب الاشراف للبلاذري[٢] من ان المعركة كانت يوم ٩ صفر سنة ٣٨ هـ ، وكتاب مروج الذهب للمسعودي[٣] وغير ذلك من الكتب والمصادر التي تجمع على أن المعركة جرت سنة ٣٨ هـ وتخلف في اليوم والشهر . وأغلب الظن أن اجتماع المحكمين قد جرى في اوائل عام ٣٨ هـ . ولا يقتصر اضطراب الروايات على موعد انعقاد اجتماع المحكمين بل يتعداه ايضا الى مكان الاجتماع . فقد كان الاتفاق ان يلتقي الحكمان في دومة الجندل واذا طرأ ما يمنع ذلك ففي أذرح . وقد جرت عادة المؤرخين المتأخرين على ذكر دومة الجندل كمكان لاجتماع المحكمين في حين أن

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٩١ .
(٢) انظر ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٨٢ .
(٣) مروج الذهب ، ط ، محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٢ ، ص ٤١٥ .

الواقدي وأبي معشر والزهري يذكرون أذرح . ونحن وان كنا لانملك الرأي الفصل في هذه القضية الا انا نميل الى الاعتقاد بان اجتماع المحكمين تم في أذرح وذلك لاسباب اهمها الثقة التي يتمتع بها القائلون بأذرح (وعلى راسهم الزهري وهو من اقدم الرواة المدنيين) ولأن ابا مخنف يذكر في بعض رواياته دومة الجندل وأذرح معا كأنهما شيء واحد أو مكان واحد لافرق بينهما[1] .

ويذكر أبو مخنف ان علياً بعث الى مكان الاجتماع الى جانب ابي موسى الاشعري باربعمائة رجل عليهم شُرَيْح بن هانيء الحارثي ، كما بعث معهم عبد الله بن عباس ليرأسهم في الصلاة . وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمائة رجل كما حضر التحكيم الكثير من صحابة النبي كعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهما من المهتمين بالشؤون السياسية لهذه الفترة . وبعد نقاش طويل اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين يختار المسلمون لانفسهم من ارادوا . والمقصود بالشورى بين المسلمين هنا لا شورى عامة تضم الجماعة الاسلامية بكاملها بل شورى خاصة تتمثل فيها رؤوس الجماعة الاسلامية كالشورى التي ألفها عمر بن الخطاب وانتخبت عثمان . وتقدم ابو موسى لكبر سنه على عمرو بن العاص وأعلن للناس انه قر رأيه ورأى عمرو على أمر يرجوان ان يصلح به الله أمر هذه الأمة . عندئذ قال عمرو : صدْقٌ وبرٌّ يا أبا موسى ، تقدم فتكلم . فتقدم ابو موسى فأراد عبد الله بن عباس ان يمنعه من الكلام قبل عمرو خشية الغدر من جانب عمرو ، ولكن أبا موسى تقدم وقال انه اتفق مع عمرو على خلع علي ومعاوية لتستقبل هذه الأمة أمرها فيولوا منهم من أحبوا ، وأعلن انه خلع عليا ومعاوية ليولي الناس من يريدونه . وقام عمرو بعد ابي موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ان هذا قد قال ما سمعتم ، وخلع صاحبه ، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي

---

(1) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٦٧ حيث يقول ابو مخنف : « ... وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمائة من أهل الشام ، حتى توافوا **بدومة الجندل بأذرح** ... » .

معاوية فانه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . وقد أحدث كلام عمرو هرجا بين الناس وقام احد انصار علي وهو شريح بن هانيء فضرب عمروا بالسوط ، وقام الخلاف والتلاسن بين الناس بعد ذلك وركب ابو موسى وتوجه الى مكة هربا من أهل الشام وأهل العراق معا ، وانصرف عمرو وأهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة . وهكذا وقع ابو موسى ، كما توقع علي بن ابي طالب ، في شراك الخديعة التي نصبها له عمرو بن العاص لأن معاوية لم يكن خليفة بعد ليخلع أو يثبت وكان الخلع أو الاثبات لايصيب في الواقع الا علياً وحده لانه هو الخليفة المنتخب . لذلك وجد علي نفسه مضطرا لرفض حكم الحكمين . وقبل أن ننهي هذه الفقرة من بحثنا لا بد لنا من الاشارة الى الروايات الكثيرة حول موضوع التحكيم وتناقضها في كثير من التفاصيل ، كما لا بد لنا من التنبيه الى ان الروايات المتداولة حول الموضوع أكثرها لرواة من المدرسة العراقية ـ الا رواية الشعبي الناقصة ـ وطبيعي ان نقف من هذه الروايات موقف المتحفظ للعداء الشديد بين الشوام وأهل العراق .

وبعد أن انتهى التحكيم على هذا النحو الغادر شعر علي ان له الحق في أن يستأنف القتال مع أهل الشام فجمع جشه في معسكر النخيلة ودعا فئة الخوارج التي كانت قد تجمعت في النهروان للانضمام اليه في مسيرة لحرب الشوام ، ولكن الخوارج رفضوا الاستجابة لدعوته وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله بالتحكيم في صفين وأن يتوب كأي كافر . وقد أراد علي أن يدعهم ويسير لقتال أهل الشام أول الأمر ولكن الخوارج الذين ولوا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وتجمعوا في النهروان قرب المدائن قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت وهو ابن أحد الصحابة ذوي السابقة في الاسلام وكان عامل علي على المدائن ، كما قتلوا امرأته وبقروا بطنها وكانت حاملا وقتلوا غيرها من النساء والرجال . وقد استاء اتباع علي لاعمال الخوارج هذه وألحوا عليه أن يسير لحربهم فاضطر لأن يذعن سيما وانه حاول عبثا اقناع

الخوارج ان يسلموه القتلة أو أن يعودوا الى طريق الحق واجماع الأمة فرفضوا .

سار علي في صفر من عام ٣٨ هـ الى النهروان وبعث الى الخوارج رسولا يدعوهم الى الاستسلام فقتلوه ، فلم يسر بدا من قتالهم ، ويقول المسعودي : « ... وكان جملة من قتل من اصحاب علي تسعة ، ولم يفلت من الخوارج إلا عشرة ، وأتى علي على القوم وهم أربعة آلاف . » [1] . ورغم مافي هذه الروايه من مبالغة فان الواقع أن قسماً كبيراً من جند الخوارج قد قتلوا او فروا من المعركة أو دخلوا الكوفة واظهروا الخضوع لعلي . وحاول علي بعد معركة النهروان ان يستحث جنوده للسير لقتال الشوام ولكنهم اظهروا تبرمهم بالقتال واخذوا يهربون من معسكر علي بالنخيلة ويلحقون باوطانهم فلم يبق معه الا نفر يسير مما اضطره للعدول عن المسير لحرب الشوام والالتفات لقمع بعض الفتن التي قامت عليه وأهمها فتنة الخرّيت بن راشد .

فتنة الخرّيت بن راشد[2] :

كان الخريت بن راشد وهو من قبيلة ناجية قد انضم الى علي في الكوفة بعد موقعة الجمل ومعه ثلاثمائة من قومه . وحارب معه في موقعة صفين والنهروان ، ولما رفض علي الانصياع لحكم المحكمين خرج الخريت عليه وسار بقومه واصحابه الى الأهواز حيث انضم اليه بعض الأعراب وعلوج وأكراد من أهل الاهواز كانوا يريدون التخلص من دفع الخراج . فسيّر اليهم علي جيشا من أهل الكوفة تحت قيادة معقل بن قيس التميمي فغلبهم عند رامهرمز ، وهرب الخريب الى بلاده في البحرين وأخذ يجمع

---

(١) مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٤١٧ .

(٢) من أجل فتنة الخريت ، انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ١١٣ وما بعدها .

حوله قومه من بني ناجية الذين كانوا قد امتنعوا منذ عام ٣٧ هـ عن دفـــع الزكاة ، كما أخذ يحرض قبائل عبد القيس ومن والاهم من القبائل ويؤلبهم على علي • وكان يظهر لكل فريق من الناقمين على علي انه معهم ومن رأيهم، فاذا اجتمع بخوارج اظهر لهم انه من رأيهم واذا اجتمع مع آخرين قال لهم انه ما كان ينبغي لعلي ان يرفض حكم المحكمين بعد ان قبل مبدأ التحكيم واختار ممثلا عنه ، واذا اجتمع مع الذين رفضوا دفع الزكاة قال لهم شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وأوصاهم أن يدفعوها لفقرائهم لا الى بيت المال • كما انضم اليه جماعة من العرب النصارى الذيـــن كانوا أسلموا وارتـــدوا الى النصرانية بعد ذلك لما رأوا الخلاف بين أفراد الجماعة الاسلامية وما يراق من دماء بينهم ، وذلك لانه وسوس لهم أن علياً سيضرب أعناقهم لارتدادهم عن الاسلام • وقد تبع معقل بن قيس الخريت الى البحرين بعد أن هزمه في رامهرمز وقاتله قتالا شديدا • وقد صمدت قبائل بني ناجية في وجه معقـــل أول الأمر ، ولكنه حين تمكن من قتل الخريت وبعض كبار رجاله تفرق أصحابه وانتهت فتنته •

نهاية علي بن ابي طالب :

اذا أردنا ان نحدد بداية النهاية بالنسبة لسيادة علي بن ابي طالب وقوته لوجدنا أن معركة صفين كانت نقطة التحول الهامة التي انقلب من بعدهـا ميزان القوى لصالح خصمه معاوية • فبعد هذه المعركة انشق الخوارج عنه وأعلنوا عليه الحرب ، وتثاقل أهل البصرة والكوفة عن نصرته وملّوا حمل السلاح ، وأخذت روح العصيان تسري الى الاطراف فامتنع أهل البحرين عام ٣٧ هـ عن دفـــع الخراج والزكاة وتمردت بعض الولايات في فارس وحاولت ان تستقل عن الحكومة المركزية وان تمتنع عن دفع الضرائب وان

تطرد من كان يليها من العمال[1] . وكانت أقسى الضربات التي نزلت وزعزعت سلطان الخليفة علي بن ابي طالب سقوط مصر بيد عمرو بن العاص وانسلاخها عن الخلافة في الكوفة وتبعيتها لمعاوية في الشام[2] . وقد ساعد كل هذا ولاسيما احتلال معاوية بن سفيان مصر على التفرغ وتركيز الجهود للاجهاز على علي في العراق . ومما سهل هذه العملية بالنسبة لمعاوية انه تمكن حوالي سنة ٣٨ هـ أو السنة التي تليها من ان يعقد معاهدة عدم اعتداء مع الامبراطور البيزنطي كونستانس مقابل اتاوة سنوية يدفعها معاويه فيتفرغ لحل مشاكله الداخلية .[3]

ويبدو ان ظروف معاوية لم تكن تسمح له بعد بمهاجمة علي دفعة واحدة والاشتباك معه بمعركة كبيرة لذلك نراه اعتبارا من العام ٣٨ هـ يرسل الرجال سرا الى العراق في محاولة لتحريض القبائل على الثورة على الخليفة علي بن أبي طالب ، أو يرسل جيوشا صغيرة تقوم بالغارات على بعض المناطق العراقية وتشتبك في مواقع محدودة مع انصار الخليفة وتعود بما وقع في ايديها من غنائم . ومن هذا النوع من جيوش الاغارة التي وجهها معاوية الى العراق يعدد لنا الطبري جيش النعمان بن بشير الذي سار الى عين التمر[4] وجيش سفيان بن عوف الذي هاجم هيت والانبار وجيش عبد الله بن مسعدة الفزاري الذي اغار على تيماء وجيش الضحاك بن قيس الذي سار الى القُطقُطانة وغير ذلك[5] .

ويذكر الطبري انه بعد مراسلات طويلة بين علي ومعاوية اتفقا سنة ٤٠ هـ أن تعقد بينهما مهادنة وأن يكفا عن الحرب على أن تكون لعلي العراق ولمعاوية الشام بعد ان يتعهدا بعدم الاعتداء أو القيام بالغارات والغزو[6] .

---

(١) انظر مثلا ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٥٥٧ ـ ٥٥٨ ، و ج ٥ ، ص ٩٢ ، ٩٥ ـ ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣٧ وغيرها .

(٢) من أجل احتلال عمرو بن العاص مصر انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٩٨ وما بعدها .

(٣) انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٦ .

(٤) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٣٣ .

(٥) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

ويروي الطبري نقلا عن البكائي نقلا عن ابن اسحق ان معاوية أقام بالشام بجنوده يجبيها وما حولها وأقام علي في العراق يجبيها ويقسمها بين جنده • ويبدو ان هذه الهدنة كانت قصيرة الامد لانا نعلم ان معاوية ما لبث ان اتخذ لنفسه في هذا العام (٤٠ هـ) لقب خليفة في بيت المقدس وأخذ البيعة من أهل الشام • وأجاب علي على هذا العمل بأن أخذ يعد العدة للخروج للشام لحرب معاوية ، ولكن لم يتح له ان ينفذ ما عزم عليه اذ وقع ضحية طعنة غادرة من الخارجي عبد الرحمن بن ملجم •

وينقل المؤرخ فلهاوزن[1] خبر تنصيب معاوية خليفة على المسلمين في بيت المقدس عن المؤرخ السرياني الذي نشر تاريخه نولدكه ، ولهذا المؤرخ السرياني روايتين حول هذا الموضوع جاء فيهما :

« في عام ٩٧١ م من حكم السلوقيين اجتمع كثير من العرب في بيت المقدس ونصّبوا معاوية ملكا ، فصعد معاوية الى جبل الجلجلة (Golgata) وصلّى هناك ثم صعد الى جيتسماني، ثم هبط الى قبر السيدة مريم وصلى••• وفي شهر يولية سنة ٩٧١ م اجتمع الامراء وكثير من العرب وبايعوا معاوية وصدر الأمر بأن ينادى به ملكا في جميع انحاء بلاده ، ولكنه لم يحمل تاجا كما يحمله ملوك العالم ، على انه أقام عرشه في دمشق ، ولم يرد ان يذهب الى مقر النبي في المدينة » • ويعلق فلهاوزن على رواية المؤرخ السرياني حول تاريخ اعلان معاوية نفسه خليفة بقوله : « ••• ويتبدىء شهر يولية من عام ٩٧١ من حكم السلوقيين (٦٦٠ م) في ١٦ صفر سنة ٤٠ هـ » • ويؤكد الطبري هذا التاريخ فيقول ان هل الشام بايعوا معاوية بالخلافة في إيلياء سنة ٤٠ هـ •[2] وهكذا فانه من الخطأ أن نقول أن بيعة معاوية بالخلافة قد جرت بعد وفاة علي بل قبلها وذلك لان الاعتداء على علي جرى في تاريخ

---

(١) الدولة العربية ، ص ٩٧ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦١ •

مختلف عليه من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ[١] في حين أن بيعة معاوية جرت كما رأينا في صفر من نفس العام .

جرى الاعتداء على الخليفة علي بن ابي طالب يوم الجمعة الخامس عشر أو السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة[٢] وكان الذي قام بهذا الاعتداء على حياة الخليفة شخص من الخوارج اسمه عبد الرحمن ابن ملجم . وهناك أكثر من رواية حول الاسباب التي حدت بابن ملجم الى ارتكاب هذه الفعلة الماكرة ، فهناك من يقول ان الخوارج رأوا أن الوسيلة الوحيدة لخلاصهم هي في القضاء على معاوية وعمرو بن العاص وعلي بن أبي طالب فانتدبوا عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي ، كما انتدبوا البُرَك بن عبد الله الصريمي لقتل معاوية وعمرو بن بكر لقتل عمرو بن العاص. واتفق القتلة الثلاثة على يوم معين لتنفيذ مؤامرتهم وحددوا ساعة واحدة للقتل هي ساعة صلاة الصبح . فاما صاحب معاوية فانه هجم عليه في الساعة المحددة ولكنه لم يصبه بأذى لانه كان يرتدي درعا ، وأما المكلف بقتل عمرو بن العاص فقد قتل عوضا عنه صاحب شرطته خارجة بن حُذافة لأن عمرواً كان مريضا وأرسل صاحب الشرطة للصلاة عنه، واما صاحب علي وهو ابن ملجم فقد أقبل آخر الليل ومعه رفيق له يعينه في جريمته وانتظرا عليا حتى خرج من بيته للصلاة فلما رأياه قادما ضرباه بالسيوف فأصابه ابن ملجم في جبهته حتى بلغ دماغه فخر على الارض ونقل الى داره حيث توفي بعد يومين، وألقي القبض على ابن ملجم حيث قتل وأحرق بالنار .

اما الرواية الثانية فتقول ان الذي حرض ابن ملجم على قتل علي هي امرأة فائقة الجمال اسمها قطام كان يعشقها ابن ملجم عشقا وصل به حتى الهيام . وكان ابو قطام وأخوها قد قتلا يوم النهروان ، وطلب ابن ملجم من قطام أن تقبله زوجا فرضيت شريطة أن يكون مهرها رأس علي ابن ابي

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٤٣ .

(٢) من أجل الخلاف حول أي أيام شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة طعن علي انظر الطبري ج ٥، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، ١٤٣ .

طالب ثأرا لأبيها وأخيها ، وقبل ابن ملجم الطلب وقتل عليا على الصورة المعروفة • [1] وهذه الرواية أقرب الى المنطق والصدق من الرواية الاولى وما فيها من تآمر وسرية لا تتفق مع اخلاق الخوارج ومذهبهم • على أن هذا لا ينفي وقوع بعض المحاولات للاعتداء على معاوية وعمرو ولكن هذه المحاولات لم تحدث في نفس الوقت الذي وقع فيه الاعتداء على علي • كما انها لم تكن جزءاً من مؤامرة سرية دبرها الخوارج ضد علي • وليس كلامنا هذا محاولة للدفاع عن الخوارج ولكنه من قبيل تفضيل رواية على روايــة سيما وان الرواية الثانية اكثر انسجاما مع ما نعرفه عن اغراق الخوارج في صراحتهم وبعدهم عن السرية • [2]

وأيا كان فان انتقال الخليفة علي بن أبي طالب الى جوار ربه قد ترك المجال فسيحا لمعاوية ليثبت خلافته ويوطد اركان ملكه •

وقد اختلفت الآراء والروايات حول وصية علي ، فمن قائل انه أمر ان يكون الأمر من بعده لابنه الحسن ، ومن قائل انه قال حين سئل لمن يكون الأمر من بعده : « ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر • » [3]

وقد بويع الحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة بعد أبيه من قبــل أهل العراق ، وكان الخليفة المقتول قد جهز قبل وفاته جيشا قوامه اربعين ألف مقاتل وأسند قيادته الى قيس بن سعد وذلك لمحاربة أهل الشام [4] ، وكان قيس يريد ان يسير بالجيش لملاقاة معاوية الذي عبر أرض الجزيرة الى العراق بجيش من الشوام ونزل في مسكن على حدود الدجلة من الموصل الى جهة السواد منتظرا لما ستنجلي عنه الامور في العراق بعد مقتل الخليفة علي بن أبي طالب • وكان الحسن الذي عرف تخاذل العراقيين في نصرتهم

(١) من أجل الروايات المتعلقة بمقتل علي بن أبي طالب ، انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ١٤٣ وما بعدها •

(٢) من أجل هذا الموضوع انظر المناقشة التي يقدمها فلهاوزن في كتابه ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٩٨ ـ ٩٩ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٤٦ ـ ١٤٧ •

(٤) المصدر السابق ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ •

لأبيه لا يريد القتال ويعرف ان قيس بن سعد يخالفه في الرأي ويريد القتال لذلك عزله وولى على الجيش عبيد الله بن عباس • وصدف في هذه الفترة ان تعرض الحسن لطعنة من بعض خصومه كادت ان تودي بحياته (لا يشرح لنا الزهري صاحب الرواية في الطبري التي تتحدث عن هذه الطعنة الاسباب أو الظروف التي عرضت الحسن لهذه الطعنة) فازداد بغضه لانصاره من العراقيين وعدم ثقته بهم وكاتب معاوية في الشروط التي يشترطها للتنازل عن العرش ومن بينها مبلغ كبير من المال • وكان معاوية قد ارسل له في نفس الوقت (أي قبل أن يصله كتاب الحسن الذي يعرض فيه التنازل) صحيفة بيضاء مختوم في اسفلها بختمه وترك له أن يدوّن فيها الشروط التي يراها مقابل تنازله عن حقه في الخلافة • وانتهت المفاوضات بتنازل الحسن لمعاوية في شهر ربيع الاول (أو ربيع الثاني على حد زعم بعض الروايات) من عام ٤١ للهجرة • ولحق عبد الله بن عباس بالحسن في مفاوضة معاوية رغم أنه كان قائد الجيش الذي كان من المفروض ان يقاتله ، وأعطاه معاوية الأمان وما اشترطه من اموال فترك ابن عباس العراق والتحق بمعاوية في الشام •[١]

اما قيس بن سعد فقد حاول في بادىء الأمر ان يستثير الهمم للمضي في محاربة معاوية ففشل وانفض من حوله الكثير من رجاله ، واخيرا ارسل اليه معاوية بسجل مختوم في اسفله وترك له ان يحدد الشروط التي يريدها من أجل البيعة والدخول في الطاعة ، فلم يشترط قيس الا الأمان لشيعته على ما أصابوا من الدماء والاموال ولم يطلب مالا لشخصه ، فقبل معاوية وأعطاه الأمان الذي سأل •

وهناك روايات أخرى حول موضوع تنازل الحسن لمعاوية يذكرها الطبري الى جانب الرواية السابقة وتتلخص هذه الروايات بأن الحسن خرج بعد مقتل أبيه الى المدائن بالجيش الذي كان قد جهزه أبوه بقصد ملاقاة معاوية الذي نزل مسكن كما اشرنا سالفا • وكان على مقدمة الجيش (لا على

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٥٨ ــ ١٦٠ •

الجيش كله كما تقول الرواية السابقة) قيس بن سعد • وبينما كان الحسن في المعسكر بالمدائن نادى مناد في الجنود ان قيس بن سعد قد قتل ، فوقعت الفوضى بين الجنود ونهب بعضهم سرادق الحسن نفسه ، فخرج الحسن ناجيا بنفسه حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن ومن هناك راسل معاوية وفاوضه من أجل التنازل عن الخلافة رغم معارضة اخيه الحسين • وتقول هذه الرواية التي ينقلها البكائي عن عوانة ان الحسن اشترط أن يأخذ مافي بيت مال الكوفة من اموال تبلغ خمسة آلاف ألف درهم وان يمتنع الشوام عن لعن علي ، فقبل معاوية وتنازل الحسن • [1]

أما اليعقوبي وغيره من المؤرخين ذوي الميول العلوية فان سردهم لقصة تنازل الحسن يتلخص بأن الحسن لم يتنازل عن طيبة خاطر وانما نتيجة لظروف غادرة تتلخص بأن الحسن كان في عسكره بالمدائن فأرسل اليه معاوية المغيرة بن شعبة ليفاوضه • فلما خرج المغيرة ووفد الشوام من عند الحسن اذاعوا انه أجاب الى الصلح ، فوثب الجند على معسكره وانتهبوه ، فخرج الحسن الى قلعة ساباط وبينما هو في طريقه اليها كمن له الجرّاح ابن سنان وجرحه بمعول في فخذه ولوى لحيته ، فحمل الحسن الى المدائن وقد نزف نزفا شديدا وتفرق عنه أصحابه فلم يبق أمامه الا التنازل • [2] ويحكي الدينوري مثل ذلك • [3] وهذه الرواية أفضل من رواية الزهري التي لا تشرح الظروف التي تعرض فيها الحسن للطعن وتترك هذا الأمر مبهما كما اشرنا سالفا • كما ان رواية الزهري تحط من قدر الحسن وتظهره بمظهر المتهافت على الصلح مع معاوية • على أن الملاحظة التي لا بد منها في هذا المقام هي ان الجزء المتعلق بلحاق عبد الله بن عباس بمعاوية وتركه جانب الحسن وقبضه الاموال من معاوية كما يرويه الزهري أمر يسيء الى

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٥ •

(٢) انظر ، اليعقوبي ، ط • دار صادر ، بيروت ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ •

(٣) الاخبار الطوال ، ص ٢١٦ ـ ٢١٨ ، حيث يلخص الدينوري جميع الاخبار المتعلقة بموقف الحسن ومبايعته معاوية •

العباسيين ويظهر جدهم بمظهر لا يشرف الاسرة العباسية عدوة الامويين • لذلك جاء الذين كتبوا في ظل الخلافة العباسية (الزهري توفي قبل قيام الدولة العباسية) ومن بينهم المدائني وأرادوا ان ينقـذوا سمعة الخلفاء العباسيين الذين يكتبون في ظلهم فادعوا ان الذي فاوض معاوية وانحاز الى جانبه هو عبيد الله بن عباس الأخ الاصغر لعبد الله بن عباس لا عبد الله نفسه• وقد سهل هذا التزوير للحقيقة التشابه في الاسم بين الاخين (عبد الله وعبيد الله) • وقد قبل هذه النظرية الى جانب المدائني كل من اليعقوبي وعمر بن شبة والبلاذري وغيرهم • ولكن المعروف أن عبيد الله بن عباس كان واليا على اليمن من قبل علي بن ابي طالب وكانت بينه وبين الامويين خصومة شديدة سببها ان معاوية ارسل اثناء ولاية عبيد الله جيشا الى اليمن بقيادة بسر بن أبي أرطاة لاخضاعها وقد وقع ولدان من اولاد عبيد الله بيد بسر فذبحهما رغم صغر سنهما فحزن عبيد الله حزنا شديدا وجنت زوجته بسبب فقد ولديها الصغيرين •ويقول الواقدي ان حملة بسر على اليمن جرت عـام ٤٢ هـ ، ومعنى هذا ان بسرا ظل في اليمن مدة سنتين بعد وفاة علي بن ابي طالب ، ولا يعقل ان يكون قد صالح معاوية قبل سنتين وعاد لعدائه بعد ذلك سيما وان بينهما دم ولديه الصغيرين القتيلين • وهكذا يبدو واضحا ان المدائني وغيره من الذين كتبوا في ظل العباسيين أرادوا ان يمحوا عارا ألحقته رواية الزهري بجد الاسرة الحاكمة فألصقوا الامر بأخيه الصغير عبيد الله بن عباس • (١)

بعض النتائج التي ترتبت على انتقال الحكم الى البيت الأموي :

كان من نتائج انتقال الحكم الى البيت الاموي ان انتقلت العاصمة من الكوفة الى دمشق فخسر بذلك أهل العراق شيئا كثيرا من مركزهم السياسي وندموا على خذلانهم لعلي•ودخل العراق كله وأقاليم المشرق كلها في نطاق

(١) من أجل هذا الموضوع ، انظر المناقشة المطولة للروايات التي يقدمها فلهاوزن والنتيجة التي يستخلصها وتتفق مع ما جاء فيما عرضناه • تاريخ الدولة العربية ، ص ١٠٣ وما بعدها•

الحكومة الاموية الجديدة • وذهبت من الاعراب خيرات البلاد وصار كل الخراج والجزية يرسل الى بيت المال بدمشق ولم يبق لهم منه الا القليل ، فعادوا الى ما كانوا عليه ايام عثمان لما قلت موارد رزقهم بسبب توقف الفتوح• وهكذا فالعوامل التي دعتهم الى الثورة على عثمان ولا سيما العامل الاقتصادي بقيت كما هي، فقلة العطاء وانقطاع الغنائم وضعف النفوذ السياسي أدت كلها الى ثورة هل الامصار على عثمان ، وهذه العوامل نفسها عادت الى الظهور من جديد في عهد الدولة الجديدة مما أدى الى الثورة ولا سيما في العراق على الامويين • وقد اشترك في الثورة العراقية علـى الامويين عناصر مختلفـة كالخوارج والشيعة والاعراب والموالي وغيرهم • ولم يكن العامل الاقتصادي وحده السبب المحرك لثورة العراق على بني امية • واذا صح هذا بشـكل خاص على الاعراب الذين فتحوا البلاد ، وضحوا بانفسهم في سبيلها ثم ذهبت خيراتها الى غيرهم فان فرق الشيعة مثلا كانت ناقمة على بني امية بحجة انهم خالفوا الاسلام وأن الخلافة ليست لهم ، والموالي اصحاب البلاد من قبـل ثاروا لانهم أصبحوا الطبقة الدنيا في المجتمع يعملون في الارض ويزرعون ويكدحون لغيرهم من ابناء الطبقة العليا ولا يحصلون الا على المعاملة السيئـة والاحتقار • يضاف الى هذا عناصر ناقمة أخرى كانت موجودة في العراق كاليهود والفرس وغيرهم • وقد أرسل بنو أمية الى العـراق أمهر حكامهم وخيرة رجالهم لتولي الأمر فيه واستعانوا بجنـد الشام لاخماد فتنـه ونقلوا مركز الثقل السياسي فيه من الكوفة مركز علي بن أبي طالب الى واسط المدينة الجديدة التي بناها الحجاج •

وفي العراق اتخذت النقمة الاقتصادية شكلا دينيا ، فقد ظهرت فئـة من الناس المتمسكين تمسكا شديدا بأهداب الدين ، وقد عدّ هؤلاء الناس الاوضاع السائدة في العصر الاموي اوضاعا مخالفة لاوامر الله كما وردت في القرآن الكريم • وجهروا بنقدهم للولاة والخلفاء واعمالهم وبشّروا بأن واجب المسلم الصادق الايمان لا يقتصر على العمل الصالح واقامة فروض

الدين بل من واجبه ايضا ان يدعو الناس الى الخطة القويمة والسير المستقيم حسبما يأمر به الدين الحنيف : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر اولئك هم المفلحون » . وهكذا فالاسلام اذن عقيدة ونظام وإيمان وعمل وعلى المؤمن ان يعمل لايقاف الشر . وانقسم الناس الى فئتين ازاء ما كان في عرفهم شر يجب دفعه :

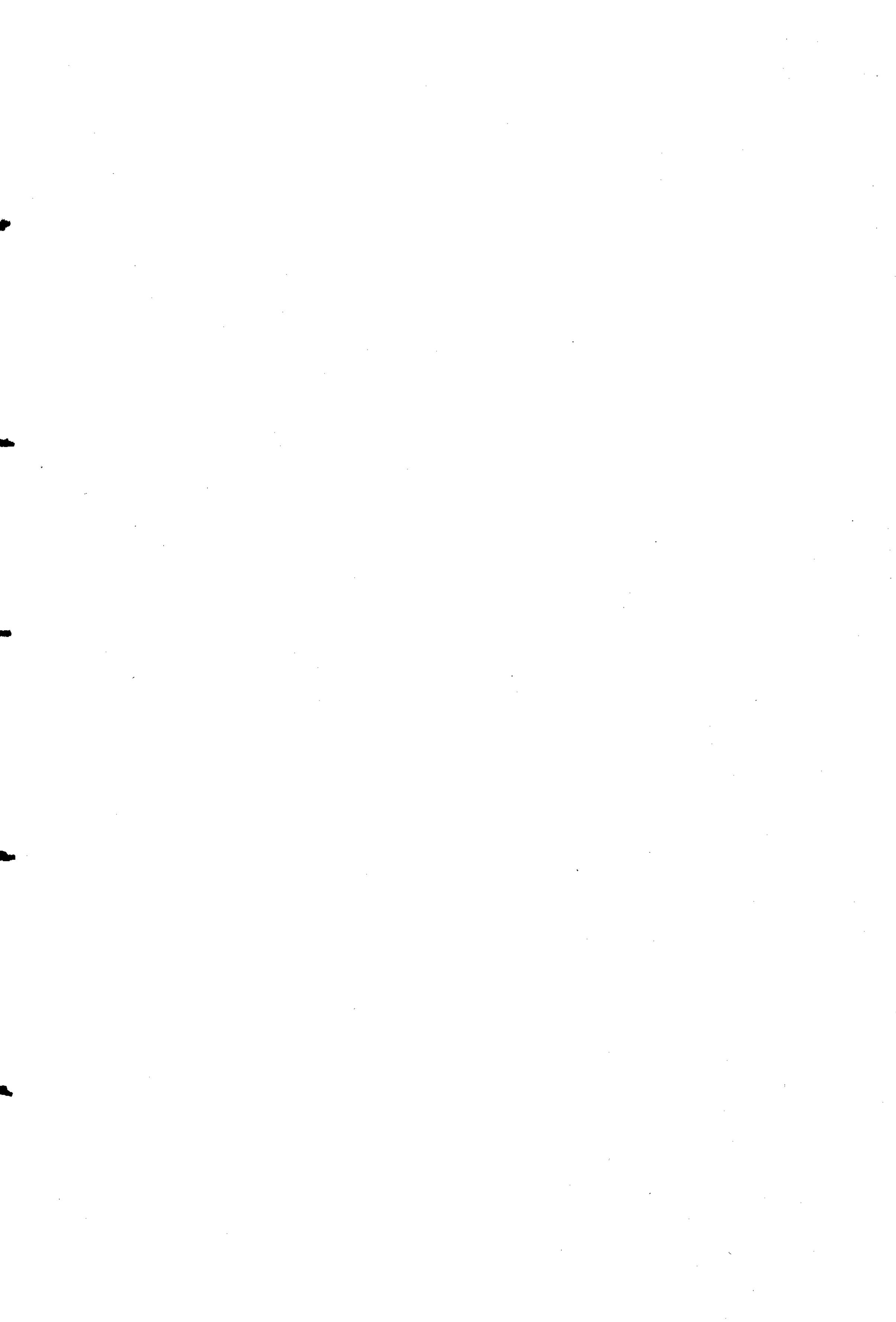
١ ـ فئة رغبت عن السياسة وأمور الدنيا وأحجمت عن اقحام نفسها في شؤون الدولة وتركت أمر اصلاح سلوك الحكام وأعمالهم التي لا تتفق مع الدين الى الله . وأحسن مثال على هذا النوع من الناس شخص كسعيد ابن المسيب فقيه المدينة والحسن البصري وغيرهما . ومن صفوف هذه الفئة نشأت فكرة الارجاء التي تمثلت بقيام حركة المرجئة التي دعت الى اطاعة أولي الأمر وإرجاء أمر المخلوق الى الخالق .

٢ ـ وفئة ثانية كان اكثر افرادها من العراقيين قالوا بوجوب القيام على رجال الدولة الظالمين . وكان من جملة ما نقدوا به بني أمية انهم أخذوا الاموال لانفسهم وحرموا الناس منها واستعملوا اموال الأمة في سبيل تثبيت سلطانهم واستمالة خصومهم كما نسبوا اليهم اقتراف الآثام والمعاصي وظلم الرعية وتعطيل الحدود وأخذ الفيء . كما اتهموهم باغتصاب الخلافة من اربابها وأن اسلامهم جاء في الساعة الاخيرة وانهم استغلوا مقتل عثمان حتى يصلوا الى السلطة . وكان من بين زعماء هذه الحركة بعض القرّاء الذين يحفظون القرآن ويعرفون اصول الدين ، فصاروا يفسرون آيات القرآن حسب اجتهادهم وميولهم ويجمعون الاحاديث النبوية المؤيدة لاتجاههم ، كما لجأوا في بعض الأحيان الى وضع الاحاديث أو تحريفها حتى يؤيدوا اقوالهم بأقوال ادعوا أنها أثرت عن الرسول .

الى جانب هاتين الفئتين ، كانت هناك فئات من المعارضين اتخذت

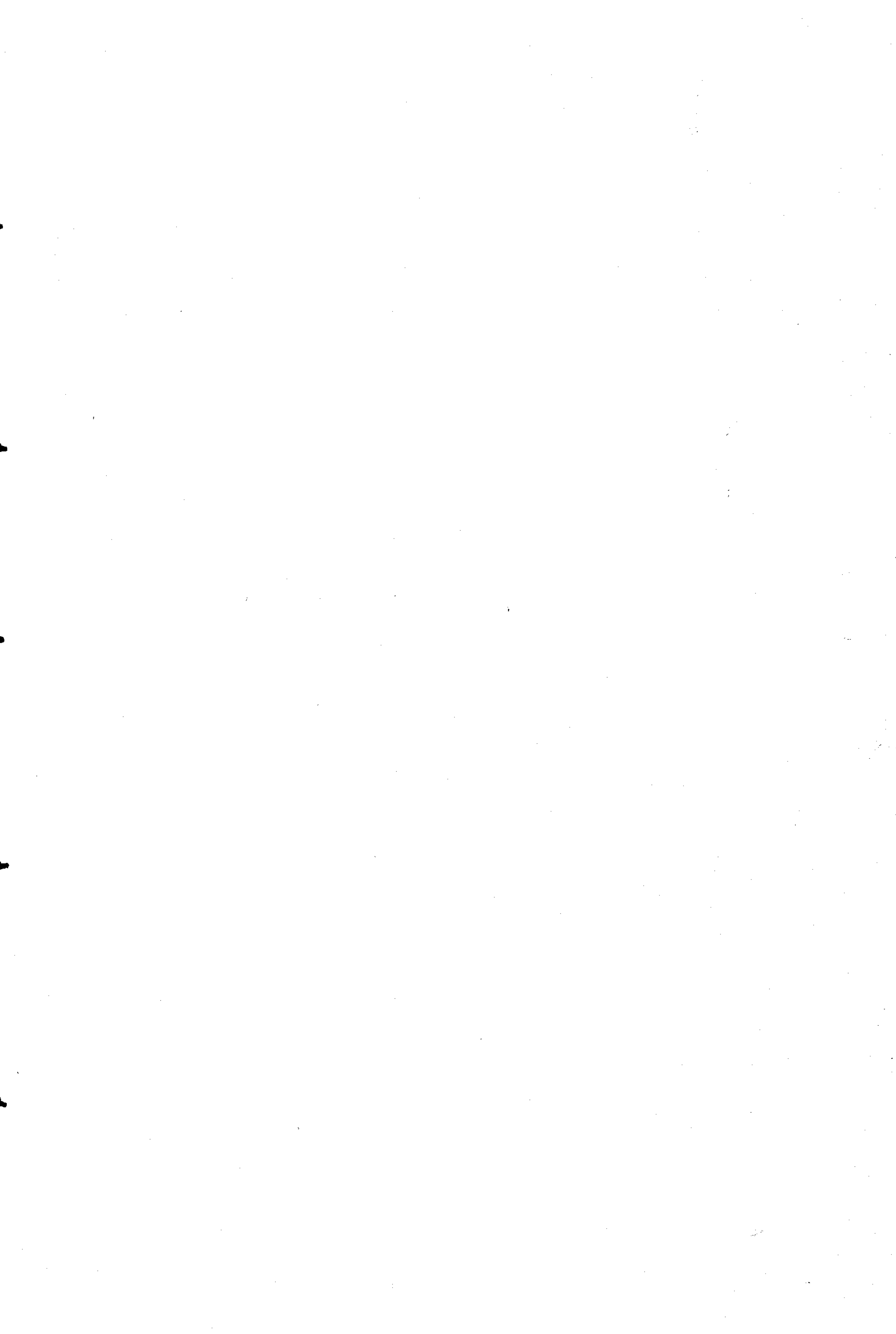
معارضتهم شكلا عمليا واستخدمت السيف تارة والدسائس والمؤامرات تارة اخرى في سبيل اسقاط الحكم الاموي وانتزاع السيادة من آل أمية الذين كانوا في نظرهم « ملوكا » وليسوا « خلفاء » والذين حكموا حكما « دنيويا » بعيدا عن « الدين » • وأهم هذه الفئات : الخوارج ، الشيعة ، والموالي • وستكون موضع حديث مفصل فيما بعد •

* * *

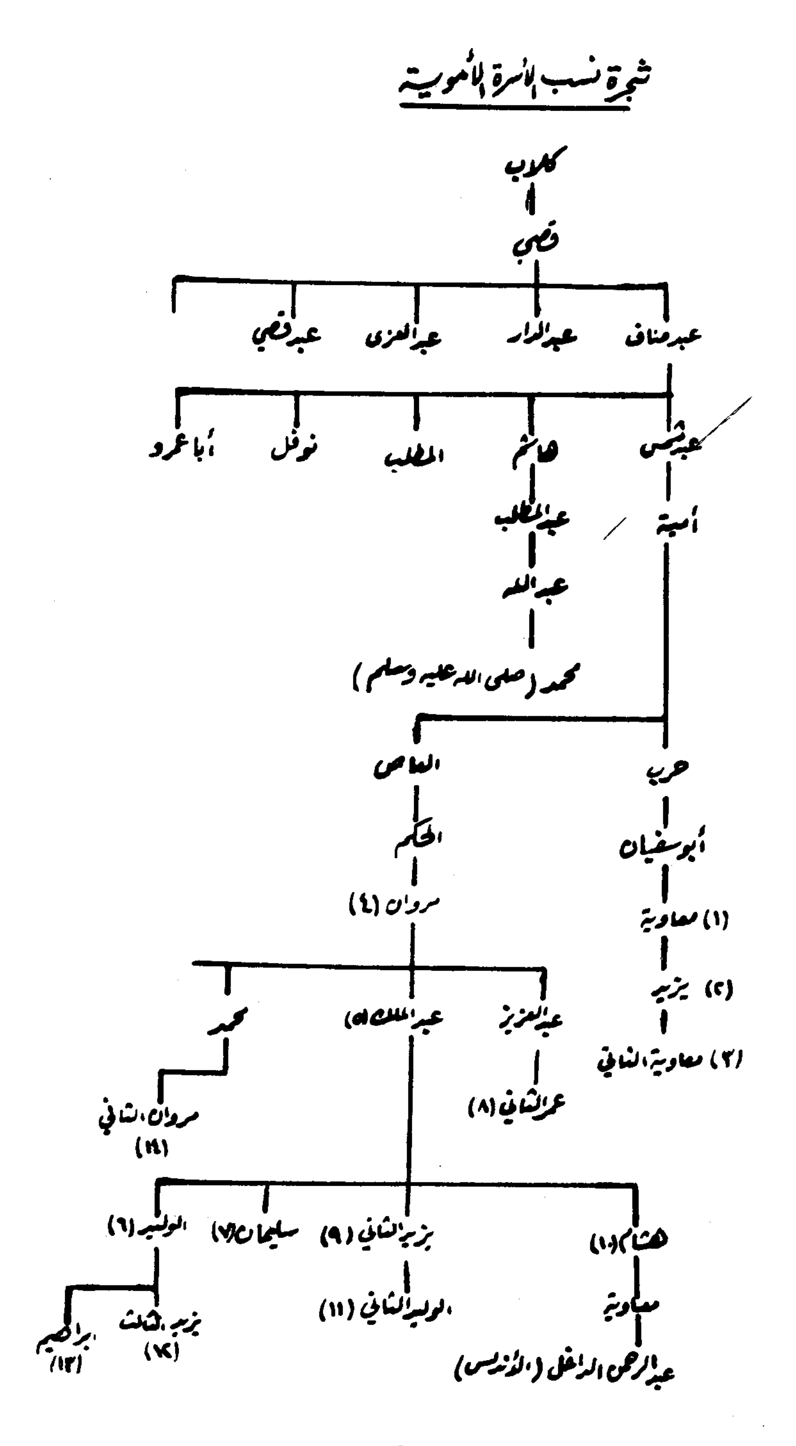


القسم الثاني

خلفاء الفرع السفياني من البيت الأموي



شجرة نسب الأسرة الأموية



الخلفاء الامويون

الرقم	اسم الخليفة	تاريخ توليه الخلافة: التقويم الهجري	التقويم الميلادي
آ ـ الفرع السفياني :			
١	**معاوية** بن ابي سفيان عين واليا على سورية	سنة ١٥	سنة ٦٣٧
	بويع بالخلافة	سنة ٤١	سنة ٦٦١
٢	يزيد بن معاوية	رجب سنة ٦٠	نيسان سنة ٦٨٠
٣	معاوية بن يزيد	ربيع١ سنة ٦٤	تشرين ١ سنة ٦٨٣
ب ـ الفرع المرواني :			
٤	مروان بن الحكم	ذو العقدة ٦٤	حزيران سنة ٦٨٤
٥	عبد الملك بن مروان	رمضان ٦٥	نيسان سنة ٦٨٥
٦	الوليد بن عبد الملك	شوال ٨٦	تشرين ١ سنة ٧٠٥
٧	سليمان بن عبد الملك	جمادي الآخرة ٩٦	آخر شباط سنة ٧١٥
٨	عمر بن عبد العزيز	صفر ٩٩	تشرين ١ سنة ٧١٧
٩	يزيد بن عبد الملك	رجب ١٠١	شباط سنة ٧٢٠
١٠	هشام بن عبد الملك	شعبان ١٠٥	كانون ٢ سنة ٧٢٤
١١	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	ربيع الثاني ١٢٥	شباط سنة ٧٤٣
١٢	يزيد بن الوليد بن عبد الملك	رجب ١٢٦	نيسان سنة ٧٤٤
١٣	ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك	ذو الحجة ١٢٦	تشرين ١ سنة ٧٤٤
١٦	مروان بن محمد بن مروان	صفر ١٢٧	كانون ١ سنة ٧٤٤

انتهت خلافته بسقوط الدولة الاموية واخذت البيعة لابي العباس السفاح في ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ الموافق لتشرين الثاني سنة ٧٥٠ .

الفصل الأول

معاوية بن ابي سفيان

هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف • ولد بمكة قبل هجرة الرسول الى مكة بخمسة عشر عاماً ،وأسلم يوم فتح الرسول مكة مع من أسلم من أهلها،وغدا بعد اسلامه كاتباً للرسول، ودخل مع من دخل من أبناء اسرته في خدمة الدولة الجديدة منذ عهد الرسول • فقد غدا ابو سفيان بعد أن أعلن الرسول أن دخول داره أمان لصاحبه ، من رجالات الدولة وساهم في بعض الأعمال الحربية زمن الرسول حتى أنه فقد عينه في احدى الغزوات[1] • وقد تزوج الرسول بنت أبي سفيان أم حبيبة، كما استعمل بعضاً من بني أمية على الصدقات وولاهم بعض الأعمال[2] •

وفي خلافة أبي بكر وحين قامت حروب الردة ولى الخليفة الأول أبا سفيان « ما بين آخر حدّ الحجاز وآخر حدّ نجران »[3] كما ولى ابنه يزيد ابن أبي سفيان قيادة أحد جيوش الفتح المتوجهة إلى الشام ، ولما توفي يزيد في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ جعل عمر بن الخطاب أخاه معاوية أميراً على بلاد الشام بعد أن كان غازياً تحت امرة أخيه يزيد وواليا على الأردن فقط•

---

(١) المقريزي ، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، ط • ليدن ١٨٨٨ ، ص ٤٨•

(٢) المصدر السابق . ص ٣٢ ـ ٣٣ •

(٣) البلاذري . فتوح البلدان ، ط• دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٩٥٧ ، ج٢ ، ص ١٤٤ • وقد توفي ابو سفيان عام ٢٣ هـ وقد كف بصره ، انظر تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ •

وهكذا برز معاوية كرجل دولة منذ عهد مبكر ، وشارك منـذ عصر الرسول في الحياة العامة ، ثم ما لبث أن شارك في عمليات الفتح زمن أبي بكر ، وتولى الادارة زمن عمر ، وفي عهد عثمان جمعت له ولاية الشام كلها وكان ولاة أمصارها تحت إمرته • وظل كذلك حتى كانت فتنة عثمان ومقتله وبويع لعلي بالمدينة ، فحزم أمره على المطالبة بدم عثمان، وكانت موقعة صفين بينه وبين علي بن أبي طالب ، وكان التحكيم ، وكان مقتل علي وتنازل ابنه الحسن على النحو الذي شرحناه آنفاً •

وهكذا ، وبانتقال الخلافة الى معاوية في العام ٤١ للهجرة الذي تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعـد طول نزاع يبدأ عصر جديد من عصور الحكم في الامبراطورية العربية الاسلامية هو العصر الأموي •

وكانت خلافة معاوية بداية عهد جديد عاشت خلاله الدولة العربية ما يقارب العشرين عاماً من السلام والازدهـار في الداخل ، والانتصـارات الحربية في الخارج • وقد ساعد معاوية على النجاح في مهمته أنه اعتمد الشام وأهلها كركيزة أساسية من ركائز حكمه • ففي الشام ، التي كانت من قبل تحت حكم البيزنطيين ، وجد معاوية تقاليد عريقة في الحكم والادارة ، كما وجد جهازاً إدارياً متمرساً ساعده على أداء مهمته في فترة التأسيس هـذه التي لا تحتاج الارادة الطيبة فحسب ، بل الخبرة والمران اللذين وفرهما له جهاز الموظفين الذين كانوا يعملون في ظل الادارة البزنطية في الميدانين الاداري والمالي • كما أنه لابد لنا أن نلاحظ أن حظ الشام من الحضارة كان أوفر من حظ الأمصار الأخرى ، فالقبائل العربية التي هاجرت إليهـا واستقرت فيها قبل الفتح كانت قد اعتادت فكرة الحكم المركزي وفكـرة الدولة عموماً ، على عكس عرب العراق مثلاً الذين لم يتقبلوا هذه الفكرة بسهولة • وينطبق هذا على من سكن العراق منهم قبل الفتح وبعده • فالذين سكنوا العراق قبل الفتح كانوا في خصومة وصراع دائمين مع الحكم الفارسي،

وكذلك كانت حال الذين هاجروا بعد الفتح ، فهم في غالبيتهم من أعراب الردة الذين ثاروا أصلاً على فكرة الحكم المركزي وزادت ثورتهم بنتيجة استيلاء البيت الأموي على السلطة . وسكان بلاد الشام كانوا قد اعتادوا التعايش والعلاقات الطيبة حتى مع الذين يخالفونهم في الدين ، فدمشق مثلاً كان يعيش فيها النصراني الى جانب غيره من اتباع الديانات الأخرى زمن الحكم البيزنطي واستمرت الحال كذلك بعد الفتح العربي لها . كما أن العرب الذين هاجروا الى الشام بعد الفتح لم يعيشوا في معسكرات مستقلة ، كما كانت الحال في العراق (البصرة والكوفة) ، بل عاشوا جنباً الى جنب مع السكان المحليين والقبائل التي كانت تقطن الشام قبلاً ، وقد ساعد هذا الاختلاط على كسر حدة التمرد لقبلي الذي كان طابع القبائل العراقية المميز .

كل هذه الأمور أتاحت لمعاوية ظروف حكم أفضل من الظروف التي اتيحت لعلي بن أبي طالب ، فكانت فترة خلافته فترة استقرار وازدهار وسلام ، كما اسلفنا . وقد ساعده على تحقيق انتصاراته في الخارج الجيش الشامي الذي جمعه ونظمه ودربه منذ أن كان والياً ، والذي أغدق عليه العطاء ، ولم يبخل عليه بكل ما يوفر له سبل الرضا والاخلاص بعد أن غدا خليفة وتعددت لقاءاته في البر والبحر مع الامبراطورية البيزنطية . وقد ساعدت هذه اللقاءات المستمرة على اعطاء جيش الشام فرصاً كثيرة للتدريب العملي وقدمت له الخبرة اللازمة .

العراق في ظل خلافة معاوية : لابد من البدء بأن نقرر بأن تاريخ العراق يشكل الجزء الأهم من أجزاء التاريخ الأموي . فأخبار العراق تحتل الحيز الأكبر من كتابات المؤرخين وروايات الاخباريين الذين تناولوا هذا العصر بالحديث والرواية . وتتركز هذه الأخبار حول الصراع الذي قام خلال هذا العصر بين السلطة المركزية متمثلة بالخلافة الأموية من جهة ، وبين رجالات القبائل والشيعة والخوارج من جهة ثانية . ويصبح هذا التحديد

بوجه خاص على النصف الأول من حكم بني أمية • لذا كان من الأهمية بمكان أن نتناول في هذه الدراسة الأسس التي بنيت عليها سياسة الأمويين في هذا المصر ، وأن نتبين موقف الفئات العراقية المختلفة من حكم معاوية ، مؤسس السلالة الأموية ، وأن نستعرض أهم الأحداث التي تؤيد النتائج التي ستوصلنا اليها هذه الدراسة •

وكتمهيد نتعرف من خلاله على رد الفعل العراقي تجاه خلافة معاوية علينا أن نذكر أن العراق كان لعهد قريب مستقر علي بن أبي طالب ، ومقر حكمه ، وكان أهله شيعة علي ومنهم يتألف جيشه الذي خاض معركة ضارية في صفين إلى جانبه ، وخرج منها وهو قاب قوسين من النصر ،وبالتالي تثبيت سيادته على بقية الأمصار • ولولا خدعة التحكيم وانشقاق الخوارج وما تلاه من عملية الاغتيال الغادر التي تعرض لها علي بن أبي طالب لكانت سيادته حقيقة لا ينازعها منازع • وقد زاد في محنة العراقيين ، وبالتالي تشتت صفهم ، تنازل الحسن عن الخلافة ووقوعها لقمة سائغة في يد معاوية • فالعراق إذن وبطبيعة أحداث ماضيه القريب مهيؤ لأن يكون المقر الأول للمعارضة ضد الحكم الجديد • وكان على معاوية أن يعي جميع هذه الوقائع، وهو في مستهل عهده بالحكم ، ويضع الأطر العامة لسياسته تجاه هذا المصر •

بعد هذا ، لابد لنا من أن نحدد موقف الفئات العراقية المختلفة من خلافة معاوية وردود فعلها تجاه هذا الحدث الذي دهمها فشتت وحدتها وفرقّ صفها •

لقد انقسم العراقيون إلى فريقين إزاء بيعة معاوية : فريق هو الأقلية، أيدها ، وفريق يضم غالبية العراقيين بمختلف آرائهم ومذاهبهم ، عارضها ولم يرض عنها واستعمل مختلف الأساليب للتعبير عن هذه المعارضة • أما الذين أيدوها ، فكانت بيعة بعضهم عن رضا وقناعة ، وكانت بيعة الآخرين سعياً وراء منفعة وإقراراً بواقع ليس بمكنتهم دفعه فليستفيدوا منه حيث تمكن الفائدة • ويبدو مما يذكره فان فلوتن أن الذين بايعوا معاوية عن رضا كانوا

يرون في حزب بني أمية « حزب الدين والنظـام »[1] وأن بيعتهم واجبـة لأنه لايجوز ، بعد أن تنازل الحسن ، أن يظل منصب الخلافة شاغراً ، وأن تظل الأمة دون من يرعى شـؤونها لأن تسليم الحسن لمعاويـة بالخلافـة « عقد منه له » [2] ، وهذا العقد ليس ملزماً للحسن فحسب ، بل هو ملزم في رأيهم لكل من بايع الحسن أيضاً .

أما الفئة التي أيدت بيعة معاوية ، لا عن قناعـة ، إنمـا سـعياً وراء مصلحة أو رهبة من سلطانه فهي الفئة الغالبة بين رجالات الفريق الأول ، أعني الفريق المؤيد . فقد كان من أسس سياسة معاوية إغداق الأموال عـلى معارضيه وشراء ولائهم بالمال قبـل السيف ، وكان من المؤمنين بأن شـراء الناس أجدى من قطع أعناقهم . وقد أكسبته هـذه السياسة أنصـاراً لا في العراق فحسب ، بل حتى في الحجاز . فمنذ مقتل عثمان ، وتصدي معاوية للمطالبة بدمه وجد أن لابد له من حملة دعائية تسند دعواه وتؤيده فيما ندب نفسه له . ووجد أن خير وسيلة دعائية يستغلها هي الشعر والشعراء . وكان أول الشعراء الذين حملوا لواء الدفاع عن عثمان وذم علي وتأييد معاوية الشاعر حسان بن ثابت الذي ألف قصيدة طويلة في مدح الخليفة المقتول وذم علي وتأييد أهل الشام وأميرهم (معاوية) [3] . وإذا كانت قصيدة حسان هي باكورة هـذه الحملة الدعائية ، فان آثارها وصلت العراق ، معقل علي ومستقر أصحابه وحملة لوائه . وكان كعب بن جُعَيْل ، من أشهر الذين حملوا لواء معاوية في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

أرى الشامَ تكرهُ مُلْكَ العراق ... وأهلُ العـراق لهـم كارهونـا

---

(١) فان فلوتن ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، ومحمد زكي ابراهيم ، الطبعة الاولى ١٩٣٤ ، ص ٧٠ .

(٢) ابن العربي ، العواصم من القواصم ، ط . المطبعة السلفية ١٣٧١ هـ ، ص ١٩٩ .

(٣) من أجل هذه القصيدة انظر ، ديوان حسان بن ثابت ، ط. تونس ، ص ٩٨ ، و ط. ليدن ، ص ٢٢ . وانظر أيضاً العقد الفريد ، ط ١٨٩٨ ، ج٢ ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، خزانة الأدب ، ط. بولاق ، ج ٤ ، ص ١١٨ ... الخ .

والتي يقول فيها :

وقالوا عليٌّ إمامٌ لنا   فقلنا رَضينا ابنَ هندٍ رَضينا[1]

وطبيعي ألا يكون هذا ن الشاعران وحدهما في ميدان الدعاية لمعاوية ، بل كان هناك أيضاً شعراء عراقيون آخرون وقفوا إلى جانب معاوية في معركته ضد علي ، ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشعراء : حارثةَ بن بدر الغداني ، عبد الله بن الزَبير الأسدي ، يزيد بن مُفَرِّغ الحميري وغيرهم[2] • ولم يكن المال وشراء الذمم الوسيلة الوحيدة التي اتبعها معاوية في سبيل استقطاب الأنصار في العراق ، فقد كان هناك فريق دفعه الخوف من بطش الخليفة الى بيعته كما يتضح من نص ينقله لنا اليعقوبي في تاريخه ويتعلق بقدوم معاوية الكوفة في طلب البيعة وموقف الناس من بيعته حيث يقول : « وأحضر (أي معاوية) الناس لبيعته ، وكان الرجل يحضر فيقول: والله يا معاوية ، إني لأبايعك ، وإني لكاره لك » [3] •

على أن هؤلاء الذين بايعوا رغبة أو رهبة ، كانوا يمثلون الأقلية بين العراقيين ، إذ كانت الغالبية ضد بيعته وتكن له أشد العداء ، وبين هذه الفئات الخوارج والشيعة ورجالات القبائل الذين حرمتهم خلافة معاوية السيادة والخيرات ووضعتهم في مرتبة دنيا لاتقارن بما كانوا يحلمون به لو أن الأمر تم لهم أو ظل على أرضهم • وكان في مقدمة القبائل العراقية المعادية لمعاوية قبائل تميم وباهلة وبكر وغيرها [4] •

ولم تكن هذه القبائل بعد انكسارها في صفين ومقتل علي في وضع يمكنها من إشهار السيف في وجه معاوية ، فاكتفت باظهار اشمئزازها ، كما

---

(١) انظر ، الاخبار الطوال ، ص ١٦٠ •

(٢) انظر : الأغاني ، برونوف ، ص ٢٠ ـ ٤٤ ، والأغاني ، ط • بولاق ، ج ١٣ ، ص ٣٣ و ج ١٧ ، ص ٥١ ـ ٧٣ من نفس الطبعة •

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٦ •

(٤) انظر ، أنيس زكريا النصولي ، الدولة الأموية في الشام ، ط• بغداد ، ١٩٢٧ ، ص ١٠ •

فعل قيس بن سعد حين طلب معاوية البيعة منه أول الأمر [1] ، أو باطلاق التهديدات بالحرب ، كما فعل الأحنف بن قيس أكثر من مرة [2] .

ولكن معاوية بما كان له من حنكة ودهاء استطاع أن يتفهم هذه المواقف وأن يضع حلمه وسعة صدره موضع سيفه ، فانحنت له الهامات وتقبلته النفوس على مضض لأنها لم تكن تملك أن تدخل معه في صراع مسلح . وتجدر الملاحظة أن هذا الموقف اللين لم يكن الطابع الذي اتسمت به سياسة معاوية إزاء العراق طيلة فترة حكمه ، بل كان صحيحاً فقط بالنسبة للفترة الأولى التي كان فيها يوطد أقدامه ويثبت دعائم حكمه . وستتبدل هذه السياسة المتساهلة فيما بعد ، ولاسيما حين يغدو حكمه وطيد الأركان وحين يشعر أن سياسة اللين هذه لن تكون مأمونة الجوانب إذ أن عوامل الفتنة ما لبثت أن بدأت تطل برأسها .

وفي الفقرة التالية التي سنتناول فيها بالحديث الرجالات الذين اعتمدهم معاوية لحكم العراق تتوضح هذه الفكرة التي عرضنا أطرها هنا بايجاز واقتضاب .

ولادة العراق زمن معاوية

اعتمدت الدولة الاموية زمن معاوية على العنصر العربي الذي كان يقطن الشام والعراق . ففي الشام كانت تقطن قبائل عربية قيسية ويمنية منذ فترة ما قبل الاسلام ، وقد التفت هذه القبائل حول معاوية فاعتمد عليها في توطيد سلطانه والدفاع عن الشام وغيرها من الاقاليم العربية التي كانت تتبع الشام ولا سيما في العمليات العسكرية ضد بيزنطة التي كانت تنصب للدولة العربية الفتية شراك العداء .

اما العراق فقد كان كثير الخيرات والرجال وقد افادت الدولة منه

---

(١) انظر ، اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(٢) انظر قصة تهديده لمعاوية في : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ط . مكتبة النهضة ١٩٤٨ . ج٢ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، والامامة والسياسة لابن قتيبة ، ط. القاهرة ١٣٢٥، ج١، ص١٧٢.

ومن خيراته لما كان يأتيها منــه من موارد كالجزيـة والخراج ، ولما كانت تستعمل من رجاله في الفتوح ولا سيما في اقاليم المشــرق ، اذ ان الدولـة الاموية قد عهدت الى ولاة العراق بامر فتح المشــرق ، وإليهـم كان يعــود امر تعيين ولاة المشرق لان عمال العراق كانوا يتمتعون بسلطات واسعة ،ولان الخليفة كان يفوضهم ويعتمد عليهم في تصريف الامور • وقد اعتمد معاوية على رجال من ثقيف في حكم العراق وتوطيد النفــوذ الاموي فيــه • وتسهب كتب التاريخ في نقل اخبار الرجال الثقفيين الذين تولوا حكم العراق حتى لتكاد أخبارهم تطغى على اخبار معاوية نفسه • وقد سار عبد الملك المؤسس الثاني للخلافة الاموية على خطى معاوية فولى ثقفيا آخر على العراق فنبـغ وساد ، وكان له في تاريخ العراق اثر لا ينمحي • اما الثقفيان اللذان توليا حكم العراق زمن معاوية فهما المغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه ، واما الثقفي الثالث الذي ولي العراق زمن عبد الملك فهو الحجاج بن يوسف • وثقيف من الطائف كما هو معلوم • والطائف احدى المدن الثلاث التي كان لها اثر كبير في حوادث صدر الاسلام ، وهي بلدة جبلية غنية ببساتينها ومزروعاتها حتى أنها شبهت بدمشق • وكان أهلها من احلاف قريش في الجاهلية ، وكان لهم معها معاملات وتجارة وصلات مالية ، حتى ان اثرياء قريش كانوا يملكون الدور والبساتين في الطائف ويقصدونها للاصطياف والتمتع بالجو الجميل هرباً من حر مكة صيفا •

وقد أدت هذه الرابطة المتينة بين المدينتين الى تأخر اسلام الطائف ، والى جعل الامويين يعتمدون على الثقفيين كحلفاء قدماء ، فسلموهم القيادات والامارات حين صار اليهم امر الخلافة ، وقد نبغ من ثقيف الطائف في العصر الاموي اشخاص كثر منهم المغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه والحجاج بن يوسف الثقفي ومحمد بن القاسم الثقفي ويوسف بن عمر الثقفي والمختــار الثقفي وغيرهم • وسنخص بالذكر في حديثنــا القادم شخصيتين ســاعدتا معاويــة وعملتا على توطيد سلطانه ، وهما المغيرة بن شعبة ، وزياد بن ابيه •

١ ــ المغيرة بن شعبة :

ارسله معاوية اعملا على الكوفة سنة ٤١ هـ[١] ، واعتمد عليه في تهدئة الاحوال ، فاظهر لينا في معاملة الخوارج[٢] والعلويين ، وقدم لمعاوية خدمة عظيمة هي انه استمال اليه زياد بن ابيه • والمغيرة ذو ماض حافل ، اذ يقال انه اسلم وفر الى المدينة بعد هجرة الرسول اليها وان الرسول الكريم عهد اليه بعد فتح مكة ان يتوجه الى بلـدة الطائف فيهدم أصنامها • ولما انتقل الرسول الى جوار ربه قذف بخاتمه في القبر ليكون آخر من كاتب له صلة بالنبي • وكان يعرف الفارسية فكان القوم يعهدون اليه بمفاوضة الفرس • وقد تولى البصرة وعزل عنها لحادث أخلاقي[٣] سنة ١٧ هـ وعين سنة ٢١ هـ عاملا على الكوفة ، وفي عهده فتحت بـلاد الجبل واذربيجان • وفي خلافـة عثمان لزم الحياد ولم يدخل ما دخله الناس من شغب على عثمان او انحياز الى علي • ولما قتل عثمان اشار على علي ان يبقي معاوية واليا على الشام فلم يعمل علي بقوله ، ولا اعتمد عليه ، ولم يسلمه أي منصب ، فذهب الى معاوية وصار من رجاله المقربين ، فكافأه معاوية باعادته الى منصبه القديم إذ عينه واليا على الكوفة • ولما تسلم المغيرة هذا المنصب كان قـد تقدمت بـه السن فرغب في الراحة • فلم يندفع في نصرة معاوية ولم يسرف في معاداة الثائرين والمعارضين كالمستورد بن عُلّفة الخارجي وحجر بن عدى وغيرهما ، وذلك انه اراد ان يظل في منصبه وان يخلد الى الراحة والهدوء فلا يثير على نفسه شغب المشاغبين •

وقد قل عدد الخوارج في الكوفة في زمنـه ، وسـاعده الكوفيون على التخلص منهم لانهم كانوا اعداء مشتركين للامويين والكوفيين الذين هواهم

---

(١) انظر الطبري ، ج٥ ، ص ١٦٦ •

(٢) كان الخوارج قد ثاروا في الأيام الأولى لتولي معاوية الخلافة بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، واستعان معاوية بأهل الكوفة من أجل قمع ثورتهم،انظر ، الطبري ، ج٥ ، ص ١٦٥ــ١٦٦•

(٣) من أجل هذا الحادث ، انظر ، الأغاني ، ط• دار الكتب ، ج١٤ ، ص ١٤٥ ــ ١٤٧ ،وتاريخ الخلفاء ، ص ٥٨ ب وما بعدها •

في علي • وكان الكوفيون لا ينكرون حبهم لعلي ويحاول بعضهم اظهار هذا الحب ، وكانت سياسة المغيرة بالمقابل تتلخص بانه طلب منهم ان يحبوا عليـا ما ارادوا شريطة ألا يظهروا ذلك فتقوم بينه وبينهم خصومة يساق اليها سوقا بوصفه ممثلا للامويين •

وينقل الطبري حديثا على لسان المغيرة يشرح هذه السياسـة اذ نرى المغيرة يقول لرجل من اصحاب علي يدعوه الى التكتم : « إياك ان يبلغني عنك أنك تعيب عثمان عند احد من الناس ، واياك أن يبلغني انك تظهر شيئا من فضل علي علانية ••• فان كنت ذاكرا فضله فاذكره بينك وبين اصحـابك وفي منازلكم سراً،واما علانية في المسجد فان هذا لا يحتمله الخليفة لنا »[1]• على زعم آخر [2] •

٢ ـ زياد بن أبيـه :

حين تسلم معاوية الخلافة وجه سنة ٤١ هـ بسر بن أبي أرطاة الى البصرة ليقمع ثورة قام بها حُمران بن أبان [3] • ولم يكن بُسر بوالٍ بل كان قائدا عسكريا انتهت مهمته بانتهاء العمل الذي ندب له ، أما أول عمال معاوية على البصرة فكان عبد الله بن عامر الذي وليها من قبل لعثمان، وكانت البصرة قبله في حال من الفوضى والاضطراب بسبب اختلاف القبائل النازلة فيها وتناحرهم على السلطة ، فانتشرت الفوضى وفقد الأمن وكثرت حوادث القتل والنهب ، ولما جاء ابن عامر لم يلجأ الى العنف والحزم بل سار عـلى خطة المغيرة في مسالمة الناس ومداراتهم • ولئن صح ما فعله المغيرة في الكوفة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ١٨٩ •

(٢) من أجل تاريخ وفاة المغيرة ، انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٢ ، والأغاني،ط• دار الكتب، ج ١٤ ، ص ١٤٨ •

(٣) انظر تفاصيل الثورة في الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦٧ وما بعدها •

ولم يؤد الى مضاعفات خطيرة فان هذه السياسة في البصرة أدت الى تمادي الناس في غيهم والى استفحال الشر • ويبدو أن ابن عامر حين طلب الى معاوية أن يوليه البصرة كان يريد أن يسترد أموالا كانت له فيها منذ ولايته السابقة زمن عثمان ولا يريد أن ينخرط في حمأة المنازعات التي كانت تقوم بين أهلها [1] •

ويذكر الطبري أن ابن عامر قال لمعاوية « ان لي بها أموالا وودائع فان لم توجهني عليها ذهبت » [2] • كان ابن عامر يميل الى المسالمة وعدم اثارة الناس عليه ، وكل ما يهمه أن يحصل على أكبر قدر من المال يساعده على شيخوخة سعيدة • وساءت الاحوال في البصرة مما اضطر معاوية الى عزل ابن عامر وإرسال الحارث بن عبد الله الازدى والياً [3] • فأقام الحارث أربعة أشهر ومهد الطريق لمقدم زياد بن أبيه • أما ابن عامر فقد ترك البصرة بعد أن أخذ ما في بيت المال من أموال • وسمع معاوية بالخبر فأقرّه وزوجه ابنته هندا ارضاء له واكراما لولائه للبيت الاموي منذ زمن عثمان • وهكذا آلت ولاية البصرة الى زياد بن أبيه الذي قدمها سنة ٤٥ هجرية •

كان زياد كالمغيرة من رجالات ثقيف ودهاتها ، ويقول الطبري إن عددا من الثقفيين كانوا قد هاجروا الى البصرة منذ أن أنشأها عمر بن الخطاب، فأصابوا فيها ثروة ومكانة • وكاد زياد بين المهاجرين الثقفيين الى البصرة • ولكنا لانعرف له أباً [4] ، لذلك نسب الى أمه وعرف بادىء الامر باسم زياد ابن سمية • ولما بلغ الرابعة عشرة من عمره عهد اليه بتوزيع الغنائم على جند البصرة لانه كان يعرف الكتابة والقراءة • وكان عمر بن الخطاب يقول فيه « لو كان أبو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه » ولما كانت خلافة

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٦١ ب وما بعدها •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٧٠ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٦ •

(٤) من أجل نسب زيادة وتاريخ حياته قبل استلحاق معاوية له، انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨ أ — ٦١ ب •

علي انضم زياد الى صفه وتولى البصرة في غياب عاملها عبد الله بن عباس وذلك سنة ٣٨ هـ • ولما جاء ابن الحضرمي من قبل معاوية لاثارة بني تميم ضد علي تمكن زياد وأصحابه من اخماد الفتنة وقتل ابن الحضرمي بمساعدة الازد ، وعلى إثر ذلك بعثه علي الى فارس لتهدئة الاحوال فيها فقام بالمهمة دون قتال ، وأقام بقلعة في اصطخر متحديا معاوية ، وحين قدم بسر الى البصرة موفدا من قبل معاوية ليقمع ثورة حمران بن أبان ، أخذ أبناء زياد الثلاثة وحبسهم وكتب اليه « لئن لم تقدم لاصلبن بنيك » ولكن زيادا لم يأبه للتهديد ولم يقدم على بسر ولم يبايع • وعلم معاوية بالحادث فكتب الى بسر بتخلية أبناء زياد وتدخل المغيرة بن شعبة لاقناع زياد بالانضمام الى صف معاوية وسافر اليه في اصطخر واجتمع به وأقنعه فقبل والتحق بمعاوية بدمشق ، فسر به سرورا عظيما وأغدق عليه الاموال وأعطاه قصرا بالكوفة وأقطعه أرضا واسعة ثم الحقه بنسبة فصار يعرف باسم زياد بن أبي سفيان[١] •

وفي سنة ٤٥ هـ ارسله واليا على البصرة وضم اليه سجستان والهند والبحرين وعمان • قدم زياد البصرة والفسق فيها ظاهر فاش فخطب فيها خطبته المشهورة التي تعرف باسم البتراء[٢] ، وقد كان لهذه الخطبة أثر حاسم في نفوس البصريين وفي سلوكهم ، لانه اتبعها بالعمل وأظهر أنه كان ينفذ ما يهدد به فانتشر الامن في البصرة وأطرافها وعم أقاليم المشرق حتى وصل البادية وخافه الخوارج وغيرهم من أصحاب الفتن والقلاقل • وكان زياد يأمر صاحب شرطته بالخروج بعد صلاة العشاء ليتفقد أحوال المدينة ، وكانت تعليماته اليه أنه لا يجد أحدا خارج بيته في هذا الوقت الا قتله ، وقصته مع الاعرابي فيها من الدلالة على حزم زياد وقناعته بأنه سينفذ القانون بأي ثمن كان • وقد ألزم الناس بالطاعة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا حتى أمن الناس بعضهم

---

(١) انظر تفاصيل أكثر في المسعودي « مروج الذهب » ج ٣ ، ص ١٤ ، وانظر أيضا الطبري ، ج ٥ ، ص ١٧٦ وما بعدها •

(٢) انظر نص هذه الخطبة في تاريخ الخلفاء ، ص ٦٢ أ وما بعدها •

بعضاً فكان الشـيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحـد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه وتبيت المرأة لا تغلق عليها بابها [1] .

ولما مات المغيرة سنة ٥٠ هـ ضمت الكوفة إلى زياد فكان زياد يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة ستة أشهر ويستخلف على البصرة في غيابه سَمُرة بن جَنْدَب . وبعد زيارتـه الاولى للكوفة وخطبته فيهـا عاد الى البصرة وبعث الى الكوفة نائبا عنه عمرو بن الحريث وبقي هو في البصرة وكان يذهب الى الكوفة في كل عام مرة ليتفقد أحوالها ويقمع شغب أهلها اذ أن أمر شيعة علي فيها كان قد استفحل بعدما بـدا من لين المغيرة وتسامحـه وسياسته التي لا تعرف البطش ، وقام الكوفيون على عمرو بن الحريث ممثل زياد فيها فحصبوه في مسجد الكوفة وهو يخطب فيهم بتحريض من حجر ابن عدي الكندي رئيسهم الذي كان يجتمع اليه شيعة علي ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه .

فتوجه زياد الى الكوفة حين بلغته هذه الاخبار ودخل المسجد وصعد المنبر وحجر جالس في المسجد وحوله أصحابه ، فخطب زياد مهددا متوعدا وأظهر أن عهد سياسة اللين قد ولى وأنه سيأخذ الناس بأعمالهم ، ثم كتب الى معاوية يستشيره في أمر حجر ويذكر شغبه وتجميعه الناس ضد الامويين. فأجابه معاوية أن شدَّه في الحديد ثم احمله اليّ . فبعثه الى دمشق مع نفر من أصحابه الى معاوية . فأمر هذا بقتله . والشيعة تعد حجراً ورفاقه هؤلاء من الشهداء . وهكذا تمكن زياد من اخماد هذه الفتنة بمساعدة أهل الكوفة انفسهم الذين قال لهم زيـاد : « ... أبدانكم معي وأهواؤكم مـع حجر ... انتم معي واخوانكم وأبناؤكم ونساؤكم مع حجر » . فوثبوا اليه وقالوا : « معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما هاهنا رأي الا طاعتك وطـاعـة أمير المؤمنين وكل ما ظننا أن فيه رضاك وما يستبين به طاعتنا وخلافنا لحجر

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٦٣ أ والطبري ، ج ٥ ، ص ٢٢٢ .

« فمرنا به . » [1] وكان لمقتل حجر وأصحابه أثر عميق في النفوس وقد أثار الكثيرين ، لما اتصف به حجر من صلابة في العقيدة وايمان عميق بأحقية آل البيت . وقد أثار مقتله قرائح الشعراء ونظمت في رثائه القصائد الطويلة . ومن أشهر ما نظم في رثائه القصيدة التي مطلعها :

تَرَفَّـع أيهـا القمـر المنيـر تبَصَّـر هل ترى حجراً يسير

وقد أستغرب البعض قتل معاوية لحجر وقالوا له : أين غاب عنك حلم ابي سفيان . وتوفي زياد سنة ٥٣ هـ ، بعد أن حكم العراق فترة ثمان سنين منها « خمس سنين البصرة وتمام ثمان سنين البصرة والكوفة » [2] فهجاه البعض ورثاه البعض الآخر . وكان زياد في نظر رجال القبائل العربية جبارا ظالما لانهم كانوا يعدون الحاكم الحازم الذي يبطش برجال الفتنة ويخمد الثورات سواء كان خليفة أو عاملا رجلا ظالما . والمهم من أجل فهم هذه الملاحظة أن نذكر أن القبائل العربية التي نزلت العراق بعد الفتح والتي حرمها انتقال الحكم الى البيت الاموي من أغلب امتيازاتها السابقة والتي كانت تأمل أن تكون لها لو استمر الامر لعلي ، كانت في غالبيتها من قبائل الردة التي رفضت قيود الدولة كما فرضها عليها الاسلام أو الامويون بعد ذلك . كما انه بشكل عام كان يهم البدوي كثيرا أن يكون حرا منطلقا من كل قيد ، واذا ما حاول عامل أو حاكم كبح جماحه عده مستبدا ظالما وثار عليه إذا استطاع وانهى عهده .

واذا أردنا أن نحلل عهد زياد كوال على البصرة أولا وعلى العراق كله بعد ذلك لوجب علينا القول بأن زياداً لم يسرف في قتل الشيعة في الكوفة كما يقال عنه ، كما أنه كان مضطرا للوقوف منهم هذا الموقف القاسي لانهم بادؤوه بالعداء فهم الذين حصبوه وحصبوا ممثليه في اول يوم قدم فيه اليهم كأمير ، والواقع أنه لم يسرف في قتل الشيعة بل راقب حركاتهم وحدّ من

---

(١) من أجل قصة زياد مع حجر ، انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ وما بعدها .
(٢) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥ أ ــ ٦٥ ب .

نشاطهم لاسيما بعد تخلصه من حجر بن عدى ، حيث استطاع استمالة سادات القبائل الذين ساعدوه ووقفوا الى جانبه صفا واحدا ٠

وأما البصرة فلم يكن للشيعة فيها شأن كبير ، لذلك لم يثر البصريون شغبا كبيرا على زياد وأطاعوه ، أما الخوارج فكانت معاملته لهم أشد لانهم حاربوه ودعوا الناس الى خلع الخليفة الاموي والانضمام اليهم والقبول بأفكارهم ٠ وقد أراد زياد أول الامر أن يسالمهم فتركهم يقولون ما يريدون٠ ولكن حين بدأوا بالاعتداء على الناس ونهب الاموال وجد أنه لا بد له أن يوقفهم عند حدهم ، فنكل بهم ، وقتل زعماءهم والمحرضين منهم ٠ وعلينا أن نلاحظ أن زيادا لم يقتل من الخوارج الا الذين رفعوا السيف في وجهه، ولهذا كان قتل أغلب الخوارج في ساحات القتال وليس في السوق ٠ وكان سَمُرة بن جُنْدَب على شرطته،وقد لعب هؤلاء الشرطة دورا هاما في ملاحقة الخوارج[١] ٠ على أن زيادا لم يستعن بالشرطة في اخماد شغب أهل الكوفة، بل استعان برجال القبائل وذلك بأن فرّقهم وأوقع بينهم واستمال بعضهم اليه٠

وعن هذا الطريق تخلص من شغب المشاغبين ٠ وكان من عادته أن يجمع سادات القبائل وأن يتحدث اليهم ويستشيرهم في أمور الدولة وذلك في اثناء حضورهم مجلسه في مقر الامارة وكان يجزل لهم العطاء ، وكانت سياسته القبلية تتلخص بأنه عهد الى كل شيخ قبيلة بأمر قبيلته فجعله مسؤولا عنها جملة وتفصيلا ٠ وهكذا أخذ رجال القبائل يتنافسون في التقرب اليه بسبب منافساتهم وحزازاتهم التي استغلها ، لا سيما وأنه استعمل بيت المال كوسيلة لتقريب القلوب اليه[٢] ٠ فكان يعطي من يشاء ويحرم من يشاء وعن هذا الطريق استطاع أن يضبط الامن في الكوفة ٠ وتتصف سياسة زياد بأنها استطاعت أن تضعف عصبية القبائل وذلك عن طريق جمع المقاتلين من كل قبيلة في فرق مختلفة بحيث لا يقاتل أبناء القبيلة في فرقة عسكرية واحدة،

---

(١) انظر مثلا الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ من أجل دور الشرطة في ملاحقة الخوارج ٠

(٢) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٢٣ ٠

بل كانت الفرقة العسكرية عبارة عن خليط من افراد عدة قبائل ، وكـان يعين لقيادة هذه الفرق قوادا من أتباعه ، وبذلك استطاع أن يجعـــل ولاء المقاتلين للدولة وليس للقبيلة التي ينتمون اليها • وقد أظهر زياد براعة في ميدان الخطابة بقدر ما أظهرها في ميدان السياسة ، وكان المسجد الميــدان الذي يستعمله لاظهار هذه البراعة • وكانت خطبه كالبيانات الوزارية في عصرنا الحاضر يحدد فيها خطوط سياسته ويشرحها شرحا يزيل كل لبس أو غموض ، وكان يتبع القول بالعمل ، وقد عرف الناس عنه هذا فهـابوه وأطاعوه • وزياد الى جانب كل هذا رجل دولة ، يخلص أشد الاخلاص لرؤسائه ، وقد صار هدفه بعد ان انضم الى البيت الاموي أن يثبت سلطان هذا البيت وأن يوطده في الاقاليم التي عهد اليه بادارتها • وقد نجح في هذا الميدان كما رأينا رغم ما كان يتهدد مهمته من صعاب • ولزياد فضل كبير في تثبيت روح الجماعة والانقياد للحكم المركزي • هذه الافكار التي حاول الاسلام زرعها في نفوس العرب ، والتي لاقت من القبائل مقاومة شديدة منذ حياة الرسول وفي عصر الراشدين •

ولا بد لنا أن نلاحظ في نهاية هذه الفقرة من حديثنا أن معارضـــة الكوفيين لحكم بني أمية لم تكن بدافع العصبية القبلية بقدر ما كانت بدافع نقمتهم على أصحاب الدولة أنفسهم وليس على الدولة كفكرة • والسبب في هذا يعود ولا شك الى أن خلافة بني أمية حرمت الكوفيين من المركز الاول بين اقاليم العالم الاسلامي الذي كانوا يتمتعون به زمن علــي بن أبي طالب حين كانت مدينتهم حاضرة الدولة ومركز الثقل السياسي ، وبالتالي موئل الخيرات والازدهار • ولم يكن زياد ليفرق بين فكرة الدولة وبين من يقوم على تسيير شؤون الدولة ، وكان اخلاصه لفكرة الدولة اخلاصا لا يرقى إليه الشك ، لذا كان يطلب من الجميع أن يخلدوا الى الطاعـة وأن يتركـوا التناحر القبلي في سبيل مصلحة الجماعة الممثلة بالدولة • وقد عرف الامويون في زياد هذا الاخلاص فاعتمدوا عليــه اعتمادا مطلقا وأطلقوا يده في تسيير

شؤون العراق دون معارضة وحين توفي استعملوا أبناءه بنفس الثقـة التي استعملوه بها •

ولاة العراق بعد زياد : ولي الكوفة لمعاوية بعد وفاة زياد : ١ ـ عبد الله بن خـالد ابن أسيد[١] (الـذي كانت ولايته من سنة ٥٣ ـ ٥٥ هـ) ٢ ـ الضحاك بن قيس الفهري[٢] (٥٥ ـ ٥٨ هـ) ، ٣ ـ عبـد الرحمن ابن أم الحكم الثقفي[٣] (٥٨ هـ) ، ٤ ـ النعمان بن بشير الأنصاري[٤] (٥٩ هـ) •

أما البصرة فقد وليها بعد زياد سمرة بن جندب الفزاري[٥] (٥٣ هـ)، وعبد الله بن عمرو بن غيلان[٦] (٥٤ هـ) ، وعبيد الله بن زياد (٥٥ هـ)• وقد جاء حول توليةعبيد الله بن زياد على البصرة في تاريخ الخلفاء أنه لما مات زياد وفد ابنه عبيد الله على معاوية فسأله معاوية : « من استخلف أخي على عمله ؟ فقال استخلف خالد بن أسيد على الكوفة وسَمُرة بن جُنْدَب على البصرة • فقال معاوية : إن استعملك أبوك لأستعملنك • فقال عبيد الله : أيسرك أن يقولها لي أحد بعدك• لو ولاك أبوك أو عمك وليتك • فاسترجح عقله بهذا الكلام فولاه خراسان ، وعهد إليه فغزا خراسان ، وعهد إليه وفتح بيكند وهي من بخارى ، وقدم بألفـين من سبي بخارى كلهم جيـد الرمي بالنشاب • وكان معاوية ولى البصرة عبد الله بن عمرو بن غيلان فعزله وولى عبيد الله **العراق** مكان أبيه • »[٧]

وكان ابن زياد هذا أشد من أبيه في مقاتلة الخوارج والالتزام بوجهة نظر الدولة والدفاع عن مواقفها ونظرتها إلى الحكم ، مما أثار عليه المعتدلين والمتطرفين على حد سواء ، وكان أكثر شهداء الخوارج في زمنه •

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ •
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٠٠ •
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣١٤ •
(٤) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣١٥ •
(٥) الطبري ، ج ٥ ، ٢٩٢ •
(٦) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٥ •
(٧) تاريخ الخلفاء ، ص ٦٥ ب ـ ٦٦ أ •

معاوية وأهل الشام : أول ما يستلفت النظر في ميدان العلاقات بين معاوية وأهل الشام أن المعلومات التي تقدمها لنا المصادر حول هذا الموضوع أقل بكثير مما تقدمه لنا عن العراق زمن معاوية وابنه يزيد • ولعل السبب في ذلك هو أن الحالة في الشام كانت هادئة ولم تقع فيها فتن أو احداث خطيرة كالتي وقعت في العراق ، مما يثير انتباه المؤرخين ويجعلهم يفردون الصفحات الطوال للتحدث عن أخبار القطر الثائر • يضاف الى هذا أن معاوية تولى الحكم بنفسه في الشام فاستمال اليه الناس ونقل بيت المال من الكوفة الى دمشق وزاد في عطاء الجند واشعر الشوام بشكل عام أنهم عصبته المفضلة وموضع اهتمامه ورعايته •

وهناك في الاساس فوارق كثيرة بين عرب الشام وعرب العراق ، أهمها أن القبائل العربية التي كانت تنزل الكوفة والبصرة قد جاءت من البادية فبقيت محافظة على تقاليدها البدوية ولم تتأثر بالقدر الكافي بمظاهر الاستقرار والخضوع الي حكومة كما كان الحال في الشام التي كانت تنزلها قبائل عربية منذ القديم تمرست بفكرة الخضوع للحكم وعاشت منذ الجاهلية في ظل مجتمع مستقر يدين بالولاء للحاكم ويفهم معنى الدولة • فالقبائل العربية في العراق اذن ظلت محافظة على تقاليدها البدوية لذلك صعب عليها أن تخضع وتنقاد لامير ليس منها وليس له من رابطة تربطه بها سوى أنه ممثل للخليفة المقيم بدمشق والذي هو أيضاً لايمت بصلة نسب الى القبائل التي يحكمها •

وقد شاءت الصدف أن يتولى حكم العراق عمال كانوا خلال فترة حكمهم مثالا للوحشة بين الحاكم والمحكوم ، فلم يعملوا على جمع الناس حولهم عن طريق الاحسان اليهم وائتلاف قلوبهم في حين أن معاوية الذي عرفه الشوام واليا وخليفة لمدة تزيد على الاربعين عاما استطاع خلالها أن يجمع حوله القلوب وأن يكسب تأييد الناس الى درجة أنهم حملوا السيف للدفاع عنه ولنصرته فيما يريد •

وأخيرا هناك ناحية لابد من ايرادها في مجال المقارنة بين حال عرب العراق وعرب الشام ، وهذه الناحية هي ان العرب الذين نزحوا الى العراق سكنوا في مدينتين أنْشِئتا حديثا وهما البصرة والكوفة ، ولم يكن في هاتين المدينتين في الاصل عناصر سكانية غريبة يساعد وجودها على تصريف هؤلاء البداة بأساليب حياة أقرب الى الاستقرار والقبول بفكرة الحكم المركزي فحافظوا على الاساليب التي حملوها معهم حين خرجوا مهاجرين وفاتحين من جزيرتهم . وهذا الشرط كما هو معلوم كان متوفرا في دمشق . وكان العربي المهاجر ينخرط في وسط مستقر متمدن يشعر معه أنه جزء من مجموعة مطيعة ، وأنه اذا ثار فسيكون النغم النشاز ضمن هذه المجموعة المطيعة ، كذلك خرج الى الشام قبائل عديدة أكثرها قيسية أقامت في الجزء الشمالي من البلاد ، أما في الوسط والجنوب فقد أقامت قبائل أخرى نزح أغلبها قبل الفتح العربي واستوطن واستقر ، وأغلبها من القبائل اليمنية ككلب وقضاعة وأزد الشراة وغيرها واعتمد عليها معاوية ، وقربها اليه ، فاستفاد من خبرة رجالها الذين مضى على وجودهم في ديار الشام أمد طويل حتى فاخروا بني أمية بذلك ، وقد ساعدتهم اقامتهم الطويلة في هذه الربوع على معرفة معالم حضارة هذه المنطقة والتأثر بها ، هذا فضلا عن أنهم أقاموا في الشام دولة صغيرة هي دولة الغساسنة كانت في حلف مع بيزنطة واعتنق بعض أفرادها المسيحية واقتبسوا الكثير من مخلفات الحضارة الآرامية واليونانية والرومانية في ميدان التنظيم العسكري والسياسي والاداري ونقلوا بالتالي هذه الخبرات الى معاوية وحكومته لانهم اعتبروا أن عمل معاوية وممارسته لشؤون الحكم هو اتمام لعمل امرائهم الغساسنة ، اذ أن فكرة السلطة والدولة التي جاء بها بنو أمية لم تكن غريبة عنهم ، بل عرفوها من قبل ، ولذلك قبلوا بمعاوية ، واعتبروا عمله مشروعا وانضموا اليه فكانت جيوشه تتألف في كثرتها منهم ، وكان جنودهم أفضل تدريبا وتمرسا بشؤون الحرب من الجنود القبليين الذين ليس لهم نفس الميزة في فنون القتال .

والطريف في سياسة معاوية ان هذا الخليفة استطاع ان يقيم التوازن

بين قيس ويمن مما ساعده على اقامة استقرار داخلي والى إخفات صوت النزاع القيسي اليمني القديم وان يجمع في جبهة موحدة جميع العناصر العربية التي تتشكل منها دونته ، وسيخفت صوت صراع العصبيات القبلية طوال الفترة التي يحكم فيها هو وابنه ، ولم يستيقظ هذا الصوت الا في الفترة التالية حين حدثت معركة مرج راهط كما سنرى •

عاش معاوية في دمشق ، وهو الخليفة الاموي الوحيد الذي عاش في هذه المدينة طوال فترة حكمة ، واتخذها عاصمة إسمية وفعلية له ، وقد متّن صلاته ببني كلب فتزوج امرأة منهم هي ميسون ولدت له أبنا جعله وليا للعهد فاعتبر القوم هذا الزواج حلفا سياسيا لأنهم اعتبروا أنفسهم جميعا أخوال ولي العهد وبالتالي حماة طبيعيين لهذا البيت الحاكم • وقد سارع الكلبيون لاعتناق الاسلام ، سيما بعد الانتصارات العظيمة التي أحرزها رجاله تحت راية القرآن ، فكان اسلامهم نصراً للعروبة ولمعاوية بالذات •

ولا بد لنا أن نلاحظ في هذا الصدد أن استمالة معاوية للقبائل العربية قد أثَّرت في نفوس الآراميين من سكان البلاد الاصليين وشعروا أن قربهم من الخليفة سيساعدهم كثيراً على تحسين أوضاعهم ، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم الآخر على مسيحيته ، فلم يسيء معاوية اليهم ، ولم يشعرهم أن هناك فارقاً في المعاملة بينهم وبين العرب المسلمين كما كان الحال في العراق ، حيث كان موقف العرب الآراميين في العراق غير موقفهم من بقية العناصر المسلمة في البلاد .

كان معاوية رجل دولة من الطراز الاول يحسن اختيار الرجال ، ويعرف كيف يفوض اليهم الامور ، فأخلص اليه من كان في خدمته ، ونفذوا أوامره • فقد عرف معاوية مثلا كيف يستغل دهاء عمرو بن العاص الحليف الذي لم يكن كبير الثقة به • كما استطاع أن يكسب الناس جميعا بحلمه ودهائه ، حتى صار يلقب بمربي الدول ، وسائس الامم ، وراعي الممالك • وكانت فيه أخلاق السيد العربي وحلمه • ويقال أن رجلا أغلظ له مرة في

الكلام فقيل له .. : أتحلم عن هذا .. فقال : « اني لا أحول بين الناس وألسنتهم ، مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا » . وهو في نفس الوقت رجل دولة، لا يتعجل الحوادث وينتظر الفرص حتى يستطيع اقتطاف الثمرة في حينها.

المنجزات العسكرية زمن معاوية :

لم يكن معاوية رجل استكانة وخضوع ، بل كان رجل حرب وغارة. ففي زمنه توغل العرب في المشرق والمغرب وسارت جيوشه مراراً لحرب الروم براً وبحراً .

وقد كان شغله الشاغل في أول عهده بالخلافة توطيد أركان حكمه وإخفات الاصوات المعارضة ، وبعد أن تم له ذلك ووطد دعائم حكمه اتجه بكليته الى الجهاد والفتح . وكان إبان صراعه مع علي قد عقد هدنة مع البيزنطيين (الروم) ليتسنى له حل مشاكله الداخلية ،ولكنه ما أن شعر بأن أوضاعه في الداخل تسمح باستئناف العمليات العسكرية حتى نقض هذه الهدنة وعاود نشاطه العسكري البري والبحري الذي كان قد بدأه منذ ولايته على بلاد الشام .

ولن يكون حديثنا عن منجزات معاوية العسكرية مفصلا أو مطولا ، فقد خصص باحثون عرب وغير عرب مؤلفات قيمة لدراسة موضوع الفتوح عامة ، وموضوع الصراع بين العرب والروم [1] ، الأمر الذييجعلنا في حل من الدراسة المفصلة ، لذا فسنكتفي في بحثنا على تلمس الجوانب العامة لهذا الأمر حتى تكتمل الصورة ، وحتى يتعرف القارىء على هذا الجانب من نشاط الدولة العربية زمن هذا الخليفة .

---

(١) من أجل موضوع الفتوح ، انظر كتب الفتوح العامة والخاصة ، وانظر أيضاً كتب : الأمويون والبيزنطيون ، للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، العرب والروم ، لأسد رستم (جزءان) ، والعرب والروم ، لفازيليف وترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ، والدولة البيزنطية للسيد الباز العريني ، والكتب الأجنبية المختلفة التي تبحثفي تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وكتابنا : الامبراطورية البيزنطية ، الذي يحتوي بعض هذه المراجع والاشارات الى الحروب بين العرب والروم .

كان نشاط معاوية العسكري بعد أن تولى الخلافة استمراراً لنشاطه في هذا الميدان منذ أن كان والياً على الشام • فقد تابع معاركه ضد البيزنطيين في البر والبحر وقصدت جيوشه آسية الصغرى غازية ، وكانت هذه الغزوات البرية الجزء المتمم لغزواتهم البحرية السابقة التي جرت زمن الخلفاء الراشدين والتي أدت الى استيلاء العرب على أجزاء كثيرة من ممتلكات بيزنطة في البحر الابيض المتوسط وجعلتهم يتراجعون الى بر آسية الصغرى • ويبدو أن البيزنطيين لم يستغلوا فرصة انشغال الخلافة إبان فتنة عثمان لاستعادة ما كان العرب قد استلب من أملاكهم في المتوسط وذلك بسبب ما كانت تعانيه دولتهم من مشاكل بسبب هجرة العناصر السلافية المختلفة وهجماتها المتكررة على حدود الامبراطورية،[1] الأمر الذي شغلهم وجعلهم ينصرفون لدرء الخطر الجديد •

على أن بيزنطة وجدت الفرصة سانحة في هذه الاثناء لاستعادة نفوذها على أرمينيا التي كان العرب قد فتحوها واستخلصوها منهم منذ خلافة عثمان وذلك حين كان معاوية والياً على الشام • وقصة فتح العرب لأرمينيا تستحق وقفة قصيرة نستعرض خلالها أهم ملامح هذا الحدث البارز في تاريخ الفتوحات العربية • فقد كانت أرمينيا إبان حركة الفتح العربي الاسلامي تعاني من حال من البؤس والفوضى سببها النزاع الذي قام على أرضها بين القوتين الكبيرتين آنذاك : فارس وبيزنطة اللتين كانت كل منها تحرص على السيطرة عليها لما لموقعها من أهمية استراتيجية • ونتيجة الصراع بين القوتين الكبيرتين انقسمت أرمينيا قبل الفتح الاسلامي الى قسمين فقد وقع القسم الأكبر وهو الجزء الشرقي من أراضيها تحت التبعية الفارسية ، ووقع الجزء الغربي وهو القسم الأصغر تحت النفوذ البيزنطي • ولم ينهج الفرس والبيزنطيون نهجاً حميداً أو محبباً في حكم هذه المنطقة فعمتها الفوضى وساءت حالها لحد غدا معه الأرمن على استعداد للجوء الى أية قوة أخرى تنقذهم من البؤس والفقر

---

(١) من أجل موضوع الصراع مع السلاف زمن كونستانس الثاني ، وجهود هذا الامبراطور ضدهم ، انظر ، كتابنا : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٦ وما بعدها •

والفوضى التي وقعوا فيها . وجاء خلاصهم على يد معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً لعثمان على الشام وضم إليه الخليفة حكم اقليم الجزيرة بالعراق « لتوحيد العمليات الحربية ضد البيزنطيين . » . [١] وقد عهد معاوية الى حبيب بن مسلمة بقيادة عملية فتح أرمنية الذي سار إليها سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م واستولى على عاصمة أرمنية البيزنطية ثيودو سيوبوليس Theodosiopolis أو « قاليقلا » كما تسميها المصادر العربية . [٢]
وبعد ذلك أمده معاوية بجيش آخر لاستكمال الفتح ، وجرت بينه وبين البيزنطيين على أرض أرمنية معارك عديدة انتهت بسيطرة العرب على هذا الجزء من الأرض الأرمنية . وتابع بعد ذلك زحفه على القسم الفارسي حتى بلغ عاصمته وهي مدينة دفين Dwin أو ديبل كما تسميها المراجع العربية [٣] . وأتم حبيب فتح أرمينية بوصوله الى مدينة تفليس التي عقد صلحاً مع أهلها مقابل اعترافهم بالسيادة الاسلامية [٤] . وقد استمرت عمليات حبيب في أرمينية مدة عشر سنوات عاد بعدها الى الشام حيث عهد إليه معاوية بادارة اقليم الثغور المتاخم للحدود البيزنطية واستقر في حمص التي جعلها مركزاً لغاراته على البيزنطيين .

وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية اضطر معاوية لسحب قواته المرابطة في أرمينية ليستخدمها في صراعه ضد خصمه ، وكان حبيب بن مسلمة ، القائد المظفر في ميدان الحروب مع بيزنطة،قائد الجيش الذي أرسله معاوية لنجدة عثمان حين كان محاصراً وعاد بعد أن علم بمقتله [٥] .

وقد أدى انسحاب الجيش الاسلامي من أرمينية الى حدوث فراغ استغله البيزنطيون لاسترجاع سيادتهم على هذا الموقع الستراتيجي الهام .

---

(١) الدكتور ابراهيم احمد العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، الدار القومية للطباعة والنشر الطبعة الثانية ، ص ١٢٣ . وانظر أيضاً ، البلاذري ، فتوح ، ج ٣ ، ص ٢٥٩ .
(٢) العدوي ، ص ١٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٤) انظر البلاذري ، فتوح ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .
(٥) انظر العدوي ، ص ١٢٥ .

ونجح البيزنطيون في تحقيق هدفهم وسقطت أرمينية مرة أخرى في يد الامبراطورية البيزنطية لتعاود سياستها الجائرة في حكم الأرمن بسبب ماكان بين الطرفين من عداء مذهبي وبسبب ترحيب الأرمن بالفتح العربي .

على أنه ما كادت تؤول الخلافة الى معاوية حتى عاودته فكرة استعادة هذا الاقليم الهام وإعادته الى السيطرة العربية . وقد ساعد معاوية في تحقيق هدفه سوءالادارة البيزنطية واستشراء الفساد وانتشار الثورات على الحكم البيزنطي ولا سيما الثورة التي قام بها سابور Sapor قائد الجيوش البيزنطية في أرمينية الذي ثار على الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨م وبعث بمندوب من قبله الى معاوية « يطلب منه المساعدة ويعده مقابل ذلك بتمهيد الطريق للمسلمين للاستيلاء على آسية الصغرى وإبعاد الجيوش البيزنطية عنها ، ولا سيما المرابطة منها على تخوم الشام الشمالية . »[(١)] وقد عرف قسطنطين الرابع بمحاولة سابور للاتصال بمعاوية فأرسل بدوره رسولا الى البلاط الأموي ليحذر الخليفة من التورط في هذا الأمر ، وأدرك معاوية أن الفرصة مواتية لاسترداد أرمينية ، فأرسل الى أهلها يدعوهم الى الاعتراف بسلطته والدخول في تبعية المسلمين ودفع الجزية مقابل حمايتهم وطرد البيزنطيين من أرضهم[(٢)] . وأرسل في نفس الوقت جيشا لطرد فلول البيزنطيين من أرمينية وحقق جيشه النصر على البيزنطيين وعادت أرمينية الى التبعية العربية ، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموي[(٣)] .

ولم تكن الجبهة الأرمنة هي الجبهة البرية الوحيدة التي قامت فيها حروب بين العرب والبيزنطيين زمنّ معاوية ، بل قامت بينه وبينهم حروب أخرى أطلق عليها وعلى غيرها من الحروب التي قامت بين العرب والروم اسم « حرب الثغور »[(٤)] . وكانت مناطق الثغور خالية من الناس إلا من

---

(١) العدوي ، ص ١٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) العدوي ، ص ١٢٧ .

(٤) الثغور مفردها « ثغر » ومعناها كل موضع في أرض العدو يكون في بطن واد أو فرجة جبل.

الجراجمة النصارى الذين كان ولاؤهم يتذبذب بين العرب والروم حسب ما تمليه مصالحهم [1] . وقد وضع العرب نظاما لحرب الثغور يتلخص بأنه كانت تخرج بانتظام حملات سنوية من سورية على بلاد الروم بدءا من العام ٢٩ هـ تعرف باسم الصوائف والشواتي وهي عبارة عن غارات تجري في مواسم معينة من صيف وشتاء كل عام لاختبار قوة عدوهم ولايقاع الاذى به وأخذ ما يمكن أخذه من غنائم .

وكانت هذه الصوائف والشواتي التي لم تنقطع منذ العام ٢٩ هـ إلا بسبب الأوضاع الداخلية كما اسلفنا، بمثابة تمرين سنوي على اجتياز آسية الصغرى ، وقد استؤنفت منذ العام ٤٢ هـ كما يذكر الطبري [2] ،واستمرت بعد ذلك ، فكانت غزوة بُسْر بن أبي أرطأة أرض الروم ومشتاه في أرضهم « حتى بلغ القسطنطينية فيما يزعم الواقدي » في العام ٤٣ هـ [3] ، وفي العام ٤٤ هـ دخل المسلمون بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم وأمضوا الشتاء على أرضها ، كما أن بسر بن أبي أرطأة غزا بيزنطة بحراً [3] . ويبدو أنه في شهر معين من الشتاء وحين يشتد البرد في آسية الصغرى كان الجيش العربي يوقف عملياته العسكرية ويعسكر على أرض بيزنطية ليستأنف عملياته حين يتحسن الطقس . وقد دفع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان خلال السنوات الأولى من حكم معاوية أشهر من قاد الغزو ضد الروم ، حياته ثمنا لهذه الغزوات التي اكسبته شهرة وقوة ، لدرجة أن معاوية نفسه خاف أن يغدو منافسا خطرا له . فدبر مؤامرة لقتله بالاشتراك مع ابن أثال النصراني لقتله بعد أن عاد من حملة قادها ضد الروم شتاء عام ٤٦ هـ ، وكانت مكافأة ابن أثال على فعلته هذه أن ولاه معاوية خراج حمص ووضع عنه خراجه [5] . وبعد وفاة عبد الرحمن بن

---

(١) من أجل الجراجمة وأصلهم ومنطقة سكناهم وعلاقاتهم بالدولة الأموية ، انظر ، البلاذري ، فتوح ، ج ٢ ، ص ٢١٧ وما بعدها .

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

(٣) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ١٨١ والتعليق الذي يورده الطبري على هذا الخبر .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٥) انظر القصة بكاملها في الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٢٧ .

خالد بن الوليد ، تابع معاوية سيرته في غزو أرض الروم ، ففي سنة ٤٧ هـ كان مالك بن هبيرة القائد الـذي تولى أمر غزو الروم برا ، وغزاهم بحرا في العام ٤٨ هـ ، وعاود الكرة في العام ٤٩ [(١)] هـ • ولم يكن ابن هبيرة القائد الوحيد الذي يقوم بهذه العمليات ضد الروم بل شاركه هذا الشرف قواد آخرون : كبسر بن أبي أرطأة وسفيان بن عوف الأزدي وأبي عبد الرحمن القيني وفضالة بن عبيد وغيرهم • وتتالت الغزوات بعد ذلك على أرض الروم برا وبحرا خلال الأعوام ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ هـ • وفي هذه السنة الأخيرة (٥٣ هـ) ، احتل المسلمون جزيرة رودوس بقيـادة جُنادة بن أبي أميـة الأزدي [(٢)] ، وفي السنة الثالثة (٥٤ هـ) تابعوا احتلالهم للجزر المتوسطية التي تقود الى القسطنطينية ، فاحتل جنادة أيضا جزيرة أرواد [(٣)] • وكانت هذه الغزوات البحرية مصحوبة بعمليات عسكرية برية سنوية يتولاها القادة الذين ذكرنا وسواهم •

وقد وصلت العمليات العسكرية البرية التي قادها قواد عرب ضـد بيزنطة زمن معاوية الى حدود مدينة القسطنطينية • ويحدثنا صاحب الأغاني عن إحدى هذه الصوائف التي أرسلها معاوية وشارك فيها ابنه وولي عهده يزيد ، وقد وصل الجيش في هذه الحملة حتى القسطنطينية ويقول صاحب الأغاني في حديثه عن جهاد يزيد في هذه لحملة وما حققه من نصر : « ثم صَفَّ (أ ي يزيد) العسكر ، وحمل حتى هُزِم الرومُ ، فأحجرهم في المدينة ، وضرب باب القسطنطينية بعمود حديد كان في يده ، فهشمه حتى انخرق » [(٤)] • وكان يقصد معاوية من وراء تسليم ابنه قيادة هذه الحملـة اعلاء مركزه واظهاره كعبقرية عسكرية تصلح لقيادة المسلمين ولنفي تهمة المجون عنه [(٥)] • وقد شارك في هذه الحملة كبار رجالات الصحابـة وعلى

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ •

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٨٨ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ •

(٤) الأغاني ، ج ١٧ ، تحقيق علي محمد البجاري ، ط • القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢١٠ •

(٥) انظر المصدر السابق ، نفس الصفحة •

رأسهم صاحب الرسول ابو أيوب الأنصاري الذي استشهد في هذه الحملة ودفن بالقرب من أسوار العاصمة البيزنطية •

ويبدو أن احتلال القسطنطينية كان من بين أهداف سياسة معاوية العسكرية ، فاذا تركنا جانبا ما ذكرناه آنفاً عن صوائفه وشواتيه وحملاته البرية المتلاحقة على البر البيزنطي عبر انطاكية وآسية الصغرى [١] وتتبعنا سير حملاته البحرية التي بدأ تمنذ العام ٦٤٩م حين سار معاوية بنفسه على رأس أسطول عربي لاحتلال قبرص وأخضع عاصمتها كونستانتيا Constantia لحكمه ، ثم احتلال العرب سنة ٦٥٤ لجزيرة رودوس وبعدها جزيرة كوس وغاراتهم على كريت [٢] ، لبدا لنا واضحا أن هدف معاوية كان القسطنطينية ، فالطريق البحري الذي اتبعه : قبرص ، رودوس كوس يظهر بوضوح أنه كان يريد العاصمة البيزنطية • وقد أدركت بيزنطة هدف معاوية وأشرف الامبراطور كونستانس الثاني بنفسه على تهيئة الاسطول البيزنطي واستعد لخوض المعارك البحرية مع العرب ، واشترك في احدى هذه المعارك وكاد أن يفقد حياته [٣] •

وفي صيف عام ٦٦٩ م رفع العرب الحصار عن القسطنطينية وعادوا الى دمشق ليستعدوا لجولة أخرى • وخلف قسطنطين الرابع أباه كونستانس الثاني ، وصمم معاوية على أن يحقق حلمه القديم فكانت حملات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد البرية والبحرية التي تحدثنا عنها آنفا واستولى المسلمون على جزيرة سيزيكوس (أوكيزيكوس) القريبة من القسطنطينية، وكانت الاساطيل الاسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة الى البر لمحاصرة أسوار القسطنطينية ، وتقف سفن الاسطول الاسلامي الاخرى مطوقة هذه المدينة من جهة البحر ، وصمدت المدينة لهذا الحصار • وقبل أن

---

(١) انظر في الجزء الخامس من الطبري أحداث السنوات ٤٠ ـ ٦٠ هـ حيث تجد أخبار الغزوات البرية التي قادها قواد عرب ضد بيزنطة خلال حكم معاوية ، وانظر أيضاً كتاب فتوح البلدان للبلاذري وكتاب العدوي وأسد رستم وغيرهما عن العلاقات العربية البيزنطية •

(٢) انظر كتابنا : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ وما بعدها •

(٣) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٦ •

يوجه معاوية الضربة القاضية لبيزنطة احتل قسم من اسطوله أزمير وذلك سنة ٦٧٢ م ، كما احتل قسم آخر من هذا الاسطول شواطىء ليسيا Lycia وكيلكيا • وفي سنة ٦٧٤ م ظهرت بعض القوات العربية أمام أسوار القسطنطينية وألقت عليها الحصار خلال فصل الصيف ، وفي الخريف انسحبت قطع الاسطول العربي إلى سيزيكوس • ولما جاء الربيع التالي عاودت هذه القوى الكرة في حصار القسطنطينية ، كما عاودت انسحابها في الخريف • وظل العرب يتابعون هذا الأسلوب في السنوات التي تلت ولكن دونما جدوى • وفي سنة ٦٧٨ م أي بعد أربع سنوات من الحصار والمعارك البحرية انسحب العرب من وراء أسوار هذه المدينة متخلين مؤقتاً عن مشروعهم في فتحها • وقد ساعد البيزنطيين في معاركهم البحرية ضد العرب استعمالهم النار الاغريقية التي اخترعها مهندس يوناني اسمه كاللينيكوس كان قد هاجر إلى بيزنطة من سورية • [1] وقد ساهم العديد من القادة العرب في عمليات الحصار هذه ، ويبدو أن من جملة العوامل التي جعلت معاوية يقرر سحب قواته المحاصرة للقسطنطينية شعوره بدنو أجله ، وأن بيعة ابنه يزيد ستلقى معارضة الكثيرين وأنه لابد له أن يضع تحت تصرف ابنه جيشاً قوياً يساند حكمه في الداخل أولاً وقبل كل شيء ، الأمر الذي حتم عليه التخلي عن حلمه في فتح القسطنطينية ، وما يكلفه هذا الحلم من رجال هو بحاجة إليهم في تدعيم حكم ابنه •

ويبدو أن بيزنطة من جانبها دخلت في مفاوضات مع دمشق من أجل انهاء حالة الحرب هذه وأرسلت مفاوضاً من قبلها يدعى يوحنا للتمهيد لهذه المرحلة السلمية الجديدة • وقد نجحت مفاوضات يوحنا وعقد صلح بين الطرفين مدته ثلاثون سنة • [2] ولم تكن المعارك التي تمت في خلافة معاوية ضد بيزنطة هي كل ما حقق من منجزات في الميدان العسكري ، فقد قامت الجيوش العربية الاسلامية في زمنه بغزو البلاد التي تلاصق مصر من

---

(١) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٤ ــ ١١٥ •

(٢) القدوي ، ص ١٧٥ •

جهة الغرب ، والتي كان العرب يسمونها بالمغرب ويسكنها البربر ، وكانت تقع تحت الحكم البيزنطي وتعيش فترة من الاضطراب سببها سوء الحكم البيزنطي من جهة وكره البربر وثوراتهم ضد هذا الحكم من جهة أخرى. وقد بدأت العلاقات بين العرب وبلاد المغرب منذ خلافة عمر بن الخطاب حين فتح عمرو بن العاص برقة وطرابلس[1] ، واستمرت في عهد عثمان بقيادة عبد الله بن أبي سرح والي مصر الذي لاقى الروم والبربر سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م في موقعة قرب سبيطلة (وتقع قرب اطلال قرطاجنة القديمة) انتهت بهزيمة الروم هزيمة منكرة وقتل فيها غريغوريوس (أو جرجير كما يسميه العرب) وأسرت ابنته . واستمرت عمليات عبد الله الحربية في تلك الجهات مدة خمسة عشر شهراً وعاد إلى مصر بعد أن انشأ قاعدة لجيوشه في برقة وأخرى في زويلة .

وبعد فترة الصراع بين علي ومعاوية واستباب الامر لمعاوية ، وجه الخليفة الجديد اهتمامه لافريقية في نفس الوقت الذي كانت فيه جيوشه تصلي بيزنطية ناراً حامية . ففي سنة ٤٥ هـ سار معاوية بن حديج والي مصر إلى أفريقية واشتبك مع الروم [2] في معركة عند حصن الأجم هزمهم فيها . وبعد هذا النصر سار القواد المسلمون في اتجاهات مختلفة لفتح بعض المواقع الافريقية . وفي سنة ٥٠ هـ قام عقبة بن نافع الذي كان يتولى قيادة حامية برقة منذ فتحها زمن عمر بن العاص ، بأعظم عملية فتح وتوغل في مفاوز المغرب الاقصى وأنشأ مدينة القيروان لتكون عاصمة للولاية الاسلامية في أفريقية وقاعدة لرد هجمات الروم ، [3] وذلك بأمر من الخليفة معاويه الذي ولاه على أفريقية وعهد إليه برد هجمات الروم المضادة لاستعادة ما فقدوه من أرض في تلك الانحاء . وقد استطاع عقبة أثناء ولايته أن يعيد سيطرة المسلمين على المدن الساحلية . وحين عزل عقبة عن أفريقية وتولاها

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣١٤ وما بعدها .

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٢٩ .

(٣) عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الأول . الطبعة الأولى ١٩٤٣ ، ص ١٦ .

لمعاوية أبو المهاجر الانصاري [١] توقفت عمليات الفتوح هناك وانحصر نشاط أبي المهاجر في غزو البربر وكان يقيم في أفريقية الصيف والشتاء [٢] .

وسيستأنف عقبة نشاطه العسكري في خلافة يزيد بن معاوية الذي عزل أبا المهاجر وأعاد عقبة سنة ٦٢ هـ كوالٍ على أفريقية .

أما في المقاطعات الشرقية ، التي كانت تحكم من قبل ولاة يتبعون ولاة البصرة والكوفة ، فقد كان من واجب هؤلاء الولاة ارسال الحملات للقيام بعمليات فتح في آسية . وقد سار زمن معاوية جيش من خراسان الى وادي الاندوس ووصلت طلائع هذا الجيش حتى لاهور وذلك سنة ٤٤ هـ . كما سار جيش آخر حتى وصل الى الحدود الشمالية الشرقية لخراسان ، حيث اصطدموا للمرة الاولى بالاقوام التركية التي كانت تعيش في تلك الجهات [٣] .

منجزات خلافة معاوية :

توصل معاوية الى الخلافة بقوة السيف، كما رأينا ولم تكن الشورى سبيله للوصول الى هذا المنصب ، الامر الذي أضفى على خلافته صفة حكم طابعه سياسي أكثر منه ديني ، وهذا ماحدا بالكثير من المؤرخين الى اطلاق كلمة « مُلك » على فترة حكمه ، ونسبوا إليه قوله : «أناأول الملوك» [٤] . على أنه ليس صحيحاً أن نبالغ في إضفاء الطابع السياسي على فترة حكم معاوية وان نتحدث عنه «كملك » بالمعنى الحديث للكلمة ، والاجدر ان نشبهه برؤساء القبائل العربية في الفترة السابقة للاسلام وأن نقارن اسلوبه في الحكم بأسلوب شيوخ القبائل من حيث الحلم والدهاء واعتماد العصبية العربية . وفي هذا استمرار للزعامة التي كانت تتمتع بها اسرته قبل الاسلام . على

---

(١) انظر من أجل عزل عقبة وتولي ابي المهاجر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٤٠ .
(٢) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والاندلس ، تحقيق تورى Torrey ، طبعة نيوهافن، ١٩٢٠ ، ص ١٩٧ .
(٣) The Cambridge History of Islam, Vol. 1, C.U.P. 1970, p. 79.
وانظر أيضاً من أجل الفتوح على الجبهة الشرقية ، اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ .
(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

أن هذا لا يمنع أن نذكر بكل ثقة أن معاوية كان رجل دولة من الطراز الاول يعي مسؤولياته ويعرف كيف يستغل الظروف لصالحه وكيف يسير بشؤون الدولة في الخط الذي يثبت حكمه ويضمن له البقاء والنماء • ويلخص اليعقوبي ما استحدثه معاوية من أمور لم تكن موجودة قبله بقوله : « وكان معاوية أول من أقام الحرس والشرطة والبوابين في الاسلام، وأرخى الستور، واستكتب النصارى ، ومُشي بين يديه بالحراب ، وأخذ الزكاة من الاعطية، وجلس على السرير والناس تحته ، وجعل ديوان الخاتم ، وبنى وشيد البناء، وسخر الناس في بنائه ، ولم يسخّر أحد قبله ، واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه » [1] كما أوجد المقصورة بقصد حمايته أثناء الصلاة ، [2] وذلك لخوفه مما جرى لعلي بن أبي طالب ، وكان إذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف ، كما كان أول من وضع نظام البريد لوصول الاخبار بسرعة [3] •

وقد اتخذ دمشق عاصمة له ، فأغضب بذلك أهل الحجاز والعراق ، الذين حرموا الكثير من الخيرات بسبب نقل العاصمة الى بلاد الشام واعتماد الخليفة على الشوام الذين أقام بين ظهرانيهم ردحاً طويلا من الزمن فأحبهم وأحبوه • وظلت هذه المدينة عاصمة الخلافة الاموية الرسمية طوال فترة حكم هذه الاسرة •

وكانت الخطوط العامة لسياسة معاوية في الحكم هي نفس خطوط النظام الاداري الذي وضع منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب، فاستبقى كتاب الدواوين النصارى كما كان الحال قبله في الشام منذ زمن الفتح [4] ، وظلت العملة المستعملة في زمنه العملة التي كانت في التداول قبله •

واعتمد في حكمه على رجال دهاة من أمثال المغيرة وزياد وعمرو بن

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ •

(٢) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ، ط • مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ص ٨٩ •

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة •

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ •

العاص ، واستعمل أقرباءه في حكم الحجاز ، فكان هؤلاء الرجال خير عون له في ادارة دفة الامور في البلاد وفي فترة تحول عصيبة انتقل فيها الحكم من يد فئة من الرجال هي فئة الصحابة الى يد أسرة لم تكن لها سابقتهم في الدين ولا مكانتهم في المجتمع الاسلامي الجديد ، وبرهن معاوية على أنه « مربي دول وسائس أمم ، وراعي ممالك » يحلم في موضع الحلم ويشتد في موضع الشدة ، كما كان كريماً يبذل المال ولا يبخل به لشراء عدو أو تأكيد ولاء صديق • ويذكر صاحب الفخري حادثاً طريفاً يلخص حلم معاوية واسلوبه في لحكم فيقول : « وبعث (أي معاوية) الى رجل من الانصار بخمسمائة دينار فاستقلها الانصاري وقال لابنه : خذها وامض الى معاوية فاضرب بها وجهه، وردها عليه وأقسم عليه أن يفعل ذلك » فجاء ابنه الى معاوية وأخبره بخبر أبيه وما أمره به «فوضع معاوية يده على وجهه وقال: افعل ما أمرك أبوك وارفق بعمك • فاستحيا الصبي ورمى بالدراهم فضاعفها معاوية وحملها الى الانصاري • وبلغ الخبر يزيد ابنه ، فدخل على معاوية غضبان • وقال : لقد أفرطت في الحلم حتى خفت أن يعد ذلك منك ضعفاً وجبناً ، فقال معاوية : أي بني ! إنه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة ، فامض لشأنك ، ودعني ورأيي »[1] •

وفي سنة ٦٠ هـ مرض معاوية مرضه الاخير فاستدعى ابنه يزيد وقال له : « إني كنتُ أُوَضِّيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكساني قميصاً ، وأخذت شعراً من شعره ، فاذا أنا مُتُّ ، فكفِّنِّي في قميصه ، واجعل الشعر في منخري وأذني وفمي ، وخلِّ بيني وبين ربي ، لعل ذلك ينفعني • »[2]

ولما نعي معاوية لعبد الله بن الزبير قال : « رحم الله معاوية إن كنا لنخدعه فيتخادع لنا ، وما ابن أنثى بأكرم منه • »[3] •

ولاية العهد :

كان موت الخليفة حتى الآن يؤدي الى قيام منازعات وخلافات وفتن

(١) الفخري ، ص ٨٨ •
(٢) الأغاني ، ج ١٧ ، ط • علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢١١ •
(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٢ •

تصل في بعض الأحيان الى حد حمل السيف ، فحين توفي الرسول الكريم اختلف القوم في اجتماع السقيفة ولم يكن الجميع راضين عن خلافة عمر ، كما تنازعوا بعد وفاته ولم تُعْطَ الخلافة الى عثمان الا بعد خصومات ومناقشات عنيفة ، وانقسم الناس بعد مقتله فكانت الفتنة الاولى ، وكان النزاع المسلح بين علي ومعاوية ، وكانت الحروب الطويلة حتى استقرت الامور الى معاوية ، ورأى معاوية بثاقب بصره أن يحل هذه القضية قبل وفاته ، فقرر أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من وجوه الناس وساداتهم ، كما أخذها منهم لنفسه من قبل ، لأن بيعة الناس كانت له وحده ، ولا يحق له أن يجعلها لغيره من بعده . وكان هنالك أناس ينتظرون موته للخلاص منه ومن بني أمية ، وقد اعتبر الكثيرون دعوته الى مبايعة ابنه يزيد بدعة ليس لها سابقة عند العرب ، واعتبروها تقليداً لملوك الروم والفرس اذ أن العرب في الجاهلية والاسلام كانوا جماعة شورى حتى أنه في كثير من الاحيان كان ابن السيد المتوفى يُنَحى عن رئاسة القبيلة وتسلم الرئاسة الى آخر اذا لم تجتمع بابن السيد صفات الرئيس المطلوبة ، والاسلام لم يقل بتوريث المُلك وعدّ حق الرئاسة حقاً يشترك فيه جميع الناس وللجماعة فقط حق اختيار الخليفة والموافقة عليه بالبيعة ، على أن فريقاً آخر يقول برأي يختلف تمام الاختلاف عن هذا الرأي ، ففي عرفهم أنه ما دام سيد القبيلة أو قائد الجيش يسمى خلفه قبل وفاته في ساحة القتال فانه من حق الخليفة أو الامير أن يختار شخصاً يتولى القيادة من بعده ، كما أنه ليس في الاسلام ما يقول بمنع أن يكون ابن الامير أميراً . وكل هذه يجعل أمر توليته العهد أمراً ممكناً وغير مستغرب .

وقد أدت دعوة معاوية الناس الى بيعة ابنه ليكون خليفة من بعده الى انقسام الناس الى فريقين : فريق ينكر هذا الامر ويعارضه ، وهم غالباً خصومه السياسيون ، وفريق يقبل به ويتحمس له لانه من أنصاره وأتباعه، والخلاف حول شرعية عمل معاوية للبيعة لابنه اذا لم يكن خلافاً على المبادىء

المقررة في العرف والقانون ، فقد كان خلافاً سياسياً تمثلت فيه النزعات السياسية المتناحرة وكان المغيرة بن شعبة أول من أيَّد معاوية في بيعة يزيد[١].

ولم يكتف المغيرة بالتأييد بل عمل في هذا السبيل فقد استمال بعض أهل الكوفة بالمال وحثهم على الذهاب الى دمشق لمبايعة يزيد ، وقد أراد معاوية أن يستشير زيادا قبل اعلان ما عزم عليه ، فكتب اليه بذلك يستشيره، ولم تلبث موافقة زياد أن أتت وأخذ أمير البصرة يستشير سادات القبائل ، ويذكر الطبري أن زياداً تحدث الى عبيد بن كعب النميري بعزم معاوية على بيعة يزيد وقال له : « إن معاوية يتخوف نفرة الناس ويرجو مطابقتهم ويستشيرني ، ويزيد صاحب رسلة ودهاء مع ما قد اولع به من صيد ، فالق أمير المؤمنين مؤديا عني فأخبره عن فعلات يزيد وقل له رويدك بالامر ولا تعجل »[٢] . توجه عبيد الى دمشق واجتمع بيزيد ودعاه الى ترك ما يُنْقَمُ عليه سرا من معاوية وكتب زياد الى معاوية يدعوه الى التمهل وعدم استعجال الامر ، فقبل معاوية نصيحة زياد ، وحاول يزيد في نفس الوقت أن يكف عن كثير مما كان يصنع ، وعاد عبيد الى البصرة بعد قيامه بالمهمة التي كلفه بها زياد ، فأقطعه هذا قطيعة . أما معاوية فقد عمل بنصيحة زياد ولم يعلن بيعة يزيد الا بعد وفاة زياد[٣] . وقد بدأ جهوده في سبيل توطئة الامر لابنه في المدينة لأنها كانت العاصمة الأولى التي كان يبايع فيها الخلفاء ، ولأن رجالات الاسلام كانوا فيها ، وعليهم المعّول في اقرار البيعة وقبولها . وحين عرض معاوية ما عزم عليه على رجالات المدينة وذلك عن طريق عامله عليها مروان ابن الحكم الذي عرض الأمر على الناس في مسجد رسول الله فوافقه الكثيرون على أهمية تدبر أمر الخلافة بعد معاوية ، فلما عرض عليهم اسم يزيد ، اختلفوا وأعلن الكثيرون أنهم لا يوافقون على هذا المرشح وكان أكبر

---

(١) من أجل دور المغيرة بن شعبة في بيعة يزيد ، أنظر ، تاريخ الخلفاء ، ص ٧٠ ب ، حيث هناك تفاصيل كاملة عن هذا الدور .

(٢) طبري ، ج ٥ ، ص ٣٠٢ ، وانظر أيضاً تاريخ الخلفاء ، ص ٦٦ ب ، وما بعدها .

(٣) انظر ابن الأثير ، الكامل من التاريخ ، ط . دار صادر ، ج ٣ ، ص ٥٠٦ .

المعارضين حماسة ، الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير [١] •

كان هذا هو الموقف في المدينة حين أعلن معاوية عزمه على تولية ابنه العهد من بعده• أما بالنسبة لبقية المقاطعات فقد دعا معاوية الوفود من الامصار المختلفة فأتته الى العاصمة واجتمع بسادات القوم في قصره ، وكان يحضر هذا الاجتماع الى جانب الخليفة وابنه ، الضحاك بن قيس الفهري •

وقد وقف معاوية في هذا الاجتماع خطيبا وذكر عظم المسؤولية ومناقب يزيد وقراره تولية العهد له ودعوة الناس الى البيعة والطاعة • ويقال إن يزيد بن المقنع العذري قد تكلم في هذا الاجتماع ايضا وأنهى كلمته بقوله « أمير المؤمنين هذا » ، وأشار الى معاوية ، « واذا مات فهذا » وأشار الى يزيد « ومن أبى منكم فهذا » وأشار الى السيف [٢] • وهكذا بايعت الوفود كلها الا الأحنف بن قيس التميمي الذي رفض أول الامر أن يدلي برأي واضح ، ودعا معاوية الى الاهتمام بمصلحة المسلمين لا بمصلحة ابنه فان رأى فيه خيرا للمسلمين فليبايعه •

أما أهل الحجاز الذين تخلفوا عن البيعة فقد ذهب اليهم معاوية بالذات على حد زعم ابن الاثير [٣] ومعه ألف رجل ودخل المدينة وسأل عن رؤوس المخالفين الذين طلب اليهم أن يبايعوا من قبل فأبوا ، فقيل له إنهم غادروها الى مكة فتبعهم اليها • وأراد اقناعهم باللين والحسنى ، فلم يلينوا ولم يتراجعوا وحينئذ جمع الناس في المسجد وخطب فيهم قائلا : ان رجالهم هؤلاء وأشار الى المخالفين ، قد بايعوا فبايعوا أنتم ففعلوا ثم خرج من مكة ومر بالمدينة وأخذ البيعة من أهلها وعاد الى دمشق •

هذه خلاصة ما يرويه ابن الأثير في تاريخه عن بيعة يزيد • وبعض

---

(١) انظر ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٥٠٦ وما بعدها •
(٢) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٥٠٨ •
(٣) ابن الاثير ، ج ٣ ، ص ٥٠٨ وما بعدها •

هذه الوقائع التي يذكرها ابن الاير يؤيدها ما ينقله الطبري عن الشعبي الذي يذكر أن المغيرة بن شعبة هو الذي أشار على معاوية أن يطلب البيعة من الناس ليزيد ، فكتب معاوية الى زياد يستشيره في ذلك ، فبعث زيـــاد الى عبيد بن كعب النميري يسأله النصيحة في هذا الأمر ويبدي له رأيه بيزيد ويقول انه يرى أن هذا الأمر لا يليق بيزيد ، فيزيد في رأي زياد « صاحب رسلة وتهاون ، مع قـد أولع به من الصيـد »[1] • ولكن عبيـد بن كعب النميري نصح زياداً بألا يعارض معاوية في عزمه وأن يوافق على بيعة يزيد • ويذكر الطبري هذه الرواية في حوادث سنة ٥٦ وهي نفس السنـة التـي يذكرها ابن الأثير•على أن الطبري لا يذكر خبر اجتماع الوفود من الأمصار بدمشق لمبايعة يزيد كما يرويه ابن الأثير ، ولكنه يروى أن وفدا قدم الى دمشق برئاسة عبيد الله بن زيـاد سنة ٦٠ هـ ، أي السنـة التي مات فيهـا معاوية[2] • ثم جاء المتأخرون وزعموا أن وفودا كثيرة أتت الى دمشق للبيعة كالوفد الذي جاء من البصرة برئاسة عبيد الله بن زياد • وما يذكره ابن الاثير عن ذهاب معاوية الى الحجاز واجباره المخالفين على البيعة لا يرد ذكره عند الرواة المتقدمين كما أننا لا نراه عند المسعودي في مروج الذهب رغم أنه كان من المتأخرين ورغم أنه كان عدوا للبيت الاموي•وسنستعرض فيمايلي بعض النصوص المتعلقة بهذا الحادث •

رواية الشعبي في تاريخ الطبري : تقـول هـذه الروايـة : « حدثني الحارث قال حدثنا عليقال : لما مات زياد دعا معاوية بكتاب فقرأه على الناس باستخلاف يزيد ان حدث به حدث الموت فيزيد وليّ عهد ، فاستوسق له الناس على البيعة غير خمسة نفر »[3] • وهؤلاء الخمسة حسب هذه الرواية هم : الحسين بن علي ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وابن عباس •

---

(١) طبري ، ج ٥ ، ص ٣٠١ ــ ٣٠٢

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٠٣ •

ولعل الشعبي قد أضاف ابن عباس ليكون أحد هؤلاء النفر المخالفين الذين كانوا اربعة في رواية أخرى. والمهم أن الطبري لا يذكر تاريخ هذا الحادث ولا مكانه ، والأرجح أنه كان في دمشق في وقت لاحق لوفاة زياد .

رواية الطبري عن حوادث سنة ٦٠ هـ : يقول في هذه الرواية : « وفيها أخذ معاوية على الوفد الذين وفدوا اليه مع عبيد الله بن زياد البيعة لابنه يزيد ، وعهد الى ابنه يزيد حين مرض فيها ما عهد اليه في النفر الذين امتنعوا عن البيعة ليزيد حين دعاهم الى البيعة . وكان عهده الذي عهده، ماذكر هشام بن محمد عن أبي مخنف قال :

.... إن معاوية لما مرض مرضته التي هلك فيها دعا ابنه فقال : يا بني اني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الاشياء ، وذلّت لك الاعداء ، وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، واني لا أتخوّف أن ينازعك هذا الامر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش : الحسين ابن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة ، واذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحمة ماسة وحقا عظيما . وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم ليس له همّة الا في النساء واللهو . وأما الذي يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها بك فظفرت عليه فقطعه إرْبا إرْبا . قام هشام قال عوانة : قد سمعنا في حديث آخر أن معاوية لما حضره الموت وذلك في سنة ستين ، وكان يزيد غائبا ، فدعا بالضحاك بن قيس الفهري وكان صاحب شرطته ومسلم بن عقبة المري فأوصى اليهما فقال: بلغا يزيد وصيتي: انظر أهل العراق فان سألوك أن تعزل كل يوم عنهم عاملا فافعل فان عزل عامل أحب اليّ من أن تشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فانهم بطانتك وعيبتك فان نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ... وإني

لست أخاف عليك من قريش الا ثلاثة : الحسين بن علي وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن الزبير »[1] ثم يروى عوانه قول معاوية في هؤلاء الثلاثة وهو لا يختلف في جوهره عما جاء في رواية هشام عن أبي مخنف الا فيما قاله بابن الزبير اذ أن عوانه يقول : « وأما ابن الزبير فانه خبّ ضب فاذا شخص لك فالبدْ له إلا أن يلتمس منك صلحا فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت . »[2] .

وإذا أردنا أن نناقش هذه الروايات فاننا نرى أنه يفهم من الرواية الأولى ان معاوية كان يفكر في أخذ البيعة ليزيد قبل وفاته بمدة غير قصيرة ، كما يفهم من هذه الرواية أنه أعلنها قبيل وفاته وان الناس وافقوه على ذلك ماعدا ثلاثة أو أربعة أو خمسة من رجالات قريش . وأخيرا أوصى ابنه أن يكون حليما في معاملة الناس وألا يفتك بأحد .

وهكذا فليس في هذه الروايات ذكر لذهابه الى الحجاز في ألف رجل لأخذ البيعة من أربعة من رجالات قريش . وهذا الموقف اكثر انسجاما مع نعرفه من مزاج معاوية وسياسته وحسن تدبيره من جهة ، ومن جهة أخرى فان الرواية التي يعتمدها ابن الاثير لا تذكر أن معاوية ورجاله الألف قد حصلوا من هؤلاء النفر المعارضين على أية نتيجة . ويدعونا كل هذا الى الشك في رواية ابن الاثير ويجعلنا نرجح أن هذه الرواية تشير الى ما وقع في أول خلافة يزيد ، لما أعلن الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير مخالفتهما وعدم رضائهما عن الخليفة الجديد .

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ .

الفصل الثاني

خلافة يزيد بن معاوية والفتنة الثانية

ولي يزيد عرش الخلافة وذلك في رجب سنة ٦٠ هـ[١] ، وقد صلى على معاوية الضحاك بن قيس الفهري ، إذ أن يزيدا كان غائبا حين مات أبوه[٢]. وبعد بيعة يزيد أقر عبيد الله بن زياد على ولاية البصرة والنعمان بن بشير على الكوفة ، وكان أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وأمير مكة عمرو بن سعيد بن العاص[٣] .

وكان هم يزيد حين ارتقى عرش الخلافة أن يأخذ البيعة من النفر الذين أبوا على معاوية الاجابة الى بيعته حين دعا الناس الى ذلك . ويقول الطبري أن يزيدا كتب الى عامله على المدينة الوليد بن عتبة يقول له : « أما بعد ، فخذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً، ليست فيه رخصة حتى يبايعوا ، والسلام . »[٤] .

واستشار الوليد بن عتبة مروان بن الحكم في الأمر ، فأشار عليه أن يسرع في أخذ البيعة من الحسين وابن الزبير على الاقل قبل أن يعلما بوفاة

---

(١) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ ، ٣٣٨ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٣٨ .

معاوية ، وقال : « فاني أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة والدخول في الطاعة ، فان فعلوا قبلت منهم ، وكففت عنهم ، وإن أبوا قدمتهم فضربت أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية .... أما ابن عمر فاني لا أراه يرى القتال ، ولا يحب أن يولّى على الناس إلا أن يُدفع إليه هذا الامر عفواً . » [1] .

على أن الوليد تأخر بانجاز ما أشار به عليه مروان ، ففر الحسين وابن الزبير الى مكة في أواخر رجب ٦٠ هـ ، وأما ابن عمر فلم يكن في ذلك الحين بالمدينة ، ولما عاد إليها بايع كبقية الناس . وكذلك بايع ابن عباس . ويقال ان عبد الله بن عمر التقى بالحسين وابن الزبير وهو عائد الى المدينة بعد أن خرجا منها فقال لهما « اتقيا الله . ولا تفرقا جماعة المسلمين . » [2] . وقد تأثر يزيد من موقف الوليد المتساهل مع الحسين وابن الزبير فعزله عن المدينة ولّى مكانه عمرو بن سعيد الملقب بالاشدق وذلك سنة ٦٠ هـ [3] .

فاجعة كربلاء ومقتل الحسين بن علي :

كان الحسين بن علي أول الخارجين على خلافة يزيد بن معاوية . ويبدو أن الحسين لم يكن راضياً عن موقف أخيه الحسن وتنازله لمعاوية عن الخلافة ، ولكنه لم ينقض العهد الذي قطعه أخوه لمعاوية فظل طوال خلافة ابن أبي سفيان ملتزماً بالبيعة وذلك لسببين ، ألهما : أن أخاه الحسن كان حياً وهو صاحب الحق الاول بالخلافة بعد ابيهما علي ، وثانيهما : أنه كان قد بايع معاوية حين بايعه الحسن ، حتى أنه حين لامه حجر بن عدي على بيعة معاوية وحرضه على نقضها قال له : « إنا قد بايعنا وعاهدنا ، ولا سبيل الى نقض بيعتنا . » [4] .

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٣ .
(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٠ .

ولما مات معاوية شعر أنه في حل من بيعة بني أميــة وأنه لا بــد أن ينهض ليطالب بحقه لا سيما وأن أخاه الحسن قد توفي وغدا هو أحق أهل البيت بهذا الامر • وقد ساعد على اذكاء هذه الفكرة في نفسه تحريض أهل الكوفة له وتشجيعهــم إياه على الخروج على السلطان الامــوي • وغــير خاف أن الكوفة معقل شيعة علي بن أبي طالب وحاضرة خلافته التي حرمها الامويون الكثير مما كان لها من تفوق وسيادة بنقلهم العاصمة الى الشام ، هذا فضلا عن طبيعة التركيب السكاني لهذه المدينة وتاريخها زمن الفتوح و إبان فتنــة عثمان ، والمعاملة السيئة التي لقيتها في ظل الخليفــة الاموي الاول معاويــة وولاته ولا سيما زياد بن أبيه الذي كان وراء مقتل حجر بن عدي وغــيره من زعماء الكوفة •

ويذكر الدينيوري بداية الاتصال بين أهل الكوفة والحسين فيقول : « لما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وخروج الحسين بن علي الى مكة اجتمــع جماعة من الشيعة في منزل سليمان بن صُـرد ، واتفقوا على أن يكتبوا الى الحسين يسألونه القدوم عليهم ، ليسلموا الامر اليه ••• »[1] • وتتابعت كتب ورسل أهل الكوفة الى الحسين حتى بلغ ما وصله من الكتب في أيام قليلة ما ملأ منه خُـرْجَـيْن[2] • وقــد رد الحسين على هــذه الكتب جميعاً برسالة وجهها الى أهل الكوفة وحملها لاثنين من رجالاتها الذين وفــدوا عليه وأبلغهم فيها وصول كتبهم إليه وعلمه بما جاء فيها وأنه مرسل إليهم ابن عمه وثقته مسلم بن عقيل ليعلم كنه أمرهم ويستبين أوضاعهم ، وأنه سيقرر موقفه على ضوء ما يصله من ابن عمه •[3] وترك مسلم مكة التي كان قد لجأ إليها مع ابن عمه الحسين بعد تولية يزيد ، وقصد الكوفة حيث أتته الشيعة

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٩ ، وانظر أيضـاً : ابو الفـرج الاصبهاني ، مقاتل الطالبيين شرح وتحقيق السيد احمد صقر ، ط • القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩٥ وما بعدها •

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٩ •

(٣) انظر نص الرسالة في الأخبار الطوال ، ص ٢٣٠ ، وانظر أيضاً ، مقاتل الطالبيين ، ص٩٦•

مبايعة للحسين [١] . وكان والي الكوفة آنذاك كما أشرنا آنفاً ، النعمان بن بشير ، وكان في نظر الحزب الأموي فيها مستضعفاً لا يقدر على الوقوف في وجه مسلم [٢] . ورأى يزيد أن خير من يصلح لمعالجة الوضع الجديد في الكوفة هو عبيد الله بن زياد الذي كان يلي البصرة ، والذي كان يزيد عليه ساخطاً ويهم بعزله عن البصرة ، ولكنه وجد نفسه مضطراً لتوليته الكوفة إلى جانب البصرة والطلب إليه أن يلاحق مسلم بن عقيل وأن يجده ويقتله [٣] .

وصل عبيد الله بن زياد إلى الكوفة ونزل القصر ، وجمع الناس في المسجد وخطبهم خطبة عامة فيها تحذير من العصيان وحث على الطاعة للبيت الأموي دون تعرض لذكر مسلم أو الحسين بشكل مباشر [٤] . وكان الحسين قد راسل أثناء ذلك أهل البصرة وحثهم على خلع طاعة يزيد والانضمام إليه ، ولكن أخبار دعوته تسربت إلى عبيد الله بن زياد فحذر البصريين من مغبة الانسياق وراء هذه الدعوة وهددهم بأقسى العقوبات إن هم فعلوا ذلك [٥] . وفي الكوفة استعمل عبيد الله كل نواع الحيلة والدهاء والرشوة للبحث عن مسلم والقبض عليه ولتفريق الناس من حوله ، ويبدو أن مسلم كان قد اكتسب ود عدد كبير من الكوفيين أول الأمر وحصل على تأييدهم ، ولكن شدة ابن زياد في ملاحقته واستعماله اسلوب الخديعة في التعرف على مخبئه وفض الناس من حوله ، أديا في النهاية إلى تفرق أصحابه ومقتله على يد رجال عبيد الله [٦] .

وكان مسلم قد كتب قبل ذلك إلى الحسين بأخذ البيعة له واجتماع الناس عليه وانتظارهم إياه ، فقرر إزاء كل هذا أن يشخص إلى الكوفة .

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ٩٦ .
(٢) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .
(٤) انظر نص الخطبة في مقاتل الطالبيين ، ص ٩٧ ، والأخبار الطوال ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .
(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
(٦) انظر تفاصيل هذه الخديعة ومقتل مسلم بن عقيل في الأخبار الطوال ، ص ٢٣٥ وما بعدها ، ومقاتل الطالبيين ، ص ٩٧ وما بعدها .

وشجعه على هذا القرار عبد الله بن الزبير ، الـذي يصف موقفـه صاحب مقاتل الطالبيين من قضية خروج الحسين مـن الحجاز على النحو التالي : « .... فأزمع (أي الحسين) الشخوص إلى الكوفة ، ولقيه عبد الله بن الزبير في تلك الأيام ، ولم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً في الوثوب بالحجاز ، علماً بأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين . » [1] . وفي هذا الوصف اتهـام واضح لابن الزبير في سلامة نواياه تجاه الحسين مـن جهة ، وفي مطامعـه بالخلافة من جهة أخرى إذ أن الحسين منافس خطـير لابن الزبـير وفي الخلاص منه خلاص من أقوى مرشح لمنصب الخلافة . ويؤيد هذه الدعوى ما ينقله لنا الطبري من تحريض ابن الزبير للحسين على الخروج والمطالبة بحقه إذ يقول له : « ما أدري ما تركنا هؤلاء القوم وكفنا عنهم ونحن أبناء المهاجرين ولاة هذا الأمر دونهم .» [2] .

كان مقتل مسلم بن عقيل يوم الثلاثاء لثلاث خلون من ذي الحجة سنة ٦٠ هـ ، أي بعد تسلم يزيد بن معاويـة الخلافـة بأشهر قليلة [3] . وفي نفس اليوم ، على مايزعم الـدينوري ، خرج الحسين بن علي من مكة قاصـداً الكوفة دون أن يكون له علم بما حدث لابن عمه [4] . وكان خروجه قد لقي معارضة شديدة من عبد الله بن عباس ، وتشجيعاً من عبد الله بن الزبير ، وكانت حجة الحسين أن مسلماً أبلغه أن عدد الذين بايعوه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف رجل ، كلهم لا رأي لهـم في آل أبي سفيان [5] . وفي الطريق جاءه خبر مقتل ابن عمه مسلم ، كما توالت إليـه أخبار انفضاض الكوفيين من حوله والشدة والبطش اللذين يأخذ بهما ابن زياد الكوفيين . وظل الحسين مصراً على متابعة السير رغم كل ما وجه إليه من نصائح بالعودة

---

(١) مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٩ .
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٨٣ .
(٣) الاخبار الطوال ، ص ٢٤٢ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
(٥) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

من قبل الناس الذين كان يلقاهم خارجين من الكوفة هرباً مما توقعوه من مصير مؤلم لحفيد الرسول الكريم • ولما وصل إلى كربلاء[1] ، حيث كانت تواكبه في مسيرته فرقة من الفرسان عدتها ألف فارس وعلى رأسها الحر بن يزيد التميمي أرسلها عبيد الله بن زياد لتحول دون دخوله الكوفة مهما كان الثمن أو الطريقة،وصلت رسالة إلى الحر من عبيد الله يطلب إليه فيها أن يمنع الحسين من التقدم أكثر من ذلك[2]، فاضطر الحر للطلب من الحسين أن يتوقف • وأمر الحسين أصحابه بالتوقف ، وكان ذلك يوم الاربعاء الأول من شهر محرم سنة ٦١ هـ • وفي اليوم الثاني من نزوله كربلاء ، وصل مدد جديد للحر عدته أربعة آلاف فارس وعلى رأسهم عمر بن سعد بن أبي وقاص أرسلهم عبيد الله بن زياد بقصد القبض على الحسين أو قتله • وبعد مفاوضات ومراسلات بين الحسين بن علي وعمر بن سعد من جهة ، وبين عمر بن سعد وعبيد الله بن زياد من جهة أخرى ، عرض فيها الحسين العودة من حيث أتى ، ولكن ابن زياد رفض هذا الطلب وأمر قادته أن يأخذوا البيعة ليزيد من الحسين فان أبى فليقبض عليه أو يقتل • ووجد الحسين أن لا خيار امامه سوى القتال ، فعبأ رجاله وكانوا ، على ما يزعم الدينوري اثنين وثلاثين فارساً وأربعين راجلا[3]• وجرت بين الطرفين معركة لا تكافؤ فيها قتل فيها كل رجال الحسين وأهل بيته ولم يبق غيره من الرجال ، وبعض من النسوة • وأخيرا رماه رجل من جيش ابن زياد بسهم ، وضربه آخر بالسيف ثم احتز ثالث رأسه • وكان مقتله يوم العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ[4] وأرسل عمر بن سعد برأس الحسين الى عبيد الله بن زياد ، كما أمر بحمل نسائه وأخواته وبناته وجواريه وحشمه في المحامل المستورة

---

(١) موضع في طرف البرية بالقرب من الكوفة •

(٢) انظر نص الرسالة في ، الأخبار الطوال ص ٢٥١ •

(٣) الأخبار الطوال ، ص ٢٥٦ •

(٤) من أجل مقتل الحسين وأخبار وقعة كربلاء ، انظر : الطبري ، ج٥ ، ص ٤٠٠ ، وما بعدها . مقاتل الطالبيين ، ص ١٠٩ وما بعدها ، الأخبار الطوال ، ص ٢٥١ وما بعدها • وغير ذلك من المصادر •

على الابل[1] • وقام عبيد الله بن زياد بارسال رأس الحسين ورؤوس اصحابه الى الخليفة يزيد ، كما أرسل اليه نساءه وصبيانه[2] •

وما حدث في العاشر من محرم سنة ٦١ هـ لم يكن حادثا عـاديا أو اخمادا لفتنة قام بها ثائر ضد البيت الحاكم ، بل كان أمرا جللا وسببا في فرقة المسلمين • وقد سطرت هذه الفاجعة صفحة سوداء في تاريخ الخلافه الأموية ، وكانت المنطلق الذي انطلقت منه المعارضة الشيعية المسلحة لحكم بني أمية ، وكانت في المدى البعيد أحد الأسباب التي أدت الى سقوط الحكم الأموي • ولم تنته مأساة الشيعة بزوال حكم بني أميـة ، وستستمر في ظل الحكم العباسي •

ويعتبر البعض ان انتصار يزيد على الحسين هو تكملة لانتصار معاوية على علي بن أبي طالب ، وأن سبب ما حل بالأب وابنه هو تقاعس الكوفيين عن نصرتهما بعد أن مناهما الأماني ولم يفوا بالوعد •

هذا ما زال الشيعة حتـى يومنا هذا يحيـون ذكرى فاجعـة كربلاء واستشهاد الحسين يوم العاشر من محرم الذي يعرف باسم عاشوراء والذي يظهرون فيه مختلف ضروب الحزن التفجع على ما حل بحفيد الرسول الكريم وآل بيته •

يزيد وعبد الله بن الزبير :

وصف معاوية ابن الزبير بقوله إنه الرجل الذي يجثم جثوم الاسد ويراوغ مراوغة الثعلب ، وكان معاوية على صواب في هذا الوصف فابن الزبير أدهى من الحسين بكثير وأشد تمرسا بشؤون السياسة • فكان من الذين حرضوا الحسين وبالحاح على الخروج من الحجـاز ، ولما خـرج الحسين وقتل خلا الجو له في الحجاز وأصبح سيد الموقف لأنه من غـير

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٥٩ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٦٠ •

المعقول أن يتنطح لرئاسة المسلمين والحسين حيّ • وقد برهن أيضا على دهاء وتبصر حين اعتصم بالبيت الحرام ، وحين بقي في الحجاز ولم يخرج منها ، لأنه من الصعب على يزيد أن يبطش بعائذ بالكعبة في مدينـــة كمكة حُرِّمَ القتال فيها ، ومنعت اراقة الدماء على أديمها الطاهر • وفي الحديث عن بداية أمر ابن الزبير يذكر الطبري روايات نقلا عن أبي مخنف تقول أنه لما قتل الحسين عليه السلام قام ابن الزبير في مكة وعظّم مقتله وعاب على أهل الكوفة خاصة خذلانهم اياه ، ولام أهل العراق عامة لأنهم لم يشرفوا كلمتهم لابن بنت رسول الله[1] • وهكذا اعتبر ابن الزبير نفسه ولي الحسين ونصّب نفسه مطالبا بدمه كما فعل معاوية يوم مقتل عثمان • وأخذ عبد الله يعرّض بيزيد ويذكر مساويء بني أمية ويكيل المدح للحسين فقام اليـه أصحابه وقالوا له « أيها الرجل أظهر بيعتك فانه لم يبق أحد اذ هلك الحسين ينازعك هذا الامر »[2] • ولكنه لم يعمل بما أشاروا عليه فكان يبايع الناس سراً ويظهر انه عائذ بالبيت • ووصلت الاخبار الى يزيد بما كان يفعل ابن الزبير وباجتماع الناس حوله ، ويقول الطبري[3] انه أقسم بالله أنه ليوثقنّه في سلسلة ، ثم خَفَّفَ من حدته وأراد ألا يحنث بيمينه وان يداريه في نفس الوقت فأرسل اليه سلسلة من فضة حملها اليه بعض رجـال يزيـد وجاؤوا اليه ، وهناك التقوا بمروان بن الحـكم وأخبروه الخبـر ، ولكن مروان أظهر أن هذا الامر اهانة لابن الزبير لن يقبلها ، وطلب الى الوفد الذي يحملها أن يعود بها الى يزيد • ولكن الوفد أصرّ على تنفيذ رغبـة الخليفة وحملها الى ابن الزبير فلما جاءته ردّها وأسمع الوفد من قوارص الكلم ما يليق بانسان يرشح نفسه لمنصب الخلافة ، وفشا الخبر في مكة وفي المدينة ، فعلا أمر ابن الزبير فيهما وكتب اليه أهل المدينة يطالبونه باعلان حقه• والملاحظة الهامة هي أنه في سائر الروايات التي ترد في الطبري والأغاني عن

---

(١) طبري ، ج ٥ ، ص ٤٧٤ •
(٢) طبري ، ج ٥ ، ص ٤٧٥ •
(٣) طبري ، ج ٥ ، ص ٤٧٥ •

حوادث سنة ٦١ وعن هذا الحادث بالذات ما يدل بشكل واضح على أن يزيدا كان يريد مسالمة ابن الزبير واستمالته بالحسنى ، كما أنه من المهم أن نلاحظ أن فريقا من أهل المدينة ومن بني أمية أيضا شجّعوا ابن الزبير ودعوه الى أخذ البيعة إما نكاية بأهل الشام الذين استأثروا بخيرات العاصمة وأصبحوا أصحاب المكانة الاولى في الدولة لانتقال مركز الثقل السياسي الى بلدهم وبالتالي اضعاف مركز المدينة ، واما نكاية بيزيد نفسه الذي أصبح خليفة وهو شاب صغير وحرم منها شيوخ بني أمية كمروان بن الحكم مثلا . فلما تمادى ابن الزبير في دعوته ولم يقبل المسالمة أمر يزيد عامله في المدينة وهو عمرو بن سعيد بن العاص أن يبعث جيشا الى مكة لاخضاعه وفعلا أنفذ الاشدق جيشا من المدينة الى مكة على رأسه أخي عبد الله عمرو بن الزبير لما كان بين الاخوين من مشاحنة وبغضاء[1] .

سار عمرو بن الزبير الى مكة معقل أخيه عبد الله بن الزبير واجتمع به وخاطبه قائلا : « بَرَّ يَمينَ الخليفة واجعل في عنقك جامعة من فضة لا ترى ، ولا يضرب الناس بعضهم بعضاً »[2] . فأبى عبد الله فنشبت المعركة بين جيشه وجيش أخيه وانتصر رجال عبد الله بن الزبير وأخذ عمرو أسيراً فسجن في سجن عارم[3] .

ويؤيد هذه الرواية التي يذكرها الواقدي في تاريخ الطبري ما جاء في كتاب الأغاني[4] من حديث عن العذاب الذي أوقعه عبد الله بن الزبير بأخيه عمرو بعد أن انتصر عليه ، على أن خبر السلسلة ليس في موضعه هنا ولكنه من أخبار المفاوضات السابقة أي حين أراد يزيد أن ينهي الخلاف بينه وبين ابن الزبير صلحا ، وذلك قبل أن يرسل له الجيش الذي كان على رأسه عمرو بن الزبير .

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ .
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ .
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٤٥ .
(٤) الاغاني ، ج ١٤ ، ص ٢٣٧ .

الحرب بين الشوام والحجازيين ، (موقعة الحرة) :

كانت سنة (٦٣) هجرية كثيرة الاحداث اذا ما قورنت بالنسبة لما حدث في أول عهد يزيد بالخلافة • وقد بدأت هذه السنة كما يروي الطبري[(١)] نقلا عن أبي مخنف بأن أنفذ عامل المدينة الى يزيد بدمشق وفدا من أهل المدينة من المهاجرين والانصار يمثلون الرأي العام فيها • وكان هذا الوفد يتألف من أناس بعضهم مع ابن الزبير وكلهم يخالفون بني أمية ، وينقمون عليهم لاغتصابهم الحكم ونقلهم العاصمة الى خارج الحجاز ، ويبدو أن ما قصد اليه عامل المدينة من إنفاذ هذا الوفد هو أن يتيح الفرصة ليزيد كي يتقرب اليهم ويكسبهم الى جانبه باعتبار أنهم جميعا من أهل المدينة ، وقد حاول يزيد جهد المستطاع أن يبدد الضغائن التي كانت في القلوب ، حتى أنهم ما كادوا يخرجون من عند يزيد ويقدمون المدينة حتى أخذوا يشتمونه قائلين : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ويعزف بالطنابير وتضرب عنده القيان ويلعب بالكلاب » • ولم يكن جميع رجال الوفد من الانصار أو من الصحابة الاولين ، بل كان فيهم شباب من الانصار والمهاجرين وبعض من جماعة عبد الله بن الزبير وأخلاط أخرى •

ولما بلغ يزيد ما فعل رجال هذا الوفد وما تحدثوا به عنه وكيف أنهم دعوا الناس بالمدينة الى خلعه وما الى ذلك من أمور ، آثر مسالمتهم وأراد الا يبادئهم بالحرب ، لذلك بعث اليهم النعمان بن بشير الانصاري ليحذرهم من الفتنة ويدعوهم الى الطاعة ولزوم الجماعة ، ولكن القوم لم يستمعوا اليه •

ويذكر المدائني في كتاب الاغاني[(٢)] أن أهل المدينة اجتمعوا في المسجد وتناقشوا في حال الدولة ووصلوا الى رأي واحد يقول بخلع يزيد•وللبرهان على هذا الموقف أخذوا ينزعون ثيابهم ويقول أحدهم « خلعت يزيدا كما خلعت عمامتي أو كما خلعت حذائي أو قميصي ••• » الخ • ولا نجد في

---

(١) الطبري ج ٥ ، ص ٤٨٠ •

(٢) الأغاني ، ج ١ ، ص ٢٣ •

تاريخ الطبري حديثا مشابها وكل ما يرد في الطبري أن أهل المدينة أعلنوا خلعهم ليزيد بأن بايعوا ابن حنظلة الانصاري على أن يقاتلوا بني أميــة وشيعتهم حتى تعود الامور الى نصابها[1] .

كان ابن حنظلة هذا أحد أعضاء الوفد المدني الذي سافر الى دمشق واجتمع بيزيد وعاد ليشتمه ، وكان أول ما فعله ابن حنظلة ومن شايعه أنهم وثبوا على من بالمدينة من بني أمية ومواليهـم ومن رأى رأيهـم من قريش وغيرهاوحاولوا الاعتداء عليهم[2] ، وقد اجتمع الامويون أثر ذلك هم ومن يواليهم في دار شيخ بني أمية مروان بن الحكم فحاصرها الناس واستمر الحصار بعضا من الوقت ، وكان عدد المحاصرين يقرب من (١٠٠٠) ألف رجل . وقد كتب مروان بن الحكم بواقع الامر الى الخليفة يزيد وطلب اليه انجاده ، وقد حمل كتاب مروان الى يزيد عبد الملك بن مروان،وأعطاه الى رجل وطلب اليه أن يسرع في الذهاب الى الشام والعودة منها ، وقال له « أجلّتك اثنتي عشرة ليلة ذاهبا واثنتي عشرة ليلا مقبـلا فوافني لأربـع وعشرين ليلة فيهذا المكان تجدني ان شاء الله فيهذه الساعة جالسا أنتظرك. وكان نص كتاب مروان ما يلي : [3] « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فانا قد حصرنا في دار مروان بن الحكم ومنعنا العذْب ، (المـاء) ورُمينـا بالجبَـوب[4] ، فياغوثاه .. يا غوثاه » . وقد حمل الرسول الكتاب وجـاء يزيداً وهو جالس على كرسي يشكو المرض ، اذ يقال أن يزيداً كان مصابا بالنقرس ، وبعد أن قرأ يزيد الكتاب واستمع الى الرسول قال :

« .... أما استطاعوا أن يقاتلوا ساعة من نهار . » وفي ذلك سخرية من بني أمية الموجودين في المدينة الذين آثروا أن يقعوا تحت الحصار على أن يقاتلوا . ورغم هذا أراد أن ينجد بني عمومته المحاصرين ، ولذلك طلب

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٨٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨٢
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٨٢ .
(٤) الجبوب : الأرض الغليظة .

من عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالاشدق أن يذهب للحجاز ويخضع العصاة ، فأبى عمرو ذلك بحجة أنه لا يريد أن تراق دماء قريش على يديه. حينئذ لم يجد يزيد بدا من أن يعهد بهذه المهمة الى رجل من سادات العرب ولكنه غير قرشي هو مسلم بن عقبة المرّي ، فعهد اليه بقيادة الجيش الذي سيتوجه الى المدينة وقبل مسلم بعد تردد وبعد أن ألحّ عليه يزيد في قبول ذلك . وقد أخذ مسلم أهبته للأمر فدعا الناس للسير معه الى الحجاز وكانت نداءاته للناس تنص على ما يلي « سيروا الى الحجاز على أخذ أعطياتكم كُمّلا ومعونة (١٠٠) مائة دينارتوضع في يد الرجل من ساعته فأقبل الجندحتى بلغ عددهم اثنى عشر ألف رجل أكثرهم من بني كلب أخوال يزيد.وكان أهل المدينة في هذه الاثناء قد رفعوا الحصار عن بني أمية وسمحوا لهم بالخروج منها بعد أخذوا منهم العهود والمواثيق بانهم لن يساعدوا عـدوهم وأنهم لن لن يفشوا سرّهم [1] .

وتوجهت جموع الامويين الذين كانوا محاصرين نحو الشام ، ويقال أن عليا بن الحسين ابن صريع كربلاء ، كان من الذين اعتزلوا الفتنة ولمـا رآها تشتد خرج الى الطائف ، وأخذ معه حرم مروان بن الحـكم بسبب صداقة قديمة كانت تربط الاثنين [2] . وسار الامويون في طريقهم الى الشام ولما وصلوا الى وادي القرى التقوا بجيش مسلم بن عقبة آتيا لنجدتهم وسألهم مسلم عن حال المدينة وما يجب عليه عمله ، فأبوا نصحه حفاظا على المواثيق التي قطعها عليهم أهل المدينة ، فغضب منهم مسلم وكاد أن يبطش بهم ، لولا أن جاءه عبد الملك بن مروان وكشف له بعض الحقائق عن الوضـع بالمدينة ونصحه بخطة للقتال والحصار تساعده على اتمام عمله هناك ، فسُرّ مسلم واكتفى بهذه النصيحة وعمل بها فعلا .

وصلت جيوش مسلم الى المدينة في شهر ذي الحجة من عام ٦٣ هـ ، فعسكر في موقع يقال له الحرّة يقع في شمال شرقي المدينة ووجه مسلم الى

---

(١) الطبري ج ٥ ، ص ٤٨٥ .
(٢) المصدر السابق .

أهل المدينة انذارا للبيعة قال فيه : « ان أمير المؤمنين يزيد بن معاوية يزعم أنكم الأصل واني أكره هراقة دمائكم واني مؤجلكم ثلاثا ، فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت الى هذا الملحد الذي بمكة (ابن الزبير) وان أبيتم كنا قد اعذرنا اليكم »[١] • ومضت الايام الثلاثة فدعاهم مسلم مرة ثانية الى المُسالمة والطاعة ، فأبوا وحصنوا مدينتهم ، وحفروا خندقا في الجانب الشمالي منها ، وقسّموا أنفسهم أربعة أقسام ووزعوا القيادات بينهم •

تقدم أهل المدينة الى الحرّة حتى انتهوا الى معسكر مسلم بن عقبة ، وتقول احدى الروايات[٢] ان مُسلما حين وصول المدنيين الى معسكره كان يركب حصانا في حين أن روايات أخرى تقول أنه كان مريضا يوم القتال وأنه أمر بوضع سريره بين الصفين ، وقد استطاع المهاجمون المدنيون أن يخترقوا صفوف أهل الشام وأن يضعضعوا جمعهم ، ولما رأى مسلم ذلك وقف بين الصفوف وصاح بصوت عال مشجعا وحاثا الناس على الاستبسال في سبيل النصر ، وقد استطاع هو وجماعته أن يصدوا المدنيين وأن يقتلوا ابن حنظلة • وقد انتهت هذه الموقعة بأن استطاع الشوام دخول مدينة رسول الله واحتلالها • ويذكر ابو مخنف في تاريخ الطبري ما حصل بعد نفوذ مسلم الى المدينة بقوله : « وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون الاموال »[٣] وقد فعل مسلم هذا على حد رأي أبي مخنف تنفيذاً لوصيته أوصى بها يزيد مسلم وقال له فيها : « فاذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فما فيها من مال أو رقة[٤] أو سلاح أو طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس وانظر علي بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرا ••• فانه لم يدخل في شيء مما دخلوا »[٥] •

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٨٦ _ ٤٨٧ •

(٢) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٨٧ وما بعدها •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩١ •

(٤) الرقة : الدراهم •

(٥) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٨٤ وما بعدها •

وهناك رواية لعوانة بن الحكم تختلف عن رواية أبي مخنف وقد جاء فيها قوله : دعا الناس مسلم بن عقبة بقباء الى البيعة ، أي أنه دعاهم الى مبايعة يزيد ففعلوا وقتل مسلم المعارضين والمشاغبين منهم فقط[١] .

ويتضح من هذه الرواية أن عوانة لا يتطرق الى قضية اباحة المدينة أياما ثلاثة كما يزعم أبو مخنف . وهناك رواية ثالثة على لسان وهب بن جرير تخالف أيضا رواية أبي مخنف وليس فيها ذكر لاباحة المدينة ، وفي هذه الرواية ما يأتي « وقد بعث أهل المدينة الى كل ماء بينهم وبين الشام فصبّوا زقا من قطران ، فأرسل الله السماء عليهم فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة فخرج اليهم أهل المدينة بجموع كثيرة .... فدخل مسلم بن عقبة المدينة ودعا الناس للبيعة على أنهم خَوَل ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء . »[٢] .

من مناقشة هذه الروايات يستطيع المرء أن يتبين أن أمر استباحة مسلم ابن عقبة للمدينة أمر مشكوك فيه لأسباب عديدة .

١) ان هذا الخبر لا يرد الا في رواية وحيدة على لسان أبي مخنف زعيم المدرسة العراقية في تاريخ الطبري ، كما ان هذا العمل يتنافى تنافيا كليا مع ما نعرفه من أخبار سابقة وردت في الطبري أيضا تنص على أمر يزيد لمسلم بالترفق بأهل المدينة ، وبمحاولة مسالمتهم ، وعدم اللجوء الى معركة الا في حالة الاضطرار الشديد . ونستطيع القول ان ما تشير اليه بعض المصادر الحديثة من استباحة مسلم للمدينة لا ينطبق تمام الانطباق على واقع ما جرى وأن مسلما لم يستبح المدينة على أغلب الظن . وبعد أن انتهى مسلم من عمله في المدينة وأعاد الامور الى النصاب الطبيعي كان عليه أن يسير الى مكة ليطهّرها من العصاة وليضع حدا لثورة ابن الزبير فيها ، ولكنه مات وهو في الطريق اليها عند موقع المشلّل . ويبدو أن مسلم كان راضيا الى أبعد حدود الرضا عما فعله في المدينة ، اذ أنه قال قبيل وفاته « اللهم اني لم أعمل عملا

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩١ .
(٢) المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .

قط بعد شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله أحب الي من قتلي أهل المدينة ولا أرجى عند ربي في الآخرة[1] .

وأوصى مسلم أن يتولى قيادة الجيش بعده الحصين بن نمير السكوني تنفيذا لأوامر يزيد ، وقد استدعى مسلم قبيل وفاته الحصين وقال له : « ... أما والله لو كان هذا الأمر لي ما وليتك هذا الجند ، ولكن أمير المؤمنين ولاك بعدي ، وليس لأمر أمير المؤمنين مرد . خذ عني أربعاً : أسرع السير ، وعجل الوقاع ، وعم الأخبار ، ولا تمكن قرشياً من أذنك ... » وأضاف حسب رواية أخرى : « ولا تردن أهل الشام عن عدوهم ، ولا تقيمن إلا ثلاثاً حتى تناجز ابن الزبير الفاسق . »[2]

ويؤخذ من هذه الوصية أن سياسة الأمويين في هذه الفترة كانت تقوم على عدم الاعتماد على القرشيين، وذلك لما بدا من بعضهم من ميل للمطالبة بالخلافة ومخالفة الجماعة .

حصار مكة ووفاة يزيد : بعد وفاة مسلم بن عقبة في آخر شهر محرم سنة ٦٤ هـ[3] ، توجه الحصين بن نمير السكوني الذي عينه مسلم ليتولى قيادة الجيش بدلا عنه الى مكة وألقى الحصار عليها لوجود ابن الزبير فيها ، وظل محاصراً لها حتى جاءه نعي الخليفة يزيد بن معاوية . وكان أثناء هذه الفترة كما تذكر بعض المصادر[4] ، يناوش جماعة ابن الزبير ويقاتلهم أو يبارزهم ، ثم ما لبث حين طال حصاره لمكة اربعة وستين يوما[5] أن نصب المجانيق ورمى الكعبة بالحجارة والنار فاحترقت الكعبة وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ما كان فيها من خشب وما عليها من كسوه[6] .

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٧ .

(٢) انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٦ ، وتاريخ الخلفاء ، ص ٨٩ ب .

(٤) كالطبري وأخبار الخلفاء وغيرهما ، وسنناقش الروايات التي ترد في الطبري حول هذا الموضوع فيما بعد لأنها مفصلة ومتعددة ومتضاربة .

(٥) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٩٠ أ .

(٦) تاريخ الخلفاء ، ص ٩٠ أ .

وقبل أن نستمر في سرد الاحداث التي جرت بعد ذلك لا بد لنا من الوقوف قليلا لنناقش قضية حرق الشوام للكعبة ورميهم لها بالمجانيق ، فقد جاء في تاريخ الطبري[1] على لسان عوانة أن أهل الشام « قذفوا البيت بالمجانيق وحرقوه بالنار » • وهذا الادعاء لا يثبت أمام التحقيق التاريخي السليم وذلك لأسباب عدة نذكر بعضها فيما يلي :

١ - لا يذكر أبو مخنف زعيم المدرسة العراقية في تاريخ الطبري وراوية الاحداث التي حدثت في هذه الفترة والذي لا يكن وداً للأمويين أي شيء عن هذا الحريق أو أسبابه ومبرراته •

٢ - في الطبري رواية على لسان الواقدي يقول فيها « كانوا يوقدون حول الكعبة فأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت ثياب الكعبة واحترق خشب البيت • » •[2] ثم يقول نقلا عن عروة بن أذينة : « قدمت مكة مع أمي يوم احترقت الكعبة ، قد خلصت اليها النار ورأيتها مجردة من الحريق، ورأيت الركن قد اسود وانصدع في ثلاثة أمكنة فقلت : ما أصاب الكعبة ، فأشاروا الى رجل من أصحاب عبد الله ابن الزبير قالوا : هذا ، احترقت بسببه أخذ قبساً في رأس رمح له فطيّرت الريح به فضربت أستار الكعبة مابين الركن اليماني والاسود • »[3] •

٣ - يتهم المدائني في كتاب الاغاني ابن الزبير نفسه ويقول أنه هو الذي أخذ القبس وكان السبب في احتراق الكعبة • ونص رواية المدائني هو ما يلي : « كان سبب بناء ابن الزبير الكعبة لما احترقت أن أهل الشام لما حاصروه سمع أصواتا بالليل فوق الجبل فخاف أن يكون أهل الشام قد وصلوا اليه ، وكانت ليلة ظلماء ذات ريح شديدة صعبة ورعد وبرق فرفع نارا على رأس رمح لينظر الى الناس، فأطارتها الريح فوقعت على أستار الكعبة

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٨ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٨ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٩ •

فاحترقت واستطالت فيها وجهد الناس لاطفائها فلم يقدروا ، وأصبحت الكعبة تتهافت • »[1] •

٤ – بيت الشعر الذي يستشهد به عوانة بعد أن يذكر حريق الكعبة هو التالي :

خَطّارة مِثلُ الفَنيق المُزْبِدِ   نرمي بها عُوّاذَ هذا المَسْجِدِ

وهذا الشعر لا ذكر للنار فيه ، وهو يشير على الأغلب الى الحجاج ومحاصرته الكعبة حين رماها أهل الشام بالحجارة ، والارجح أن عوانة التبس عليه الامر ولم يميز بين الحادثتين ولا يستبعد أن يكون له غرض من نسبة حريق الكعبة الى أهل الشام[2] •

كل هذا يجعلنا نميل الى الاعتقاد بأن حريق الكعبة الذي يعزى في بعض المصادر خطأ الى جيش الشام الذي كان يرأسه الحصين بن نمير السكوني لم يكن له نصيب من الصحة وأغلب الظن أن الحادث وقع قضاء وقدرا عن يد ابن الزبير أو أحد اتباعه •

وفي هذه الاثناء والقتال ما زال واقعا بين الطرفين ، وصلت الأخبار بنعي يزيد • وقد علم ابن الزبير بوفاة يزيد قبل أهل الشام ، ووصل الخبر بعد هذا الى الحصين وتفكر بالامر فرأى أن خير ما يفعل هو أن يفاوض ابن الزبير وأن يبايعه لانه لا جدوى من القتال بعد موت الخليفة • وكانت شروط الحصين للمضي في هذه العملية أن يقبل ابن الزبير الخروج الى الشام وابقاء مقر الخلافة فيها واهدار الدماء التي وقعت اثناء وقعة الحرة وحصار مكة • وفيما يلي أحد النصوص الاصلية التي تتعرض لهذا الحادث• فقد جاء في الطبري نقلا عن عوانة بن الحكم : « لما بلغ ابن الزبير موت

---

(١) الأغاني ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ •

(٢) انظر انساب الاشراف للبلاذري ، ط • المثنى ، ج ٥ ، ص ٣٥٩ حيث يذكر البلاذري أن رجلا من خثعم كان يرمي البيت اثناء حصار الحجاج لابن الزبير زمن عبد الملك وينشد هذا البيت •

يزيد وأهل الشام لا يعلمون بذلك قد حصروه حصارا شديدا وضيقوا عليه أخذ يناديهم هو وأهل مكة : علام تقاتلون ؟ قد هلكم طاغيتكم ، وأخذوا لا يصدقونه ، حتى قدم ثابت بن قيس بن المُنْقَع النخعي من أهل الكوفة في رؤوس أهل العراق فمر بالحصين بن نمير وكان له صديقا وكان بينهما صهر وكان يراه عند معاوية فكان يعرف فضله واسلامه وشرفه فسأل عن الخبر فأخبره بهلاك يزيد ، فبعث الحصين بن نمير الى عبد الله بن الزبير فقال : موعد ما بيننا وبينك الليلة الأبطح . فالتقيا فقال له الحصين : إن هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الامر ، هلم فلنبايعك ثم اخرج معي الى الشام فان هذا الجند الذين معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان وتؤمّن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بيننا وبينك ، والتي كانت بيننا وبين أهل الحرة . فكان سعيد بن عمرو يقول : ما منعه أن يبايعهم ويخرج الى الشام الا تطيّر لأن مكة التي منعه الله بها . وكان ذلك من جند مروان . وان عبد الله والله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه منهم اثنان . فزعم بعض قريش أنه قال : أنا أهدر تلك الدماء ، أما والله لا أرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة . وأخذ الحصين يكلمه سرا وهو يجهر جهرا ، وأخذ يقول والله لا أفعل ، فقال له الحصين بن نمير : قبّح الله من يعدّك بعد هذه داهيا قط أو أديبا ، قد كنت أظن أن لك رأيا . ألا أراني أكلمك سرا وتكلمني جهرا ، وأدعوك الى الخلافة وتعدني القتل والهلكة . ثم قام فخرج . »[1] . وخف حماس جند الشام بعد وفاة يزيد وذلك لأنه لم يعد لهم امام يقاتلون من أجله وباسمه . والبيعة بأعناقهم ملزمة ما دام يزيد حيا ، أما وأن يزيدا قد مات دون أن يأخذ البيعة منهم لأحد بعده فلم يعد للأمويين من بيعة في أعناقهم . كل هذا شجع الحصين على عرض ما عرض على ابن الزبير . ولكن هذا العرض لم يلق قبولا من طرف ابن الزبير فتوقفت المفاوضات وانقطعت ولو

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ . وانظر ، الاخبار الطوال ، ص ٢٦٨ .

نجحت هذه المحاولة لكان ممكنا أن يتغير مجرى الاحداث في التاريخ العربي الاسلامي •

وتجدر الاشارة الى أن بعض المصادر تروى أن بني أمية الموجودين في الحجاز قد خرجوا من المدينة الى الشام مع جند الحصين بعد أن توقف القتال بسبب وفاة يزيد • وهذه الرواية غير صحيحة لاسباب أهمها أن عوانة يروي أن عبد الله بن الزبير كتب الى عامله بالمدينة أن ينفي بني أمية منها بعيالاتهم ونسائهم الى الشام[1] وهناك رواية مماثلة لهذه الرواية على لسان الواقدي[2] •

وهناك رواية ثالثة لأبي مخنف تحمل المعنى[3] • وحسب هذه الروايات الثلاث ورواية بيزنطية تماثلها[4] ، نستطيع القول أن بني أمية لم يخرجوا من المدينة من تلقاء أنفسهم وانما كان الذي أخرجهم ابن الزبير •

كانت وفاة يزيد يوم الثلاثاء لاربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة ٦٤ ، [5] في قرية حوارين في أطراف حمص ، وقد توفي وهو ابن ثمان وثلاثين عاماً على رواية أو ابن خمس وثلاثين على رواية أخرى ، وأمه ميسون بنت بحدل الكلبي • وقد ظل يزيد خلال عصور طويلة من التأليف التاريخي موضع لعنة المؤرخين فهو في نظر هؤلاء المؤرخين انسان حصل على الخلافة دونما حق وبنفوذ أبيه وهو الذي أباح المدينة ورمى الكعبة وأحرقها • وهذه التهم بعضها مزور كما رأيناه ولكن لم يكن بدّ من أن يكون يزيد موضع نقد وهجوم ، لأن أخباره كتبت بأيد عباسية أو شيعية لا تكن له الود أو الصداقة • وهناك أكثر من دليل على أنه لم يكن رجل جبروت وسطوة أو محباً للدماء • وذلك لأنه كما رأينا أوصى قائده

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣١ •
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ •
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٠
(٤) أنظر ، فلهاوزن ، ص ١٦٤ •
(٥) الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٩ •

أن يدعو أهل المدينة الى السلم وأن يؤجلهم أياماً والا" يحاربهم الا اذا اضطروه الى ذلك • وفي عهده توقف القتال مع الروم،وهذا مما يؤيد أيضاً أنه لم يكن رجل دماء •

والذي يؤخذ على يزيد هو أنه لم يكن يولي الأمور العامة عناية كافية ، فقد كان قليل الاهتمام بشؤون الدولة ومشاكلها ، وكان قبل توليه الخلافة منصرفاً الى اللهو والغناء والشراب حتى أنه لم يشترك في الحملة التي وجهها أبوه الى القسطنطينية الا مضطراً • ولكن الحق يقتضينا أن نقول نه بعد أن تولى الخلافة خفف كثيراً من لهوه وأظهر بعضاً من حزم•

ويذكر المستشرق فلهاوزن نقلا عن نص قديم وصفاً ليزيد جاء فيه أن يزيداً كان رجلا ظريفاً الى أبعد حد وأنه لم يطمح لأي مجد لنفسه بسبب ما كان يتمتع به من عظمة الملك ، بل عاش رجلا عادياً مع الجميع كأحد الرعايا •[1]

الاحداث عقب وفاة يزيد :

توفي يزيد فانتشرت الفوضى في الأقاليم العربية والعجمية على حد سواء ، وظهرت الفتن واستشرى أمر العصبية القبلية ، وانتهى عهد الحكم السفياني • ففي البصرة مثلا انقسم الناس الى شيع ، وتنازعت القبائل التي كانت تنزل فيها من الازد وربيعة وتميم وقيس • كان على البصرة حين توفي يزيد ، عبيد الله بن زياد ، وقد حاول ابن زياد ان يجمع كلمة الناس وأن يوحد الصف حتى ينجلي الامر في الشام،فجمع الناس وخطب فيهم ودعاهم الى مبايعته أميراً عليهم حتى تجمع الامة على خليفة ، وأظهر المجتمعون موافقتهم[2] • ولكنهم ما لبثوا بعد أن خرجوا من مكان الاجتماع أن أخذوا يمسحون أكفهم بباب الدار والحيطان علامة رفضهم لهذه البيعة ، ولما رأى

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ • والحاشية رقم (٣) من الصفحة ١٦٥ •

(٢) انظر حول هذا الموضوع خطبة عبيد الله بن زياد في البصريين في تاريخ الخلفاء ، ص ٩٠ ب ـ ٩١ أ •

ابن زياد موقف البصريين منه تركهم وسار الى الشام [١] • فاختاروا من بعده عبد الله بن الحارث الهاشمي وكان يلقب «ببه» وكان ضعيف الشخصية، ويقول الطبري نقلا عن لسانه قوله : « ما كنت لأصلح الناس بفساد نفسي • » [٢] وقد استمرت ولايته عليهم شهرين ، أو اربعة أشهر على قول آخر ثم اعتزل •

أما الخوارج فكانوا أول الأمر الى جانب الزبير ثم ما لبثوا أن فارقوه، وجاءوا البصرة حيث تفرقت كلمتهم وانقسموا الى احزاب أهمها فئة الازارقة الذين خالفوا بقية اخوانهم ووقعت بينهم حروب ودماء •

وفي الكوفة وثب الكوفيون على أميرهم من قبل عبيد الله بن زياد وطردوه وانقسمت كلمتهم ثم عادوا واتفقوا على عامر بن مسعود القرشي ولقبوه دحروجة الجعل لأنه كان قصير القامة • وقد مكث عامر في ولايته عليهم مدة ثلاثة أشهر ثم ما لبث أن عزله ابن الزبير [٣] •

وفي خراسان كثرت الفتن والمنازعات بين القبائل واتفق الناس أول الأمر على مبايعة سلم بن زياد أميراً لهم • ثم ما لبثوا أن خلعوه فخرج سلم من خراسان وولى الأمر بعده المهلب بن أبي صفرة وهو من الازد فلم ترض عنه بقية القبائل من ربيعة ومضر [٤] • وغلب كل قوم على ناحية من أقاليم المشرق ووقعت الفتنة بين الأحزاب •

هذا في الاقاليم ، أما في الشام فقد ولي الخلافة بعد يزيد ابنه معاوية ابن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان • وهناك اكثر من رواية حول خلافة معاوية الثاني هذا ، وسنعرض فيما يلي بعضاً منها :

رواية عوانة التي يقول فيها ما يلي : « إن يزيد بن معاوية لما مات وابنه معاوية من بعده ، وكان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغني أمَرَّ

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ٩١ ب •
(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٢٨ •
(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٢٩ _ ٥٣٠ •
(٤) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٥ ٥٤٦ •

بعد ولايته فنودي بالشام : الصلاة جامعة • فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فاني قد نظرت في أمركم فضعفت عنه ، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر ابن الخطاب رحمه الله عليه حين فزع اليه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت لكم ستة في الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم • ثم دخل منزله ولم يخرج الى الناس وتغيّب حتى مات • فقال بعض الناس دُسّ اليه فسقي سُمّاً ، وقال بعضهم طعن »[1] • والبلاذري يؤيد خبر اعتزال معاوية الثاني الخلافة قبل أن يموت[2] • أما الواقدي فله رواية أخرى في الطبري يقول فيها : « لما حضرت معاوية بن يزيد ، أبا ليلى الوفاة ، أبى أن يستخلف أحداً »[3] •

ونستطيع بعد الاطلاع على هذه الروايات ومقارنتها بالاحداث المختلفة وفحصها فحصا دقيقا أن نرجح رواية الواقدي وأن نعتبرها أقرب الى الحقيقة من رواية عوانة والبلاذري لاسباب اهمها ما يلي : —

أولا — من الجائز أن آل مروان بن الحكم وأتباعه هم الذين وضعوا الرواية الاولى ليبرروا أخذهم للخلافة من البيت السفياني باعتبار أن صاحب الخلافة قد تنازل عنها • فلم يغتصبوها من السفيانيين بل كان لا بد لهم من أخذها حتى لا تظل الجماعة الاسلامية دونما امام • ويؤيد هذا الزعم أو الظن أن البعض لا يعدّ معاوية الثاني في سلسلة الخلفاء الامويين ويجعلون مروان بن الحكم الخليفة الثالث في سلسلة خلفاء بني أمية •

ثانيا — في رواية عوانة ما يشير بشكل واضح الى ان معاوية الثاني لم يمت ميتة طبيعية بل مات مسموما أو مطعونا ، ولسنا نجد ما يبرر سمّه أو

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ — ٥٣١ •

(٢) يقول البلاذري : « ومات يزيد بن معاوية وبويع لابنه معاوية بن يزيد ، وهو أبو ليلى • فنادى الصلاة جامعة ، ثم تبرأ من الخلافة وجلس في بيته ومات بعد شهرين » • انظر البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ص ، ٣٢١ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٠ •

طعنه اذ انه حسبما يرد في الرواية نفسها كان قد تنازل بمحض اختيــاره عن الخلافة • فلماذا يسم أو يطعن وهو ليس بخصم أحد •

ثالثا ـ هناك ناحية ثالثة لا بد من التذكير بهـا فيمـا يتعلق بمطـامع المروانيين بالخلافة وسعيهم اليها مهما غلا الثمن • وهذه الناحيـة هـي ان مروان بن الحكم الذي كان قد قطع على نفسه عهدا في مؤتمر الجابية في أن يكون وريثه في الحكم خالد بن يزيد بن معاوية هو نفسه الذي تجاوز هذا القرار وخلع خالدا ليولي ابنيه عبد الملك وعبد العـزيز وبالتـالي ليضمن استمرار الخلافة في ذريته ، كما سنرى فيما بعد •

رابعا ـ اذا تركنا هذه الادلة الحسية جانبا ، وأخذنا بعين الاعتبار دليلا منطقيا يتلخص في أنه مخالف لطبيعة الخلفاء يومئذ أن يتنازل أحدهم عن حقه لغيره ، سيما وان رجال بني كلب وعلى رأسهم حسان بن مالك بن بحدل الكلبي كانوا يريدون ان تبقى الخلافة في نسل يزيد ، ابن أختهم ، لوجدنا ان مروان كان يسعى للخلافة وان معاوية الثاني لم يتنازل عنها وأن حياته انتهت عمدا على يد بعض من كانوا يريدون الخلافة لانفسهم •

والمهم في الامر انه تولى قيادة الناس في دمشق بعد وفاة معاوية الثاني الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو الى ابن الزبير سرا • وفي حمص بايع النعمان بن بشير الانصاري لابن الزبير • وفي فلسطين كان ابن بحدل الكلبي عاملا لمعاوية بن أبي سفيان ومن بعده لابنه يزيد • وكان يهوى هوى بني امية ، وكان ذا نفوذ واسع في فلسطين ، ولما وقعت الازمة دعا روح بن زنباع وانابه عنه ، ثم توجه الى الاردن ليكون قريبـا من دمشـق ويراقب الاحداث • وفي غيابه ثار على روح بن زنباع ناتل بن قيس الجذامي وخلعه وبايع لابن الزبير [1] • وكان أعظم الاضطرابات التي حدثت في فترة شغور العرش هذه الاضطرابات التي احدثهازفر بن الحارث الكلابي [2] أحد رجال

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣١ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣١ •

قبائل قيس التي كانت تقيم في شمال الجزيرة وعلى جانبي الفرات في قنسرين وقرقيسيا وحرّان وكانت هذه القبائل تشعر بالمرارة ضد بني أمية لان معاوية ابن أبي سفيان كان قد قدّم بني كلب عليهم ، وسلّم رئاسة القبائل الى ابن بحدل الكلبي خال يزيد • ووصل الامر بهذه القبائل ان عيّن عليها سعيد بن مالك من بحدل كعامل ، وهو كلبي وهي قيسية فصعب ذلك كثيرا على قبائل قيس وطردوا سعيدا من قنسرين وبايعوا لابن الزبير بتحريض زعيمهم زفر ابن الحارث الذي كان قد انضم الى ابن الزبير وحارب جيش يزيد ولقي من ولاء قبائله ما شجعه على هذه الخطوة لان القيسيين في سورية قد رأوا اخوتهم القيسيين في العراق قد بايعوا لابن الزبير •

وهكذا يمكننا القول ان موقف ابن الزبير كان قويا جدا ، وان أهل العراق كانوا قد بايعوه كما بايعه أهل مصر • وهكذا ايضا كانت أغلب أقاليم العالم الاسلامي ترفع راية ابن الزبير ولم يكن في هذه الفترة أي من بني أمية يستطيع كسب ولاء القبائل وجعلها وحدة تحت سيطرته وسيكون مصير العالم الاسلامي رهنا بظروف وأحداث ستقوم فيما بعد وستفرض مجرى جديدا للاحداث •

معركة مرج راهط ومؤتمر الجابية :

كانت الاوضاع المضطربة ، والفوضى التي عمّت جميع أقاليم الدولة العربية ، سببا يدعو الى العمل السريع ، في سبيل وضع حد لهذه الفترة من الاضطراب التي تمر بها الدولة العربية الاسلامية • وكانت معركة مرج راهط ، هي المعركة التي اعادت الامور الى مجراها الطبيعي وبها انتهى عهد الاسرة السفيانية وابتدأ عهد الاسرة المروانية ، وقد اجتمعت بعدها كلمة أهل الشام على تولية مروان بن الحكم سدة الخلافة • واستطاع الفرع المرواني بعد هذه المعركة ان يوطد الامور ، وان يعيد الاستقرار الى ربوع الدولة ، فتنعم بعهد طويل من العمل السياسي المثمر الذي ستنتهي بانتهائه حياة هذه الدولة •

والنزاع في مرج راهط مظهر من مظاهر الصراع بين عصبيتين قبليتين، أو قل حزبين سياسيين : القيسية متمثلة في شخص الضحاك بن قيس ومن والاه من قبائل ، واليمانية متمثلة في شخص ابن بحدل وأتباعه .

ويمكننا ان نقرر أن مروان بن الحكم وابن بحدل وجماعتهما يتحملون تبعة النزاع الذي وقع بين القيسية واليمانية ، والذي وصل ذروته في هذه المعركة ، وهم المسؤولون عن تردّي الوضع بسبب المعاملة السيئة التي عومل بها الضحاك والقيسيون عموما خلال فترة من فترات الحكم الاموي السابقة .

وسنتابع فيما يلي الروايات المختلفة الواردة في تاريخ الطبري وغيره ، والتي تبحث في الاوضاع بعد وفاة يزيد وانتهاء حصار مكة . فقد جاء في رواية لعوانة[1] ان بني أمية الذين أخرجوا من الحجاز ، قدموا الى دمشق، وان عبيد الله بن زياد قدمها أيضا بعد فراره من البصرة . وكان أمير دمشق يومئذ وصاحب الامر فيها الضحاك بن قيس الفهري . وكان في دمشق أيضا مروان بن الحكم . والناس في الشام فريقان : فريق على رأسه ابن بحدل بالاردن يهوى هوى بني أمية ويدعو اليهم ، وفريق على رأسه الضحاك وهو من جماعة ابن الزبير ويدعو اليه سرا . وكان يمنع الضحاك من اظهار دعوته لابن الزبير ان بني أمية كانوا كثرا في دمشق ولهم أتباع كثيرون ، لذلك كان لا يستطيع الجهر بما يريد خشية حدوث فتن وقلاقل ، ويبدو أن ابن بحدل علم بنوايا الضحاك ، فكتب اليه كتابا يعظم فيه حق بني أمية، ويذكر الطاعة والجماعة وحسن بلاء بني أمية عنده وصنيعهم معه ، ويدعوه الى طاعتهم ، كما يذكر في هذا الكتاب ابن الزبير ويشتمه ، ويقول فيه انه منافق قد خلع خليفته . ويطلب ابن بحدل الى الضحاك أن يقرأ كتابه هذا على الناس . وحتى يضمن معرفة الناس بالكتاب حمّله الى رسول ، وحمّل الرسول نسخة أخرى من الكتاب وطلب اليه ان يسلّم الكتاب للضحاك ،

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ وما بعدها .

فاذا رفض قراءته على الناس فليقرأ هو النسخة التي معه . وفعلا ، سلّم الرسول الكتاب الى الضحاك فأبى الضحاك قراءته علانية ، فقام الرسول وقرأ النسخة التي معه . فلما سمعها الناس وهم مجتمعون في الجامع ، انقسموا وتصايحوا ، واقتتلوا حتى علا ضجيجهم ، وكادت فتنة تقوم . ويعرف هذا اليوم باسم « يوم جيرون »[(١)] . وبنتيجة يوم جيرون هذا احتدم النزاع بين القيسية واليمانية ، وانتقل هذا النزاع الى بني أمية أنفسهم فلم يتفقوا على خطة واحدة . وقام يومئذ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فصدّق ابن بحدل . وقام فريق من حزب الضحاك ، فشتم ابن بحدل وأثنى على ابن الزبير ، وأعلن ولاءه له .

واضطرب الناس ، وما كادت صلاة الجمعة تنتهي ، حتى أمر الضحاك، بحبس جميع الذين شتموا ابن الزبير . فغضب الكلبيون وهاجموا السجن ، وأخرجوا جماعتهم منه . وبعد هذا الحادث بأيام بعث الضحاك الى بني أمية فدخلوا عليه قصر الامارة فاعتذر اليهم ، وقال انه لا يريد ان يقوم بعمل يكرهونه ، وطلب اليهم أن يكاتبوا ابن بحدل وأن يطلبوا اليه أن يسير من الاردن الى الجابية ليلتقوا هناك ، وليقوموا بالاتفاق على مبايعة رجل منهم

وظن بنو أمية ان الامر سيصير الى اتفاق بينهم وبين الضحاك . ولكن الضحاك ما لبث أن بدل رأيه ، وذلك اثر مجيء رجل من القيسية أسمه ثور بن معن السلّمي يحمل اليه غضب القيسية عليه اذا ما أظهر لينا تجاه بني أمية[(٢)] . فبدّل الضحاك موقفه ، وعوضا عن ان يذهب الى الجابية ، توجه الى مرج راهط حيث أعلن دعوته لابن الزبير ، وبايعه على ذلك غالبية أهل الشام من القيسيين وبعض من غيرهم . وجاءه مدد من النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث الكلابي أمير قنسرين ، ومن ناتل بن قيس

---

(١) جيرون ، بيت كبير قديم ، ويبدو أن تسمية هذا اليوم بيوم جيرون لان ضرب الضحاك وقع فيه بعد الصلاة . ويسمى احد الأبواب الكبيرة في المسجد باسم باب جيرون . انظر ، فلهاوزن ، ص ١٦٨ ، الهامش رقم (١) .

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

الجذامي الذي كان يومئذ على فلسطين [١] . وفي نفس الوقت اجتمع بنو أمية واعوانهم في الجابية . والطريف في الامر ان المجتمعين في الجابية من بني أمية كانوا يمثلون أكثر من هوى وتقوم بينهم الملاسنات والمشاحنات ، ومع ذلك فقد كان النجاح حليفهم [٢] .

ويجدر بنا ان نذكر أن نقاشا طويلا جرى في الجابية [٣] ، وبنتيجة النقاش قرر المجتمعون ان تكون الخلافة لمروان بن الحكم أولا على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية وان تكون من بعدهما لعمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالاشدق . على أن تكون امارة دمشق لعمرو بن سعيد بن العاص ، وامارة حمص لخالد بن يزيد . وبعد ان اجتمعت كلمتهم سار مروان الى مرج راهط وعلى يمينه عمرو بن سعيد بن العاص ، وعلى ميسرته عبيد الله ابن زياد،وفي ركابهم رجال من كلب والسكاسك والسكون وغسان وغيرهم . وقد التقى هذا الجمع بالضحاك ومن معه من رجال وتقابل الجيشان . وأثناء المعركة جاء الخبر من دمشق ان رجلا من غسان اسمه يزيد بن أبي النمس كان مختبئا بها ، ثار وغلب عليها ، وأخرج عامل الضحاك منها ، واستولى على بيت المال، وأعلن مبايعته لمروان ، وأمده بالاموال والرجال والسلاح . وقد كان لهذه الشائعة أثر كبير على معنويات جند الشام ، وأثر معاكس على معنويات القيسية . وقد استمر القتال بين الفريقين مدة عشرين يوما . وأخيرا ، انهزم القيسية ، وقتل الضحاك ، وقتل معه كثير من أهل الشام ومن أتباعه .

هذا خلاصة ما يرويه عوانة عن أخبار الفترة التي انتهت بخلافة مروان ، وهي فترة حافلة بالاحداث كما رأينا . وهناك أقوال أخرى في مرج راهط سنلخص بعضها فيما يلي : ــ

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) انظر تفاصيل ما دار من نقاش في الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ ــ ٥٣٧ .

١ ـ **رواية المدائني** : يروي المدائني في كتاب الاغاني [١] رواية تتفق مع رواية عوانة في اكثر تفاصيلها ، ولكنها تغفل ذكر « يوم جيرون » • وفيما يتعلق بمروان بن الحكم وبني امية يدعي المدائني ان مروان لما قدم دمشق مع بني أمية الذين أخرجوا من الحجاز دعاهم الضحاك الى مبايعة ابن الزبير • فقبل مروان أول الامر ، ولكنه ما لبث أن انقلب على هذا الاتفاق بتأثير عبيد الله بن زياد وعمرو بن سعيد ومالك بن هبيرة السكوني والحصين ابن نمير السكوني ، الذين دعوه ان يتقدم هو ليكون خليفة • وذكر المدائني في روايته هذه ان عدد رجال الضحاك في مرج راهط كان ثلاثين ألف رجل، وان عدد رجال بني أمية كان سبعة آلاف رجل • ويتفق مع المدائني في هذه التفصيلات صاحب أخبار الخلفاء [٢] •

٢ ـ **رواية أبي مخنف** : يخالف ابو مخنف عوانـــة في كثر من موضع [٣] ،فهو يروي أن مروان التقى ببني أمية الذين اخرجوا من الحجاز في تدمر • وانهم اجتمعوا هناك ولم يدخلوا دمشق لان الضحاك بن قيس كان عاملها من قبل ابن الزبير ، ولان تدمر كانت مركزا لقبائل بني كلب مؤيدي بني أمية •

ويقول ابو مخنف ان مروان كان في طريقه الى ابن الزبير لمبايعته ، حين قدم عبيد الله بن زياد من العراق واجتمع به وسأله عن خططه ، فأبلغه مروان انه يريد مبايعة ابن الزبير • فقال له ابن زياد : « ليس هذا برأي أن تنطلق وأنت شيخ قريش الى أبي خُبَيْب (لقب ابن الزبير) بالخلافة، ولكن ادع أهل تدمر وبايعهم ثم سر بهم وبمن معك من بني أمية الى الضحاك حتى تخرجه من الشام » • وأيد عمرو بن سعيد قول ابن زياد وأشار عليه ان يتزوج أم خالد بن يزيد ، فمال مروان الى هذا الرأي ، وبايعه الناس في

---

(١) الاغاني ، ط • بولاق ، ج ١٧ ، ص ١١١ •

(٢) أخبار الخلفاء ، ص ٩٥ أ ، حيث نقرأ أن عبيد الله بن زياد هو الذي اقنع مروان بن الحكم بعدم مبايعة ابن الزبير والمطالبة بها لنفسه •

(٣) انظر تفاصيل رواية أبي مخنف في ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٠ وما بعدها •

تدمر وسار بعد ذلك لقتال الضحاك ومعه جمع عظيم من الرجال ، وحصل اللقاء في مرج راهط واقتتل القـوم وقتل الضحاك وهزم زفـر بن الحارث الكلابي وذهب الى قرقيسيا ، حيث اجتمعت حوله القيسية ، جعلته رئيسها وهرب عمال ابن الزبير من فلسطين وحمص • وبايع أهـل الشام جميعا لمروان •

٣ ـ رواية الواقدي (١) : يروي الواقدي أن الناس بدمشق بـايعـوا الضحاك بعد وفاة معاوية الثـاني على أن يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى تجمع الامة على خليفة جديد لان معاوية الثاني لم يعين خليفة يلي الامر من بعده • ويدعي الواقدي أن الضحاك أراد الخلافة لنفسه ، وباعتبار كونه غير قرشي والخلافة في قريش ، اضطر لمبايعة ابن الزبير • ويضيف ان مروان كان لايفكر في الخلافة لنفسه ، وان الذي شجعه على ذلك هو ابن زيـاد حين قدم من العراق • ثم يتحدث عن مؤتمر الجابية وبيعة الناس لمروان ، وينهي حديثه بخبر مرج راهط وانتصاره على الضحاك والقيسية •

مناقشة هذه الروايات :

أ ـ لا يرد اسم « يوم جيرون » الا في رواية عوانة • ولكنا نجده في كتاب الحماسة (٢) لابي تمّام ، ولسنا نستطيع الشك في صحة هذا الخبر ، لانه من غير المعقول أن يخترع عوانة قصة بكاملها ، وان يوجد لهـا أسماء • مع العلم أن اختراع هذا الشيء لا يعود عليه أو على موقفـه السياسي بأية فائدة •

ب ـ ينفرد ابو مخنف في قوله ، ان الامويين الذين أخرجوا من الحجـاز توجهوا الى تدمر والتقوا فيها بعبيد الله بن زيـاد • وأغلب الظن ان

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ ، ٥٣٥ •

(٢) جاء في الحماسة (شرح المرزوقي) ، ص ١٤٩٢ ، البيت التالي :

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله **بجيرون** إذ لا تستطيعون منبرا

هذا القول غير صحيح لان اجتماع بني أمية في دمشق يوم جيرون ثابت في اكثر من رواية ، وفي اكثر من مصدر • وأبو مخنف يغفل هذا اليوم تماما ، كما يغفل أي ذكر لمؤتمر الجابية تماما ، ويكتفي بأن يصوّر لنا الاحداث وكأنها قد وقعت كلها في تدمر اعتقادا منه بأن تدمر خير مكان للحركة الاموية الجديدة،لان بني كلب ينزلون فيها •

جـ ـ ما يتحدث به أبو مخنف عن ميل مروان الى ابن الزبير اول الامر ، وتحوله عنه ، لا يذكره عوانة أبدا • ولكنّا نجده عند الواقدي والمدائني الى جانب أبي مخنف ، مما يجعلنا نميل الى قبوله لتعدد الرواة الذين يذكرونه ويثبتونه في صلب رواياتهم •

د ـ تبقى قصة موقف الضحاك • فالرواة مختلفون في تحديدها : عوانة والمدائني يقولان انه كان زبيريا منذ البدء ، وانه كان يدعو لابن الزبير سرا • اما ابو مخنف فيرى انه كان عاملا لابن الزبير على دمشق •

وهناك رواية للواقدي تخالف ما تقدم وتكذب هذا الادعاء على لسان رجل من سلالة الضحاك تنص على أن الضحاك لم يكن مع ابن الزبير ، وانه انما أراد أن يلزم الحياد ، وانه دعا الناس أن يبايعوه هو [١] •

وليس غريبا أن يكون في هذا الزعم بعض الصواب لانه يصعب علينا ان نصدق أن الضحاك بما نعرفه عن ماضيه الاموي المغرق في أمويته قد مال لابن الزبير دونما سبب فالضحاك كما هو معلوم كان ساعد معاوية الايمن ، وقد اعتمد عليه معاوية كما اعتمد على مسلم بن عقبة اعتمادا كبيرا•والضحاك هو بطل الاجتماع الذي تمت فيه البيعة ليزيد • لذا لابد وأن تكون مكانته عند يزيد عظيمة • وتولية الضحاك امارة دمشق بعد وفاة معاوية الثاني الذي مات دونما ولي عهد ، دليل آخر على ثقة الامويين به ، وعلى ايمانهم بأنه سيحفظ الامر لهم حتى يتفقوا على مرشح من بينهم •

ويبدو ان الضحاك بعد ان تولى الامارة ، حاول جاهدا أن يجمع كلمة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٥ •

القبائل ولكنه لم يفلح ، فقد رأى ابن بحدل يسعى لان يكون صاحب النفوذ والـ يطرة عن طريق توليته أحد أبناء أخته . ولما شعر بأن هذا قد لايتحقق، نراه يقبل بمروان على أن يكون لخالد بن يزيد نصيب في الخلافة بعد ذلك.

وابن بحدل عدو لدود للضحاك فهو زعيم القبائل اليمانية عدوة قبائل الضحاك القيسية ، واذا أضفنا الى هذا ان بني أمية كانوا منقسمين على أنفسهم لاستطعنا أن ندرك ان ميل الضحاك لابن الزبير ميل له ما يبرره سيما وان بعضا من بني أمية أنفسهم كانوا يقولون هذا القول .

ويبدو ان قدوم ابن زياد كان عاملا فاصلا في تثبيت الموقف الاموي وابراز الامويين كقوة حقيقية في قضية الخلافة . وهكذا تقدم مروان يريد الخلافة لنفسه ، وقرر الامويون عقد مؤتمر الجابية فدعوا الضحاك اليه ، فقبل اول الامر ولكنه ما لبث ان غير موقفه بتأثير قومه القيسيين الذين كانوا يرون في كل تقارب مع الامويين مذلة لهم لان الامويين أنصار خلّص لعدوهم ابن بحدل .

فاستنكاف الضحاك عن حضور مؤتمر الجابية تم اذن بتأثير قومه من القيسية . ويؤيد زعمنا هذا ما نقرؤه في تاريخ الطبري على لسان بعض القيسيين يخاطبون الضحاك « دعوتنا الى طاعة ابن الزبير فبايعناك على ذلك وانت تسير الى هذا الاعرابي من كلب تستخلف ابن اخته خالد بن يزيد »[1] . واذا أضفنا الى هذا الفارق الكبير في السن والشخصية بين مروان بن الحكم ومعاوية بن ابي سفيان ، لوجدنا هناك سببا آخر من أسباب هذه الفرقة بين القيسيين وبين بني امية . فمعاوية بن ابي سفيان الذي استطاع ان يقيم التوازن بين القيسيين واليمنيين ، لم يجد خلفاً كفؤاً في مروان يستطيع ان يقيم مثل هذا التوازن وبالتالي يستطيع ان يجمع عرب الشام على مختلف عصبياتهم حول شخصه .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ أن البعض يعتقدون أن النزاع بين قيس ويمن

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤ .

الذي توجته معركة مرج راهط نزاع قديم تعود أصوله الى الجاهلية • ان هذا الاعتقاد غير صحيح لانا لا نجد له ذكرا في اخبار الجاهلية ، ولا نسمع عن نزاع بين قيس وكلب قبل فتح بلاد الشام وهجرة القبائل القيسية اليها • وعلى هذا فان النزاع بين قيس وكلب قد استجد بعد الفتح الاسلامي لهـذه البلاد ، وهجرة القبائل القيسية اليها ، وإصهار معاوية الى بني كلب ، ممـا قوى شوكتهم ، وزاد نفوذهم ، وأدى بالتالي الى نقمة القيسيين عليهم • ولما مات يزيد وظهرت دعوة ابن الزبير انضم القيسيون اليه نكاية ببني كلب[1] •

وهكذا دخلت قضية العصبية القبلية ولاول مرة مسرح السياسة العليا للدولة • وبعد ان كان الخلاف في قضية الخلافة محصورا بين فروع قبيلـة قريش فقد أصبح هذا الخلاف مشاعا بين القبائل ويصطبغ بصبغة حزبيـة قبلية ، ووصل هذا الخلاف السياسي القبلي أوجـه في مرج راهط • واذا كان يوم مرج راهط قد قرر النصر للكلبيين فقد كان هـذا النصر نصراً مؤقتاً ، وسيستمر الصراع بين هاتين العصبيتين القبليتين أو مـا يمكننـا ان نسميه الحزبين السياسيين الكبيرين في العصر الاموي طيلة حياة هذه الخلافة • وسيكون في النهاية من العوامل التي ستؤدي الى انهيار البيت الاموي •

---

(١) انظر ، احسان النص ، العصبية القبلية واثرها في الشعر الاموي ، ط • بيروت ، دار اليقظة العربية ، ص ٢٦٤ ، وانظر ايضا ، ص ٢٥٥ ـ ٢٦٥ من نفس الكتاب •

القسم الثالث

خلفاء الفرع المرواني من البيت الأموي

الفصل الثالث

مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان

بويع مروان بالخلافة في مؤتمر الجابية في ذي القعدة من سنة ٦٤هـ[١]. وهو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية ، وبتسلمه الخلافة ، انتقل هذا المنصب الى فرع جديد من الاسرة الاموية هو الفرع المرواني . وكان وصوله الى هذا المنصب هو النتيجة البارزة الاولى لمعركة مرج راهط التي ثبتت انتصاره على خصومه من القيسية . وجرت له بعد انتهاء المعركة بيعة ثانية اوسع واضخم في دمشق ، وذلك في أول سنة ٦٥ هـ [٢] .

وتذكر بعض الروايات التي أشرنا اليها أنفاً أن مروان اعتلى عرش الخلافة دون ان يكون له بها أرب ، وأن خروجه من الحجاز حين نفي مع بني أمية من قبل ابن الزبير كان السبب البعيد لوصوله الى هذا المنصب ، إذ أنه لو بقي في الحجاز لما عرفه الشوام ولما بايعوه ، وذلك لان ابن بحدل كان هواه في مرشح من الفرع السفياني، ولم يناصر مروان إلا لأن الاجماع الاموي عقد عليه في فترة كانت الفرقة والنزاع فيها بين أفراد البيت الاموي قد وصلت حد الخطر . ويؤيد هذا الزعم خطبة لروح بن زنباع الجذامي ينقلها لنا الطبري ويذكر فيها حال الجماعة الاسلامية بعد وفاة يزيد وابنه معاوية بن يزيد ويستعرض أسماء المرشحين كعبد الله بن عمر الذي يصفه

---

(١) انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق سهيل زكار ، القسم الاول ، ص ٣٢٦ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢٨ . انظر أيضاً ، تاريخ الخلفاء ، ص ٩٥ ب ، حيث نقرأ أن بيعة مروان الاولى التي تمت في الجابية وقبل موقعة مرج راهط كانت في المحرم من سنة ٦٥ هـ . واغلب الظن أن صاحب تاريخ الخلفاء قد خلط بين بيعة الجابية وبيعة دمشق .

بأنه « رجل ضعيف » وعبد الله بن الزبير الـذي ينعته بالمنافق رغم فضلـه ومكانته • فلم يبق إلا أحد شخصين : مروان بن الحكم ، وخالد بن يزيد ابن معـاوية • وباعتبار أن مروان أكبر سناً وأعظم تجربة فيجب أن تكون الخلافة له أولا ومن بعده لخالد بن يزيد[1]•

وبعد أن وصل مروان الى الخلافة ، عمل جاهداً للابقاء على سلطانه ولتوريث هذا السلطان لأولاده من بعده • ومن أجل ذلك تزوج من أرملة يزيد فاختة (أم خالد بن يزيد) وهي ابنة ابي هشام بن عتبـة[2]• وقـد استطاع بهذا الزواج أن يستميل آل يزيدوأن يتخلص بالتالي من مرشحهم للخلافة خالد بن يزيد ، إذ أنه ما لبث فترة حتى خلعه وأخذ البيعة من بعده لابنيه عبد الملك ثم عبـد العزيز بن مروان[3]وفي المصادر ذكر لـلاسلوب الذي اتبعه مروان في خلع خالد والطريقة التي اتبعهـا في تصغير شأنه أمام الناس ، وكيف شكا خالد الى أمه (فاختة) ما صنع به مروان وكيف انتقمت أم خالد لابنها بأنخنقت مروان بواسطةوسادة غطته بها وأمسكتها عليه حتى مات[4]•

كانت بيعة مروان لابنيه وعزل خالد ، أول مخالفة لبنود اتفاقيةمؤتمر الجابية • ولم يعارض ابن بحدل في هذا العمل وذلك لانه كان يعرف أن خالد بن يزيد لن يتسنى له تسلم العرش بعد مروان لسببين :

أولهما :

ان مروان كان كبير السن ووفاته متوقعة في القريب العاجل •

وثانيهما :

ان خالداً كان صغـير السن ولا تؤهله سنه لتسلم منصب الخلافـة •

---

(١) انظر نص الخطبة في ، الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٦ ــ ٥٣٧ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٠ •

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الاول ، ص ٣٢٨ •

(٤) انظر من أجل ذلك . تاريخ الخلفاء ، ص ٩٦ أ ، والطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٠ ــ ٦١١

وسينتج عن وفاة مروان قبل بلوغ خالد السن اللائقة بمن يتولى خلافة المسلمين أن يؤول الامر الى عمرو بن سعيد • وابن بحدل لا يهتم بعمرو ولا يعتقد أنه أحق من مروان وابنائه بالمنصب •

وللدلالة على صحة زعمنا هذا نذكر أن الطبري يورد خبراً خلاصته أن مرواناً بلغه أن عمرو بن سعيد بن العاص الاشدق كان يقول : « إن هذا الامر لي من بعد مروان ••• فدعا مروانُ حسانَ بن مالك بن بحدل فأخبره أنه يريد أن يبايع لعبد الملك وعبد العزيز ، ابنيه من بعده ، وأخبره بما بلغهعن عمرو بن سعيد • فقال (ابن بحدل) : أنا أكفيك عمرواً • فلما اجتمع الناس عند مروان عشياً ، قام ابن بحدل فقال : إنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أماني ، قوموا فبايعوا لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده • فقام الناس فبايعوا من عند آخرهم • »[1] •

وهكذا نظمت قضية الخلافة بعدمروان،وبداواضحا أنه لن يكونلعمرو ابن سعيد نصيب فيها • أما مروان فقد قضى نحبه على النحو الذي ذكرنا بيد زوجته أم خالد بعد حكم دام حوالي العشرة أشهر وذلك في رمضان سنة ٦٥ هـ[2]• وبعث في حياته بعثين أحدهما الى المدينة والآخر الى العراق[3]•

أهم الاحداث التي جرت في الفترة بين وفاة يزيد واعتلاء عبد الملك بن مروان العرش :

الاحداث التي سنتناولها بالبحث في هذه الفقرة تمتد جذورها الى زمن خلافة يزيد بن معاوية • فقد كان ما تناولناه بالحديث في الفقرة السابقة يتناول جانبا واحدا فقط من جوانب الحياة الداخلية في فترة الحكم الأموي ، وهو انتقال الحكم من الفرع السفياني الى الفرع المرواني من البيت الأموي، ولا بد لاستكمال سلسلة الاحداث التي توقفنا عن الخوض في غمارها بعد

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٠ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١١ •

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١١ •

وفاة يزيد أن نذكر أن انشغال البيت الأموي بتدبر أمر العرش الذي خلا بوفاة يزيد وابنه معاوية الثاني لم يكن يعني أن تسلم مروان بن الحكم لمقاليد السلطة قد وضع حدا لثورة ابن الزبير في الحجاز أو لنقمة العراق بعد مقتل الحسين واستئثار الأمويين بالسلطة أو غير ذلك من أحداث •

ومن الجدير أن نلاحظ بهذا الخصوص أن بلاد الامبراطورية العربية الاسلامية كانت بعد وفاة يزيد في حالة تشبه الحالة التي كانت عليها بعد مقتل عثمان • فقد انقسمت أقاليم الامبراطورية على بعضها • ولم يبق لبني أمية ، قبل انتخاب مروان ، الا الشام ، وهم بالشام مختلفون ولهم أكثر من هوى • ولم يكن بين بني أمية رجل كمعاوية يستطيع أن يجمع شتات الناس وتتفق كلمتهم عليه • وحين انتخب مروان كانت خلافته حلا لأزمة لا تحتمل التأجيل • والفارق بين معاوية ومروان أن معاوية كان ذا نفوذ شخصي وسلطان خاص ، اذ أنه عرف أهل الشام لفترة طويلة من الزمن ، فاستمالهم اليه ، واستقطب ولاءهم وحبهم لشخصه واعتبروه منهم • في حين أن مروان سكن الحجاز طيلة حياته ولم يقدم الى الشام الا بعد فتنة ابن الزبير الذي أخرجه مع غيره من الأمويين • ولم يكن له في الشام أتباع أو أعوان ، ورصيده فيها هو ما لبني أمية من حب في نفوس أهلها ، وليس لشخصه بالذات • على أن انتصاره في مرج راهط جعل حمص وقنسرين تنضم الى جانبه • كما استطاع أن يطرد والي مصر من قبل عبد الله بن الزبير ، وهو عبد الرحمن بن جَحْدم القرشي[1] وأن يضم مصر اليه • وكان الذي أمن له النصر على ابن جحدم هو عمرو بن سعيد الأشدق الذي قتل ابن جحدم وأخذ البيعة لمروان[2] • أما فلسطين فكان ابن الزبير قد وجه أخاه مصعب ابن الزبير اليها ابان الأزمة فتوجه اليها الأشدق أيضاً بأمر من مروان وهزم مصعباً وأخذ البيعه فيها لمروان بعد أن أخذها من مصر[3] •

---

(١) هو عبد الرحمن جَحْدر القرشي عند صاحب تاريخ الخلفاء ، انظر ، ص ٩٦ أ • أما الطبري فيدعوه عبد الرحمن بن جحدم القرشي ، انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ ، ٥٤٠ •

(٢) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٩٦ أ ، و ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٠ •

(٣) انظر تاريخ الخلفاء ، ص ٩٦ أ ، و ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٠ •

وحاول مروان بعد أن استتب له أمر الخلافة أن يرسل حملة للاستيلاء على المدينة التي كان ابن الزبير قد ولاها أخاه عبيدة بن الزبير[١] • وقد ولى على هذه الحملة حُبَيْش بن دُلَجَه القَيني ، كما أرسل بعثاً الى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد ، ولكن هذين القائدين لم يتمكنا من اتمام ما عهد به اليهما لأن المنية عاجلت مروان قبل أن ينفذا ما أرسلا من أجله[٢] •

ومات مروان تاركاً لابنه وولي عهده عبدالملك أحداثاً جساماً ومعضلات يتطلب حلها أن يكون على رأس الدولة رجل قوي لا تهزمه الخطوب ولا تفت في عضده الأمور العظام • وقد وجدت الأسرة الأموية الحاكمة في شخص الخليفة الجديد هذا الرجل القوي الذي يعتبره الكثير من المؤرخين المؤسس الثاني للدولة الأموية ، بعد مؤسسها الأول معاوية بن أبي سفيان •

كان أهم ما يواجه عبد الملك في اليوم الأول لتسلمه مقاليد السلطة ، التخلص من ابن الزبير ، واعادة الأمور الى نصابها في اقليمين رئيسيين من أقاليم الامبراطورية هما العراق والحجاز اللذين كانا يدينان بالولاء لابن الزبير •

وسنستعرض فيما يلي أهم الأحداث التي تمت بين وفاة مروان واستتباب الأمر لعبد الملك ، أو الفترة التي يمكننا أن نطلق عليها اسم : نهاية الفتنة الثانية ، وذلك لأنه لا يمكن وضع حدود دقيقة بين حكم مروان وحكم ابنه عبد الملك ، فالأحداث التي بدأت ابان خلافة مروان القصيرة استمرت قائمة بعد وفاته •

آ ـ حركة التوابين ومعركة عين الوردة :

أدت وفاة يزيد بن معاوية لا الى انقسام البيت الاموي على نفسه فحسب ، بل الى اشتداد حدة الصراع العصبي القبلي كما رأينا • وقد وجد القيسيون

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٣٠ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ص ٦١١ • ثم مالبث حبيش بن دلجة ان قتل على يد أحد قادة ابن الزبير انظر ، ص ٦١١ ـ ٦١٢ من نفس الجزء من الطبري •

في اعلان ابن الزبير نفسه خليفة متنفسا لهم فانحازوا الى جانبه• ولكن انتصار الأمويين في مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس وبيعة مروان بن الحكم ، كانت كلها عوامل في كبح جماح المعارضة القيسية الى حين •

أما العراق الذي كاد الود مفقوداً بينه وبين البيت الأموي لعوامل شرحناها فيما سلف ، فقد كان خضوعه للحكم الأموي خضوعا مؤقتا وكان يتحين الفرصة للانتفاض على هذا الحكم ، ويشجعه على هذا الموقف وجود خلافة ابن الزبير المضادة في الحجاز من جهة ، وولاؤه لآل البيت وارتباطه القديم بهم من جهة أخرى • واذا صح أن آمال الكوفيين قد خابت حين طعن علي وآل الحكم الى معاوية وانتقلت العاصمة من الكوفة الى دمشق ، فانهم وجدوا في ابنه الحسين أملا جديداً فاستدعوه الى مصرهم وحثوه على المطالبة بالخلافة ، ولكن كربلاء التي فجعتهم فيه ، فجعتهم أيضاً في استعادة أمجادهم السابقة • ولما لم يكن في البيت العلوي في هذه الفترة من يرشح نفسه لتسلم ارث آل البيت ، فقد وجد بعضهم في خلافة ابن الزبير فرصة جديدة للتخلص من حكم بني أمية ، فانحازوا الى جانبه وانضم بعضهم اليه وآزروه أثناء حصار يزيد له في مكة[1] • وكان انحيازهم لابن الزبير لا تأييداً له ، بل تعبيراً عن نقمتهم على بني أمية ولعدم اتفاقهم على من يلي أمرهم في فترة فراغ العرش والاضطراب هذه • فبعد محاولة عبيد الله بن زياد أن يكون له الأمر في البصرة وخروجه منها وتخبط الوضع الداخلي ، راسل بعض البصريين ابن الزبير وطلبوا منه أن « يوجه اليهم رجلا من قبله يتولى الأمر »[2] عندهم • فوجه اليهم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي ، فقدم البصرة وتولى الأمر بها[3] • ولكن الأمر لم يستتب لابن الزبير في البصرة حتى وجه أخاه مصعباً والياً عليها • ولعل السبب الذي جعل البصريين يلجأون لابن الزبير

---

(١) يذكر الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٧ ، أن فئة من الخوارج على رأسها نجدة بن عامر الحنفي قدمت مكة وانضمت الى ابن الزبير أثناء حصار الشوام له دفاعا عن الكعبة •

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٠ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٧١ •

الخطر الخارجي المحدق بهم ، لذا فان الدينوري يذكر أن أول عمل قام به الحارث بن عبد الله والي ابن الزبير على البصـرة هو توليتـه المهلب بن أبي صفرة حرب الخوارج[1] .

أما الكوفة ، التي حاول ابن زياد أن يضمها الى نفوذه مع البصرة بعد وفاة يزيد بن معاوية ، فلم تستجب له ، وانتخب أهلها عامر بن مسـعود ، وكتبوا باختيارهم الى ابن الزبير فأقرهم على ذلك[2] .وقد ظلت ولاية عامر (الملقب بدحروجة الجعل لقصر قامته) على الكوفة مدة ثلاثة أشهر ، ثم ما لبث ابن الزبير أن وجه والياً جديداًمن قبلهوعبد اللهبن يزيد الانصاري[3] ، وهكذا دانت البصـرة والكوفـة لابن الزبير في الفترة التي كانت فيهـا الشام تتخبط باحثة عن خليفة أموي يعيد البيت الحاكم الى ما كان له من سيطرة سابقة على أمصار الدولة .

على أن تأييد العراقيين للحركة الزبيرية ، كان تعبيراً عن سخطهم على البيت الأموي ، وليس اقراراً بالولاء القاطع لابن الزبير . لذا كانت الشخصية العراقية الصرفة تحاول تحقيق وجودها بعيداً عن الأمويين والزبيريين معاً ، وستجد الشخصية العراقية هذه الفرصة المواتية في حركة التوابين . وكان مقتل الحسين نقطة البدء في نشأة هذه الحركة ، فقد رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين أنه لن يغسل عنهم عار فعلتهم الا قتل قتلته أو الموت دون ذلك[4] . وتجمع بعضهم عند قبر الحسين طالبين التوبة والغفران من الله وتسموا بالتوابين نسبة الى قوله تعالي : « فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم انه هو التواب الرحيم »[5] . وقـد تزعم حركة التوابين سليمان بن صرد الخزاعي ، وهو أحد صحابة الرسول .

---

(١) الاخبار الطوال ، ص ٢٧١ .

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٢٤ .

(٣) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٢٩ .

(٤) المسعودي ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ٥٤ . ويسميهم المسعودي « الترابيون » نسبة الى لقب علي بن ابي طالب ، أبي تراب ، انظر ج ٣ ، ص ١٠٢ وما بعدها .

وكانت بداية أمرهم على ما يذكر الطبري سنة ٦١ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين « فلم يزل القوم في جمع آلة الحرب والاستعداد للقتال • ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها الى الطلب بدم الحسين ، فكان يجيبهم القوم بعد القوم والنفر بعد النفر • فلم يزالوا كذلك حتى مات يزيد بن معاوية •• سنة أربع وستين••فقالوا : قد ماتهذا الطاغية،والأمر الآن ضعيف•• »[1] وخلال الفترة الواقعة بين سنتي ٦١ – ٦٤ هـ ، أخذت حركة التوابين شكل الاستعداد والتهيؤ من حيث حث الناس على الأخذ بثأر الحسين من جهة ، وجمع السلاح والعتاد للمواجهة المنتظرة من جهة أخرى • ويذكر الطبري أنه بعد موت يزيد زادت استجابة الناس لدعوة التوابين ، حتى كان من انضم اليهم أضعاف من كان استجاب لهم قبل ذلك[2] •

وقد وجد عبد الله بن الزبير في حركة التوابين فرصة ممتازة لتقوية نفوذه بشكل عام،لأن اخماد هذه الحركة سيشغل الأمويين عنه ويستنفذ شيئاً كثيراً من طاقتهم القتالية التي قد يوجهونها ضده ، لذا وبتوجيه منه قام عامله على الكوفة عبد الله بن يزيد حين علم بتحركات التوابين ، وجمع الناس في المسجد وقال لهم : « أما بعد ، فقد بلغني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم الى ذلك ما هو ؟ فقيل لي : زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، •••• ، فوالله ما أنا قتلت حسيناً ولا أنا ممن قاتله •• فان هؤلاء القوم (أي الذين يطالبون بدم الحسين) آمنون فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا الى من قاتل الحسين ، فقد أقبل اليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ، هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه اليكم ، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر مَنْبِج ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضاً ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رققتم ، وتلك

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٥٨ • وانظر ايضا ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ •

(٢) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٥٩ •

والله أمنية عدوكم »[1] • وفي هذه الخطبة اشارة واضحة الى ما ذكرناه آنفا عن الحملة التي أنفذها مروان بن الحكم الى العراق بقيادة عبيد الله بن زياد والتي لم تكن بهدف قتال التوابين ، بل من أجل استعادة العراق الى الحظيرة الأموية • وقد نجح عبد الله بن يزيد بأسلوبه هذا في اجتناب لقاء ابن زياد ووضع هذا العبء على كاهل التوابين دون أن يتكلف هو أي عناء • هذا فضلا عن أنه استطاع بذلك أن يخلص السلطة الزبيرية في العراق من فئة مشاغبة لا تقر لابن الزبير بالخلافة وتراها من حق آل البيت • وقد بلغت عبيد الله بن زياد أخبار وفاة مروان بن الحكم وهو في طريقه الى العراق ، فثبته عبد الملك في المهمة التي أوكلها اليه أبوه وأمره أن يسير الى لقاء أعدائه في العراق •

وكان سليمان بن صرد قد خرج في مطلع شهر ربيع الآخر من عام ٦٥ مع صحبه الى النخيلة وعسكر بها[2] • وبلغ عدد أصحابه آنذاك حوالي الاربعة آلاف مقاتل[3] ، ثم أخذ بعضهم ينفض من حوله • ومن النخيلة سار بمن تبقى معه حتى انتهوا الى قبر الحسين حيث بكوا وأظهروا التوبة من خذلانه[4] ، وتوجهوا بعد ذلك الى قرقيسيا حيث استقبلهم زفر بن الحارث الكلابي وأكرمهم وأخبرهم بقدوم عبيد الله بن زياد ومن معه من رجال ونصحهم بأن يسيروا الى عين الوردة وأن يجعلوها في ظهورهم ليكون الماء قربهم[5] • وعمل سليمان بنصيحة زفر ، وعلم ابن زياد بمكان سليمان فوجه اليه الحصين بن نمير الذي كان في جنده ، فطلب سليمان من الحصين أن يسلم له عبيد الله بن زياد وأن يخلعوا طاعة عبد الملك ويساعدوه على طرد عمال ابن الزبير عن العراق وتسليم الأمر الى آل البيت • وطبيعي ألا يجد

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٦١ ـ ٥٦٢ •
(٢) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٠٨ •
(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة •
(٤) أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ •
(٥) أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٠ •

هذا النداء اذنا صاغية في الجانب الشامي • وانتهي الأمر الى قتال شديد بين سليمان وجيش ابن زياد ، وقتل سليمان بن صرد الخزاعي وجمع كبير من رجاله ، وجاءت البشائر الى عبد الملك بن مروان بمقتل سليمان فسر كثيراً ، وزف البشرى الى أهل الشام بخطبة سجل فيها أول نصر له على العراقيين بعد أن غدا خليفة[1] •

ب ـ معركة خازر (سنة ٦٧ هـ) :

بعد النصر على التوابين الذي تحقق على يد عبيد الله بن زياد والحصين ابن نمير السكوني ومقتل سليمان بن صرد وتفرق جماعته ، شغل عبيد الله ابن زياد بقتال القيسيين جماعة زفر بن الحارث فيأرض الجزيرة مدة تقارب العام[2] ، وذلك لأن القيسيين الذين هزموا في مرج راهط ولم يبايعوا مروان ابن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان من بعده، استغلوا فرصة مرور عبيد الله بديارهم بعد قضائه على التوابين ليناوشوه ويجهزوا عليه ان أمكنهم ذلك • ثم ان عبيد الله سار بعد ذلك الى الموصل التي كانت تخضع للمختار بن أبي عبيد الثقفي (الذي سيأتي الحديث عنه في الفقرة التالية) فهرب عامل المختار عليها الى تكريت ، وأعلم المختار بذلك فأقره على ما فعل ، وأرسل جيشا قوامه ثلاثة آلاف فارس وعلى رأسه أحد رجاله لملاقاة ابن زياد ، وقد تمكن ابن زياد من قتل قائد هذا الجيش وهزيمة جنده وذلك في ذي الحجة من سنة ٦٦ هـ[3] • ولم ييأس المختار مما حل بقائده الاول ، وأرسل جيشاً آخر بقيادة ابراهيم بن الأشتر ومعه ، على ما يزعم البلاذري[4] ، تسعة آلاف مقاتل في طلب ابن زياد • وقد انضم الى جيش ابن الأشتر من بقي على قيد الحياة من جنود الجيش الأول الذي أنفذه المختار • وسبق ابن الأشتر ابن زياد في الوصول الى الموصل قبل دخول ابن زياد العراق • وجرت بين

---

(١) أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٢ •
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ •
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١ •
(٤) أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ •

الطرفين معركة على الخازر قرب قرية تدعى باريتا بينها وبين الموصل خمسة فراسخ[1] ، قتل فيها ابراهيم بن الاشتر عبيد الله بن زياد ، كما قتل في هذه المعركة الحصين بن نمير السكوني الذي كان على ميمنة ابن زياد ، وخلق كثير من أهل الشام[2] .

ج ـ ثورة المختار :

المختار رجل من ثقيف ، وهو ابن ابي عبيد الثقفي شهيد معركة الجسر ، وكان عمره حين قتل أبوه ثلاث عشرة سنة[3] . وكان المختار مع عمه بالمدائن حين جرح الحسن بن علي ، وأظهر ميلا للأمويين ، ثم ما لبث حين بعث الحسين بن علي ابن عمه مسلم بن عقيل الى الكوفة أن بايع مسلماً سراً وأنزله في داره ، وكان جزاؤه على ذلك أن زج به عبيد الله بن زياد في السجن حيث ظل حتى قتل الحسين[4] . وتوسط المختار الخليفة يزيد ابن معاوية من أجل اطلاق سراحه ، فكتب يزيد الى عبيد الله بن زياد بتخلية سبيل المختار وأعطاه مهلة للبقاء في الكوفة مدة ثلاثة أيام ، وغادر بعدها قاصداً الى الحجاز ، وفي نفسه حقد كبير على عبيد الله بن زياد . وفي الحجاز تقرب من ابن الزبير وحاول أن يبايعه ويدخل في خدمته فلم يجد تجاوبا لدى ابن الزبير[5] ، فأعاد الكرة بعد سنة فتم له ما أراد ، وغدا من رجاله[6] .

ومكث المختار مع ابن الزبير حتى كان حصار الحصين بن نمير لمكة ، فقاتل الى جانب ابن الزبير وأبلى بلاء حسناً ، وظل معه حتى انصرف الحصين

---

(١) انساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٤٨ .

(٢) من أجل أخبار هذه الموقعة ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٦ وما بعدها ، وأنساب الأشراف ج ٥ ، ص ٢٤٧ وما بعدها . ومن أجل تاريخ وقوعها الذي يحدده الطبري بمطلع عام ٦٧ هـ ، انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الأول ، ص ٣٣٢ حيث يذكر أن هذه الموقعة جرت في نهاية عام ٦٦ هـ .

(٣) من أجل ترجمة حياته ، انظر انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٤) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٥) الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٧٣ .

(٦) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٧ .

وأهل الشام بعد موت يزيد بن معاوية . وتذكر المصادر أنه سأل بعد ذلك عما آل اليه حال الكوفة فقيل له ان الكوفيين أخرجوا عامل عبيد الله بن زياد عن مدينتهم وانتخبوا عامر بن مسعود ، فقرر أن يلتحق بالكوفة مجدداً لأنه اعتقد أن الفرصة مواتية ليكون الأمر له فيها[1] ، وظن أن خير وسيلة ينفذ فيها الى نفوس الكوفيين هي ائتلاف الشيعة فيها ، ولكنه وجد أن سليمان ابن صرد الخزاعي قد قطع شوطا كبيرا في استقطاب ولاء شيعتها ، فادعى أنه موفد محمد بن الحنفية الى الكوفيين ، وانه انما جاء باسمه ومن أجل الثأر لأخيه الحسين والانتصار لآل البيت ، ويبدو مما يذكره البلاذري وغيره أن هذه الدعـوى لم تكن تسـتند الى واقـع مـا جـرى من حـوار بينـه وبين محمد بن الحنفية قبل مغادرته الحجاز . فقد قال له ابن الحنفية حين أبلغه عزمه على الشخوص الى العراق للأخذ بثأر الحسين والانتصار لآل البيت : « إنـي لأحب أن ينصرنـا ربُنـا ويُهـلك من سفـك دمـاءنا ، ولستُ آمر بحرب ولا إراقة دم ، فانه كفى بالله لنا ناصراً ولحقّنا آخـذاً وبدمائنا طالبا . »[2] .

وقد استطاع المختار ن يضم الكثير من الشيعة الكوفيين الى صفه ، ولا سيما بعد مقتل سليمان بن صرد لأنمعظم الشيعة زمن سليمان كانوا يؤثرونه ولا يقبلون بزعامة غيره[3] . وقد رأينا كيف بعث بابراهيم بن الاشتر لقتال عبيد الله بن زياد ، وكيف انتهت موقعة خازر بمقتل ابن زياد ، فكان ذلـك في نظر المختار انتقاما لما أوقعه به ابن زياد إبان فتنة الحسين بن علي .

والجدير بالملاحظة أن دوافع المختار كانت دوافـع شخصية تتلخص في أنه يريد أن يكون له ذكر نابه بين العرب ، كما اصبح لغيره مثـل هذا الذكر سيما وان المتنافسين على الزعامة والرئاسة لا يفضلونه بكثير ، ويلخص لنا المختار هذا الموقف بقوله : « إنما أنا رجل من العرب رأيت ابن الزبير

---

(١) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٧ .

(٢) .أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢١٨ .

(٣) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٠٧ .

انتزى على الحجاز ، ورأيت نجده انتزى على اليمامة ، ومروان على الشام ، فلم أكن دون أحد من رجال العرب ، فأخذت هذه البلاد فكنت كأحدهم »[١] . وهكذا استمال اليه هل الكوفة وذلك بادعائه أنه انما يثور ليأخذ بثأر أهل البيت ، هذا الثأر الذي نامت عنه العرب ، ولم تفعل شيئا في سبيله . وأهل الكوفة كما هو معلوم شيعة علي ولهم في هذا الموقف المعادي لاهل الشام مصلحة تتلخص في أنهم يريدون الحفاظ على مركز مدينتهم كحاضرة للدولة فيبقى الفيىء عندهم كما كانوا يقولون . وكانوا يضيفون على هذا قولهم « انّا لا نرضى ان يحمل فائض فيئنا عنا وان لا يقسم الا فينا » واذا كان هذا حال عامة أهل الكوفة فان الاشراف والسادات كان لهم موقف مغاير لهذا الموقف اذ لم تخلص هذه الفئة للمختار ولم يمحضوه حبّهم وكانوا (الاشراف) يفضلون السلامة والاتفاق مع أولي الامر من ممثلي الحكومة الاموية في الشام[٢] .

حتى أن بعضهم حين قويت شوكته تركوا الكوفة وهاجروا الى البصرة هاربين واستنجدوا بمصعب بن الزبير الذي كان يليها لأخيه عبد الله ، وطلبوا منه أن يشخص معهم الى الكوفة ليخلصهم مما آلت اليه حالهم في ظل سيطرة المختار[٣] .

ولعل من أهم أسباب هذا الموقف الذي اتخذه الاشراف من ثورة المختار ان هذا الاخير قرّب الموالي اليه وأعطاهم نصيبا من الفيىء ، وكان تعليق الاشراف على هذا « لقد تأمّر هذا الرجل علينا بغير رضى منا ، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب ، وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا ... فلم يكن فيما احدث المختار عليهم شيء هو أعظم من أن جعل للموالي من الفيىء نصيبا »[٤] . لقد خشي الاشراف ازدياد نفوذ الموالي

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٠٧ .
(٢) انظر تفاصيل هذا الموقف في ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣ وما بعدها .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٧ . وانظر ايضا ، أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٥١ .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

الذين كانوا عصب حركة المختار • ويزعم الطبري ان المختار كان يقول للموالي : انتم مني وأنا منكم في حين أن الموالي كانوا قد تركوا الاسلام ، وخرجوا منه ، ولا ينطقون بالعربية ••

والمهم في الأمر ان اشراف الكوفة كانوا عصبيات وفئات كثيرة مختلفة لا يجمع شتاتهم جامع مما جعل أمر التغلب عليهم سهلا ، بعكس رجال المختار من عبيد وموال ، الذين كانوا يدا واحدة في حرب السادة المتنفذين• وفي الطبري عبارة يشتم منها رائحة نزاع عربي أعجمي تمثله حركة المختار، اذ يرد القول التالي على لسان الاشراف تصويرا للحقد الذي كان يعتمل في نفوس هؤلاء الاعاجم ضد أسيادهم العرب ، « وعبيدكم ومواليكم أشد حنقا عليكم من عدوكم ، فهو (المختار) مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم »[1] • وهكذا فقد خدع المختار عامة الناس واستعمل أساليبا تدل على نوايا غير شريفة المقصود منها استقطاب الناس حول دعوته ، ولو على حساب الحقيقة ، وباسلوب فيه الكثير من الدّجل • ولعل قضية الكرسي[2] وأن فيه أوامر الله وكلماته تشبيها بتابوت العهد عند بني اسرائيل ، خير دليل على لجوء المختار الى أساليب ملتوية ، في سبيل تثبيت ايمان جماعته به ، ولو كان هذا على حساب حقيقة المبادىء الاسلامية •

وفعلا فقد صدّقه السبئية[3] وغيرهم من أخلاط الأمم المحكومة • أما العرب من جماعته فقد سخروا منه ، وكان على رأس الساخرين ابن الاشتر أحد مشاهير الحرب في العراق • وقد لجأ الى اسلوب توزيع الاموال ، واغداق العطايا المادية والمعنوية على الناس • وكان لا يكتفي بتوزيع المال على رجاله ، بل كان يغريهم بوعود عن وظائف ومراكز ، سيحتلونها اذا تم الامر له • هذا فضلا عن استغلاله لمصرع الحسين ، وأمور العصبيات القبلية ، وغير ذلك من الامور •

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٥ •
(٢) من احل الكرسي ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٢ وما بعدها •
(٣) انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٨٣ •

ويمكننا ان نلخص الظروف التي ساعدت على استقطاب المختار لهذا العدد الكبير من الاتباع ، بقولنا ان المختار استطاع بمهارة وذكاء أن يستفيد من الظروف المضطربة الاوضاع غير العادية التي كانت تحياها الكوفة ليكون بدعم من المال والاحابيل جماعة تدين له بالولاء وتسير في ركابه • كما لا بد من التنويه بأن النجاح الذي لاقته حركة المختار في الكوفة وفي العراق عامة فيما بعد ، لا يعود فقط لاستغلاله قضية الفوارق الطبقيـة واستجلابه فئـة الموالي الى جانبه وضربه على وتر الظلم الذي كان يحيق بهم وتعالي أشراف العرب عنهم واستئثارهم دونهم بخيرات الدولـة ، بل الى عاملين آخرين لعبا دورا هاما في استقطاب شيعة العراق وغيرهم من الفئات الناقمة حوله • وهذان العاملان هما :

أولا : التأييد المعنوي الذي حصل عليه من محمد بن الحنفية ، أكبر رجالات البيت العلوي وأجلهم قدرا آنذاك ، الذي بارك حركة المختار وأظهر تأييده لها، فقدقال محمد هذا لوفد من رجالات الشيعة الكوفيين الذين قدموا اليه يسألونه رأيه بالمختـار ، بعد أن حـل بين ظهرانيهم وادعى أنه موفـده اليهم : « ما أحب الينا من طلب بثأرنا ، وأخذ لنا بحقنا ، وقتل عدونا »[1] فعاد الوفد الى الكوفة وبايعوا المختار وعاقدوه • وإذا أضفنا الى هذا ما يذكره اليعقوبي من تحامل عبد الله بن الزبير على بني هاشم في الحجاز واظهـاره العداوة لهم[2] ، لوجدنا المبرر لموقف ابن الحنفية وما منحه من دعم للمختار

ثانيا : سيرة ممثلي ابن الزبير في العراق وسـوء معاملتهم للناس من جهة[3] ،وظلمه لبني هاشم عامة ولمحمد بن الحنفية بالذات[4] ، من جهـة

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ •

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٦١ •

(٣) من أجل سيرة عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير على الكوفة وأعماله والصراع بينه وبين جماعة المختار وعزله عنها انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ١٠ وما بعدها •

(٤) من أجل المعاملة السيئة التي عامل بها ابن الزبير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما من رجالات بني هاشم وحبسه لهم واستنجاد محمد بن الحنفية بالمختار ، واخراج ابن الزبير لمحمد بن الحنفية عن مكة ونفيه الى رضوى ، انظر اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٦١ وما بعدها •

أخرى ، كانا أيضا من بين العوامل التي دعمت موقف المختار في العراق وجعلت الكثيرين يلتفون حوله . وقد استطاع المختار أن يطرد عامل عبد الله ابن الزبير على الكوفة عبد الله بن مطيع وأن ينفرد بحكمها[١] .

وقد شاءت الظروف أن تكون نهاية المختار ونهاية حركته على يد مصعب بن الزبير الذي ولي البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير بعد أن عزل عنها عاملها السابق من قبله القُباع وذلك سنة ٦٧ هـ[٢] . فقد وجد عبد الله بن الزبير ان استفحال أمر المختار في الكوفة يشكل خطراً كبيراً على مركزه في العراق ، فعهد بولاية البصرة والكوفة إلى أخيه مصعب الذي كان كما وصفه عبد الملك بن مروان بقوله : « ذاك الليث النَّهْد »[٣] وأمره أن يقضي على المختار وأن يعيد الامور الى نصابها في العراق . وقد قام مصعب بالمهمة ، فاستدعى بعد قدومه البصرة المهلب بن أبي صفرة الذي كان يلي فارس لابن الزبير ويقوم بحرب الخوارج فيها[٤] ووجهه الى الكوفة لحرب المختار ، ثم لحق مصعب بالمهلب وجعله على ميسرته[٥] . وكان سبب مسير مصعب الى لقاء المختار أن المختار أراد أن يسبق مصعباً فيهاجم البصرة ، لذا سرح جيشاً الى المذار (وهي بلدة بين واسط والبصرة بينها وبين البصرة نحو من أربعة أيام) لمهاجمة البصرة ، ولكن مصعباً ترك البصرة وجاء الى المذار وعسكر قريباً من جيش المختار[٦] . وجرت بين الجيشين معركة قتل فيها قائد جيش المختار . وتابع مصعب سيره بعد ذلك براً عبر واسط حتى وصل الفرات فأركب جيشه السفن وعبروا النهر حتى وصلوا الكوفة . ولما بلغ المختار خبر قدومهم ، خرج بمن معه الى حروراء ليحول بين مصعب والكوفة ،

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٧١ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٩٣ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٠ .
(٤) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٥٢ .
(٥) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .
(٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٩٦ ، والانساب [illegible] ص ٢٥٢ وما بعدها

وجرت بينه وبين مصعب معارك طويلة انتهت بمقتلـه سنة ٦٧ هـ[١]. وبعث مصعب برأس المختار ورؤوس وجوه أصحابه الى أخيه عبد الله بمكة، وسمر يد المختار على حائط المسجد في الكوفة، فلم تزل مسمورة حتى قدم الحجاج الكوفة فأمر بها فانتزعت ثم دفنت[٢].

ولا بد في ختام هذا الحديث عن حركـة المختار أن نـذكر أن هذه الحركة لم تكن مجرد ثورة على حكم بني أميـة وابن الزبير معا ، بل كانت بداية خط في حركـة التشيع عرف باسم الشيعة الكيسانية نسبة الى كيسان أبي عمرة صـاحب شرطـة المختار[٣]، أو الى مولى لعلي بن أبي طالب أو لمحمد بن الحنيفة اسمه كيسان استطاع أن يحيط بالعلوم ويقتبس الاسرار عن هذين السيدين من علم التأويل والباطن. أو أن كيسان كان لقباً للمختار نفسه[٤]. كما عرفت حركة المختار باسماء أخرى منها « المختاريـة » نسبة إليه ، أو « الخشبية » نسبة الى العصي الخشبية التي كان الموالي يستعملونها في القتال الى جانبه . ويذهب الـدكتور فاروق عمر الى القول أن الحركـة الشيعية التي بدأها عبد الله بن سبأ ، والتي عرفت باسم «السبئية» قدتمخضت سنة ٦٦ هـ عن قيام حركـة المختار ، وهي على حـد قوله : « تطور مهم في حركة المعارضة العلوية ، ذلك لانها نقلت الامامة من الفاطميين العلويين الى محمد بن الحنفية ، وهو ابن الامام علي من غير فاطمة رضي الله عنها ... وادعى المختار الثقفي أنه نبي يوحى اليه وما أظهره من بدعة العرش الذي كان على شكل كرسي فخم يحمل على الاعناق . »[٥]. كما أن الـدكتور عمر يعتقد أن هناك مبالغة فيما يذهب اليه بعض المؤرخين من محاولة لابراز

---

(١) من أجل مقتـل المختار ، انظر : الطبري ، ج ٦ ، ص ٩٤ ـ ١١٦ ، أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ وما بعدها ، وأخبار الخلفاء ، ص ١١٣ أ وما بعدها .

(٢) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .

(٣) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٠٩ .

(٤) علي حسني الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي ، ط . دار المعارف ، القاهره ١٩٥٩ ، ص ١٥١ .

(٥) طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١٠٨ .

دور الموالي في ثورة المختار ، ويقول ان الكتلة العربية التي أيدت المختار كانت كبيرة[1]. ونحن وإن كنا نوافق على وجود كتلة عربية كبيرة وقفت الى جانب المختار في ثورته فانا نرى أن وقوفها الى جانبه كان بسبب من دعواه بأنه إنما جاء الى الكوفة ليأخذ بثأر الحسين ولنصرة آل البيت،وهذان أمران لهما سحرهما في هذا البلد الذي كان مهد الحركة العلوية ومستقر علي نفسه ، ومحط آمال ابنه الحسين الذي روى دمه الطاهر أديم أرضه . هذا فضلا عن العصبية الاقليمية بين العراق والشام من جهة ، والعراق والحجاز من جهة أخرى. أما وقوف الموالي الى جانب حركة المختار فأمر تؤكده كل المصادر التي بين أيدينا والتي أشرنا إليها في مطلع بحثنا هذا ، ولكن الذي نراه هو أن تأييد الموالي للمختار ، وللكثير من الثورات التي رفعت راية التشيع فيما بعد كان بدافع حقدهم على طبقة الاشراف من العرب التي استأثرت بكل الخيرات دونهم رغم اسلامهم ، وما حض عليه الاسلام من مساواة بين أتباعه دون تفريق بسبب جنس أو لون ، هذه المساواة التي لم يحصلوا عليها وظلت حلماً يراودهم حتى انتصرت الثورة العباسية . كما وأنه يجدر ألا يفوتنا عامل الحقد القومي على العرب الذي كان يعتمل في صدور الكثيرين من الموالي والذي كان السبب في نقمة الكثيرين منهم .

وأياً كان ، فقد أدى انتصار مصعب على المختار الى عودة العراق الى سلطان ابن الزبير والى تهاوي حركة من أكبر الحركات التي قامت لنصرة آل علي وبني هاشم عموماً . على أنه لن يتاح لابن الزبير أن ينعم بهذا النصر طويلا وسيقطف ثمار هذا النصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان الذي سيوجه قواته للقضاء على مصعب بن الزبير واستعادة العراق الى الصف الأموي بعد أن زال عنه كابوس المختار .

د ـ ثورة المردة أو الجراجمة في جبال اللكام : يذكر البلاذري[2] أن

(١) طبيعة الدعوة العباسية ، ص ١٠٩ .

(٢) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٧ وما بعدها ، وأنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ وما بعدها .

الجراجمة قوم من النصارى كانوا يعيشون على جبل اللُّكام (الأمانوس) في مدينة اسمها الجُرْجومة • وكانوا قبل الفتح الاسلامي لبلاد الشـام يتبعون بطريرك انطاكية وواليها • ولما فتح أبو عبيدة بن الجراح انطاكية ، وغزا قائده حبيب بن مسلمة الفهري الجُرجومة لم يقاتله أهلها وطلبوا الأمان والصلح فصالحهم على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعيونا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية • وكان ولاء الجراجمة للدولة العربية الاسلامية بعد ذلك يتذبذب ويتغير ، فتارة يخضعون لها وتـارة يثيرون الشغب عليها ويكاتبون الروم وينضوون تحت لوائهم • ولما كانت ثورة ابن الزبير وما أثارته من بلبلة داخلية زمن عبد الملك بن مروان واستعداد عبد الملك للشخوص الى العراق للقضاء على مصعب بن الزبير « خرجت خيـل للروم الى جبال اللكام وعليها قائد من قوادهم ، ثم صارت الى لبنان ، وقد ضوت اليها جماعـة كثيرة من الجراجمـة ••• فاضطر عبـد الملك الى أن صالحهم على ألف دينار كل جمعة • وصالح طاغية الروم على مال يؤديـه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج الى الشام فيغلب عليـه • »[1] •
ويذكر الطبري أمر الصلح بين ملك الروم وعبد الملك في أحداث سنة سبعين هجرية ويعزو سببه الى تهديد الروم للشام في فترة الاضطراب هذه ، دون أن يتطرق الى ذكر ثورة الجراجمة[2] • ويبـدو أن ثورة الجراجمـة في هذه الفترة كانت بتحريض من الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني • وبعد أن استتب الأمر لعبد الملك استطاع أن يخمد ثورة الجراجمة فنزح أكثرهم عن بلاد الشام ونزلوا بعض أنحاء آسية الصغرى الداخلية أو السواحـل حيث احترفوا الملاحة • ويذكر فيليب حتي أن « بعضهم بقي في البـلاد وكانوا عنصرا من العناصر التي تألف منها الموارنة المعروفون اليوم في شمال لبنان • »[3] •

---

(١) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٨ •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٥٠ •

(٣) فيليب حتي ، تاريخ العرب مطول ، ج ٢ • ط بيروت ١٩٥٠ ، ص ٢٦٩ •

هـ ـ فتنة عمرو بن سعيد الأشدق : نصت مقررات مؤتمر الجابية كما أشرنا الى على أن تكون الخلافة لعمرو بن سعيد الاشدق بعد مروان بن الحكم وخالد بن يزيد بن معاوية • وقد تجاوز مروان عمرواً وبايع لابنيه عبد الملك وعبد العزيز ، الأمر الذي أثار نقمـة عمرو ، بعكس خـالد بن يزيد الذي انشغل بعد تولية عبد الملك بحرب قبائل قيس مع أخواله من قبيلة كلب[1] ، وانصرف الى العلم ولا سيما الكيمياء حتى اشتهر بأنه واضع هذا العلم عند العرب•وكان عمرو بن سعيد من كبار رجالات البيت الأموي وأشغل مناصب عديدة هامة قبل ذلك ، منها ولاية الحجاز زمن يزيد بن معاوية ، وكان له دور بارز في الصراع على الخلافة بعد وفاة يزيد وما كان في مؤتمر الجابية ومرج راهط ويقال انه امتنع عن البيعة لعبد الملك حين آلت الخلافة اليه[2] ، فصار أهل الشام فرقتين : فرقة مع عبد الملك وفرقة مع عمرو بن سعيد • ويذكر الدينوري أن بني أمية وأشراف أهل الشام دخـلوا بينهما حتى اصطلحا على أن يكونا مشتركين في الملك، وأن يكون مع كل عامل لعبد الملك شريك لعمرو بن سعيد وعلى أن اسم الخلافة لعبد الملك ، فان مات فالخليفة من بعده عمرو بن سعيد وكتبا فيما بينهما كتاباً وأشهدا عليه أشراف أهل الشام[3] •ويبدو مما يذكره الدينوري أن عبد الملك لم يكن ينـوي الوفاء بهذا التعهد[4]•ويورد الطبري روايات متعددة ومتضاربة حول الاسباب التي أدت الى فتنة عمرو بن سعيد[5] ، وتتفق هذه الروايات أن الفتنة بدأت حين خرج عبد الملك بن مروان من دمشق يريد قرقيسيا وفيها زفـر بن الحارث أو لحرب مصعب بن الـزبير ، تحصن عمرو في دمشـــق وأعلن العصيان على عبد الملك • فعاد عبد الملك الى دمشق وجرى بينه وبين عمرو قتال ، انتهى بعقد الصلح بينهما • ولكن عبد الملك ظل يضمر الشر لعمرو

---

(١) انساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ •
(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٦ •
(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة •
(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة •
(٥) انظر هذه الروايات في الطبري ، ج ٦ ، ص ١٤٠ وما بعدها •

فاستدرجه الى قصره ، وأخذه وذبحه ولف في بساط . وأحس أصحاب عمرو بذلك فأرادوا الهجوم على القصر ، لكن عبد الملك أخذ خمسمائة صرة كانت قد هيئت وجعل في كل منها ألف درهم، فأمر بها فأصعدت الى أعلى القصر وألقيت على أصحاب عمرو بن سعيد مع رأس عمرو ، فترك أصحابه الرأس ملقى وأخذوا المال وتفرقوا . وفي الصباح أخذ عبد الملك من أصحاب عمرو ومواليه خمسين رجلا فضرب أعناقهم وهرب الباقون فلحقوا بعبد الله بن الزبير[1] .

وفي الطبري خلاف في زمن فتنة عمرو بن سعيد ، فبعض الرواة يجعلونها سنة ٦٩ هـ ، وآخرون يجعلونها سنة ٧٠ هـ[2]. أما خليفة بن خياط فيؤكد أن مقتل عمرو كان سنة ٧٠ هـ[3].

و ـ القضاء على مصعب بن الزبير : لما تم لمصعب بن الزبير القضاء على المختار قام بتوجيه الولاة على بعض الأقاليم التابعة للعراق ، وأقام بالكوفة من أجل ضبطها واعادة الامور فيها الى نصابها بعد أن عمتها الفوضى والتمرد إثر الحركات المختلفة التي انطلقت منها كحركة التوابين والمختار وغيرهما[4]. ويذكر الطبري في حوادث سنة ٦٧ هـ أن عبد الله بن الزبير بعد نجاح مصعب في القضاء على المختار واقامته في الكوفة ، عزل مصعباً عن البصرة وولاها ابنه حمزة بن عبد الله بن الزبير . وقد ظل حمزة والياً على البصرة لمدة سنة، لم يظهر خلالها مقدرة أو مهارة في الادارة، الامر الذي اضطر ابن الزبير الى عزل ابنه عنها ، واعادة أخيه مصعب اليها ، وذلك بعد سنة كان خلالها مصعب يلي الكوفة فقط[5]. وهكذا عاد مصعب الى حكم العراق وغدا له الامر في الكوفة والبصرة معاً باسم ابن الزبير . ويذكر الدينوري أنه « لما صفا الأمر لعبد الله بن الزبير ودانت له البلدان الا أرض الشام ، جمع عبد

---

(١) انظر هذه التفاصيل في الأخبار الطوال ، ص ٢٨٦ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٤٠ .
(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الأول ، ص ٣٢٧ .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ١١٦ ، الأخبار الطوال ، ص ٣١٠ .
(٥) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ١١٧ و ١١٨ .

الملك بن مروان اخوته وعظماء أهل بيته ، فقال لهم : ان مصعب بن الزبير قد قتل المختار ، ودانت له أرض العراق وسائر البلدان ، ولست آمنه أن يغزوكم في عقر بلادكم ، وما من قوم غزوا في عقر دارهم إلا ذلوا ، فما ترون »[1]. فكانت نصيحتهم اليه أن يجمع رجاله ويعد عدته وأن يسير هو الى خصمه قبل أن يسير خصمه اليه . فقبل عبد الملك النصيحة وأرسل رسله الى أجناد الشام فاستجاب له الناس وتجمع لديه جيش كبير .

وسار عبد الملك من الشام وعلى مقدمته محمد بن مروان وعلى ميمنته عبد الله بن يزيد بن معاوية وعلى ميسرته خالد بن يزيد[2] ، وذلك سنة ٧١ هـ ، أو ٧٠ هـ على حدزعم أحدى الروايات التي يذكرها لنا الطبري[3]. وبلغ مصعب اقبال عبد الملك نحوه فطلب من البصريين النهوض معه لقتال أهل الشام ، فوجد منهم تباطؤا بحجة أن الخوارج الحرورية برئاسة قطري بن الفجاءة قد نزلوا سوق الأهواز وغدوا على مقربة من البصرة ، والبصريون يخشون هجومهم على مدينتهم[4]. ويبدو أن هذا الادعاء لم يكن الا ذريعة من البصريين حتى لا يستجيبوا لدعوة مصعب ، ولعل السبب في ذلك أن عبد الملك كان قد كاتب البصريين وغيرهم من العراقيين وبذل لهم الاموال ومناهم الاماني ان هم انضموا اليه[5]. ويذهب البلاذري أبعد من ذلك فيدعي أن « أشراف أهل العراق كتبوا الى عبد الملك يدعونه الى انفسهم ويخبرونه أنهم مبايعوه فلم يبق بالبصرة شريف الا كاتبه غير المهلب »[6]. وفي هذا الزعم ، إذا صح، دلالة على يأس الطبقة الارستقراطية

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٣١٠ .
(٢) أخبار الخلفاء ص ١٢٠ أ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٥٢ .
(٤) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ .
(٥) أنظر ، الاخبار الطوال ، ص ٣١١ ، وتاريخ الخلفاء ، ص ١٢٠ ب ، وأنساب الاشراف ج ٥ ، ص ٣٣٢ .
(٦) البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

الغنية في العراق من حكم ابن الزبير، واعتقادهم بأن استقرار مصيرهم لن يتم إلا إذا ضبط لهم الأمور فيه شخص قوي كعبد الملك يستطيع أن يضع حدا لعهد طويل من الفوضى أضر بمصالحهم وعطل أعمالهم وكبدهم الخسائر الكبيرة في الأرواح والأموال ، وفتح باباً لأمور يعدونها خطيرة ولا سيما ما جرى زمن المختار من علو مكانة الموالي ومساواتهم في العطاء مع الأشراف واشراكهم في اموال الفيء وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف ووقفوا ضد المختار بسببه •

وأياً كان ، فقد سار عبد الملك حتى نزل مَسْكِن ، وسار مصعب حتى نزل باجُمَيْرا[1]،وجرت بين الجيشين معركة غير متكافئة انفض فيها العراقيون من حول مصعب وغدروا به وانتقلوا الى صف عبد الملك وخر مصعب قتيلا على أرض المعركة بعد أن قتل عدد كبير من أهل بيته وكبار أصحابه ، وكان مقتله سنة ٧٢ هـ على أغلب الروايات[2]•

وكان عبد الملك قبل خروجه لقتال مصعب قد زحف على الجزيرة قاصدا زفر بن الحارث زعيم القبائل القيسية • وجرت بينه وبين زفر مفاوضات انتهت بعقد أمان بينهما ، ويقال أن زفر خرج مع عبد الملك لحرب مصعب ، ولكنه لم يشترك في القتال[3]•ويبدو أن هدف عبد الملك من هذه العملية كان أن يتجنب ما حدث لعبيد الله بن زياد وان يحمي ظهره أثناء صراعه مع مصعب •

وهكذا انتهت حياة مصعب بن الزبير ودخل عبد الملك الكوفة وأخذ

---

(١) هي كذلك عند الطبري (ج ٦ ، ص ١٥٧) والبلاذري (أنساب الاشراف ج ٥ ، ص ٣٣٣) وباخَمْرى عند صاحب تاريخ الخلفاء (ص ١٢٠ ب) ومسكن : موضع على نهر دجيل عند دير الجاثليق (انظر مراصد الاطلاع) •

(٢) انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الاول ، ص ٣٤٠ ، وانساب الاشراف ، ج ٥ ص ٣٤٢ ، والأخبار الطوال ، ص ٣١٣ ، أما الطبري فيذكر مقتل مصعب ضمن أحداث سنة ٧١ هـ • ويستدرك بعد ذلك فيقول أن هناك روايات تجعل مقتله سنة ٧٢ هـ انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ١٦٢ •

(٣) أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥ •

البيعة من أهلها ، وبايعته القبائل المختلفة النازلة فيها ، وولى عليها أخاه بشر ابن مروان كما ولى على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد ، وعاد بعد ذلك الى الشام[1]،ليفكر في أمر عبد الله بن الزبير الذي كان ما يزال صاحب السلطان في الحجاز ، وما يجب فعله لاستعادة السيطرة الأموية على هذا المصر .

ز ـ القضاء على عبد الله بن الزبير :

كان القضاء على مصعب وإعادة العراق الى حظيرة الحكم الاموي، حافزاً لعبد الملك لتوجيه جهوده للقضاء على عبد الله بن الزبير الذي أقلق مضجع البيت الاموي الحاكم منذ خلافة يزيد بن معاوية ، وكانت له السيطرة في فترة من الفترات على أغلب بقاع الامبراطورية العربية الاسلامية ، وغدا سلطانه الآن محصوراً بالحجاز فقط .

وقد تولى حرب ابن الزبير لعبد الملك ، الحجاج بن يوسف الثقفي . ويذكر صاحب أخبار الخلفاء والطبري[2]، أن الحجاج طلب من عبد الملك حين كان في العراق بعد مقتل مصعب أن يوليه أمر محاربة ابن الزبير ،فوافق عبد الملك على ذلك وجهز له جيشاً كثيفاً من أهل الشام . وسار الحجاج الى الحجاز سنة ٧٢ هـ ، ونزل الطائف فأقام فيها شهراً كان خلاله يبعث الرجال الى ابن الزبير فيناوشونه في أطراف مكة ثم ترجع خيل الحجاج الى الطائف[3]. ويبدو أن هدف الحجاج من إقامته هذه في الطائف أن يتعرف على أوضاع ابن الزبير في مكة وأن يعد العدة لمهاجمته . وبعد مضي الشهر واستكمال هذه المعلومات ، كتب الحجاج الى عبد الملك يستأذنه في مهاجمة ابن الزبير في مكة ، فأذن له .[4]. وسار الحجاج الى مكة ونصب المنجنيق على جبل أبي

---

(١) انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٥ .

(٢) اخبار الخلفاء ، ص ١٢٤ أ وما بعدها ، والطبري ، ج ٦ ، ص ١٧٤ .

(٣) انظر الاخبار الطوال ، ص ٣١٤ ، وانساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ ، والطبري ، ج ٦ ، ص ١٧٤ .

(٤) الاخبار الطوال ، ص ٣١٤ ، وانساب الاشراف ، ج ٥ ص ٣٥٨ .

قبيس،وجاءته نجدة قوامها خمسة آلاف مقاتل من عبـد الملك[١]. وحصر الحجاج ابن الزبير في المسجد وأخذ يرميه بالمنجنيق ، وحج بالناس في هـذا العام (٧٢ هـ) الحجاج لأن ابن الزبير كان محصوراً في المسجد لا يستطيع مغادرته[٢]. وحتى يؤمن الحجاج مؤخرته ، فلا يفاجأ بهجوم لصالـح ابن الزبير من المدينة ،أرسل جماعة من أهل الشام استولوا على مقاليد الامور في المدينة وأخرجوها من سلطان ابن الزبير[٣]. وقدتوقف الحجاج عن قصف مكة بالمنجنيق حين حل موسم الحج ، ولكنه عاد واستأنف القصف بعد انقضاء الموسم[٤]. وكانت خطة الحجاج ترك ابن الزبير محصوراً في الكعبة حتى يفنى ما معه من زاد ، فيضطر وصحبه للاستسلام . وفعلا قل مخزون الطعام في مكة بشكل عام وأصاب الناس مجاعة أثناء الحصار وارتفعت أسعار المواد الغذائية ارتفاعاً فاحشاً[٥]. وطال الحصار على ابن الزبير،ووجد أن لا فائدة ترجى من الاستمرار في الاعتصام بالكعبة ، فخرج منها وقاتل قتالا بطولياً ، وسقط قتيلا بعد ان انفض الكثير من أصحابه مـن حوله . وكان مقتلـه في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ بعـد أن حاصره الحجاج مـدة تزيد على الستة أشهر .[٦]وقد حمل رأس ابن الزبير الى الحجاج ، فسجـد شكراً لله ، ثم أمر بالرأس فحمل الى عبد الملك ، الذي أمر فبعث به الى النواحي ليكون عبرة لكل ثائر . أما جسده فقد أمر الحجاج بصلبه [٧].

وبعد مقتل ابن الزبير عمل الحجاج على توطيـد الامور في مكة لعبـد الملك ،ومنها سار الى المدينةلنفس الهدف،وأخذمن أهلها البيعة للخليفة[٨].

وهكذا وبعد جهد مضنٍ وحروب أزهقت فيها آلاف الارواح وتعرضت

---

(١) الطبري ج ٦ ، ص ١٧٥ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٧٥ .

(٣) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص٣٥٩ـ ٣٦٠ .

(٤) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٦٠ ، ٣٦٢ .

(٥) انظر أمثلة على هذه الاسعار في ، أنساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٣ .

(٦) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ .

(٧) انساب الاشراف ، ج ٥ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٨) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٩٣ .

أثناءها أقاليم الامبراطورية المختلفة لابشع أنواع الفتن والاضطرابات ، عاد البيت الاموي ليتربع وحده على عرش الامبراطورية ، وصفا له الجو من منافسين خطرين هددوا وجوده وكادوا يفقدونه كل سلطان • ودخل العراق والحجاز مجدداً في ظل التبعية الشامية ، بعد أن كان كل منهما يحلم بالمجد ويعمل لابقاء مركز الثقل السياسي فيه •

العصبيات القبلية في عهد عبد الملك وموقفه منها :

استتب الامر لعبد الملك بن مروان بعد أن تخلص من الحركة الزبيرية في الحجاز والعراق ، هذه الحركة التي طال أمدها وظلت نارها مشتعلة مدة ثلاثة عشر عاماً ، من سنة ٦٠ ـ ٧٣ هـ • وقد وجه عبد الملك همه الى العراق ليثبت فيه اركان الحكم الاموي • وقد استطاع أن يحقق ذلك على يد عامله الشهير الحجاج بن يوسف الثقفي • وكان عليه أيضاً أن يجمع شتات القبائل التي فرقتها أحداث الفتنة الثانية والتي جرى فيها ما جرى بين قيس ويمن في مرج راهط ،هذه المعركة التي كانت وبالا على القيسية،والتي كانت خسائرهم فيها لا العديد من الرجال فحسب ولكن الكثير من النفوذ • وقد حفظ القيسيون في نفوسهم الشيء الكثير من الحقد والضغينة على اليمنية ، وعملوا ما في وسعهم للانتقام من بني كلب وأحلافهم ، وقد تمثل هذا الحقد في العدد الكبير من المنازعات والحروب والوقائع التي قامت بين قيس ويمن•وقدوقف رجال الدولة من هذه المنازعات ، مواقف تختلف حسب ميولهم وعصبياتهم • اذ أنه كان من العسير على عمال الامصار عدم الانحياز الى معسكر من المعسكرين • فحين يكون العامل من قيس ، يتقدم اليه ابناء جلدته ويقولون « انت منا فان لم تقدمنا على غيرنا نبذناك » • فكان العامل من أجل ذلك يضطر أن يقدم أبناء قومه ، وان يواليهم لانه لو لم يفعل ذلك لوقع تحت نار أعدائه من اليمانية ونار أبناء عشيرته الذين نقموا عليه • وكما يصح هذا بتمامه على العمال فانه يصح أيضا على ابناء الخلفاء ، فمن كان منهم يمنى

الام قرّب أخواله من بني كلب ، ومن كانت أمه قيسية قرّب عشيرته لامه من بني قيس •

وهكذا يمكننا ان نقول ان ما سعى اليه الرسول الكريم من تكوين جماعة واحدة تجمع شتات العرب على اختلاف عصبياتهم قد فشل • ولم تنجح هذه الدعوة الاخلال الفترة الاولى من حياته ، حين تجمع تحت راية الاسلام كل العرب على اختلاف عصبياتهم • اما الآن وقد انتقل الرسول صلوات الله عليه الى جوار ربه ، فقد عادت عصبيات القبائل تطل برأسها فكانت حروب الردة ، وكانت من بعدها عصبية من نوع جديد ، هي عصبية الاقاليم التي تمثلت بشكل واضح في احداث الفتنة على عثمان وما تلاها من شغب بين علي ومعاوية • ثم كان انتقال الحكم لنبي أمية ، وكان على رأس هذا البيت معاوية بن أبي سفيان ، وهو شخصية نادرة المثال ، استطاعت أن تقيم التوازن بين القبائل ، وان تطفىء نار العصبية القبلية في بلاد الشام لفترة من الزمن ، رغم انها لم تستطع أن تزيل العصبية الاقليمية •

وسارت الامور على هذا المنوال زمن ابنه يزيد ، ولكن الاحداث أخذت اتجاها آخر زمن مروان بن الحكم ، الذي اضطر للاعتماد على اليمنية ، فسبب بعمله هذا نفرة القيسيين منه وانغماسهم في عداء شديد للبيت الحاكم ، وبالتالي ميلهم لابن الزبير • والطريف في الامر أن آل مروان قيسيون من حيث انتسابهم ، وهم كالقيسيين من نسل عدنان • في حين أن بني كلب من الفرع القحطاني • لهذا عزم عبد الملك حين وسدت اليه مقاليد الامور ان يسلك طريقا وسطا في ميدان العصبيات ، فترك التعصب لليمنية وقرب القيسية بقدر ما كان يقرب اليمنية • وقد أدت هذه السياسة الى التخفيف من غلواء السيطرة اليمنية • وقد عبّر أحد الشعراء عن هذا الحال الجديد بقوله :

فلولا امير المؤمنين لاصبحت   قضاعة أربابا وقيس عبيدها

وقد ادى هذا الموقف الى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك والسير

في ركابه لانه أحسن اليهم ، وقرّب رجالهم ، ووسّدهم من الامور ما وسّد خصومهم من اليمينية • وأصبح زفر بن الحارث الكلابي وأبناؤه من أبرز شخصيات بلاط دمشق •

وطبيعي أن تغضب هذه السياسة الكلبيين بعض الشيء ، ولكن عبد الملك كان حكيما حين أشعرهم أنهم لا يزالون موضع اهتمامه ، وانهم لا يقلون أهمية عنده عن القيسيين • وكما كان زفر بن الحارث ركن البلاط الأموي كان كذلك ابن بحدل وروح بن زنباع الجذامي •

بهذا اظهر عبد الملك أنه لا يقل حنكة عن معاوية ، وانه كسلفه العظيم يعرف كيف يؤلف بين الخصوم ليجعل منهم خداما للدولة التي تتمثـــل بشخصه • وكذلك سار عبد الملك على خطى معاوية ، في الاعتماد على أهل الشام لانهم هم الذين فتحوا الفتــوح ووطـدوا الملك لبنــي امية ، وكانت العاصمة بين ظهرانيهم ، وبالتالي كانت مصلحة الشوام : قيسيهم ويمانيهم ، في مساعدة بني أميــة لان الامويين رفعوهم الى مكان السيــادة ، واعتمــدوا عليهم ، ووسدوا اليهم الوظائف العليا في الجيش والادارة وغير ذلك ، مما ولّد عند الشوام روح الجماعة والشعور بأنهم فئة واحدة لها مصلحة واحدة فتصدر عن عمل واحد،بخلاف ما كانت عليه الحال في بقية الامصار ، حيث الجبهة الداخلية المضعضعة وحيث الانقسام الذي أدى بشكل غير مباشر الى استمرار نفوذ الشام •

وكان لهذه الوحدة الداخلية أهمية كبرى ، اذ انها ثبتت دعائم الحكم لحد جعل ما يجري في الاقاليم من احداث وفتن وقلاقل لا يؤثر في الدولة وعاصمتها ، ما دام أهل الشام يدا واحدة مع الخليفة ، وما دامت منازعات القبائل في الشام أقل من غيرها في بقية الامصار ، لان مصالح هــذه القبائل كانت مصونة ، وأمورها على خير ما يرام •

سياسة عبد الملك الداخلية :

رأينا أن عبد الملك بعد أن توطدت له الأمور لزم الحياد ازاء القبائل فقرب اليه رجالا من القيسية واليمنية على حد سواء ، واستمالهم جميعا ، واعتمد على أهل الشام ، وجعل منهم عصبته التي يعتمدها في الحرب والادارة • ومن أجل اعلاء المكانة السياسية لاهل الشام حاول اعلاء شأن بلادهم من الناحية الدينية • ويمكن القول أن الذي دفعه الى سلوك هذا الطريق ، وجود ابن الزبير في مكة واعتصامه فيها وسيطرته عليها مدة تزيد على العشر سنوات مما عرقل سفر الحجاج من أهل الشام الى مكة أثناء موسم الحج •

ومن جهة أخرى كان عبد الملك يقصد عدم تيسير سفر هؤلاء الحجاج حتى لا يتأثروا بدعاوى ابن الزبير • من أجل هذا كله شجع الخليفة الناس على زيارة بيت المقدس الى جانب مكة[1]، وعمل على تنظيم مدينة القدس وتحسينها ، كما امر ببناء قبة الصخرة فيها • ويدلنا على ذلك كتابة داخل القبة تشير الى العام ٧٢ هـ كسنة تشييدها[2] • والقدس كما هو معروف لها أهميتها الدينية في نظر المسلمين ، ففيها أولى القبلتين وثالث الحرمين ، واليها توجه المسلمون بالفتح منذ أوائل أيام الفتوح ، وفي القدس كانت بيعة معاوية • ولكن رغم هذا لم يجرؤ عبد الملك على صرف الناس عن مكة نهائيا وتوجيههم الى القدس ، لانه يعرف ان مكانة القدس الدينية لا يمكن أن ترقى في نظر المسلمين الى درجة مكة • لذلك اكتفى ببناء قبة الصخرة وامتنع الناس عن زيارة مكة امتناعاً مؤقتاً فقط،وذلك أثناء ما كان ابن الزبير محصورا فيها • على أنه حاول من جهة أخرى أن يزيد في مركز الشام الديني على حساب المدينة وأراد أن ينفذ ما حاول معاوية تنفيذه سنة ٥٠ هـ، من نقل قبر النبي الكريم منها الى دمشق ، ثم ما لبث أن عدل عن هذه المحاولة • ويذكر الطبري ان معاوية كان قد أمر بمنبر رسول الله صلى الله

---

(١) انظر ما ينقله ڤلهاوزن في هذا الصدد عن اوتيخيوس ، الدولة العربية ، ص ٢٠٦ •
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة •

عليه وسلم أن يحمل الى الشام فحرك فكسفت الشمس حتى رؤيت النجوم بادية فأعظم الناس ذلك فادعى معاوية أنه لم يرد حمله ، وانمـا أراد من تحريكه أن يرى ما اذا كان به خلل فقط[1] . وقد أراد الوليد بن عبدالملك أن يفعل ما عجز عنه أبوه ومعاوية من قبل ففشل حيث فشل معاوية وأبوه .

ونستطيع القول ان موقف بني أمية من أهل المدينة بشـكل عام كان يختلف عن موقفهم من أهل مكة وكان يتسم بحقد أشد وذلك لان المدنيين هم الذين أخرجوا بني أمية من ديارهم وكان بين من أخرج مروان وابنه عبد الملك إبان الحركة الزبيرية . وموقف عبد الملك مـن الاسلام بشكل عام ، نابع من ظروف خاصة به لم تتوفر للذين سبقوه من الحكام من أسرته . فعبد الملك كان أول حاكم في الاسلام يولد وينشأ في بيئة اسلامية في المدينة في فترة كان الناس فيها أشد ما يكون المؤمن حماسا لدينه . وكانت نشأته الاسلامية هذه سببا في نزوعه الشـديد الى التدين والاهتمام بعلوم الديـن والقرآن حتى عدّ من العارفين بأسرار الكتاب الكريم ومعانيه . والملاحظ أنه قل اهتمامه بالدين بعد توليه الخلافة ، وانصرف همه لتثبيت سلطانه حتى انه لم يجد مانعا من السماح للحجّاج برمي الكعبة بالمنجنيق ليخضع ابن الزبير المتمرد عليه . واذا كانت الناحية السياسية في شخصية عبد الملك قد طغت على الناحية الدينية بعد ان تسلم الخلافة فانه لم يصل الى الحد الذي وصل اليه يزيد من استثارة الناس ، ومخالفة التقاليد الدينيـة . ولعل السبب في ذلك أن عبد الملك كان أوعى لمصالحه كرجل دولة من يزيد . ووجد انه من الخير لتثبيت سلطانه ان يلاطف الناس ، وان يداريهم ، وان يقرب اليه الصالحين . ومعروف أن رجاء بن حيوة المتعبـد المشهور كـان من أقرب المقربين اليه . وقد ذكر أن رجلا ادعى النبوة في زمنه فأمر به فقتل . كما أنه أراد أن يضم كنيسة يوحنا الى المسجد في دمشق ولكنه عدل عن هـذا ارضاء لرعاياه من النصارى . ومعروف أيضا أن الشاعر الاخطل النصراني

---

(١) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ .

كان يدخل عليه والصليب في عنقه ولحيته تقطر خمرا فيستقبله عبد الملك بكل بشاشة وترحاب ولا يرى في ذلك الا مظهرا من مظاهر التسامح الديني الذي كان عبد الملك حريصا عليه أشد الحرص .

عبد الملك والخوارج : بعد أن استقر الأمر لعبد الملك في العراق رأى أن يوجه همه للتخلص من الخوارج الذين بدأوا ثوراتهم في العراق منذ زمن معاوية بن أبي سفيان ، وكانت ثورة فروة بن نوفل الأشجعي سنة ٤١ هـ أيام معاوية أول الثورات الخارجية التي واجهها البيت الحاكم الجديد. وقد تمكن معاوية من القضاء على هذه الثورة بالتعاون مع أهل الكوفة[١] . وفي ولاية المغيرة بن شعبة ، عاود الخوارج هجومهم على الكوفة بزعامة المستورد بن عُلَّفة التيمي وغيره من رجالات الخوارج ، ولكن المغيرة بدهائه وحكمته استطاع أن يفرق صفوفهم وذلك بأن ضربهم بحزب الشيعة وحول الصراع بينه وبينهم الى صراع بينهم وبين الشيعة[٢] . وفي البصرة زمن زياد بن أبيه ثار الخوارج برئاسة سهم بن غالب الهجيمي والخطيم ، ولكن زياداً قتلهما[٣] . ويبدو أن زياداً كان شديد البطش بالخوارج فخافوه وركنوا الى الهدو في عهده وترك بعضهم العراق أثناء ولايته ولم يعودوا إليه الا بعد وفاته .

وحين آل أمر العراق الى عبيد الله بن زياد ظهرت في العراق أقوى فرق الخوارج وهي فرقة الأزارقة جماعة نافع بن الأزرق[٤] ، الى جانب ما قامت به فئات خارجية أخرى من ثورات عليه استطاع اخمادها . وقد بطش ابن زياد بطشا شديدا بالخوارج حتى أن الدينوري يقول عنه أنه « كان لا يدع بالبصرة أحدا من يُتهم برأي الخوارج إلا قتله ، حتى قتل بالتهمة والظنة تسعمائة رجل . . »[٥] .

---

(١) من اجل هذه الثورة ، انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .
(٢) من اجل حركة المستورد وصحبه ، انظر الطبري ، ج ٥ ، ص ١٧٥ و ١٨١ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٧١ و ٢٢٨ .
(٤) الاخبار الطوال ، ص ٢٦٩ .
(٥) الاخبار الطوال ، ص ٢٧٠ .

وأثناء ثورة ابن الزبير في الحجاز ، وجـد الخوارج الفرصة ملواتيه لضرب الخلافة الأموية فطلب نافع بن الأزرق من صحبه أن يلحقوا بابن الزبير لقتال بني أمية ولحماية الكعبة من عدوان الحصين بن نمير السكوني عليها • وقد ظل الخوارج يقاتلون مع ابن الزبير حتى كانت سنة ٦٤ هـ حين وقع الشقاق بينهم وبينه ففارقوه[١] • وكان لموت يزيد بن معاوية وضعف نفوذ عبيد الله بن زياد في البصرة أثر كبير في نشاط حركة الخوارج في هذا المصر وانضمام الكثير من البصريين اليهـم[٢] • واستمرت المعـارك بين البصريين والخوارج ، وغدا الخوارج خطرا على البصريين فكتبوا الى عبد الله بن الزبير يعلمونه أنه لا إمام لهم ويسألونه أن يوجه اليهم رجلا من قبله يتولى الأمر[٣] • فكتب ابن الزبير الى المهلب الذي كان يلي خراسان وطلب اليـه أن يتولى قتـال الخوارج الأزارقة بعد أن يعين على ولايته من يراه أهلا للمنصب من أهل بيته[٤] • وقدم المهلب البصرة وجمع جيشا من أهلها عدته عشرين ألف رجل بينهم ثمانية آلاف من الأزد فقط • وجـرت بين المهلب والخوارج الأزارقة معارك عدة قتل في احداها نافع بن الأزرق وخلق كثير من الخوارج[٥] • وظل المهلب يقاتل الخوارج طوال فترة خلافة عبد الله بن الزبير • ولما آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان وولى الكوفة بشر ابن مروان والبصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، قام هذان الواليان ببعض العمليات غير الناجحة ضد الخوارج ، مما دعا عبد الملك بعد وفـاة أخيه بشر وتعيين الحجاج والياً على العراق أن يعهد للمهلب من جـديد باستئناف القتال ضدهم • وقد جاء في خطبة الحجاج التـي خطبها في أهـل الكوفة إثر تولية عبد الملك له عليها قوله للكوفيين : « من وجدت بعد ثالثة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٦٣ وما بعدها •

(٢) الاخبار الطوال ، ص ٢٧٠ •

(٣) الاخبار الطوال ، ص ٢٧٠ •

(٤) انظر نص كتاب ابن الزبير الى المهلب في ، الاخبار الطوال ، ص ٢٧١ •

(٥) انظر أخبار هذه المعارك في الاخبار الطوال ، ص ٢٧٢ وما بعدها ، والطبري ، ج ٦ ، ص ١٩٥ وما بعدها •

من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله »[1] وفعلا بدأ الحجاج بتجنيد أهل العراق وسوقهم لقتال الخوارج مع المهلب . وكان من أهم معاركه معهم زمن الحجاج اجلاؤه للأزارقة عن رامهرمز سنة ٧٥ هـ وكان يشاركه القتال عبد الرحمن بن مخنف[2] الذي قتل في هذه المعركة ، فاستبدله الحجاج بعتّاب بن ورقاء وأمره أن يكون تحت امرة المهلب.وظل القتال مستمراً بين الأزارقة والمهلب بعد ذلك مدة سنة . ولم ينته خطر الخوارج بالقضاء على الأزارقة فقد خرج سنة ٧٦ هـ صالح بن مُسَرِّح وجماعته من الخوارج الصفرية[3] ، وانضم اليهم شبيب بن يزيد وجماعته فقاتلوا معاً جيشاً أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة وهزموه[4] . ولم تنته هذه المناوشات بين الصفرية والسلطة الأموية في العراق رغم مقتل صالح[5] ، إذ خلفه شبيب في زعامة هذه الجماعة من الخوارج وفي قتال الأمويين .

وقد علا شأن شبيب واتسعت رقعة نفوذه وتمكن من الاستيلاء على المدائن ففر أهلها إلى الكوفة . واستطاع أن يهزم عدة جيوش أرسلها الحجاج ضده . وقد وصل من أمر شبيب أن استطاع دخول الكوفة ومعه زوجته غزالة ، فهرب الحجاج منها والتجأ الى البصرة . وفي الكوفة أخذ شبيب البيعة من الناس بامرة المؤمنين . وشعر الحجاج بالخطر المحدق به وبالسلطة الاموية في العراق ، فكتب الى عبد الملك يستنجده ويطلب منه المدد ، فأمده الخليفة بجند من أهل الشام ، استطاع الحجاج بمعونتهم أن يطرد شبيباً من الكوفة وأن يعيد هذه المدينة الى طاعة الامويين . أما شبيب فقد مات غرقاً في نهر دجيل إثر مطاردة الجيش الاموي له ، وكان مصرعه سنة ٧٧ أو ٧٨ هـ على مايزعم الطبري[6] .

---

(١) الطبري ، ج ٦ ص ٢٠٤ .
(٢) الطبري ج ، ج ٦ ، ص ٢١١ وما بعدها .
(٣) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٢١٦ وما بعدها .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٢٠ .
(٥) الطبري ، ج ٦ ص ٢٢٣ .
(٦) الطبري . ج ٦ ، ص ٢٧٩ . ومن أجل دخول شبيب الكوفة وما كان من أمره مع الحجاج انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٢٤ وما بعدها .

ومن بين زعماء الخوارج الذين قضي عليهم زمن الحجاج وعبد الملك قطري بن الفجاءة الذي تولى زعامة الخوارج بعد مقتل نافع بن الازرق وخلفه عبد الله بن ماحور • وكان المهلب الذي يتولى حرب الازراقة قد سار بعد مقتل نافع بن الازرق الى كرمان حيث التجأ جماعة نافع وولوا عليهم ابن ماحور فقاتلهم وقتل زعيمهم الجديد ، فولوا عليهم قطري بن الفجاءة[1] • وكان قطري من قبيلة تميم ، وهو رجل صلب شجاع لقبه أتباعه بأمير المؤمنين ونظم صفوف الخوارج بعد هزائمهم المتوالية وواقع المهلب في عدة معارك ، ثم قام خلاف بينه وبين عدد من جماعته فخلعوه عن الرئاسة ،[2] وتمكن الحجاج بعد ذلك من أن يوجه جيشاً للقضاء عليه حيث كان يعتصم في طبرستان ، وقد قتل قطري في هذه المعارك وأرسل رأسه الى الحجاج الذي أرسله بدوره الى عبد الملك[3] • وهكذا تم على يد الحجاج القضاء على هذا الثائر الخارجي الذي أقض مضاجع الدولة الاموية فترة ليست بالقصيرة • وكان مقتل قطري ضربة قاصمة لفئة الازارقة من الخوارج •

أما المهلب الذي حقق انتصارات ضخمة على الخوارج فقد كتب اليه الحجاج واستقدمه اليه واكرمه إكراماً شديداً هو وأولاده السبعة • وبعد إقامة قصيرة في البصرة عينه عبد الملك والياً على خراسان فسار إليها فمكث فيها خمس سنين ثم مات فجعل عبد الملك أمر خراسان الى الحجاج فعين الحجاج عليها يزيد بن المهلب ، فمكث يزيد في ولاية خراسان بضع سنوات ، ثم مالبث الحجاج أن عزله عنها وعين عليها قتيبة بن مسلم[4] •

بعد هذا العرض لثورات الخوارج في العراق منذ بداية الحكم الأموي وحتى خلافة عبد الملك والذي حاولنا فيه أن نقدم صورة ملخصة لأهم الأحداث التي كان للخوارج صلة بها ، نرى أنه من الأهمية بمكان بالنسبة

---

(١) انظر ، الأخبار الطوال ، ص ٢٧٥ •
(٢) الاخبار الطوال ، ص ٢٧٧ •
(٣) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ •
(٤) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ •

لبحثنا هذا أن نقف لنلقي بعض الأضواء على هذه الحركات الخارجية كجزء من أحداث العراق وثوراته زمن خلافة عبد الملك ، وأن نتفحص شخصية المهلب ودوره في هذه الثورات من جهة ، وأن نفند من جهة أخرى بعض الحقائق المتعلقة بثورة شبيب بن يزيد ، لأن هذه الثورة تمثل قمة في العمل السياسي والعسكري الذي خاضه الخوارج ضد البيت الأموي الحاكم .

لقد لعب العراق دورا عظيما في تاريخ الدولة الاموية منذ قيامها وحتى سقوطها . كان فتحه زمن عمر بن الخطاب ، وفي خلافة عثمان أظهر الفتنة وانحاز الى جانب علي . وكانت الكوفة مقر شيعة هذا الاخير . وفيه قامت الفرق والمذاهب السياسية والدينية . وهدأت الامور في العراق نسبيا أثناء خلافة معاوية زمن المغيرة وزياد . وفي خلافة يزيد ومروان وعبد الملك عاد العراق ليصبح من جديد مركزا من مراكز الفتنة الشغب ، فكانت الثورات، وكانت حركات ابن الزبير والمختار والخوارج وغيرهم .

ولا بد من التنويه في معرض هذا الحديث الذي نستعرض فيه احوال العراق بالفضل الكبير الذي كان للقبائل العربية النازلة فيه في الفتوح الشرقيه والتضحيات التي قدمتها هذه القبائل من أجل نشر الاسلام في بقاع نائية . وقد اعتمدت الدولة ماديا على العراق اكثر من اعتمادها على أي قطر من الاقطار التابعة لها . ومنه استمدت أغلب وارداتها ، واليه نزحت قبائل كثيرة من نجد والحجاز واليمن واستقرت بمدنه الجديدة كالبصرة والكوفة وواسط.وقد اقتبست هذه القبائل الاساليب الحضارية من السكان الاصليين، ومن الأخلاط التي وفدت الى العراق بعد الاسلام . كما ان هذه القبائل لم تقطع صلاتها بأصولها القبلية القديمة . ومع مرور الزمن تطور العراق ليستقطب الحركة العلمية الزاهرة التي أعطت ثمارها زمن حكم العباسيين .

وحين ولي الحجاج العراق سنة خمس وسبعين في خلافة عبد الملك ، واستمر والياً عليه وعلى الاقاليم الشرقية كلها حتى وفاته سنة ٩٥ زمن الوليد الاول ، وجده يموج بالفوضى والاضطراب بسبب المنازعات الكثيرة التي

قامت فيه ، والتي دارت كلها حول الخلافة منذ زمن عثمان وحتى عبد الملك.
وقد زاد في حدة الفوضى والاضطراب كما رأينا قيام حركة المختار ، هذه الحركة التي تركت أثرا شديدا في نفوس اصحاب المختار من عرب وموال بسبب كثرة من قتل منهم في شمالي العراق على يد مصعب بن الزبير وغيره.
وكذلك كانت البصرة حين وصل الحجاج الى العراق تضطرم بالفوضى وتتهددها اخطار شديدة من قبل الخوارج الذين لم تتفرغ الدولة بعد لقمع حركتهم والقضاء عليهم . وقد بلغ من شدة الخطر الخارجي على البصرة أن مصعب بن الزبير رغم حاجته الملحة الى الجنود ، اضطر لابقاء خيرة رجاله وجنوده في هذه المدينة لصد الأزارقة عنها ، وحمايتها من شرورهم . وقد أدى هذا العمل الى هزيمته أمام عبد الملك ، لانه حين التقى بعبد الملك كان المهلب أمهر قواده وأفضلهم يحارب الازارقة بعيدا عن مكان المعركة التي جرت بين مصعب وعبد الملك . وكان عبد الملك يعرف في المهلب الشجاعة والبأس والقوة، ويعرف بلاءه في حرب الازارقة ، فقرر ان يستميله وأن يستفيد من خدماته ، ولكن الذين ولوا العراق لعبد الملك قبل الحجاج عرفوا الخطر الذي قد يتأتى من اشتداد الصلة بين الخليفة وبين المهلب،وما قد تؤدي اليه هذه الصلة من اضعاف لمركزهم ، فعملوا على عدم تقوية الروابط بين الخليفة وبين هذا القائد ، لا بل حاولوا جهدهم ان يبعدوا مابين الاثنين ، فكان ان نحّاه خالد بن اسيد عامل عبد الملك على البصرة . وكان ان عهد هذا العامل الى أخيه بحرب الازارقة مما انتهى بهزيمة جند خالد فاضطر عبد الملك ان يكتب الى خالد يلومه ويقول له : « قبح الله رأيك حين تبعث اخاك (عبد العزيز بن اسيد) اعرابيا من أهل مكة على القتال وتدع المهلب الى جنبك يجبي الخراج وهو الميمون النقيبة ، الحسن السياسة ، البصير بالحرب ، المقاسي لها ، ابنها وابن أبنائها »[1] .

وطلب عبد الملك من خالد ان يجعل من المهلب مستشارا في الشؤون العسكرية . فشق الامر على خالد وامتنع عن تنفيذ أوامر الخليفة ، فعزله

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٧١ .

عبد الملك وضم البصرة الى أخيه بشر بن مروان الذي كان والياً على الكوفة[1] • ولكن بشرا لم يكن أفضل من خالد ، وكان موقفه من المهلب كموقف ابن اسيد • ولعل السبب في موقف بشر هذا ان امرة المهلب جاءت من الخليفة ، ومعنى ذلك أن سلطة بشر عليه غيرقائمة ، والمهلب في هذه الحال يتلقى أوامره من الخليفة لا من بشر • ولهذا نلاحظ ان بشرا كان يقف من المهلب ايضا موقف المعادي عداءا مستورا حتى لا يغضب منه الخليفة • فحين طلب الخليفة من بشر ان يرسل نجدة من أهل الكوفة ليساعدوا المهلب في عمل عسكري يقوم به، نجد بشرا يرسل الجند الذين أمره الخليفة أن يرسل ، ولكنه يحرّض قائدهم سرا على المهلب ويقول له : « لا تقبلن له مشورة ولا رأياً وتنقّصه وقصّر به »[2] • ويشاء حسن حظ المهلب ان يتوفى بشر سنة اربع وسبعين ، وأن يعين الحجاج في السنة التي تلت عاملا على العراق ، فيسر المهلب أيما سرور ويبدأ فترة جديدة من تاريخه العسكري في العراق • ففي سنة ٧٥ خرج الحجاج من المدينة حين أتاه كتاب من عبد الملك بعد وفاة بشر يعلمه فيه بتوليته على العراق ويأمره بالتوجه الى هناك مباشرة[3] •

ترك الحجاج المدينة مع حاشية تتألف من اثني عشر شخصا ، وغذ السير حتى وصل الكوفة ، وكان وصول الحجاج وركبه الى الكوفة في رابعة النهار ، فتوجه الى المسجد مباشرة وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة خز حمراء ، وتجمع الناس ولم يعرفوه وحسبوه رجلا من الخوارج جاء يحدثهم في أمر من الامور • وجلس الحجاج على المنبر صامتا فأطال الصمّت مما شقّ على الناس ، فقام أحدهم ورماه بحصاة وقال وهو يرميه بها « قاتله الله ما أعياه »• ويبدو أن الحجاج كان ينتظر حدوث ما حدث ، فهبّ واقفا وانطلق بخطبته المشهورة التي مطلعها :

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٩٤ •

(٢) المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ١٩٦ •

(٣) انظر خبر تولية الحجاج على العراق في ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٠٢ وما بعدها •

انا ابن جلا وطلاّع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

والتي يتهدّد فيها ويعد ، وقد ختم خطبته بدعوة الناس الى الالتحاق فورا بجيش المهلب لمحاربة الأزارقة ، واتبع طلبه هذا بتهديد يقول لهم فيه: « من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب سفكت دمه وانهبت ماله » . وقد اراد بهذا أولا أن يعيد الذين فروا من معسكر المهلب في رامهرمز حين سمعوا بوفاة بشر ، وآثروا الراحة والدعة في بيوتهم على القتال، كما أراد أن يهيىء رديفا من الجنود في حالة استعداد يمدّ بهم المهلب اذا دعت الحاجة . كما أنه ولا شك قصد من وراء كل ذلك احلال النظام والطاعة في مجتمع بعد العهد بينه وبين النظام والطاعة ، وتشدّد الحجاج فعلا في معاملة الناس ، وسار على خطى زياد بن ابيه ، وكما قتل زياد أعرابيا لأنه لم يسمع النداء ، قتل الحجاج رجلا لأنه تخلّف قليلا عن اللحاق بالمهلب[١] ، وتوجّه الى البصرة بعد الكوفة ليعيد تمثيل هذا الدور . وكانت البصرة قد سمعت بأخباره قبل وصوله ، وطارت شهرته اليها مسبقا، فأسرع الرجال الى ساحات القتال ، وازدحموا على جسر دجلة في طريقهم الى رامهرمز حتى وصلوا الى المهلب الذي سر ايما سرور بالحال الجديد . ولم يكتف الحجاج بهذا بل ذهب بنفسه ليتفقد حال المقاتلة ، ولما وصل الى رستقباذ ثار عليه الناس لأنه انقص عطاءهم ، فقاتل المنشقين وقتل رئيسهم عبد الله بن الجارود العبدي واخمد فتنتهم[٢] .

وهكذا استطاع المهلب أن ينصرف الى قتال الازارقة ، وظل في حربه معهم اكثر من سنتين استطاع بنهايتها أن يبيدهم ويفرق جمعهم ، كما رأيناه وقد أكرمه الحجاج وأكرم أولاده بالطريقة التي اسلفنا ذكرها ليقدم مثلا على اكرام الدولة للمخلصين في خدمتها .

أما بالنسبة لثورة شبيب ، فكنا قد رأينا أنه قبل أن يتم القضاء على

---

(١) انظر قصة هذا الرجل في ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٠٧

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٢١١ .

الازارقة في الشرق قامت في العراق في اوائل سنة ٧٦ ثورة أخرى أجج نارها فريق آخر من الخوارج على رأسهم شبيب بن يزيد الشيباني وهو من بني شيبان من بكر الذين كانوا يقطنون شمال الجزيرة في أطراف الموصل ونصيبين وسنجار . وشبيب هذا كان من اشجع الرجال واشدهم بأسا . وقد قاتل جيوش الحجاج في مواقع عدّة وهزمها وكان مشهورا بسرعة الحركة والانتقال حتى أن الطبري يصفه بقوله : « بينا هو في أرض فاذا هو في أرض أخرى » .

ويتبيّن من حديث الطبري عن شبيب وثورته أن شبيبا ورجاله كانوا قبليين فيهم عصبية القبائل ، ولكن فيهم ايضا حب شديد للأخذ بالثأر وايمان بأن أول واجبات المؤمن هو مجالدة الظالمين والخروج من دار الفناء الى دار البقاء في سبيل العقيدة . فكانت العصبية اذن والاخلاق البدوية الصرفة من أهم ما ميز حركة شبيب وهي بالتالي من أهم الاسس قامت عليها حركة الخوارج ، وكما كانت العصبية سببا رئيسيا من أسباب قيام حركة الخوارج، فقد كانت هذه العصبية أيضاً سبباً رئيسياً من أسباب فنائهم . اذ انهم بسبب العصبية انقسموا الى فرق وشيع كثيرة متناحرة لا تتورع واحدتها عن الفتك برجالات الاخرى امعانا في التشبث بالرأي وبعدا عن روح الالفة التي حاول الاسلام اشاعتها بين العرب .

والطريف في أمر شبيب وغيره من الخوارج انهم كانوا كبدو الجاهلية يخرجون نساءهم معهم ليحثوهم على القتال وليثبتوا اقدامهم في مواطن الخطر . فقد اخرج شبيب امه وقال :

« لاتين بأمي ولأجعلنها في عسكري فلا تفارقني أبداً حتى تموت أو أموت » . كما اخرج زوجته المشهورة غزالة التي نذرت أن تدخل مسجد الكوفة وأن تصلي به رغم انف الحجاج . وفعلا ، برّت بقسمها فصلّت في هذا المسجد ركعتين ثم ما لبثت أن قتلت .

وقد عرف جماعة شبيب كما عرف غيرهم من الخوارج بالقسوة

والبطش والقضاء على الخصوم بوحشية بالغة • وقد اتعبوا الحجاج مما اضطره ان يرسل اليهم خيرة قواده •

وقد انضمّ الى الحجاج في حرب الخوارج أهل الكوفة لا حبّا به ولكن بغضا بأولئك الذين آخذوا فيئهم وخرّبوا ديارهم ومنازلهم • وقد استمرت العمليات العسكرية بين الحجاج وشبيب حتى سنة **٧٨** حين قتل هذا أو مات غرقا كما رأينا •

وهكذا فقد كانت محنة الخوارج في العراق لا محنة الدولة فحسب ، بل محنة الناس عموما في هذا المصر الذي عاش الناس فيه اضطرابا وفوضى دائمين • وكان نصر عبد الملك على الخوارج من أهم منجزات فترة حكمه اذ حقق له ولمن جاء بعده من خلفاء استقراراً وأمناً لطالما حلموا بهما • وقد كره الناس حركة الخوارج بشكل خاص لما صاحب حركتهم من تعصب وتعطش للدماء ودمار للبلاد •

ثورة عبد الرحمن بن الاشعث[١] :

انفذ الحجاج عبيد الله بن بكرة عاملا له على سجستان • وعبيد الله هذا بصري من ثقيف من عشيرة زياد بن أبيه •

وصدف أن قامت في بدء ولاية عبيد الله ثورة في كابل يقودها زعيم محلي اسمه رتبيل[٢] قاد جماعة من المتمنعين عن دفع الجزية • وقد استطاع رتبيل ان يهزم الجيوش العربية وأن يقتل العديد من رجالاتها • ولم تفلح جهود ابن ابي بكرة في اخماد حركة رتبيل • وتشاء الصدف أن يتوفى ابن أبى بكرة بعد قليل من توليته • فرأى الحجاج ان يبعث الى سجستان رجلا مجربا من اشراف الكوفة هو عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي

---

(١) من أجل أخبار هذه الثورة بشكل عام راجع : الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٢٢ وما بعدها ، الأخبار الطول ، ص ٣١٦ وما بعدها ، أخبار الخلفاء ، ص ١٢٩ ب وما بعدها ، وفلهاوزن تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٢٣ وما بعدها •

(٢) هو عند فلهاوزن (زُنبيل) ، انظر ص ٢٢٣ ، والحاشية رقم (٣) من نفس الصفحة •

يرجع بنسبة الى ملوك كندة • وكان عبد الرحمن يومئذ يقيم في احد الاقاليم الشرقية بجوار سجستان • وأمدّ الحجاج عبـد الرحمن بجيش عظيم من أهل البصرة والكوفة بالغ في تجهيزه واعـداده بالاسلحـة والعدد وكل ما يحتاج اليه حتى سمي هذا الجيش بجيش الطواوريس •

وكان أهل سجستان في هذه الفترة من الفرس ولكن امراءهم كانـوا من الترك • وكان الهدف الرئيسي من تعيين الحجاج لعبد الرحمن وامداده بهذا الجيش هو القضاءعلى فتنة رتبيل التي فشل ابن بكرة في القضاء عليها • وقد اراد ابن الاشعث بعد أن وصل الجيش اليه ان يبتدع خطة جديدة في القتال تخالف الخطط التي سار عليها اسلافه ، فابتعد عن اسلوب الغزوات السريعة وأراد ان يكون فتحه للمنطقة فتحا مكينا ثابت الاركان تستقر فيه هيبة الدولة ، وتدخل البلاد المفتوحة نهائيا في عداد البلاد الطائعـة • لذلك كان يحتل البلاد منطقة منطقة ويسيطر عليها سيطرة اكيدة ويثبت هـــذه السيطرة بأن يضع حاميات عسكرية في القلاع والأماكن الخطيرة التي كان يخرج منها الاعداء • وكلما سقطت في يده بلد كان يبعث اليهـا بعـامـل ويبعث معه الاعوان ، وينظم البريد بينها وبين مركز قيـادتـه حتى يضمن استتباب الأمر له فيها • وبحسب هذه الخطة استطاع ان يستولي على جزء كبير من البلاد توقف بعدها حتى يعتاد جنده الحياة في تلك البلاد الغريبـة الوعرة • وكتب الى الحجاج يعلمه بما فعل ويشرح له خطته ومحاسنهـا • فغضب الحجاج وأمره أن يسارع في قتال العدو وأن لا يتـأخر عن ذلـك ويهدده ان هو تقاعس ولم ينفذ ما أمر به أنه سيعزله ويجعل مكانه اخـاه اسحاق • وقد اغضبت لهجة الكتاب والتهديدات الواردة فيـه ابن الاشعث فجمع رجاله وحدّثهم بما ورد في كتاب الحجاج وحرّضهم عليه • وأظهر القوم رغبتهم في العصيان ، وفي خلع الحجاج ، وتبارى الناس في الكلام وفي ذم الحجاج واظهار صواب ابن اشعث ، واتفق القوم على مبايعة ابن الاشعث أميراً والتوجه الى العراق لخلع الحجاج • وكان الكوفيون اكثر جنـد ابن الاشعث حماسا ضد الحجاج • وانضمت اليهم عناصر من ربيعـة ومضر •

والطريف في الأمر أن هذا التأييد الذي لقيه ابن الاشعث من رجاله لم يلق له مثيلا من اخوته [1] .

بدأ ابن الاشعث اعماله بعد ان بايعه القوم بأن صالح رتبيل وأقام عمالا له في اهم المدن في سجستان . وسار بعد هذا بجيشه سنة ٨١ وانضم اليه في مسيره رجال الحامات الذين وضعهم أول قدومه . وكانوا في غالبيتهم من أهل البصرة والكوفة . ولما وصل في سيره الى فارس اجتمع الناس بعضهم الى بعض وقالوا : « انّا اذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك فقد خلعنا عبد الملك » [2] . وهكذا أعلنوا خلعهم لعبد الملك ايضا وتعاهدوا على حربه وحرب اهل الشام عموما . وخرجت جموعهم تهدر كالسيل باتجاه العراق. وبدا وكأن العملاق العراقي قد استيقظ من جديد لينصب بقوته وبأسه على الشام التي ما فتئت تتربع مكان السيادة منذ حين .

كان المهلب في هذه الاثناء في خراسان ، وهو عامل للحجاج عليها . فلما بلغه خبر قيام ابن الاشعث لم يؤيده وكتب الى الحجاج يشير عليه بأن يترك رجال ابن الاشعث من اهل العراق وأن لايعترض طريقهم أو يناوشهم حتى يصلوا الى ديارهم . فان هم قدموا انصرفوا الى أهلهم فانه « لأهل العراق شِرَّةً في أول مخرجهم وصبابة الى ابنائهم ونسائهم فليس شيىء يردهم حتى يسقطوا الى اهليهم ويشمّوا اولادهم » . [3]

يتضح من هذا ان المهلّب أشار على الحجاج ان لا يقاتل جند العراق القادمين مع ابن الاشعث أول الامر وان يدعهم يتنشقون ريح الاهل حتى تخمد ثورتهم ، ويتقاعسوا عن القتال من تلقاء انفسهم . ولكن الحجاج رفض العمل بنصيحة المهلّب . وخرج برجاله من جند الشام لمقابلة الثوار. وكانت نجدات عبد الملك من الفرسان تصل الى الحجاج بمعدل ١٥٠ فارسا كل يوم ، وكان الحجاج بالمقابل يوافي عبد الملك بأخبار ابن الاشعث

(١) انظر ، انساب الاشراف ، ط ، الوارت ، ص ٣٢٦ وما بعدها .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٣٨ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ٣٣٩ .

وتحركاته كل يوم أيضا • وقد التقى الحجاج بأبن الاشعث لأول مرة على نهر الدجيل في الاهواز وجرت بينهما معركة يوم عرفة في العاشر من ذي الحجة سنة ٨١ هـ • انتصر فيها ابن الاشعث وانهزم أهل الشام ودخلوا البصرة • ثم ما لبثوا ان خرجوا منها لقدوم ابن الاشعث اليها واستيلائه عليها • ورحب البصريون بأبن الاشعث ، وندم الحجاج أشد الندم لعدم سماعة نصيحة المهلب وقال : « لله أبوه أي صاحب حرب هو ؟ ! أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبله »[1] •

وانسحب الحجاج بجنده الى موقع في قرب البصرة جعله موضعاً لتجمع قواه ، وانضّم اليه في هذا الموقع جند من قريش وثقيف وغيرها من القبائل، الى جانب بعض أهل البصرة ، وقد ولى الحجاج قيادة الجند الى سفيان ابن الابرد الكلبي • وظل الحجاج ورجاله شهراً وهم يصدون هجمات ابن الاشعث حتى هزموه سنة ٨٢ هـ • فاضطر ابن الاشعث ورجاله الكوفيون للانسحاب والعودة الى الكوفة معقل رجاله رغم انه لم يكن قد بقي معه يومئذ من أهلها سوى ألف رجل لان أغلب جنده الكوفيين تركوه بعد وصولهم الى اهلهم وتقاعسوا عن القتال •

أتاح هذا للحجاج أن يعود الى البصرة وأن يدخلها فعفا عن أهلها • وبعد ان نظم أموره فيها ، غادرها متوجها نحو الكوفة التي كان فيها ابن الاشعث • ويقال أن السبب الذي دعا الحجاج الى الاسراع في مغادرة البصرة والتوجه الى لكوفة هو ما وصله من أخبار تقول أن شخصاً من تميم قد وثب بالكوفة وأخرج حامية أهل الشام واستولى على قلعتها • فلما قدم ابن الاشعث قام رجال من بني حمدان بالكوفة ودخلوا القلعة وأسروا التميمي ودفعوه الى ابن الاشعث فعفا عنه ، فبايعه التميمي •

سلك الحجاج في مسيره من البصرة الى الكوفة طريق البادية على الجانب الايمن من الفرات ليكون على صلة بالشام لأن المدد يأتيه عن طريق

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٠ •

عين التمر ، وجعل معسكره في موقع غربي الكوفة . وجاءه ابن الاشعث من الكوفة وعسكر بجنده في دير الجماجم ومعه عدد كبير من الكوفيين والبصريين وأهل الثغور والمسالح (أماكن تجمع الاسلحة) والقراء بلغت عدّتهم على ما يقول الطبري « مئة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم »[1] . وعسكر كل فريق في ناحية . وكان الناس يخرجون في كل يوم فيقتتلون . وطال القتال بين الناس . وأمدّ عبد الملك الحجاج بعدد آخر من المقاتلين بقيادة أخيه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك وأمرهما بأن يعرضا على أهل العراق الحلول التالية :

١ – عزل الحجاج عنهم .

٢ – أن يعطوا من الاعطيات بقدر ما يعطي أهل الشام .

٣ – ان ينزل ابن الاشعث أي بلد من العراق شاء يكون والياً عليه ما دام حيّاً وكان عبد الملك خليفة[2] .

وكانت وصية عبد الملك أن يعزل الحجاج عنهم اذا كان هذا هو مطلبهم . وان يكون محمد بن مروان أمير العراق ، فان أبوا أن يقبلوا فالحجاج أمير جماعة أهل الشام ووليّ القتال ومحمد بن مروان وعبد الله ابن عبد الملك في طاعته .

وقد اغتاظ الحجاج كثيراً من هذه المعاملة التي يلقاها من عبد الملك ، وكتب الى الخليفة يقول : «يا أمير المؤمنين ، والله لئن أعطيت أهل العراق نزعي لا يلبثون الاّ قدلا حتى يخالفوك ويسيروا اليك ، ولا يزيدهم ذلك الاّ جرأة عليك . ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الاشتر على ابن عفان ، فلما سألهم ما يريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا اليه فقتلوه . ان الحديد بالحديد يفلح . خار الله

(١) الطبري ، ج ، ٦ ص ٣٤٧ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٧ – ٣٤٨ .

لك فيما ارتأيت ، والسلام عليك »[1] • ولكن عبد الملك أبى الا عرض هذه الشروط على أهل العراق ، ولحسن حظ الحجاج لم يقبل العراقيون بها•وكان من رأي ابن الاشعث قبول شروط المصالحة التي عرضها الخليفة• ودعا أصحابه الى قبولها ، ولكنهم أصرّوا على الرفض ، وظنّوا أن أهل الشام سينهزمون لقلة الطعام والعدد ولبعدهم عن ديارهم • وقاموا وخلعوا الحجاج والخليفة مرة أخرى ، واعلنوا العصيان[2] •

فلما رأى محمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك ذلك ، نفّذا وصيّة عبد الملك اليهما وقالا للحجاج « شأنك بعسكرك وجندك فاعمل برأيك فانّا قد أمرنا أن نسمع لك ونطيع »[3] • ولكن الحجاج بدهائه وثاقب نظره رأى ان تكون الامرة اليهما ولو ظاهرياً،فكان يسلم عليهما بالامرة اذا لقيهما وهو بالفعل قائد الجيش المطاع ، وهما بالمقابل كانا يسلّمان عليه بالامرة اذا لقياه • وخاب ظن أهل العراق فلم ينهزم أهل الشام بل انهزموا هم بعد قتال دام بينهما مئة يوم ،وتركوا القتال في منتصف جمادى الثانية سنة (٨٢) بعد ان حقق الشوام نصراً مؤزراً بقيادة الحجاج •

والتعليل الذي يمكن تقديمه لتفسير هزيمة العراقيين لا يمكن أن يكون قلة عددهم أو نقص عدتهم ، ولكنه حماسهم الذي خفّ ، وطول انتظارهم وعدم طاعتهم لرؤسائهم ، بعكس أهل الشام الذين كانوا جنداً نظاميين بكل ما لهذه الكلمة من معاني •

وهزيمة جمادى الثانية هذه لم تكن نهائية ، فقد عاد كثير من المنهزمين وتجمعّوا حول ابن الاشعث مجدّداً ، وساروا معه الى البصرة ، وخرجوا منها بعد قليل ، وتجمعوا على نهر الدُجَيْل قرب مسكن ، فتبعه الحجاج مجدداً وهزمه بعد قتال عنيف قضى فيه على الكثيرين من رجال ابن الاشعث• وبعد هذه الهزيمة عاد ابن الاشعث الى المشرق فتبعه أهل الشام بقيادة عمارة

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٨ •

(٢) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ •

(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٩ •

ابن تميم الى كرمان وسجستان • ولما وصل ابن الاشعث الى موقع هناك كان له فيه عامل ، أسره عامله وقرر أن يرسله الى الحجاج ليفتك به • وتدخل رتبيل بالامر وفك إسار ابن الاشعث ، وأخذه ورجاله الى كابل وأكرمهم واستبقاهم عنده[1] •

وفي هذه الاثناء جاء جماعة من اهل العراق قاصدين اللحاق بابن الاشعث ، وارسلوا اليه يطلبون منه الخروج معهم والعودة للقتال • فلبى نداءهم واستولى على بعض المواقع ، ولكن عمارة ما لبث أن لحق به ، فلما عرف أصحاب ابن الاشعث بقدوم عمارة مجدداً ، انفضوا من حوله وعادوا الى خراسان ، فعاد ابن الاشعث الى رتبيل من جديد[2] •

وقد تمكن عمارة قائد أهل الشام من أن يستولي على سجستان، فأعلن العفو عمّن فيها من بقية جند العراق من اتباع ابن الاشعث •

وهكذا لم يبق الا ابن الاشعث وحده يلجأ الى رتبيل•فكتب الحجاج الى رتبيل يطلب اليه تسليم ابن الاشعث • فأبى رتبيل أول الامر ثم قبل بعد ذلك على ان لا تغزى بلاده عشر سنين ، وان يؤدي بعد السنين العشر في كل سنة تسعمائة الف[3] • وهكذا أرسل رتبيل الى ابن الاشعث فأحضره ومعه ثلاثين من أهل بيته • وكان قد أعدّ الجوامع والقيود فألقى في عنقه جامعة ، وأرسل به وبأهل بيته الى أقرب موقع يحتله عمارة • ولكن ابن الاشعث حين شعر بأنه سيسلم الى عمارة تحيّن غفلة من حرسه وألقى نفسه من فوق القصر فمات • فاحتزوا رأسه وأرسلوه الى الحجاج سنة ٨٥[4] •

وهكذا انتهت هذه الثورة التي كانت من أقسى الأزمات التي واجهتها الدولة الأموية ، وتعرض فيها مركز الحجاج كوال وأحد ثقاة البيت الحاكم الى امتحان عسير خرج منه منتصرا •

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ •
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ •
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٩١ •
(٤) المصدر السابق ، نفس الصفحة •

رأي في ثورة ابن الاشعث :

يذهب بعض المؤرخين المحدثين[1] الى القول بأن ثـورة ابن الاشعث كانت مظهرا من مظاهر النزاع بين العنصرين الرئيسيين اللذين كانا يشكلان المجتمع الأموي في ذلك الحين وهما : العرب والموالي • ويصـــل هؤلاء المؤرخين الى القول بأنهذه الثورة لم تكن الا محاولة من قبل الموالي لتحقيق المساواة بينهم وبين العرب • هذه المساواة التي فرضها الاسلام والتي لـم يطبقها الحكام الأمويون ، والتي كان من مظاهر عدم تطبيقها اصرارالحجاج كممثل للبيت الأموي على اجبار الموالي على دفـع الجزية بعـد ان اعتنقـوا الاسلام ، وحرمانهم من المساواة في قضية العطاء •

ومن المعروف ان الحجاج أمر بأخذ الجزية من المواليبعد اسلامهم كما حرمهم من العطاء الذي كان يأخذه المقاتلة من العرب ، وذلك لأنه أراد المحافظة على ميزان واردات بيت المال دونما خلل سيما وأنه كثر الاقبال على اعتناق الاسلام من قبل العناصر غير العربية هربا من الجزية أو رغبـة في أخذ العطاء • والاسلام يقتضي رفع الجزية عمّن أسلم كما هو معلوم • وقد اثار عمل الحجاج هذا نقمة المـوالـي فانضمـوا بجموع كثيرة الى ابن الاشعث ولا سيما من كان منهم بالبصرة والكوفة ، كما انضم اليه جماعـة القراء ورجال الدين الذين رأوا في عمل الحجاج هذا مخالفـة صـ ـحـة لنصوص الاسلام •

وقد عزم الحجاج بالمقابل أن يشتت شمل هذه الفئة وان يقضي على معارضتها فكان أول ما فعله أن أمر كتل الفلاحين من الموالي الذين هاجروا الى المدن بالعودة الى قراهم ، كما أمر أن يوشم اسم قريـة كل رجـل على ذراعــه •

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٣٤ وما بعدها •

وقد ورد في العقد الفريد لابن عبد ربه[1] « وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالي والعرب أن الحجاج لما خرج عليه ابن الاشعث وعبد الملك بن الجارود[2] ، ولقي ما لقي من قراء اهل العراق ، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة • فلما علم انهم الجمهور الاكبر والسواد الاعظم أحبّ ان يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يأتلفوا ولا يتعاقدوا • فأقبل على الموالي وقال : أنتم علوج وعجم وقراكم أولى بكم • ففرقهم وفض جمعهم كيف أحبّ ، وصيرّهم كيف شاء ، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجهه اليها » •

وهكذا فقد كان اخراج الموالي من الحواضر الى الريف في نظر هؤلاء المؤرخين من الخطط التي سلكها الحجاج ليضعف القوة المناوئة له في المدن بعد ان كثر عدد المشاغبين فيها لكثرة ما كان فيها من الموالي • وبعد ان انضمّ هؤلاء الموالي الى ثورة ابن الجارود وابن الاشعث •

والملاحظة الهامة هنا هي أننا لا نجد في الطبري ولا في غيره من المصادر ما يشير الى أن الموالي كانوا سبب ثورة ابن الاشعث،أو أنهم الذين أحدثوا الفتنة • اننّا لا نشك بأن نقمة الموالي على العرب كانت موجودة وفاعلة زمن الحجاج وابن الاشعث ، سيما وأن جذور هذه الفتنة التي لعبت دورا فعالا زمن المختار لم يقض عليها بالقضاء على المختار • ومما لا شك فيه ايضا أن مقتل المختار لم يكن نهاية المطاف في نقمة الموالي وأنهم استمروا في رفع راية العصيان كلما سنحت لهم الفرصة • ومن الحقائق الثابتة الى جانب هاتين الحقيقتين، أن عمد ثورة ابن الاشعث كانوا من الكوفيين فهم أهله وعشيرته، كما أن الكوفة كانت معقل المختار وموئل رجاله•على أننا لا نستطيع الربط بين ثورة المختار وثورة ابن الاشعث • كما اننا لا نستطيع القول بأن ثورة ابن الاشعث ان هي الا تتمة لثورة المختار • فلم تكن دعوة ابن الاشعث دعوة مساواة بين العرب والموالي • كما انه لم يعتمد على الموالي في حركته ، ولم

---

(١) طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٩٣ •

(٢) من أجل قتل الحجاج عبد الله بن الجارود ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ص ٢١٠ ـ ٢١١ •

تصطبغ ثورته بهم كما كان الحال في ثورة المختار التي كانت بالدرجة الأولى تحمل راية المساواة بين عرب وموال جمعهم الاسلام واشترط المساواة بينهم.

اننا نقرأ في الطبري على لسان ابي مخنف ان عدد رجال ابن الاشعث كانوا **مئة ألف ممن يأخذ العطاء ومعهم مثلهم من مواليهم**(١) . مما يستدل منه على أن الموالي الذين كانوا مع ابن الاشعث كانوا اولا ممن لا يأخذ العطاء ، وكانوا ثانيا موجودين بحكم تبعيتهم لأسيادهم من العرب لا بحكم نقمة شخصيّة على الحجاج .

يضاف الى هذا انه كان من عادة العرب أنهم اذا خرجوا الى قتال اخذوا معهم عبيدهم ومواليهم ، وكانوا هم الفرسان ، وكان عبيدهم ومواليهم من المشاة .

والحقيقة الاخرى التي يتحتم علينا ايرادها هي انه رغم أننا لا نملك ما ينفي بغض الموالي للحجاج ، فانه من المعروف أن جيش الطواويس الذي تمرد كان في الاساس جيشا عربيا عراقيا جمعه الحجاج ليقاتل به ثورة اعاجم ، فتمرّد عليه وكان هو الذي أيّد ابن الاشعث في ثورته . ولا يعقل أن يجمع الحجاج جيشا من الموالي ليقاتل به الموالي . كما لا يعقل ان يرفع جيش عربي راية الثورة لرفع الظلم عن الموالي . واذا كان الأمر كذلك ، فما هو سبب ثورة ابن الأشعث ؟؟

اغلب الظن أنه صعب على اشراف العرب في العراق ورجال ارستقراطيتها العظام الخضوع لرجل من ثقيف لم يكن له من قبل شأن ولا خطر . ثم ما لبث ان جاءهم ليمثل الحكومة ، وليستبد بهم وليفضّل اهل الشام عليهم . لقد كانت لقريش بينهم حرمة ، وهذ الحرمة قديمة سبقت الاسلام ، وجاء الاسلام ليثبتها ويرفع من شأن قريش . أما ثقيف فلم يكن

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٤٧ .

لها مثل هذا الشرف . ويؤيد هذا الزعم ما نقرؤه في كتاب الاغاني ، والذي يقول : « ولما خرج ابن الاشعث على الحجاج بن يوسف حشد معه اهل الكوفة فلم يبق من وجوههم وقرائهم أحد له نباهة الا خرج معه لثقل وطأة الحجاج عليهم .... وجعل الاعشى يقول الشعر في ابن الاشعث يمدحه ، ولا يزال يحرّض بأشعاره أهل الكوفة على القتال . »[1].وقد تبع اشراف هل الكوفة ابناء القبائل العربية المقاتلة الذين كانوا قد جمّروا في الثغور ، فكرهو البقاء فيها بعيدا عن أهلهم وذويهم وكان أكثرهم من القبائل اليمنية من كندة وهمذان ومذحج . وقد انضمّوا لابن الاشعث لانه منهم . كما انحاز اليه رجال من قبائل عربية أخرى كتميم وغيرها ، وانضمّ اليه جماعة القراء الذين ساءهم بعض تصرفات الحجاج المخالفة للشريعة . وقد اعطى انضمام القراء لحركة ابن الاشعث قوة ودعما شديدين . على أن هذا كله لا يعطينا الا جانبا واحدا من التفسير المنطقي لقيام ثورة ابن الاشعث ، ويبقى هناك الجانب الأهم ، وهو أن ثورة ابن الاشعث لم تخرج عن كونها احد مظاهر النزاع بين العراق والشام . هذا النزاع الذي بدأ منذ زمن علي ومعاوية حتى قال رجل من أهل العراق « لأن اموت مع أهل العراق أحب الي من أن اعيش مع أهل الشام » .

لقد اجتمع العراقيون في جبهة واحدة متينة من المصلحة والعصبية ، زاد في تماسكها سياسة الحجاج حتى قيل :[2] « حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتكم وظلال دياركم ، يا أهل خراسان انسبوني تجدوني عراقي الأم ، عراقي ، الأبّ ، عراقي المولد ، عراقي الهوى والرأي والدين » .

وليس يعني هذا أن أهل الشام كانوا على درجة أعلى من التسامح بل كانوا ايضا عصبيّة واحدة ، تجمع بينهم مصلحة قبليّة وسياسية واقتصادية. وقد أدت سياسة الحجاج في فرض سياسة الشام على العراق الى اضطراره

---

(١) الاغاني ، ط . دار الكتب ، ج ٦ ، ص ٤٥ _ ٤٦ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥١٠ .

الى تقوية جند الشام في العراق للاستعانة بهم على دعم سياسة الدولة لدرجة إنه كان يستدعي أفرادا كثيرين منهم من الشام ، وبنى لهم مدينة خاصة هي واسط بين الكوفة والمدائن والاهواز والبصرة ، وجعلها مقرّ عمله وأودعها عددا كبيرا من جند الشام •

وهكذا يمكننا أن نقول ان ادارة الحجاج للعراق ، نتيجة للظروف السياسية والقبليّة التي كانت تسوده ولتي شرحناها من قبل ، لم تكن ادارة مدنيّة بل كانت ادارة عسكرية فيها الكثير مما يسمى بالحكم العرفي في وقتنا الحاضر •

مصير اولاد المهلّب :

بعد انتهاء أزمة ابن الاشعث اضحت بلاد المشرق تخضع خضوعا تاما للحجاج وليس فيها ما يعكر الصفو الا أولاد المهلّب الذين كانوا أصحاب السيطرة والنفوذ في خراسان • ويعود نفوذ المهالبة في هذه المنطقة الى أسباب عدة أهمها أن قبيلتهم (أزدعمان) التي نزحت من البصرة وسكنت خراسان حالفت قبائل ربيعة وتألفت منها جبهة يمنية في خراسان تقابلها جبهة قيسية مضرية تتألف من قبائل تميم وقيس •

وكان يلي خراسان في هذه الفترة يزيد بن المهلّب الذي لم يكن يتمتع بنفوذ العامل فحسب بل كان أيضاً زعيم الجبهة ليمينيّة المناوئة للحجاج • وكان الحجاج بدوره ناقماً على يزيد ويريد التخلص منه بحجة أنه لم يكن جادّا في ملاحقته لفلول ابن الاشعث الذين التجأوا الى هراة ، وكان ليّنا في معاملة الذين أسروا منهم وذلك لكونهم من اليمنية • يضاف الى ذلك تباطؤه في محاربة موسى بن عبد الله بن خازم واصحابه من القيسيّة الذين خرجوا بجوار بلخ ظنّاً منهم انهم ما داموا رافعين لرايات الثورة فان الحجاج لا يعزله ، لان هذا الاخير لن يجد رجلا قيسيا يقبل بمحاربة ابناء

جلدته من القيسيّين [١] .

ويصف الطبري على لسان أبي مخنف [٢] موقف الحجاج من يزيد ابن المهلّب بقوله : « ان الحجاج لم يكن له حين فرغ من عبد الرحمن بن محمد (ابن الاشعث) همّ إلا يزيد بن المهلّب وأهل بيته ... فأخذ الحجاج في مواربة يزيد ليستخرجه من خراسان ، فكان يبعث اليه ليأتيه ، فيعتلّ عليه بالعدوّ وحرب خراسان ، فمكث بذلك حتى كان آخر سلطان عبد الملك . ثم إن الحجاج كتب الى عبد الملك يشير عليه بعزل يزيد بن المهلب ويخبره بطاعة آل المهلّب لابن الزبير ، وانه لا وفاء لهم . فكتب اليه عبد الملك اني لا أرى تقصيراً بولد المهلّب طاعتهم لآل الزبير ووفاءهم لهم ، فان طاعتهم ووفاءهم لهم هو دعاهم الى طاعتي والوفاء لي . » وقد وافق عبد الملك أخيراً على عزل يزيد ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ ، فاستقدمه الحجاج اليه وسجنه ، وأمر فأخرج اخوته من خراسان وقطع أصولهم منها وفرق التجمع اليمني الذي كانوا يرأسونه . وهكذا خلص المشرق بكامله للحجاج وخضع له خضوعاً تاماً ، لا يعكر صفوه شيء .

حروب عبد الملك ضد الروم : انتهزت الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطورية جستنيان الثاني (٦٨٥ – ٦٩٥ م ، و ٧٠٥ – ٧١١ م) المشاكل الداخلية التي شغلت الامبراطورية العربية لاسلامية ، بعد وفاة يزيد ابن معاوية واندلاع نيران الفتنة في معظم أقاليم الامبراطورية لتقوم ببعض التحركات العسكرية بهدف تحقيق نصر سريع على العرب . وحين آلت الخلافة الى عبد الملك بن مروان تنبه الى الخطر البيزنطي الجاثم على حدوده وأراد أن ينصرف الى معالجة لمشاكل الداخلية الكثيرة التي كانت ما تزال تهدد عرشه، لذا سارع الى عقد معاهدة جديدة مع الامبراطور جستنيان الثاني الذي تسلم عرش بيزنطة في نفس السنة التي بويع فيها لعبد الملك بالخلافة (٦٨٥ م) . وقد وافق عبد الملك أن يدفع لبيزنطة إتاوة أعلى من الاتاوة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٠٢ وما بعدها .
(٢) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٩٦ – ٣٩٧ .

التي كانت تدفع زمن معاوية وأن تتقاسم دمشق مع القسطنطينية العائدات التي تجبى من قبرص وأرمينيا • وظلت قبرص لفترة من الزمن تعيش تحت حكم اسلامي – بيزنطي مزودج دون أن تكون خالصة التبعية لاي من الدولتين المتنازعتين [1] • وقد أمن عبد الملك عن طريق هذه المعاهدة هدوءاً مؤقتا على حدوده مع بيزنطة ، كما أتاحت هذه المعاهدة الفرصة لجستنيان لان يلتفت الى مشاكله في البلقان •

وكنا ذكرنا أن الروم البيزنطيين استغلوا فرصة انشغال عبد الملك باخماد فتنة مصعب بن الزبير في العراق فحرضوا الجراجمة على التحرك [2]، فاضطر عبد الملك « الى أن صالحهم على الف دينار كل جمعة، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه اليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج الى الشام فيغلب عليه » [3] • ورغم ما في هذه المعاهدة من ظاهرة ضعف بالنسبة لعبد الملك ، فان البعض يعدها « من أعظم الخطوات الدبلوماسية نجاحاً والتي تفوق بها عبد الملك بن مروان أثناء انشغاله بمشاكله الداخلية على الامبراطورية البيزنطية • » [4] • وذلك لانها برهنت أن جستنيان الثاني أغراه المال ومظاهر السيادة ولم يدرك الاخطار التي تكمن وراء فعلته ، فبدأ بنقل ١٢ ألف من الجراجمة الى رومانيا ، وذهب بعضهم الى تراقية ، كما أن آخرين منهم دخلوا آسية لصغرى • وعملية نقل الجراجمة من جبال اللكام الى المناطق الجديدة خلصت الدولة العربية الاسلامية الى الابد من هذه الفئة التي كانت تشكل « ستارا حديديا » ، كما تقول المصادر المتخصصة في التاريخ البيزنطي [5]، كان يقف دوماً في وجه الجيوش الاسلامية • وقد تبين لجستنيان خطأ مافعله من نقل الجراجحة من مواقعهم وحاجته اليهم حين تجددت الغارات بين الجيش العربي الاسلامي والجيش البيزنطي في منطقة آسية الصغرى على

---

(١) انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢١ •

(٢) انظر قبله ، الفقرة التي عنوانها : ثورة المردة أو الجراجمة في جبال اللكام •

(٣) فتوح البلدان ، ج٢ ، ص ٢١٨ •

(٤) انظر امثلا ، ابراهيم احمد العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٢٠٦ •

(٥) Bury, J. B. A History of the later Roman Empire, ed. London, 1931, p. 321.

الحدود بين الدولتين ، وأدرك أنه لا بد له من سد الثغرة التي حدثت نتيجة لنقل الجراجحة . [1] فقرر أن يستعيض عن الجراجحة بالعناصر السلافية التي كانت تسكن البلقان وكانت علاقاتهم مع بيزنطية علاقات عداء [2] . لذا قاد جستنيان الثاني حملة كبيرة سار بها عبر الاراضي التي يحتلها السلاف وانتصر عليهم في عدة مواقع ونقل بعض القبائل السلافية المغلوبة الى مناطق سكن جديدة من بينها اوبزيكيون ، المنطقة المطلة على الدردنيل . وكانت هذه المنطقة ، الجهة التي تقصدها الجيوش الاسلامية حين تنوي حصار القسطنطينية . ويقدر المؤرخون عدد الجنود السلاف الذين خدموا في جيش جستنيان الثاني بثلاثين ألف رجل . كما قام هذا الامبراطور بنقل عدد من البحارة القبارصة الى سيزيكوس لان سيزيكوس خسرت الكثير من بحارتها أثناء الحصار العربي للقسطنطينية . وكان نقل البحارة القبارصة الى سيزيكوس الفرصة التي استغلها عبد الملك بن مروان لاعلان الحرب على بيزنطة سنة ٦٩١ - ٦٩٢ ، وذلك لان خلافة دمشق تعتبر قبرص من ممتلكاتها ، ولا تعترف بالادعاءات البيزنطية بالسيادة عليها . ولما بدأت المعارك بين الطرفين انضمت الفرق التي كانت تحارب في صفوف البيزنطيين الى جانب العرب مما أدى الى انتصار العرب على خصومهم انتصاراً ساحقاً في موقعة سيبا ستوبوليس في أرمينية [3] . ويذكر الطبري هذه الموقعة في احداث سنة ٧٣ هـ ويقول : « إنه كان في هذه السنة وقعة عثمان بن الوليد بالروم في ناحية أرمينية ، وهو في أربعة آلاف والروم في ستين ألفاً ، فهزمهم وأكثر القتل فيهم . » [4] . وقد أسكن عبد الملك الجنود السلاف الذين هربوا من الجيش البيزنطي وانضموا اليه في سورية . وقد ساهم هؤلاء الجنود فيما

---

(١) ابراهيم احمد العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٢٠٧ .

(٢) انظر من أجل هذا الموضوع ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢١ .

(٣) انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٣ . وتعرف سيبا ستوبوليس اليوم باسم « سولوساراي » .

(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ١٩٤ .

بعد بالحروب بين العرب وبيزنطية وحاربوا الى جانب العرب [١] • ويوجه المؤرخ البيزنطي المشهور ثيوفانس نقداً شديداً لاعمال جستنيان الثاني هذه• ويوجه لانظار بشكل خاص الى الخطأ الذي ارتكبه بنقل الجراجمة من جبال اللكام إذ ان هذا العمل برأيه ، جعل الحدود الشرقية لبيزنطة مفتوحة أمام العرب ، كما ان نقل القبارصة الى سيزيكوس كان برأيه عملية غير موفقة وأن نتائجها كانت مضرة بمصالح الامبراطورية البيزنطية[٢].

ويمكننا القول أن عبد الملك بعد ان توطدت له الأمور في الداخل ، سار على خطة معاوية في تجهيز الحملات العسكرية السنوية لحرب الروم في الشمال[٣]•ولكن الجيش العربي الاسلامي في زمنه لم يحرز انتصارات عسكرية كبيرة ضد الروم • كما ان قواده لم يتمكنوا من التوغل داخل الأراضي الرومية وفتحها كما فعلوا في الجبهات الشرقية والغربية زمن ابنه وخليفته الوليد بن عبد الملك • ويمكن اعتبار الحملات التي قام بها الجيش في عهده ضد الروم بمثابة المناورات العسكرية التي لم تحقق فتوحا كبرى ، ولكنها ابقت الجند في حالة تأهب واستعداد •

ولعل أهم النتائج التي ترتبت على الصراع بين العرب والروم البيزنطين أيام عبد الملك هي قضية القراطيس ، وهو ورق كانت تستورده بيزنطة من أرض مصر وتدفع ثمنه دنانير بيزنطية[٤] • وكان الأقباط في مصر الذين يصنعون هذه القراطيس يكتبون في أعلاها اسم المسيح • ورأى عبد الملك أنه لا يجوز الاستمرار في هذه الكتابة في ظل الدولة الاسلامية وأمر أن تستبدل بعبارة « قل هو الله أحد » [٥] باعتبار أنها لا تمس معتقدات النصارى •ولكن هذا التبديل أحدث ضجة في بيزنطة ، وكتب جستنيان الى عبد الملك مهددا

---

(١) Ostrogorsky, G. - A History of the Byzantine State, ed. Oxford, 1956, p. 118.

(٢) انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٣ – ١٢٤ •

(٣) من أجل حروب عبد الملك ضد الروم ، انظر ، فتوح البلدان للبلاذري ، ج ٣ ، ص٢٦٦•

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ •

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٣٦ •

بأنه إذا لم تعد القراطيس الى ما كانت عليه ، فسيرسل له دنانير منقوش عليها شتم النبي [١] . ولما كانت بيزنطة آنذاك هي الممول الرئيسي للدولة الاسلامية بالعملة المسكوكة[٢] فقد غم هذا التهديد عبد الملك ،واستشار خالد بن يزيد ابن معاوية بما يفعل فأشار عليه قائلا : « ... يا أمير المؤمنين ، حرّم دنانيرهم ، فلا يتعامل بها واضرب للناس سككا ، ولا تُعف هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير [٣] . فقال عبد الملك ، فرجتها عني ، فرج الله عنك ، وضرب الدنانير . » [٤] .

وهكذا فقد كانت قضية القراطيس نقطة البدء في اقدام الدولة على التحرر من النفوذ الاجنبي في ميدان العملة عامة . وتكاد المصادر تجمع على أن عبد الملك كان أول من ضرب الدراهم والدنانير [٥] . وهناك خلاف في سنة ضربها ، فهي عند القلقشندي في مآثر الانافة سنة ٧٤ أو ٧٥ هـ ، أما الطبري وصاحب أخبار الخلفاء فيجعلانها سنة ٧٦ هـ. ويذكر صاحب أخبار الخلفاء أنه قبل العام ٧٦ هـ كان أهل الشام يتعاملون بنقد الروم وأهل العراق بنقد فارس [٦] . ثم يذكر قصة القراطيس على النحو الذي اسلفناه. ويبدو أنه من الممكن التوفيق بين المؤلفين في قضية الخلاف في سنة صك العملة العربية الجديدة ، وذلك مما يذكره القلقشندي الذي يفهم مما كتبه أن الحجاج كان سنة ٧٤ أو ٧٥ مفوض عبد الملك الوحيد في أمر ضرب العملة ، ثم ما لبث أن سمح بضربها في سائر النواحي سنة ٧٦ هـ [٧] .

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٢) يذكر البلاذري هذا الامر ويقول انه قبل عبد الملك : « كانت الدنانير ترد رومية والدراهم كسروية وحميرية قليلة . » انظر ، فتوح البلدان ، ج٥ ، ص ٦٥٤ .

(٣) الطوامير ، ج الطامور ، وهو الصحيفة .

(٤) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٥) انظر مثلا : الطبري ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ ،والقلقشندي،مآثر الاناقةفيمعالمالخلافة، تحقيق عبد الستار فراج ، ط . الكويت ١٩٦٤ ، ج ٢ ، ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ، وفتوح البلدان للبلاذري ، ج ٥ ، ص ٦٥١ ، والاحكام السلطانية للماوردي، ص ١٥٣ وما بعدها . وغيرها من مصادر.

(٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٣٧ ب .

(٧) مآثر الاناقة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

والجدير بالذكر ان اصدار العملة الجديدة كان من بين العوامل التي أدت الى تجدد الحروب بين بيزنطة وعبد الملك ، ففي سنة ٦٩٢م (٧٣هـ) وحين أرسل عبد الملك الى جستنيان الثاني الاتاوة المتفق عليها بينهما اثـر حركة الجراجمة ، رفض هذا الأخير تسلمها لأنها كانت من العملة الجديدة التي ضربها عبد الملك وعليها « الله احد الله الصمد » عوضا عن الشعارات المسيحية وصور الأباطرة البيزنطيين • وقد كان هذا الرفض من بين العوامل والمبررات التي تذرع بها عبد الملك بعد ان استتب له الأمر في الداخل ليستأنف نشاطه العسكري ضد الروم • فسير جيش عثمان بن الوليـد الذي قاتـل الروم وانتصر عليهم في موقعة سيبا ستوبوليس التي شرحناها آنفاً •

ويذكر صاحب مآثر الانافة[1] أن المتولي لأمر ضرب العملة زمن عبد الملك كان الحجاج بـن يوسف ، ثـم ضربت بعد ذلك في سـائر نواحـي الامبراطورية بعد سنة ٧٦ هـ • ولم يكتف عبد الملك بضرب الدنانير ، بـل ضرب الدراهم أيضا، فكان على حد تعبير صاحب مآثر الانافة« أول من ضرب الدراهم في الاسلام وكتب في أولها : قل هو الله أحد ، سنة خمس وسبعين، وجعل كل عشرة منها وزن سبع مثاقيل ، فاستمر هذا لوزن الى الآن • »[2]• ويبدو أن الدراهم قبل ذلك كانت مختلفة الأوزان منها دراهم وزن الواحد منها عشرون قيراطاً ، ودراهم وزن واحدها اثنا عشر قيراطـاً وأخـر وزن واحدها عشرة قراريط • وحين ضربت الدراهم زمن عبد لملك أخذ وسطي هذه الأوزان الثلاثة وهو اثنان واربعون قيراطاً « فضربوا على وزن الثلث من ذلك وهو أربعة عشر قيراطآ ، فوزن الدرهم العربي أربعة عشر قيراطاً من قراريط الدينار العزيز ، فصار وزن كل عشرة دراهم سبع مثاقيـل ، وذلك مائة واربعون قيراطاً وزن سبعة • »[3] • وقد نهى الحجاج أن يطبع

---

(١) انظر مآثر الاناقة ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ •

(٢) مآثر الانافة ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ •

(٣) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٥١ ـ ٦٥٢ ، وانظر أيضا : الماوردي ، الاحكام السلطانية ط • البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٥٣ وما بعدها ، والطبري، ج ٦ ، ص ٢٥٦

العملة أحدا غيره،وحين تجرأ شخص يهودي على طبع دراهم فضية وذهبية هدده بالقتل •[1]

وكان تحرر الدولة العربية الاسلامية من السلطان الاجنبي في ميـدان العملة خطوة على جانب كبير من الأهمية في تحررها الاقتصادي من جهة ، وفي سير عملية التعريب بوجه عام ، هذه العملية التي أعطت للدولة قـدرا كبيرا من الرقابـة على شؤونها الماليـة ولا سيما حين تمت عمليـــة تعريب الدواوين في الأمصار المختلفة • ويبدو أن عملية تعريب الدواوين ، التـي سنتناولها بحديث مقتضب في الفقرة التالية ، لم تكن ممكنة قبل ذلك ، إذ أن ظروف الفتح وما أعقبها من قيام النظام الاداري بشكل عام في ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد لم تسمح للمسؤولين بخبراتهم القليلة في هذا الميدان من أن يتحرروا من الانظمة السابقة وأن يمارسوا رقابة حقيقية على مواردهم المالية • ولن تتاح للدولة ممارسة هذه الرقابة بشكل فعال الا بعد أن تتم عملية التعريب ، وحين تكتسب الدولة خبرة أكبر وفهما أعمق للنظام المالي الذي كان معمولا به في الأمصار المفتوحة قبل الفتح العربي لها •

تعريب الدواوين :

كان من أهم منجزات عصر عبد الملك تعريبه لدواوين الدولة لتخليصها من سيطرة الموظفين الاجانب الذين كانوا يعملون فيها • ومن المعروف أن الدواوين في الامصار المختلفة التابعة للامبراطورية الاسلامية كانت تدون بغير العربية ، فديوان الشام بالرومية ، وديوان العراق بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية • ويذكر صاحب أخبار الخلفاء ان عملية تعريب الدواوين بدأت في الكوفة وانه كان يكتب في ديوان الكوفة شخص فارسي اسمه زادان فروخ أو ابنه وردان شاه • وكان لهما مساعد هو صالح بن عبد الرحمن ، تقدم الى الحجاج وقال له : انه يستطيـع أن يعرب الدواوين وان يعطيهـا شكلها الكامل باللغة العربية ، فقبل الحجاج وفوضه أن يقوم بهذه المهمة •

---

(١) انظر قصة الحجاج مع سهير اليهودي ، في مآثر الاناقة ، ج ٣ ، ص ٣٤٥ •

وصالح من اب مولي لبني تميم هو في الاساس من سبي سجستان • لذلك كان يتقن الفارسية كما يتقن العربية ، فقام بعملية التعريب على خير وجه مما غمّ الفرس كثيرا لانه بعمله هذا قطع عليهم موردا ضخما للرزق ، حتى قال له أحدهم « قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية » كما بذلوا له أموالا طائلة حتى يتخلى عن هذا العمل ولكنه أبى ، وكان ذلك سنة ٧٨ هـ •[١] •

اما في الشام فقد تمت عملية التعريب أيضا زمن عبد الملك • ويروي البلاذري قصة غريبة عن سبب تعريب ديوان الشام فيذكر ان سليمان بن سعد هو الذي قام بهذا العمل وانه أنجز هذه المهمة في سنة واحدة فأعطاه عبد الملك أجرا على اتعابه خراج الاردن لسنة واحدة ، وكان مقداره يومئذ ١٨٠,٠٠٠ دينار • وديوان الشام كما أشرنا سابقا كان بالرومية ، وفي زمن عبد الملك وبالتحديد سنة ٨١ هـ أمر هذا الخليفة بنقله الى العربية لسبب غريب يرويه لنا البلاذري فيقول : ان احد الكتبة الروم في الديوان احتاج ان يكتب شيئا فلم يجد حبرا في دواته ولم يجد ماء يضيفه على الدواة فبال فيها • وبلغ الخبر عبد الملك فأمر بعزله ومعاقبته عقابا شديدا ، وأمر سليمان ابن سعد أن ينقل الديوان الى العربية ، فاشترط سليمان خراج الاردن لسنة واحدة ، فقبل عبد الملك • ولم تنقض السنة حتى كانت عملية التعريب قد تمت • وأحضر سليمان السجلات المعربة الى عبد الملك فاطلع عليها فدعا بكاتبه سرجون وعرض عليه ما قام به سليمان فغم ذلك سرجون كثيراً وخرج من عند عبد الملك فلقيه قوم من الروم الذين كانوا يكتبون في الديوان فقال لهم : « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم » •[٢]

وقد تم نقل دواوين مصر بنفس النحو • وهكذا استعربت الدواوين ودخلها من الموظفين من كان يحسن العربية ، كما أبقي فيها من موظفيها القدماء الفرس والروم والاقباط من كان منهم يتقن العزبية •

---

(١) انظر ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٠ أ وما بعدها •

(٢) انظر ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٧١ وما بعدها وانظر أيضا ، تاريخ الخلفاء ، ص ١٤٠ أ وما بعدها •

وهكذا نستطيع القول ن الادارة فيعهد عبد الملك دخلت في دور جديد نظمت فيه امور الدولة وسجلاتها وأصبحت خاضعة لمراقبة المسؤولين العرب مباشرة دونما حاجة الى وسيط اجنبي قد لا يحسن الامانة ، وقد يسيء التصرف •

صفاته ووفاتــه :

ليس من شك في أن عبد الملك كان من أقدر الحكام الذين تولوا سدة الحكم بعد أن قام نظام الخلافة في أعقاب وفاة الرسول الكريم • وتتجلى عظمته في الامور الخطيرة التي تسلم العرش وهي قائمة تشغل الناس وتهدد الدولة بأبشع الاخطار ، واستطاع هو أن يجد لها الحلول • كما تتجلى في جهده الموفق لأن يخمد كل الفتن ، وأن يخرس كل الأصوات المعارضة ، وأن يأتلف القلوب ، وأن يجمع الناس حوله في بلاطه، وأن يسوس الدولة على أساس من العدل والحنكة والمقدرة•وهو في كل هذا انسان ذو شخصية قوية ، كان على الناس أن يتأدبوا في مجلسه وان يخاطبوه كما تخاطب الملوك•فهو لم يقبل ما كان يقبل به معاوية الذي كانت طباعه وأخلاقه أقرب منها الى طباع وأخلاق سيد القبيلة ممن يمكن أن نسميهم بالملوك في وقتنا الحاضر •

كان عبد الملك اذن أقرب الى « الملك » منه الى شيخ القبيلة • ويحلو للبعض أن يعقد المقارنة بين عبد الملك ومعاوية فيقولون أن معاوية اعظم ذكاء من عبد الملك ، وانه رجل حلم وحكمة وسياسة ، يعرف كيف يستعمل الناس ويتحمل أذاهم اذا اسرفوا في معاملته رغبة منه في اكتسابهم • أما عبد الملك فهو في نظرهم بعيد عن المصانعة والمداراة التي كان يتميز بها معاوية ، وانه كان أميل الى الشدة • وعندنا انه ربما كان هذا صحيحا ، ولكن لم تكن مواقف عبد الملك السياسية دونما اسباب • فعبد الملك استطاع بفضل قوته وشجاعته وبأسه أن يتغلب على خصوم كثر في الداخل والخارج،وان يوطد

اركان حكمه بشكل لم يسبق له مثيل . فهو بنتيجة هذا كله حاكم لم تسمح له الظروف التي واكبت حكمه أن يكون مصانعاً مدارياً يأخذ الناس باللين واللطف ، لانه لو فعل ذلك لما استطاع ان يوطد الامن والاستقرار وان يقيم أسس الدولة التي كانت قد تداعت الى حد الانهيار في الفترة التي سبقت وصوله الى سدة الخلافة .

ومعروف ان عبد الملك كان قاسيا في عقابه للذين يثورون عليه أو الذين يتهددون عرشه . وخير مثال على هذه القسوة حادثته مع عمرو بن سعيد ، فقد قتل عبد الملك عمروا بيديه بعد ان استسلم له وطلب منه العفو . كذلك اراد عد الملك الفتك بأخيه عبد العزيز بن مروان الذي ابى التنازل عن حقه في الخلافة لابني عبد الملك ، الوليد وسليمان[1] . وقد شاءت الظروف ان يتوفى عبد العزيز قبل عبد الملك فحال ذلك دون بطشه بأخيه ، ولولا ذلك لكانت فضيحة كبرى في جبين الاسرة الأموية ان يقتل الاخ بيد أخيه في سبيل الحكم .

وقد اعتمد عبد الملك على عمال اكثرهم من بني امية ، ولا سيما في الفترة الاولى من حكمه ، فكان أخوه عبد العزيز عامله على الجزيرة وأرمينية ، واخوه بشر بن مروان واليا على الكوفة ، وما لبث ان ضم البصرة اليه . وكان بلاطه يضم عددا كبيرا من الرجالات الامويين الذين طردهم ابن الزبير من الحجاز . كما استمال اليه خالد بن يزيد بن معاوية الذي كانت له الخلافة بعد مروان حسب مقررات مؤتمر الجابية ، والذي خلعه مروان كما اشرنا آنفا . وقد استرضى عبد الملك خالدا هذا بأن زوجه ابنته وتزوج هو من أخته عاتكة بنت يزيد بن معاوية .

وقد توفي عبد الملك وهو في الستين من عمره في دمشق سنة ست

---

(١) انظر من أجل ذلك ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٢ ، ٤١٣ وما بعدها .

وثمانين للهجرة فكانت خلافته احدى وعشرين سنة[1] ، وكانت بحق فترة حافلة بالاعمال والمنجزات العظام ، قمع فيها الفتن الداخلية والخارجية ، وحارب الروم ، وارسى الملك لاسرته على قواعد متينة ، وعرب الدواوين ونظمها ، وقام بجهد كبير في كل حقول الادارة والحكم والعمران .

والعظيم في أمر عبد الملك ان كل خلفاء بني أمية الذين اتوا من بعده كانوا من ذريته ما عدا اثنين هما : عمر بن عبد العزيز ، ومروان بن محمد .

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٨ ـ ٤١٩ .

الفصل الرابع

خلافة الوليد بن عبد الملك

توفي عبد الملك سنة ٨٦ هـ بعد حكم حافل بجلائل الأعمال، كما رأينا، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك الذي تسلم ملكا وطيد الأركان لا يعكر صفوه ثائر أو خارج على ارادة الدولة • ولا بد من الاشارة في مستهل حديثنا عن فترة حكم الوليد أن شهرته قامت على أمرين رئيسيين :

أولهما :ما تم في عهده من فتوح في مختلف الجبهات ومنجزات حربية رائعة في أكثر من ميدان ، ساعده على تحقيقها قادة عظام وهدوء في الداخل وأمن مستتب ودولة أرسيت قواعدها على أسس متينة منذ زمن أبيه •

وثانيهما : منجزاته في الداخل ولا سيما في ميدان العمران والاحسان الى الرعية والاهتمام بالفقراء والمعوزين والزمنى وغيرهم •

ولم تكن ولاية العهد للوليد بعد عبد الملك ، بل كانت لعمه عبد العزيز الذي كان يلي مصر منذ زمن مروان بن الحكم • وقد حاول عبد الملك سنة ٨٥ هـ أن يخلع أخاه عبد العزيز ، وتداول الأمر مع بعض خاصته فوافقوه على رأيه ، وقبل أن يقوم بأي اجراء في هذا السبيل جاءه نعي أخيه عبد العزيز ، فعهد بولاية مصر الى ابنه عبد الله بن عبد الملك ، وبايع لابنيه

الوليد ، ومن بعده سليمان .[١] هذا ما ينقله لنا الواقدي من رواية حول هذا الموضوع . أما المدائني[٢] ، فيروي أن الحجاج هو الـذي زين لعبـد الملك بيعة الوليد ، وأرسل اليه وفدا ليباحثه في هذا الأمر ويحضه عليه . ووصل الوفد الى دمشق وتحدث الى الخليفة في هذا الأمر، فكاتب عبد الملك أخاه عبد العزيز وطلب اليه ن يتنازل لصالح الوليد ، فرفض عبد العزيز ، ولم يقم عبد الملك بأي اجراء ضد أخيه الذي لم يمهله الموت طويلا فتوفي في نفس العام (٨٥ هـ)[٣] وكانت وفاته خير حل لأزمة جديدة قد تعصف بالبيت الحاكم وتعرض وحدته لخطر الانشقاق من جديد .

وبعد وفاة عبد العزيز بن مروان بايع عبد الملك لابنيه الوليد وسليمان، كما أشرنا آنفا ، وهدد خالدا وعبد الله ابني يزيد بن معاوية بالقتل إن لم يبايعا لابنيه[٤] ، وضمن بذلك لهما ملكاً لا ينازعهما فيه منازع .

الفتوح زمن الوليد بن عبد الملك :

وصلت الامبراطورية العربية الاسـلامية زمن الوليد بن عبـد الملك أقصى اتساعها،وقد تمت زمنه فتوحات واسعة في مختلف الجبهات:كالجبهة الغربية التي حقق فيها العرب انتصارات رائعة على الروم ، ومنطقة خراسان وما وراء النهر التي استطاع القائد الكبير قتيبة بن مسلم الباهلي أن يقـود الجيوش عبرها حتى وصل الى الصين ، وتوغل محمد بن القاسم الثقفي في بلاد الهند وأخضع أجزاء كبيرة منها لحـكم العرب المسلمين ، وتم فتـح الأندلس على يد موسى بن نصير وطارق بن زيـاد . وسنتناول بالحديث السريع فيما يلي الخطوط العامة لهذه المنجزات العسكرية :

أ ـ الفتوح في منطقة ما وراء النهر : ولى الحجاج سنة ٨٦ هـ قتيبة بن

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٣ وما بعدها .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٣ .
(٤) الأخبار الطوال ، ص ٣٢٥ .

مسلم الباهلي على خراسان[١] ، وكتب اليه بأمره بعبور نهر بلخ وأن يفتح تلك البلاد[٢] . فخطب قتيبة الناس وحثهم على الجهاد ، وترك مرو بعد أن جعل عليها إياس بن عبد الله بن عمرو نائبا عنه[٣] . ومنطقة ما وراء النهر[٤] هي المنطقة التي كان يسميها اليونان « ترانس أوكسيانا » ، وسميت بما وراء النهر نسبة الى نهر جيحون أو بلخ الواقع شمال حدود خراسان ، وتمتد شمالا الى حدود نهر سيحون الموجود في بلاد الترك ، وفي الغرب كانت تحدها منطقة خوارزم ، أما في الشرق فكانت حدودها غير واضحة تماما وتدخل فيها اجزاء من الصين .

وكان يسكن هذه المنطقة خليط من الشعوب الآسيوية غالبيتهم من الفرس ، وتكونت فيها ممالك مستقلة غير واضحة الحدود أهمها مملكة طخارستان التي كانت تقع على ضفتي نهر جيحون[٥] ، ومملكة الخُتّل أو ختلان وتقع على تخوم السند خلف نهر جيحون في أول بلاد ما وراء النهر[٦] ، ومملكة الصَّغانيان ومملكة آخرون وشومان[٧] ، ومملكة الصغد أو السُغد التي أهم مدنها سمرقند[٨] ، ومملكة خوارزم وممالك فرغانة والشاش وغيرها[٩] .

وقبل البدء بالحديث عن تفاصيل سير حركة الفتح في هذه الجبهة لا بد من التساؤل عن السبب الذي دعا الى توقف الفتوح على الجبهة الشرقية عموما لا في منطقة ما وراء النهر فحسب ، منذ سقوط المدائن في عصر الفتوح

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٢٤ .
(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٢٧ .
(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٢٣ .
(٤) انظر من أجلها مادة « ما وراء النهر » في الموسوعة الاسلامية .
(٥) من أجلها أنظر ، معجم البلدان ، ط . الخانجي ، ج ٦ ، ص ٣١ ، ولوسترانج ، بلاد الخلافة الشرقية ، الطبعة الانكليزية ، ص ٤٢٦ .
(٦) معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٠٠ — ٤٠١ ، ولوسترانج ، ص ٤٣٨ .
(٧) انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٢٣ ، ومعجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٦١ — ٣٦٣ .
(٨) الأخبار الطوال ، ص ٣٢٧ ، ومعجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٤ ، و ج ٥ ، ص ٣٦٢-٣٦٣ .
(٩) من أجل هذه الممالك ، انظر ، معجم البلدان .

الأولى وحتى خلافة الوليد بن عبد الملك . وقبل الاجابة على هذا التساؤل علينا أن نصحح خطأ الزعم القائل بتوقف كل الأعمال الحربية في الجبهة الشرقية منذ عثمان وحتى خلافة الوليد بن عبد الملك . وإذا كان الفتح كعملية كبيرة تؤدي الى ضم منطقة الى الحكم الاسلامي واخضاعها له خضوعا تاما قد توقف ، فان العمليات العسكرية ظلت مستمرة منذ عهد عمر بن الخطاب وحتى الفترة التي نتناولها بالبحث . وكانت هذه العمليات العسكرية المشرقية تنطلق جميعاً من العراق ، باعتباره مقر الجند ، ما كان منهم من قبائل العراق ، وما كان يصلهم من مدد من عرب الشام أو الحجاز . وكانت البصرة والكوفة المركزين الرئيسيين لانطلاق الجنود المسلمين الغزاة الى المشرق . ويذكر الدكتور شكري فيصل[1] أن « الفتوحات في الجانب الشرقي كانت تنطلق من وجهين اثنين : البصرة والكوفة ، ومن وجه ثالث لاقى الامبراطورية الساسانية من طرفها الجنوبي على الشاطىء الشرقي للخليج الفارسي (العربي) وهو البحرين . » . وقد تم على يد الجند البصريين فتح ما يحيط بمدينتهم من أرض فارس وما يقاربها كالأهواز ورامهرمزو السوس وجنديسابور ، حتى كان لهم نصيب في فتح خراسان . وأما الكوفة « فقد تولت المناطق الشمالية منها والمناطق الشمالية الشرقية » كالري واذربيجان وأرمينية . وأما البحرين فقد انطلق المسلمون منها لغزو مقاطعة فارس ومقاطعة كرمان وبعض مناطق سجستان[2] .

بعد هذا التصحيح الذي أردنا منه أن ننفي الزعم القائل بتوقف كل العمليات العسكرية على الجبهة الشرقية ، نعود لنبرر عدم تحقق منجزات عسكرية كبيرة على هذه الجبهة قبل خلافة الوليد ، فنقول انه لا بد لنا أن نذكر أن الأوضاع الداخلية للدولة الاسلامية كان لها انعكاسها على سياستها الخارجية من جهة ، وعلى حركة الفتح عموما من جهة أخرى . ولعل

---

(١) شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، ط . دار العلم للملايين ، بيروت، ص ١٩٤ .

(٢) حركة الفتح الاسلامي ، ص ١٩٤ ـ ١٩٦ .

السبب الذي جعل معاوية لا يستأنف النشاط العسكري على هـذه الجبهة بعد أن اخمدت فتنة عثمان وتوطدت له الأمور في الداخـل ، هو انشـغاله بالحروب مع الروم : البرية منها والبحرية. ويبدو أن تقدير معاوية لظروف دولته الخارجية جعله يفضل أن يولى حرب الروم عنايته الفائقة لأسباب من بينها أنه نظر فوجد أن الروم يتربصون بدولته في أكثر من حد وعلى اكثر من جبهة ، وأن قربهم من عاصمة دولته يجعل خطرهم خطرا مباشرا قـد يصيبه بشر مستطير . في حين أن منطلقة الى الجبهة الشرقية هو العراق ، والعراق يضطرم بالفوضى والاضطرابات ولا يمكن الاعتماد عليه وعلى أهله في فتح يقوده ولاته أو قواده ، لأن هؤلاء الولاة والقواد مشغولون بقمـع الفتن الداخلية . ولن يتاح لأولي الأمر في العراق أن يقوموا بأية عملية فتح حتى كانت ولاية الحجاج الذي جمعت اليه ولاية البصرة والكوفة وأسكت كل الأصوات المعارضة فيها وتمكن من توجيه القادة لاستئناف فتح المشرق . وهكذا فقد شهدت خلافة الوليد وولاية الحجاج على العراق في عهده بداية الفترة الثانية في عملية الفتوح المشرقية التي تحققت خلالها منجزات ضخمة سنستعرض أهمها في الفقرة التالية من بحثنا .

كان آخر عهد العرب والفرس في الصراع زمن الراشدين هو استيلاء العرب على خراسان ،إذ يذكر الطبري أن الاحنف بن قيس كتب الى عمر بفتح خراسان ، فكتب اليه عمر يأمره بالتوقف وألا يجوز النهر (نهر بلخ أو جيحون) وأن يقتصر على ما دونه[١] . وفي زمن عثمان انتقض أهـل خراسان وعادوا إلى الكفر[٢] ، مستغلين فرصة انشغال الدولة بأمر الفتنة وما نجم عنها من اضطرابات وحروب . ويبدو مما يذكره الطبري وغيره من المؤرخين أن المقاومـة الفارسية بعد معركة نهاونـد كانت مرتبطة بشخصية يزدجرد الذي قاد حركة مقاومة مسلحة ضد العرب أخذت شكل حرب غير نظامية لأن معركة نهاوند كانت من المعـارك الفاصلة في الصراع العـربي

---

(١) الطبري ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .
(٢) الطبري ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

الفارسي ، وقد حشد لها الفرس كل امكانياتهم[1] ، فلما خسر الفرس هذه المعركة انهارت مقاومتهم المنظمة وتشتت قواهم ، وغدا الصراع مع العرب أمراً يقوم به حكام المقاطعات الفارسية بمبادراتهم الفردية ودون أن يكون بينهم أي تساند أو تعاون . على أن يزدجرد ظل مركز الثقل في المقاومة الفارسية بعد نهاوند ، فكانت الجيوش الاسلامية تتعقبه لتقضي عليه ، فلاقوه في اصفهان وغلبوه عليها ، وتعقبوه الى اصطخر التي سقطت في أيديهم[2] ، وظل حالهم كذلك مع يزدجرد حتى قتل في خلافة عثمان سنة ٣١ هـ[3].

وحين استقرت أمور الدولة زمن معاوية بن أبي سفيان ، اتخذ هذا الخليفة مدينة مرو قاعدة للغزو في خراسان ، وفي سنة ٥٤ هـ ولى معاوية عبيد الله بن زياد خراسان ، فقطع النهر الى جبال بخارى وفتح بعض المدن وأسر من البخارية ألفين « كلهم جيد الرمي بالنشاب »[4] وأتى بهم الى البصرة . وفي سنة ٥٥ هـ ولى معاوية سعيد بن عثمان بن عفان خراسان ، فقطع النهر أيضا وصار الى بخارى ، فطلبت خاتون ملكة بخارى الصلح أول الأمر فقبل سعيد ، ولكنها ما لبثت أن نقضت الصلح فقاتلها وظفر عليها ، ثم سار الى سمرقند فحاصرها ودخلها ، وعاد الى المدينة ومعه أسرى من أولاد ملوك السغد[5].وفي خلافة يزيد بن معاوية عبر نهر بلخ (أوجيحون) الى خراسان سَلْم بن زياد الذي ولاه هذا الخليفة على خراسان وسجستان سنة ٦١ هـ ، فعبر النهر غازيا ومعه المهلب بن أبي صفرة ، وحاصر المهلب بعض المدن في خراسان ، فطلب ملوكها الصلح ، فصالحهم على عشرين ألف

---

(١) يذكر الطبري في حديثه عن موقعة نهاوند والحشود الفارسية التي شاركت في هذه الموقعة ما يلي : « فتوافوا (أي الجند الفارسي) الى نهاوند ... فاجتمعت حَلْبة فارس والفهلوج أهل الجبال من بين الباب الى حلوان **ثلاثون الف مقاتل** ، ومن بين خراسان الى حلوان **ستون الف مقاتل** ، ومن بين سجستان الى فارس وحلوان **ستون الف مقاتل** .». انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

(٢) من أجل هذه المعارك انظر ، الطبري ، ج ٤ ، ص ١٦٧ ، ٨٩ ، و ١٦٦ وما بعدها .

(٣) من أجل مقتل يزدجرد انظر الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ وما بعدها .

(٤) الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٨ .

(٥) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

ألف ، كما غزا سلم سمرقند وأصاب بها بعض الغنائم[1] .

وطبيعي أن تتوقف هذه الغزوات إبان الفتنة الثانية ، وألا تستأنف إلا بعد استقرار الأمور لعبد الملك . وفي خلافة عبد الملك ظلت العمليات العسكرية في هذه المنطقة تأخذ شكل غزوات غير منتظمة يقوم بها القادة بناء على تكليف من الخلفاء أو الولاة كلما سنحت الفرصة أو كان الظرف مواتيا . وكان العام ٧٧ هـ هو العام الذي استؤنفت فيه هذه الغزوات ، إذ يذكر ابن الأثير أنه في هذه السنة عبر أمية بن عبد الله بن خالد عامل خراسان زمن عبد الملك بن مروان نهر بلخ للغزو ، فحوصر حتى جهد هو وأصحابه ، ثم نجوا بعدما أشرفوا على الهلاك ورجعوا الى مرو[2] . وكانت معارك أمية بن عبد الله آخر حروب الغارة في هذه الجبهة إذ أن الحروب فيها بعده ستأخذ طابع الجهاد والفتح . وحين تولى المهلب وأبناؤه أمر الحرب في خراسان أخذت هذه الحرب شكل الجهاد . ففي سنة ٧٨ عزل عبد الملك بن عبد الله عن خراسان وضمها الى أعمال الحجاج ، فبعث الحجاج عليها المهلب بن أبي صفرة الذي كان قد فرغ من حروبه ضد الازارقة[3] . وفي سنة ٨٠ هـ بدأ المهلب أعماله العسكرية في منطقة ما وراء النهر فقطع نهر بلخ ونزل على كش ، كما أرسل ابنه حبيبا فوافى صاحب بخارى في أربعين ألف ، وأقام المهلب بكش سنتين ، ثم صالح أهلها بعد ذلك على فدية يأخذها منهم[4] . ولما كانت فتنة ابن الأشعث وحاول ابن الأشعث أن يستميله لجانبه رفض وكتب الى الحجاج ينصحه أن يترك العراقيين حتى يسقطوا الى أهاليهم ويشموا أولادهم ، كما ذكرنا آنفاً ، ولكن الحجاج لم يعمل بنصيحته أول الأمر ، ثم ما لبث أن اكتشف صواب رأيه . وكان المهلب قد استخلف على عمله بخراسان ابنه المغيرة بن المهلب ، فمات في رجب سنة ٨٢ هـ فحزن عليه

---

(١) من أجل غزوات سلم زمن يزيد بن معاوية، انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٩٥ ـ ٩٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٧ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٤٨ .

(٤) من أجل هذه الأحداث ، انظر ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ .

أبوه حزناً شديداً وولى أخاه يزيد بن المهلب عوضاً عنه ووجهه لمرو لحرب أهلها[١] . ولما مات المهلب بعد صلح أهل كِش وذلك سنة ٨٢ هـ استخلف ابنه يزيداً على خراسان ، فكتب يزيد الى الحجاج بموت أبيه وبتوليته إياه فأقره الحجاج على ولاية خراسان[٢] . وغزا يزيد بن المهلب اثناء ولايته على خراسان مغازي كثيرة وأصاب الكثير من السبي[٣] . ويبدو أن الخصام وقع بين الحجاج ويزيد بن المهلب ، لأن يزيدا رفض أوامر الحجاج بغزو خوارزم أول الأمر ثم ما لبث أن عاد وغزاها ، فاستدعاه الحجاج اليه بعد أن استشار عبد الملك في عزله فوافقه الخليفة وطلب اليه أن يعين عوضا عنه أخاه المفضل بن المهلب ، فولى الحجاج المفضل لمدة تسعة أشهر بعد عزل يزيد عن خراسان سنة ٨٥ هـ [٤] . واثناء ولاية المفضل القصيرة هذه على خراسان قام بغزو باذغيس ففتحها وأصاب غنائم كثيرة كما غزا مدن آخرون وشومان وغيرهما[٥] .

على أن عمليات فتح بلاد ما وراء النهر لم تأخذ شكلا منتظما الا في خلافة الوليد بن عبد الملك . ففي مستهل خلافته عين الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلي واليا على خراسان عوضا عن المفضل بن المهلب . وذلك سنة ٨٦ هـ . ووصل قتيبة الى خراسان فوجد المفضل يعرض الجند يريد أن يغزو بهم آخرون وشومان ، فخطب فيهم قتيبة وحثهم على الجهاد[٦] . وسار مستخلفا على مرو إياس بن عبد الله بن عمرو حتى بلغ الطالقان فأتاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم وساروا معه . ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب ودعاه الى بلاده وسلمه إياها . ثم سار بعد ذلك الى آخرون وشومان ـ وهما من طخارستان ـ فصالحه ملكهما على فدية أداها اليه فقبلها قتيبة . ثم انصرف الى مرو وعهد بأمر القتال الى أخيه صالح بن مسلم .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ .
(٣) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٨٧ .
(٤) من أجل هذه الاحداث انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٠٢ ـ ٥٠٥ .
(٥) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٠٥ .
(٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٢٤ .

وقام صالح ببعض الاعمال الحربيه نيابة عن أخيه . وقدم اليه بعد ذلك فاستعمله أخوه على الترمذ[١] . وفي سنة ٨٧ هـ جدد قتيبة حملاته العسكرية ، فغزا بيكند . ومن أجل ذلك سار من مرو ، وأتى مرو الرُوذ وآمُل وسار الى بيكند (وهي أدنى مدائن بخارى الى النهر) . واستطاع قتيبة أن يفتح هذه المدينة بعد قتال شديد وحصار دام قرابة الشهرين[٢] . ولما دانت له بيكند ، أصاب فيها على ما يذكر الطبري « من آنية الذهب والفضة مالا يحصى .... وأصابوا في بيكند شيئا كثيرا ، وصار في أيدي المسلمين من بيكند شيء لم يصيبوا مثله بخراسان . »[٣] . كما أصاب شيئا كثيرا من السلاح والعتاد وزعه على جنده وسار بهم عائدا الى مرو .

وفي السنة الثالثة (٨٨هـ) غزا قتيبة نومُشكَث وراميثَنة واستخلف على مرو أخاه بشار بن مسلم فصالحه أهلهما ، وانصرف عنهم فزحف اليه الترك ومعهم السغد وأهل فرغانة ، وجرى بينه وبينهم قتال شديد كان له فيه النصر[٤] .

وأثناء عودته من فتح راميثنة لقيه السغد واهل كش ونَسَف فقاتلوه فظفر بهم . ومضى الى بخارى لقتال ملكها وذلك سنة ٨٩ هـ ، فلم يظفر منه بشيء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فطلب إليه الحجاج أن يصورها له ، فبعث إليه بصورتها ، فكتب إليه الحجاج بخطة لفتحها[٥] ، ويبدو أن فتح بخارى كان سنة ٩٠ هـ[٦] .

---

(١) من أجل هذه الأحداث ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥ ، وابن الاثير ، ج٤ ، ص ٥٢٣ ـ ٥٢٤ .

(٢) من أجل أخبار فتح بيكند ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٠ وما بعدها ، وابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٢٨ وما بعدها .

(٣) الطبري ، ج ، ٦ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٤) من أجل هذه المعارك انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٦ وما بعدها ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٣ ، وفتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٩١ .

(٥) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٦ ، ٥٤٢ ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ .

وفي العام ٩٠ هـ أيضاً جدد قتيبة الصلح مع ملك السغد[١] ، كما أوقع بأهل الطالقان بخراسان فقتل منهم خلقاً كثيراً[٢] . ووجه حملات نحو سمرقند بقصد فتحها،وضربها بالمجانيق وأحدث ثلمة في سورها فهرب معظم أهلها ، فدخلها وأحرق أصنامها وبنى فيها مسجداً ، وذلك سنة ٩٣ هـ [٣] .

وجرت بين قتيبة ونيزك صاحب القلعة المشهورة بباذغيس معارك كثيرة ، كانت قد بدأت بينه وبين العرب منذ زمن يزيد بن المهلب[٤] . واستطاع قتيبة أن يجبره على الصلح ، ولكنه عاد ودبر فتنة ضد العرب في طخارستان فحرض ملوك وحكام بلخ والطالقان . واستطاع قتيبة أن يقتله سنة ٩١ هـ[٥] .

وامتدت فتوحات قتيبة إلى دلتا نهر جيحون عند خوارزم وصالحه ملكها وذلك سنة ٩٣ هـ ، والممالك الواقعة قرب نهر سيحون المتاخمة لبلاد الترك فغزا الشاش وفرغانة سنة ٩٥ هـ وساعده في معاركه هذه أناس من أهل الصغد وخوارزم ، كما أرسل جيشاً الى كاشغر التي كانت من أملاك الصين وذلك سنة ٩٦ هـ ، فأرسل إليه ملكها الهدايا وطلب منه أن يبعث إليه بوفد من رجاله[٦] . ولم يستطع قتيبة أن يسير أكثر من ذلك بفتوحاته لأن الموت عاجل الخليفة الوليد وكان عليه أن يتوقف ليعرف ما ستكون عليه الحال زمن الخليفة الجديد .

وهكذا فقد كانت المنجزات العسكرية التي تحققت على يد قتيبة كافية لوضعه في مصاف كبار قادة الفتح العربي ، كخالد بن الوليد والمثنى بن

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٥ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٧ .

(٣) انظر تفاصيل أكثر ، في الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٧٢ وما بعدها .

(٤) انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٤٩٨ وما بعدها .

(٥) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ وما بعدها .

(٦) من اجل هذه الاحداث ، انظر أحداث السنوات : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ في الجزء ٦ من تاريخ الطبري ، و ج ٤ من ابن الأثير .

حارثة وأبي عبيدة وغيرهم . ولعل أبسط ما يمكن أن يساق للدلالة على صحة هذا الادعاء هو أن الفتوح في هذه المنطقة لم تمتد بعد قتيبة لأبعد من المدى الذي وصلت إليه على يديه . وهناك عامل آخر ساعد قتيبة على إنجازاته العسكرية الرائعة هذه ، ألا وهو ادراك حكام وأمراء المدن والمقاطعات الكثيرة التي شملتها عمليات الفتح بعد عبور العرب نهر جيحون أن تحطم قوة الساسانيين الذين كانوا السد الرئيسي في وجه الموجةالعربيه العارمة ، لن تنفع بعده مقاومة ، ولن يقف أمام هذا المد المتصاعد شيء لأن تحطم القوة العظمى (القوة الساسانية) خلف فراغاً وصفاً متفرقاً ومقاومة لا تجمعها جبهة موحدة أو قوة عسكرية كبيرة تجمع شتات أعداء العرب جميعاً في هذه المنطقة في وحدة قادرة على التصدي للفاتحين . فأسرع هؤلاء الحكام إلى الاذعان وطلب الصلح مفضلين ذلك على المجازفة في الاستمرار بقتال غير مضمون النتائج . هذا فضلا عن الخلافات الكثيرة التي كانت قائمة بين هؤلاء الحكام وتنافر مصالحهم وتآمرهم على بعضهم ، الأمر الذي سهّل مهمة قتيبة وحقق له نصراً أوسع مدى . وكان قتيبة ببصيرة القائد المحنك يربط هؤلاء الحكام بمعاهدات صلح تنص على الاقرار بالخضوع ودفع ما يتفق عليه من جزية وخراج ، ويستبقيهم في إماراتهم فيرضي بذلك غرورهم ويحول دون تجدد ثوراتهم عليه ليستعيدوا سلطانهم الذي سلبهم إياه .

ب ـ فتح بلاد السند :

لا يسهب المؤرخون في الحديث عن الفتوح في منطقة السند [1] قبل خلافة الوليد بن عبد الملك . وفيما عدا البلاذري [2] الذي يتحدث عن حملة قام بها المغيرة بن أبي العاص إلى خورالديبل في خلافة عمر بن الخطاب ، لا نجد معلومات واسعة عن هذا الأمر عند المؤرخين الآخرين

---

(١) السند : هي المنطقة الواقعة شرقي ايران على ساحل بحر الهند . وهي دلتا نهر السند (الاندوس) التي تشكل مدخل القارة الهندية .

(٢) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٠٧ .

الذين يبحثون أمور الفتح . ويذكر البلاذري أن عثمان بن عفان كتب إلى واليه على العراق عبد الله بن عامر بن كريز يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند شخصاً يستطلع له أحوالها . وعاد رسول ابن كريز إلى عثمان وأخبره بما رأى فعزف عثمان عن غزوها[1] . وفي أواخر عام ٣٨ هـ وأول عام ٣٩ هـ ، وذلك في خلافة علي بن أبي طالب قام الحارث بن مرة العبدي بغزو ثغر الهند فغنم بعض الغنائم ثم قتل بأرض القيقان[2] سنة ٤٢ هـ [3] .

وفي أيام معاوية (سنة ٤٤ هـ) قام المهلب بن أبي صفرة ببعض العمليات العسكرية في المنطقة الواقعة بين الملتان وكابل . وولى معاوية بعد ذلك عبد الله ابن سَوَّار العبدي ثغر الهند فغزا القيقان وأصاب بعض الغنائم وأهدى معاوية بعضاً منها ثم ما لبث أن قتل[4] . وفي أثناء ولاية زياد بن أبيه على العراق تم فتح مكران ، كما قام عدد من القادة بأمر من زياد بعمليات عسكرية في عدة مناطق من السند[5] . واستمرت العمليات العسكرية فيما يسميه العرب بثغر الهند زمن عبيد الله بن زياد حتى كانت ولاية الحجاج على العراق . ففي زمن الحجاج تولى مكران وثغر الهند عدد من الرجال وقاموا ببعض الغزوات دون أن يحققوا نتائج كبيرة[6] . لذا وفي مطلع خلافة الوليد بن عبد الملك ولى الحجاج محمد بن القاسم الثقفي على السند ، وكان قبلها بفارس وأمره أن يسير إلى الري وأن يقيم في شيراز بانتظار قدوم الامدادات إليه[7] . وفعلاً أرسل إليه ستة آلاف مقاتل من جند أهل الشام وجهزه بكل ما يحتاج إليه حتى المسالّ والابر والخيوط[8] . وكان مسير محمد ابن القاسم سنة ٨٩ هـ وكانت أولى معاركه الهامة المعركة التي انتهت بفتح

---

(١) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٠٧ .
(٢) القيقان من بلاد السند مما يلي خراسان . انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ص ٦٠٨ .
(٣) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٠٧ – ٦٠٨ .
(٤) من أجل هذه الاحداث انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٠٨ .
(٥) انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٠٨ – ٦١١ .
(٦) انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١١ – ٦١٢ .
(٧) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٢ .
(٨) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٧ .

الديبل (كراتشي اليوم) وهو المرفأ الذي تنتهي عنده دلتا نهر السند • فبعد أن نزل الديبل وافته السفن التي كانت تحمل الرجال السلاح وأدوات الحصار • وقد استعمل في حصاره لهذه المدينة المنجنيق ، وبعد حصار طويل ورمي كثيف بالمنجنيق استطاع أن يفتح هذه المدينة وأن يعمل القتل فيها مدة ثلاثة أيام هرب أثناءها عامل داهر أو (ذاهر) • وقد حطم محمد بن القاسم العديد من أصنام أهل هذه المدينة كما خرب بعض معابدها وقتل سدنتها واستبقى فيها حاميةقوامها أربعة آلاف مقاتل وبنى فيها مسجدا • وكان الحجاج أثناء عمليات محمد ضد الديبل على صلة دائمة به يرسل إليه بتوجيهاته وتعليماته كل ثلاثة أيام[1] • وفتح الديبل عند البلاذري مرتبط بسبب ساذج هو أن نسوة بعض التجار المسلمين تعرضوا لاعتداء قام به قراصنة من الديبل وسبوا هؤلاء النسوة ، فنادت امرأة منهن ، وكانت من بني يربوع : ياحجاج • وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : يا لبيك • وأرسل إلى ذاهر ملك الديبل يسأله تخلية النسوة • فاعتذر ذاهر بأن لصوصاً أخذوهن ولا يقدر على استردادهن منهم[2] • وعندنا أن هذه القصة التي يطبعها طابع الاسطورة وعدم الوضوح لاتكون سبباً كافياً لتبرير عملية الفتح وأغلب الظن أن فتح السند هو جزء من خطة الدولة زمن الوليد بن عبد الملك في مد رقعة الفتوح وإخضاع هذه الأقوام إلى سلطان الدولة تحقيقاً لنشر الاسلام على أوسع مدى من جهة ، ولتأمين حدود الدولة الشرقية من هجمات محتملة قد تقوم بها الأقوام القاطنة هناك من جهة أخرى • هذا فضلاً عن تأمين موارد إضافية حققتها معاهدات الصلح التي عقد تمعهم • وبعد فتح الديبل سار محمد باتجاه شمال السند وفتح بعض المدن صلحاً وبعضها عنوة[3] • ولما بلغ ذاهر مسير محمد إليه استعد للقائه وجمع جيشاً كبيراً وزوده بالفيلة ليرهب خيل العرب ، وهو في كل ذلك يظن أنه سيقهر

---

(١) من أجل فتح الديبل ، انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٢ ـ ٦١٤ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ •

(٢) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١١ ـ ٦١٢ •

(٣) انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٧ ـ ٥٣٨ ، وفتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٤ـ٦١٥ •

العرب بيسر وسهولة . وعبر محمد وجيشه نهر مهران[1] على جسر نصب له ، وجرى بينه وبين ذاهر قتال شديد لاقى فيه ذاهر حتفه بعد أن قتل خلق كثير من أصحابه .

بعد قتل ذاهر ، غدا محمد سيد بلاد السند ودخل عاصمتها راور عنوة ، وكانت بها امرأة لذاهر خافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها وجميع مالها[2] . ثم قطع محمد نهر بياس الذي يؤدي إلى مُلتان المدينة المقدسة الغنية ، وقد قاتله أهلها فحاصرهم وقطع عنهم الماء فعطشوا وقبلوا النزول على حكمه فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة بيوت العبادة الوثنية ، وأصاب ذهباً كثيراً ، وجمعت تلك الأموال في بيت ، على ما يزعم المؤرخون[3] ، طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع وكان المال يلقى إليه من كوة في وسطه . وقد بلغ من غنى الملتان أن سماها العرب « بيت الذهب » ويبدو أن سبب غناها هو الصنم الكبير الذي كان فيها والذي كان الناس يحجون إليه ويقدمون إليه الهدايا والنفائس[4] . ويذكر البلاذري ، أن الحجاج نظر في العمليات العسكرية التي قام بها محمد بن القاسم وما تكلفت الدولة في سبيلها من مال ، « فاذا هو (أي الحجاج) قد انفق على محمد بن القاسم ستين الف الف ، ووجد ما حمل إليه عشرين ومائة الف الف ، فقال : شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين الف الف درهم ، ورأس ذاهر »[5] . وتوغل محمد في فتوحه بعد ذلك حتى وصل كشمير .

ولما مات الحجاج ، وبلغت أخبار موته محمداً خف حماسه واقتصر نشاطه العسكري على بعض العمليات التأديبية الصغيرة ضد الذين كانوا يثورون عليه[6] . ولن يكتب للوليد ان يعيش بعد ذلك طويلا ؛ وسيكون

---

(1) نهر مهران هو نفس نهر السند .
(2) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٦ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٨ .
(3) انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٧ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .
(4) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٧ - ٦١٨ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .
(5) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٨ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣٩ .
(6) انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٨ .

موت الوليد النهاية الفاجعة لحياة هذا القائد البطل الذي نكبه الخليفة سليمان ابن عبد الملك كما سنرى ، فوضعت بذلك أسوأ خاتمة لحياة انسان قدم خدمات رائعة لعروبته واسلامه . ولن يكتب لقائد بعده أن يصل الى المدى الذي وصل اليه محمد بن القاسم في توغله في بلاد الهند حتى كانت أيام الغزنويين [1] .

جـ ـ فتح الأندلس : كنا قد ذكرنا في حديثنا عن «المنجزات العسكرية زمن معاوية» أن عقبة بن نافع سيتابع نشاطه العسكري في شمال أفريقية في خلافة يزيد بن معاوية [2] . وفعلا حين عزل يزيد أبا المهاجر الانصاري عن ولاية أفريقية أعاد عقبة بن نافع الى منصب الولاية قام عقبة بعدة عمليات فتح جديدة حتى وصل الى ساحل المحيط . وتقول الرواية العربية أن عقبة لما انتهى الى المحيط دفع فرسه الى الماء حتى بلغ نحره ، ثم قال : « اللهم إني اشهدك أن لا مجاز ، ولو وجدت مجازاً لجزت . » [3] وكانت نهاية عقبة أثناء محاولته القضاء على ثورة البربر التي كان يقودها الزعيم البربري كسيلة ابن لزم [4] .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان تولى أفريقية عدة ولاة من بينهم زهير ابن قيس البلوي الذي سقط قتيلا في معركة جرت بينه وبين الروم الذين استغلوا مقتل قتيبة وثورة البربر ليستعيدوا سلطانهم على المغرب . وقد كان مقتل زهير من أشد الخطوب التي نزلت بدولة العرب في أفريقية ، وقد جاء هذا الخطب في فترة كانت فيها رياح الفتنة تعصف بالدولة، فثورة ابن الزبير في أوجها وعبد الملك مشغول بحربه وحرب غيره من خصومه . وما كان خليفة دمشق ينتهي من هذه الفتن الداخلية حتى وجه همه ثانية للعناية

---

(١) Panikar, K. M. - A Survey of Indian History, Asia Publishing House, Bombay, 1963, p. 117.

(٢) انظر قبله ، ص ٩٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها (طبعة سلسلة ذكرى جب) ، ص ١٩٩ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٠٦ ، حيث نقرأ على لسان عقبة جملة مماثلة في المعنى .

(٤) انظر ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٠٧ وما بعدها .

بافريقية ، لذا نراه يعين سنة ٧٣ هـ أو ٧٤ هـ[١] حسان بن النعمان الغساني والياً عليها ، ويسيره بجيش ضخم ، كان من أعظم الجيوش التي أرسلتها الدولة الى أفريقية ، بقصد استرجاع ما فقد من أرض وتوطيد النفوذ العربي فيها والسير بعملية الفتح قدماً • وقد حققت ولاية حسان انتصارات عربية ضخمة كان أهمها استيلاؤه على قرطاجنة عاصمة افريقية الرومانية بعد معارك عدة بينه وبين الروم اشتركت فيها من قبلهم جيوش برية وأساطيل بحرية [٢] • ثم سار حسان غرباً وهزم الروم والبربر في عدة مواقع وأعاد للاسلام سلطانه في المنطقة الواقعة بين برقة والمحيط ، وعاد بعد هذه العمليات الى القيروان ليعيد تنظيم جيشه وتموينه [٣] • وفي زمن حسان عاود البربر الثورة بعد مقتل زعيمهم كسيلة بقيادة امرأة من قبيلة جراوة تعرف بالكاهنة، وكانت تتخذ جبال أوراس معقلا لها • وجرت بين حسان والكاهنة معارك عدة هزم في بعضها ، ولكنه في العام ٧٩ هـ استطاع بعد أن أمده عبد الملك بالجند أن يزحف على معاقل الكاهنة وأن يلحق بها الهزيمة تلوا الهزيمة ، فلم تر بداً من استعمال سياسة الارض المحروقة فكانت تهدم المدن والحصون وتحرق القرى والضياع الواقعة في طريق المسلمين، ولكن حساناً تابع سيره حتى أقصى المغرب ، فسئم البربر هذه الحرب والويلات التي جرتها عليهم، وأخذت وفودهم تتقاطر على حسان طالبة الخضوع والاستسلام • وهكذا تفرقت جموعهم عنها ، فتمكن حسان من قتلها ، وولى على جبال اوراس ابنها بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق بالطاعة [٤]•

ولبث حسان على ولاية أفريقية حتى وفاة عبد الملك واعتلاء الوليد عرش الخلافة في دمشق •وقد ولى الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك على

---

(١) كانت تولية حسان سنة ٧٣ هـ ، على ما يذكر ابن عبد الحكم (ص ٢٠٠) ، و ٧٤ هـ على ما يذكر ابن الاثير (ج ٤ ، ص ٣٦٩) •

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٦٩ •

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧٠ •

(٤) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧١ ــ ٣٧٢ •

مصر ، فعزل عبد الله حساناً عن ولاية أفريقية وولاها موسى بن نصير[1] ، لان ولاية أفريقية كانت تتبع والي مصر •

وكانت ولاية موسى على أفريقية سنة ٨٩هـ على ما يذكر ابن الاثير[2]• وكان لموسى خبرة سابقة في أفريقية ، إذ أنه أوفد سنة ٨٤ هـ من قبل والي مصر عبد العزيز بن مروان الى برقة فافتتح مدينة درنة وسبى بعض أهلها[3] • ولما وصل موسى الى أفريقية وجدها تضطرم بنيران الثورة البربرية ، فقام لتوه ببعض التدابير الداخلية ، وسار بنفسه لغزو القبائل الثائرة في مناطق الجبال التي تشرف على المحيط في المغرب الاقصى،واستطاع سحق مقاومة هذه القبائل ، واخضع قبائل زناته وكتامة وصنهاجة وغيرها • ثم أرسل مولاه طارق بن زياد لفتح طنجة ، وكان العرب لم يغزوها من قبل ، فافتتحها طارق وتولاها باسم موسى ، وعاد موسى الى القيروان[4] • وقد بذل موسى جهوداً كبيرة في نشر الاسلام بين البربر ، وكان يترك معهم من يعلمهم القرآن وشرائع الدين • وقد ادى ذلك الى اعتناق الكثير من البربر للاسلام ، واشتراكهم في الجهاد مع الجيوش الاسلامية •

وبعد أن تم للعرب فتح طنجة لم يبق أمامهم سوى ثغر سبتة الواقع في نهاية البحر المتوسط شرقي طنجة ، وكانت سبتة تتبع ملوك اسبانيا ويحكمها أمير يدعى الكونت يوليان[5] • ولها موقع طبيعي منيع وقف حائلا

---

(١) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧٢ • وقيل وهو الاصدق على اغلب الظن ، أن الذي ولى عبد الله بن عبد الملك على مصر هو أبوه عبد الملك بن مروان وذلك بعد وفاةأخيهعبد العزيز الذي كان يلي مصر ، وكانت توليته في أواخر سنة ٨٥ هـ • انظر من أجل ذلك ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٣

(٢) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٧٢ • وهناك روايات أخرى حول تاريخ ولاية موسى علىأفريقية، انظر من أجل ذلك ، عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الاول ، ص ٢١ •

(٣) فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ •

(٤) فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ •

(٥) يعتقد الدكتور أحمد بدر في كتابه « دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها » ، ج ١ ، ١٩٦٩ ، ص ١٠ ، انه يوليان كان حاكماً بيزنطياً لسبتة لان سبتة كانت تشكل جزءاً من ولاية طنجة البيزنطية •

دون العرب وتحقيق أمانيهم في فتحها • ولسنا نعرف الكثير عن يوليان أو (خوليان) هذا ، وهناك أكثر من رأي حول أصله وصفته والدولة التي كانت تتبعها سبتة • وأغلب الظن أن يوليان كان حاكماً بيزنطياً لسبتة «لان هذه المدينة كانت تشكل جزءاً هاماً من ولاية طنجة البيزنطية ولم يرد في رواية ما انتقال هذه المدينة الى سلطة أحد غير أسيادها القدماء • ويرجح أيضاً أنه بالنظر لوضع بلده الجغرافي وللاوضاع العامة للسلطة البيزنطية التي ضعفت في الشمال الافريقي لجأ لاقامة علاقات اقتصادية وعلاقات حسن جوار مع القوط حكام اسبانيا ومتن صلاته بالاسرة الحاكمة ، وبقي صديقاً وفياً لها بعد أن أطاح بها لذريق • »[1] ولن ندخل في تفاصيل الوضع في شبه الجزيرة الايبرية في هذه الفترة وقضية الصراع على السلطة بين وتيزا (الذي يسميه ، العرب غيطشة) ورودريك (الذي يسميه العرب لذريق) وانتصار رودريك على خصمه وتيزا وتسلمه العرش قبل أو في سنة ٧١١م • والمهم أن نذكر أن أولاد غيطشة ، بعد مقتل ابيهم في صراعه مع رودريك، وتسلم هذا الاخير العرش ، التجأوا الى سبته وأقاموا فيها وذلك لقربها من بلادهم واستقلالها من ناحية أخرى •

ويبدو أن خصوم رودريك عامة ، لا أولاد غيطشة فحسب ، اتجهوا بأبصارهم الى يوليان وأملوا أن يكون له دور في مساعدتهم على التخلص من حكم رودريك • وتقدم لنا المصادر العربية رواية ذات طابع اسطوري لتبرير خلاف يوليان مع رودريك ورغبته في التخلص منه • وخلاصة هذه الرواية أنه كان ليوليان ابنة جميلة كانت تعيش كوصيفة في قصر الملك القوطي ، فلما آل العرش الى لذريق وأقام في القصر راقه جمالها فاعتدى على عفافها • وعلم يوليان بفعلة لذريق فقدم الى القصر القوطي وعاد بابنته الى سبتة واقسم

---

(١) بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ج ١ ، ص ١٠ •ومن أجل الخصومةوالصراع بين لذريق وغيطشة . انظر ، عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الاول ، ص ٣٠ - ٣١ •

على الانتقام .[1] وقد انتقلت هذه الرواية العربية الى الغرب وقبلها البعض ورفضها آخرون[2] . وأياً كان الصحيح في أمرها ، ومهما كان السبب في غضب يوليان ونقمته على رودريك فقد كان لتدخله أثر كبير في تسهيل مهمة الفاتحين العرب في عملياتهم العسكرية ضد شبه الجزيرة الايبرية والقضاء على مملكة القوط واقامة حكم عربي في الأندلس .

وهكذا وفي الوقت الذي كانت فيه المملكة القوطية في اسبانيا تمر بهذه الأزمات كان العرب قد اتموا فتح المغرب الأقصى واستولوا على طنجة كما ذكرنا آنفا ، واشرفوا بالتالي على الشاطىء الاسباني ولم يبق لهم لاتمام فتح افريقية سوى ثغر سبته الذي يقع مقابل طنجة في الطرف الآخر من اللسان المغربي . وبينما كان موسى يتحرق لاتمام هذا الفتح حدثت مفاجـأة غيرت مجرى الأحداث ، إذ وصلت رسالة الى طارق من يوليان يعرض عليه فيهـا استسلام سبته للعرب ويدعوهم الى فتح اسبانيا[3] . وقد حول طارق هذه الرسالة الى موسى . فكتب موسى الى الخليفـة الوليد يعرض عليـه الأمـر ويستشيره في الأمر ، فوافق الخليفة على القيام بالفتح ، على أن تسبقه عملية استطلاعية يقوم بها العرب انفسهم لاختبار مدى صدق يوليان وتبين حقيقة دعواه[4] . ومن أجل تلك الغاية أنفذ موسى حملة بقيادة طريف بن مالك عام ٩٠ هـ قوامها ٤٠٠ رجل ومعهم مائة فرس ، فسار في أربع سفن ونزل بجزيرة قريبة من الميناء تعرف باسم طريف.ثم أغار على الجزيرة الخضراء وأصاب غنائم كثيرة وعاد الى موسى ليخبره بما تم معه[5] . حينذاك لم يبق لدى موسى أي شك في امكانية نجاح الفتح فعهد الى مولاه طارق بن زياد

---

(١) من أجل هذه الرواية ، انظر : ابن عبد الحكم،أخبار مصر وفتوحها ، والمقري،نفح الطيب . وابن الاثير وابن خلدون وغيرهم .

(٢) انظر من أجل هذه القضية : عبد الله عنان ، ص ٣٣ ـ ٣٥ .

(٣) من أجل هذه الرسالة والمفاوضات التي جرت بين موسى ويوليان . انظر ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٦١ . وعبد الله عنان ، ص ٣٧ .

(٤) انظر ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٦١ .

(٥) انظر ، ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٥٦١ .

باتمام هذه المهمة • ويعلق عبد الله عنان على موقف يوليان هذا ودعوته العرب لعبور المضيق بقوله : « والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بدعوة موسى أن يمتلك العرب اسبانيا وأن يحكموها ، بل كان مشروعهم أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب واسقاطه واستخلاص الملك لانفسهم• وكان اعتقادهم أن العرب متى امتلأت ايديهم بالأسلاب والغنائم قفلوا الى افريقية • وهو فرض معقول ... » [١] •

كان الجيش الذي أعده موسى وعهد بقيادته الى طارق يبلغ سبعة آلاف مقاتل وقد عبر طارق المضيق في رجب أو شعبان من سنة ٩٢ هـ في سفن قليلة [٢] أعاره إياها الكونت يوليان ونزل بالبقعة التي ما زالت تحمل اسمه حتى اليوم (جبل طارق)، وانتظر هناك حتى تتمكن السفن القليلة الموضوعة تحت تصرفه من نقل جميع جنده ، ولما علم لذريق الذي كان في الشمال يحارب بعض العصابات المعادية له بنزول العرب على أرضه، تخلى عن أعماله ضد أعدائه الداخليين واتجه نحو الجنوب ، وجمع في قرطبة جيشا عدده ، على ما تزعم بعض المصادر العربية [٣] ، مئة الف مقاتل واتجه به لمحاربة المسلمين • وهذا الرقم مبالغ فيه ، ويبدو الرقم الذي يقدمه لنا ابن خلدون لجيش لذريق (رودريك) وهو اربعين ألف جندي،أقرب الى التصديق[٤]• ولما عرف طارق بضخامة جيش عدوه أرسل الى موسى يطلب منه النجدة فأمده بخمسة آلاف جندي ، كما انضم اليه بعض من أعداء رودريك من الاسبان • وجرت بين الطرفين معركة قرب بحيرة خاندا [٥] على ضفاف نهر وادي لكه (أو بكة) الذي يصب في خليج قادس على مقربة من جبل طارق • وقد بدأت المعركة لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢ هـ واتصلت

---

(١) عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الأول ، ص ٣٧ •

(٢) يحدد الدكتور احمد بدر عدد هذه السفن باربع سفن • انظر ، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها ، ص ١٢ •

(٣) انظر مثلا ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٦٢ •

(٤) ابن خلدون ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٧ •

(٥) بحيرة خاندا عبارة عن بحيرة تمتد عدة كيلو مترات بموازاة البحر وتصب مياهها فيه بواسطة نهر برباط • انظر ، بدر ، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها ، ص ١٣ •

الحرب ثمانية أيام[1] • وكانت نتيجتها نصرا عظيما للمسلمين • ويبدو أن الجند البربر الذين كانوا في جيش طارق قد لعبوا دورا هاما في تحقيق هذا النصر • كما أن الانشقاق في الصف الاسباني والصراع بين رودريك وأبناء وتيزا ، لعبا دورا هاما في ترجيح كفة العرب وتحقق النصر لهم اذ أن قسما من جيش رودريك انشق عنه وانحاز الى جيش طارق وقاتل بجانبه[2] • وكان أهم نتائج هذه المعركة أن فتحت أبواب شبه الجزيرة الايبرية أمام المسلمين ، وتحطمت النواة الأساسية لقوة الجيش القوطي • وتتضارب الروايات حول مصير رودريك : فبينها من يدعي أنه قتل في ميدان المعركة، وبعضها يذهب الى القول بأنه فر عقب الهزيمة على جواده ولكنه غرق في النهر ، وأخرى تقول إنه فر الى أحد الأديرة وترهب •

وبعد موقعة وادي لكة التي غلب فيها الجيش القوطي ونشرت الرعب والفوضى بين القوط عموما ، وجد طارق أن لا بد له من متابعة السير لاستئصال شأفة القوى القوطية المعادية فسار شمالا حيث كانت فلول الجيش القوطي قد تجمعت عند مدينة استجة فيمحاولة للتصدي مرة أخرى للجيش الفاتح • وكانت مقلومة القوط للمسلمين في موقعة استجة شديدة جدا حتى أن المؤرخين المسلمين يذكرون أنه « كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ولم يلقوا بعد ذلك حربا مثلها • »[3] • وعلى الرغم من هذه المقاومة القوطية الشديدة استطاع العرب من تحقيق نصر كبير ثان على خصومهم ، ووضح للقوط أن لا قبل لهم بالوقوف في وجه هذا الجيش الذي قدم للفتح لا للغنيمة فحسب ، لذا تركوا المناطق السهلية وتخلوا عن تكتيك المجابهة المباشرة واعتصموا بالجبال والقلاع الحصينة • وهنا جاءت النصيحة من يوليان الذي كان الى جانب المسلمين ، فقد أشار على طارق بأن يتوجه رأسا الى العاصمة طليطلة حتى لا يفسح للقوط المجال للنظر في أمرهم وايقاع

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٦٢ ــ ٥٦٣ •

(٢) انظر تفاصيل أوفى حول هذا الموضوع عند : بدر ، ص ١٤ ، و عنان ، ص ٤١ ــ ٤٢ •

(٣) المقري ، نفح الطيب في غضن الأندلس الرطيب ، ط • محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ١ ، ص ٢٤٤ •

ضربة قاصمة بعاصمتهم قبل أن يشغلوه عن الوصول اليها • وعمل طارق بنصيحة يوليان فسار هو الى طليطلة ، وأرسل مغيث الرومي مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك الى قرطبة على رأس سبعمائة فارس استطاعوا فتحها بعد حصار دام ثلاثة اشهر[1] • كما أرسل حملات أخرى الى غرناطة والبيرة ومالقة ، واستطاعت هذه الحملات أن تحقق النصر وأن تفتح هذه المدن ، أما طارق فقد سار ببقية الجيش الى طليطلة ومعه يوليان وصحبه يرشدونه ويقدمون له النصح • وفوجيء قوط طليطلة باقتراب طارق من مدينتهم ، فهرب نبلاؤهم وكبار رجالاتهم منها ، ولم تبد العاصمة القوطية مقاومة شديدة للمسلمين ودخلوها وهي شبه خالية ، فغنموا منها كنوزا كبيرة كانت موزعة في قصورها وكنائسها • وبعد فتح طليطلة ، سار طارق شمالا فاخترق قشتاله وطارد فلول القوط ، وعبر جبال اشتوريش (أستورية) واستمر في سيره حتى أشرف على خليج غسقونية ، فرده المحيط عن التقدم وعاد الى طليطلة حيث جاءته أوامر موسى بن نصير بوقف الفتح • وكان ذلك بعد عام واحد من بدء العمليات الحربية في الأندلس •

وهناك أكثر من تعليل عند المؤرخين العرب ، لأمر موسى لطارق بوقف الفتح • فمن قائل أن ما دفع موسى لاصدار هذا الأمر هو حسده وغيرته من طارق وخشيته أن ينسب ذلك الانجاز الرائع لطارق دونه[2] ، أو لأن طارقا خالف أوامر موسى بألا يجاوز قرطبة أو المكان الأول الذي يوقع فيه الهزيمة بالقوط[3] ، وغير ذلك من الآراء التي يوردها المؤرخون • ونحن نتفق مع الدكتور احمد بدر في قوله : « لكننا إذا حاولنا معرفة الأسباب على ضوء الظروف التي كانت تحيط بالفتح الاسلامي آنذاك ، لتبين لنا أن مجيء موسى الى الأندلس كانت تقتضيه طبيعة هذه الظروف ، ليس

(١) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٧ •

(٢) انظر مثلا ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ص ٢٠٧ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٦٤ وغيرهما •

(٣) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، ج ٢ ، ط • ليدن ، ص ١٥ ، ١٨ •

إلا ، فمن المعلوم أن طارقا اخترق الاندلس من أقصى الجنوب الى ما فوق الوسط اختراق السهم ، وبقيت جميع البلاد من الجانبين غير خاضعة له تتجمع فيها حاميات قوطية ، وهذا الأمر يجعل خط الفتح الاسلامي عرضة للانقطاع . لذا تجب الثقة بالروايات القائلة بأن موسى أتى الى الأندلس باستدعاء طارق له ولمصلحة الفتح على قلتها ، ورفض الروايات الأخرى رغم كثرتها . » [1] .

وأياً كان فقد عبر موسى الى اسبانيا في جيش قوامه عشرة آلاف عربي وثمانية آلاف من البربر وذلك في رمضان من عام ٩٣ هـ [2] ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان . وبدأ موسى عملياته العسكرية بالتوجه نحو شذونة فاستولى عليها ، ثم سار الى قرمونة واستولى عليها أيضا، وبعد ذلك ألقى الحصار على اشبيلية لمدة شهر فاستسلمت له . وتابع سيره شمالا فحاصر ماردة وخاض معارك عدة مع حاميتها فقد خلالها عددا من جنده ، ثم ما لبثت المدينة أن استسلمت له يوم الفطر من عام ٩٤ هـ . وكتب الى طارق يأمره بموافاته ، فخرج طارق من طليطلة والتقى بسيده في موقع قريب من طليطلة . وهنا تتحدث بعض الروايات عن هذا اللقاء فتذكر أن موسى أنّب طارقا وأهانه وكبله بالأغلال وزجه في السجن بتهمة عصيان أوامره وقيل إنه هم بقتله[3] . ثم ما لبث أن عفا عنه ورده الى منصبه. وهذه الروايات الى جانب ما فيها من مبالغة ظاهرة ومجافاة للمنطق لا تتفق وما جرى بعد ذلك من تفاهم بين موسى وطارق على استكمال الفتح واتفاقهما على الخطة التي سيتبعانها لاخضاع ما تبقى من أرض شبه الجزيرة الايبرية التي لم تدخل في طاعة المسلمين .

وفعلا سار طارق وموسى بعد لقائهما الى طليطلة حيث قضيا فترة الشتاء ، وحيث وطد موسى مظاهر السيادة الاسلامية على عاصمة القوط .

---

(١) بدر ، ص ١٧ ـ ١٨ . والحاشية رقم (١) من الصفحة ١٨ .

(٢) نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ . وانظر أيضا ، ج ٢ ، ص ٢٥٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٨ ، وابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٦٥ .

وبعد ذلك سار طارق وموسى معا باتجاه الشمال الشرقي فاحتلا معا سرقسطة . ومنها سار موسى باتجاه الشمال فاحتل لاردة وانعطف باتجاه البحر فاحتل طركونة . وسار طارق نحو الشرق ليغزو جليقية وليقضي على ما تبقى من فلول القوط في تلك المنطقة الوعرة . وفي هذه الاثناء تلقى موسى أمرا من الخليفة الوليد بن عبدالملك حمله اليه مغيث الرومي بوجوب عودته مع طارق الى دمشق ليقدما للخليفة الحساب عن حملاتهما . ويبدو أن موسى تمهل في تنفيذ أمر الخليفة حتى يستكمل فتح المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة التي كانت مركزا من أهم مراكز المقاومة القوطية . فاخترقها واستولى على معظم معاقلها ولم يبق فيها الا فلول قليلة كان يهم بالقضاء عليها، حين كرر الخليفة طلبه اليه وأمره أن يتعجل العودة . ويبدو أن سبب إلحاح الوليد على قائديه بوجوب سرعة العودة هو ما نمى اليه من أخبار الخلاف الذي وقع بينهما وخوفه أن ينتهي هذا الخلاف بتفرق كلمة المسلمين في هذا القطر البعيد [١] . أو لعله خوفه من أن تقوم في نفس موسى نوازع انفصالية تؤدي الى انسلاخ هذا الجزء الجديد عن جسد الدولة .

وأخيرا ، وبعد أن استكمل استعداداته للعودة ، رافق موسى مولاه طارقا الى دمشق عن طريق شمال افريقية ، وذلك بعد أن عهد بامارة الأندلس الى ابنه عبد العزيز بن موسى وجعل عاصمته اشبيلية عوضا عن طليطلة ، كما ولى ابنه عبد الملك على المغرب ، وابنه الثالث عبد الله على أفريقية . ووصل الى المشرق وبصحبته طارق بن زياد وفي ركبه شيء كثير من التحف والنفائس والأسرى والسبايا ، التي تسهب المصادر العربية في وصفها . وقد اختلفت الروايات العربية في مصير موسى ولقائه بالخليفة ، وأغلب الظن أنه حل بدمشق قبيل وفاة الوليد . وستكون نهايته على يد الخليفة سليمان بن عبد الملك نهاية لا تتناسب مع ما قدم من خدمات جليلة في ميادين الجهاد ، نقلت الاسلام الى قلب القارة الأوربية وأقامت له دولة

---

(١) انظر ، عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الأول ، ص ٥٢ . وانظر أيضا الحاشية رقم (١) من نفس الصفحة .

هناك عاشت ما يزيد على السبعة قرون وقدمت للعالم ثمارا حضارية رائعة .

د ـ الحروب مع الروم : سار البيت المرواني في سياسته تجاه الامبراطورية البيزنطية على نفس النهج الذي كان يسير عليه البيت السفياني . فكما كان هدف معاوية مذ كان واليا السيطرة على القسطنطينية وقام في سبيل ذلك بأعمال عديدة أشرنا اليها في حينها ، نجد عبد الملك بن مروان زعيم الفرع المرواني يمهد الطريق من بعده لأبنائه الذين ستؤول اليهم مقاليد الحكم لحمل لواء الجهاد ضد العاصمة البيزنطية . وقد حمل الوليد بن عبد الملك راية الجهاد ضد الروم بعد أبيه وتابع ما كان قد بدأ زمنه من عمليات عسكرية في آسية الصغرى . وكان هدف هذه العمليات الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة على الطريق الرئيسي المؤدي الى القسطنطينية ، كما كان هدفها دك حصون العدو وإبادتها وإقامة حصون جديدة تكون مرتكزا للعرب في عملياتهم داخل الأرض البيزنطية . وكان أشهر قادة الجبهة الرومية زمن الوليد أخاه مسلمة بن عبد الملك وابنه العباس بن الوليد . وقد أظهر كلاهما مقدرة حربية رائعة ومهارة لا توصف في قيادة الحملات .

واستهل الوليد خطته في الوصول الى القسطنطينية بحصار حصن طوانة الذي كان يعتبر أهم حصن على الطريق الذي تسلكه الجيوش الاسلامية في طريقها من الشام لحصار القسطنطينية . ويذكر الطبري أنه في السنة الأولى لتولي الوليد الخلافة غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم[1] ، ويبدو أن هذه الغزوة ، كانت من الغزوات السنوية العادية ، ولم تؤد الى أية نتيجة هامة . أما في السنة التالية (٨٧ هـ) فيبدو أن غزو مسلمة لأرض الروم كان اكثر جدية ، فقد كان معه نحو من الف مقاتل ، والتقى الروم عند طوانة وقتل منهم بشرا كثيرا ، وتمكن من فتح عدة حصون[2] . وقد أدت عمليات السنوات ٨٦ و ٨٧ هـ الى تحقيق النصر الذي

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٢٦ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٢٩ .

كان يحلم به المسلمون ، وهو فتح طوانة • ففي السنة ٨٨ هـ ، وبعد معارك السالفتين تحقق للمسلمين فتح هذا الحصن وشتوا به ، وكان على الجيش مسلمة بن عبدالملك ومعه العباس بن الوليد بن عبد الملك • ولم يكن فتح طوانة من المنجزات السهلة ، فبعد العمليات العسكرية التي قادها مسلمة في السنتين السالفتين شعر البيزنطيون بتصميم العرب على الاستيلاء على هذا الحصن ، لذا سيروا إليه قائدين من أشهر قوادهم ومعهما عدد من الجنود النظاميين وقوات غير نظامية • واستطاع المسلمون بعد كر وفر وثبوت في ميدان المعركة لم تزحزحه الهجمات البيزنطية المعاكسة ، ان يستولوا على هذا الحصن ، وأن يدخلوه ، بعد أن كبدوا البيزنطيين خسائر فادحة • وكان في جيش مسلمة الف وخمسمائة من أهل المدينة [1] •

وتوغل المسلمون بعد هذا في مدن آسية الصغرى ، فقام مسلمة والعباس سنة ٨٩ هـ بغزو حصن سورية وفتحه ، كما غزا مسلمة عمورية وقضى على جمع للروم فيها ، وافتتح هرقلة وغيرها [2] • ويذكر البلاذري أمرا طريفا يتعلق بالمصاعب التي كانت تعترض الجيوش الاسلامية الغازية لأرض الروم زمن الوليد ، وهو أن الطريق بين انطاكية والمصيصة كانت تكثر فيها السباع التي تعترض سبيل الناس ، فلما شكي ذلك الى الوليد وجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس فخفف أذى السباع وقلت مخاطر الطريق [3] • وفي سنة ٨٩ هـ أيضا ، تجدد خطر الجراجمة ، فوجه الوليد ابن عبد الملك أخاه مسلمة لغزو عاصمتهم الجرجومة • واستطاع مسلمة أن يفتح هذه المدينة وفرق أهلها واسكنهم مدنا مختلفة في بلاد الشام وشرط لهم وعليهم ، فانضم بعضهم الى الجيش الاسلامي وشاركوا في غزواته • وقام مسلمة بتخريب مدينتهم بعد هذا ضمانا لعدم قيامهم بنشاط جديد دون أن يكرههم على ترك النصرانية [4] •

---

(١) من أجل فتح حصن طوانة زمن الوليد ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ ، ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٣١ ، والعدوى ، ص ٢١٢ — ٢١٣ •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٩ •

(٣) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ •

(٤) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ •

وتتالت غزوات المسلمين في السنوات ٩٠ هـ [١] و ٩١ هـ [٢] ، وكان يشارك مسلمة في عمليات عام ٩١ هـ عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . وقد تمكنت الجيوش الاسلامية في غزواتها هذه أن تنشر الرعب في صفوف الروم وأن تحقق مكاسب وغنائم لا بأس بها . ويذكر الطبري في أحداث السنوات ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ هـ أخبارا مقتضبة عن غزوات قام بها مسلمة بن عبد الملك وغيره من القادة لأرض الروم دون أن يدخل في تفاصيلها أو ما تحقق فيها للمسلمين من انتصارات . على أن بيوري يذكر أنه في سنة ٧١٢ م/٩٤ هـ وصلت الجيوش الاسلامية الى البوسفور وتمكنت من الاستيلاء على بعض المعاقل الهامة بالقرب منه[٤] . ويبدو أن العرب المسلمين استفادوا في الفترة الواقعة بين ٧٩٠م (وهي السنة التي احتلوا فيها حصن طوانة) و ٧١٢م ، من انشغال الامبراطور البيزنطي جستنيان الثاني بمشاكله الداخلية التي رافقت عودته الى العرش بعد اقصائه ونفيه[٥] ، ليشنوا سلسلة من الغارات على أرض الامبراطورية البيزنطية . وتذكر المصادر البيزنطية أخبارا تؤكد ما ذكرناه عن المعلومات الواردة في تاريخ الطبري حول الغزوات السنوية التي كان يشنها القادة العرب على أرض بيزنطة ، إذ أننا نقرأ في هذه المصادر أن الفترة بين ٧١٠ ـ ٧١٢م كانت حافلة بالغزوات العربية ، فقد قام العرب خلالها بعدة هجمات على منطقة كيليكيا وتوغلوا في البلاد دون أن يلقوا مقاومة تذكر ، حتى أن فصيلا صغيرا من الجيش العربي تمكن من التغلغل حتى وصل الى كريز وبوليس وقام ببعض العمليات العسكرية وعاد محملا بالغنائم[٦] .

وكما كان للقوات البرية العربية دورها البارز في الصراع العربي

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٥٤ .

(٣) انظر أخبار وأحداث هذه السنوات في ، ج ٦ ، من تاريخ الطبري .

(٤) Bury, op. cit., p. 392 .

(٥) من أجل المشاكل الداخلية التي رافقت الفترة الثانية من امبراطورية جستنيان الثاني ، انظر كتابنا ، لامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣١ ـ ١٣٣ .

(٦) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٣ .

البيزنطي في هذه الفترة ، فقد لعبت الأساطيل أيضا دورها في المحاولة للاستيلاء على القسطنطينية • فقد جاء عند الطبري اثناء حديثه عن احداث العام ٩٠ هـ قوله : « وفيها (أي سنة ٩٠ هـ) أسرت الروم خالد بن كيسان، صاحب البحر ، فذهبوا به الى ملكهم ، فأهداه ملك الروم الى الوليد بن عبد الملك • » (١) • وفي هذا الموقف الذي اتخذه الامبراطور البيزنطي دليل على رغبته استرضاء خليفة دمشق ومبادرته بالود كي يثنيه عما كان ينويه من غزو بحري للقسطنطينية • على أن الوليد لم يغير خططه ، لا سيما وأن جيوشه البرية كانت قد حققت انتصارات كبيرة واستطاعت أن تستولي على عدة معاقل هامة في آسية الصغرى • وزاد في حماس الوليد لمشروعه في فتح القسطنطينية الوضع داخل بيزنطة بعد خلع جستنيان الثاني ومقتله وزوال سلطان الأسرة الهيركلية وتنصيب القائد الأرمني باردانس فيليبيكوس امبراطورا على بيزنطة ، ثم الثورة على فيليبيكوس وخلعه سنة ٧١٣م/٩٤ ـ ٩٥ هـ وتنصيب امبراطور جديد هو اناستازيوس الثاني (٢) • وقد حاول هذا الامبراطور منذ أن تسلم العرش أن يستعد لمواجهة الجيش الاسلامي، فبذل جهودا كبيرة لاعادة تنظيم الجيش واستكمال نواقصه • ونظم بعد هذا الدفاع عن العاصمة وأمن المؤن اللازمة لها إذا ما وقعت تحت حصار المسلمين ، وسلم أمر الدفاع لأمهر قادته • كما وضع خطة لمهاجمة الاسطول الاسلامي قبل وصوله الى القسطينية • واختار جزيرة رودوس مكانا لتجمع قواته التي ستساهم في ضرب الاسطول الاسلامي المرتقب (٣) • وفي نفس الوقت كان الخليفة الوليد يقوم باستعدادات مماثلة ، وقد عهد الى أخيه مسلمة بن عبد الملك ، لما كان له من خبرة في حرب الروم ، بأمر إعداد الجيش الذي سيتولى مهاجمة القسطنطينية • وقد قام مسلمة بالمهمة خير قيام ، وكانت الاستعدادات من الاتساع بحيث وصلت أخبارها الى السلطات البيزنطية سنة

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ •

(٢) من أجل هذه الأحداث ، انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٣٤ ـ ١٣٩ •

(٣) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٠ •

٧١٤م ، فأوفد الامبراطور اناستازيوس سفارة لدمشق لتتباحث مع سلطاتها في عقد هدنة بين الدولتين • وقد زود الامبراطور رئيس هـــذه السـفارة بتعليمات سرية للتجسس على مدى استعداد المسلمين الحربي (١) • وبعد أن وصلت السفارة الى دمشق ورأت نشاط المسلمين في اعداد الجيش وصدق عزمهم على القتال عادت الى العاصمة البيزنطية لتنقـل للامبراطور ما رأت ولتنصحه وسكان القسطنطينية بالتزود بالمؤن والعتاد لثلاث سنوات (٢) • وقد عمل الامبراطور بنصيحتها فملأ الخزائن بالقمح والمواد الغذائية وجـــدد أسوار المدينة ، ووضع عليها المجانيق استعدادا للغـزو المرتقب • وتشـــاء الظروف أن يتوفى الوليد في هذه الفترة من الاستعدادات وأن يكون حصار القسطنطينية من منجزات فترة حكم أخيه وخلفه سليمان بن عبد الملك •

وهكذا فقد كانت خلافة الوليد بن عبد الملك غـرة في جبين الدولـة الأموية تحقق خلالها اتساع رقعة النفوذ العربي في بقاع مختلفة من الأرض• ففي الشرق ابتدأت الفتوح من العراق وانتقلت الى خراسان التي تمتد من نهر جيحون حتى الهند وكوش ، واندفع قتيبة في الشرق حتى وصـل الى فرغانه وكاشغر • أما محمد بن القاسم فقد غزا السند من جنوبي بلاد فارس وبلوخستان وجعل للاسلام قدما راسخة في شبه القارة الهندية • وفي الغرب كانت المنجزات الحربية بالغة حد الروعة ، فقد استكمل فتح شمالي افريقية، وقطع العرب المحيط ودخلوا شبه الجزيرة الايبرية ليقيموا فيها ملكا عربيا خالصا ، وليهددوا مملكة الفرنجة ويحتلوا بقاعا واسعة من أرضها لفترة غير قصيرة • أما في ميدان العلاقات العربية البيزنطية فقد كانت الغزوات في منطقة آسية الصغرى جزءا أساسيا من الخطة السنوية للدولـة ، وكـــان غـزو القسطنطينية وإعداد الخطة لفتحها أمرا يستغرق الشـــيء الكثير من جهـد الدولة ومواردها • وقبل أن تبلغ الاستعدادات مداها عاجلت المنية الوليـد فتأجل الغزو المرتقب الى حين • وطبيعي أن تكون الدولة التي تقوم بهذه

---

(١) Bury, op. cit., p. 371 .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة •

المنجزات الضخمة على جانب كبير من القوة ، وأن يكون مردود هذه الفتوح من جهة أخرى اتساعا في القوة والسلطان،وازديادا في ثروة الدولة والأفراد بنتيجة ما وقع من الغنائم والأرض والمتاع في أيدي الفاتحين • وإذا تركنا الجانب المادي ، ونظرنا الى مردود الفتوح في الميادين الاجتماعية والحضارية لوجدنا أن عملية التزاوج بين الحضارات المختلفة التي غدا الاسلام والعروبة المحور الناظم لها والجامع لشتات أمم ذات تقاليد حضارية متباينة ، قد أثمرت في النهاية حضارة ومجتمعا لهما مواصفات جديدة كل الجدة تتسارع فيهما الحياة نحو وحدة انسانية تنمحي فيها فوارق الجنس واللون وتتكاتف الخصائص المميزة لكل شعب مع ما يماثلها عند الشعوب الاخرى لتعطي في النهاية انموذجا في الحياة سداه الاسلام ولحمته اللغة العربية التي انتظمت معارف هذه الأمم ومعطيات ثقافتها وتقاليدها • وهكذا فان عملية الفتح لم تكن انجازا عسكريا وماديا فحسب ، بل كانت أيضا انطلاقة كبيرة في عالم الفكر والابداع ستظهر ثمارها بشكل أوضح وأجلى في العصر العباسي في المشرق ، وبدءا من عصر الامارة في الاندلس •

المنجزات العمرانية : حين تتحدث المصادر عن خلافة الوليد تذكر أن عصره الذي تميز بالاستقرار، تميز أيضا بقيام نهضة عمرانية حققت منجزات كثيرة وشملت أجزاء مختلفة من الامبراطورية • ويبدو أن الوليد كان مولعا بالأعمال العمرانية وأنه اشتهر بهذا الأمر بين رعاياه حتى أن الناس كانوا يلقون بعضهم بعضا في زمنه فيسألون عن البناء والعمران •

وليس من شك في أن الأثر الرئيسي الذي تقوم عليه شهرة الوليد العمرانية هو مسجد بني أمية الكبير الذي شيده في دمشق والذي يعرف باسم الجامع الأموي • وموقع الجامع الأموي موقع كرس للعبادة منذ أن سكنت دمشق • ففي هذا الموقع أقام الآراميون في مطلع الألف الأول قبل الميلاد معبدا لالههم (حدد) • وفي القرن الثالث الميلادي شيد في هذا الموقع معبد للاله جوبيتر الذي كان العرب يسمونه المشتري • وكان معبد جوبيتر

يتصف بكل صفات المعابد السورية الرومانية ، وأهم ما تبقى منه بوابته الغربية المحمولة على أعمدة عملاقة والتي نشاهدها قبل الدخول الى الجامع الأموي من بابه الغربي[1] • وفي القرن الرابع الميلادي ، حين غدت المسيحية دين الامبراطورية البيزنطية الرسمي تحول هذا المعبد الوثني الى كنيسة سميت باسم القديس يوحنا المعمدان (النبي يحي)• وقد جدد بناؤها في عهد الامبراطور اركاديوس بن هونوريوس • وهناك خلاف حول الحال الذي آلت اليه هذه الكنيسة بعد الفتح الاسلامي ، فبعض المصادر تذكر أن أبا عبيدة احتل نصف دمشق الغربي صلحا وأن خالد بن الوليد احتل نصفها الشرقي عنوة ، وأنه وقع اختيار العرب على موقع كنيسة القديس يوحنا ليكون مقر العبادة الاسلامية وشاركوا فيه المسيحيين ، فغدا الموقع يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي الذي فتح صلحا ومسجدا للمسلمين في الجانب الشرقي الذي فتح عنوة ، وأنه كانت تقام طقوس العبادتين في بناء واحد • وقد ظلت هذه الحال من الجوار بين العبادتين اكثر من نصف قرن الى أن شرع الوليد في تحقيق مشروعه العمراني الضخم وبنى الجامع الأموي[2] • وفي سبيل ذلك اقنع الوليد مسيحي دمشق بأن يتنازلوا للمسلمين عن القسم الغربي من كنيسة يوحنا المعمدان الذي كان في أيديهم وذلك مقابل أربع كنائس منحهم حق العبادة فيها[3] • وهذا الزعم زعم باطل في رأي كريزويل الذي بحث الأمر بحثا مستفيضا في كتابه عن الفن المعماري الاسلامي فيالعصور الأولى، وتوصل الى القول بأن الوليد لم يدخل شيئا من الكنيسة في الجامعالذي بناه بدمشق وأنه هدم الكنيسة وأشاد الجامع على انقاضها[4] • وقد توصل الى هذه النظرية بعد نقاش طويل لما جاء من معلومات حول فتح العرب لدمشق في المصادر الأصلية ، وقضية الأجزاء من المدينة التي فتحت عنوة واقتسام هذه الأجزاء بين الفاتحين وسكان البلد

(١) انظر : عبد الحق ومعاذ ، مشاهد دمشق الأثرية ، ط• دمشق ١٩٥٠ ، ص ١٢ وما بعدها• وعبد القادر الريحاوي ، مدينة دمشق ، ط• دمشق ١٩٦٩ ، ص ١٦٨ وما بعدها •

(٢) انظر ، مدينة دمشق ، ص ٥٣ _ ٥٥ •

(٣) انظر ، مشاهد دمشق الأثرية ، ص ١٨ •

(٤) Creswell-Early Muslim Architecture, (A short account), Penguin, pp. 59-73

الأصليين • ويعتمد في رفضه لنظرية اقتسام المدينة على نص للواقدي ينقله البلاذري ، ويقول الواقدي فيه : « قرأتُ (أي الواقدي) كتابَ خالد بن الوليد لأهل دمشق ، فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس ، وقد رُوي ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ، ولكن دمشق لما فُتحت ، لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بانطاكية، فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون• وقد روى قوم أن أبا عبيدة كان بالباب الشرقي ، وأن خالدا كان بباب الجابية **وهذا غلط** » •[1] • والواقدي كما هو معلوم ، من أقدم الرواة ، وقد عاش بين سنتي ١٣٠ ـ ٢٠٧ هـ • هو مؤرخ مدقق يتفحص المادة التي يقدمها له الرواة ، ولم تكن المغازي الميدان الوحيد الذي طرقه ، بل شمل نشاطه أحداث فترة الخلفاء الراشدين والفتوح وغير ذلك[2] • والغريب في الأمر أن عددا كبيرا من المستشرقين قبلوا قضية الاقتسام هذه وتشبثوا بها رغم انها انطلقت من خبر واحد يذكره ابن عساكر حول فتح دمشق ، من بين أخبار عديدة أخرى حول هذا الموضوع • وابن عساكر في تاريخه عن دمشق يجمع مجموعة كبرى من الأحاديث عن هذه المدينة دون أن يبدي رأيا في المتناقض أو الذي لا يثبت للتحقيق والتمحيص من بينها • وحول موضوع بناء الوليد للمسجد الأموي يوجد أكثر من خبر عند ابن عساكر من بينها خبر اقتسام كنيسة يوحنا المعمدان الى قسمين : غربي تقوم فيه كنيسة للنصارى ، وشرقي يقوم فيه مسجد للمسلمين[3] • ويتناقض هذا الخبر مع أخبار أخرى حول نفس الموضوع ترد عند ابن عساكر •

ويبدو أن ما يذكره الطبري[4] من أن الوليد حين أراد بناء مسجد دمشق أمر فهدمت الكنيسة هو الاصح ، ويتفق مع مانقرأه عند المسعودي[5]

---

(١) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٨ •

(٢) من أجل الواقدي ، انظر كتابنا ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ط • دمشق ١٩٦٩ ، ص ٣٣٠ •

(٣) انظر من أجل ذلك ، كريزاويل ، المصدر السابق ، ص ٦٨ •

(٤) ج ٦ ، ص ٤٩٩ •

(٥) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٦٦ •

الذي يؤكد هدم الوليد للكنيسة عند عمارة المسجد • وإذا أضفنا الى هـذه البينة التي نستقيها من المصادر والتي تثبت أن الوليد لم يدخل شيئاًمن كنيسة القديس يوحنا في مسجده ، بينة أخرى يقدمها لنا كزيز ويل وينقلها عـن بعض الباحثـين الاجانب حول عـدم امكان اقتسام الكنيسة بين المسلمـين والنصارى • وخلاصتها أنه من غير الممكن للنصارى أن يقوموا بالعبادة في الجزء الغربي من الكنيسة لان المذبح كان في النصف الشرقي [1] ، لوجدنا أن قضية اقتسام الكنيسة قضية غير مقبولـة ولا تثبت أمام النقـد التاريخي الدقيق ، كما أن قضية ادخال الوليد جزءاً من بناء الكنيسة في المسجد الذي بناه لا تثبت أمـام وضوح النصوص التي ذكرناها والتي يـذكر كريزويل كثيراً غيرها [2] • هذا فضلا عن شهادة شاهد عيان زار دمشق حوالي سنة ٥٠/٦٧٠ هـ وقد جاء فيها أنه رأى كنيسة القديس يوحنا المعمدان دون أن تمس ، وأنه كان للمسلمين معبد آخر يؤدون فيه شعائر دينهم [3] • وفي هذا دليل كاف على عدم صدق قضية اقتسام الكنيسة وأنه كان للمسيحيـين معبد مستقل عن المعبد الذي كان المسلمون يؤدون فيه شعائر دينهم •

بعد هذا،ننتقل لنتحدث بايجاز عن هذا المسجد الرائع الذي بناه الوليد والذي دفعه الى بنائه رغبته في أن يكون في عاصمته مسجد كبير يليق بعظمة هذه العاصمة والدولة التي تمثلها • ويذكر المسعودي [4] أن الوليـد ابتدأ بناء المسجد الجامع بدمشق سنة ٧٨ هـ ، وانه أمر أن يكتب بالـذهب على اللازورد في حائط المسجد : « ربنا الله ، لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين • » • ويقول المسعودي بعـد ذلك ، أن هذه الكتابة المـذهبة

---

(١) كريزويل ، المصدر السابق ، ص ٦٥ ـ ٦٦ •

(٢) كريزويل ، المصدر السابق ، ٦٦ ـ ٦٧ •

(٣) انظر نص الشهادة عند ، كريزويل ، المصدر السابق ص ٦٦ •

(٤) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٦٦ •

ظلت حتى عصره وانه رآها سنة ٣٣٢ هـ [١] وظل العمل في المسجد قائماً حتى سنة ٩٦ هـ وهي نفس السنة التي مات فيها الوليد [٢] ، وساهم فيه ألوف العمال المختصين الذين جمعوا من أطراف الولايات العربية . ويذكر ابن جبير أن تكاليف البناء بلغت احد عشر مليوناً ومائتي الف دينار، ويدعي ياقوت الحموي في معجم البلدان أن الوليد انفق على عمارته خراج المملكة سبع سنين [٣] . ولم يدخل الوليد من البناء القديم في مسجده إلا الجدار الخارجي والابراج . ويلاحظ « أن مخططه هو المخطط الذي انشئت عليه المساجد الاسلامية الاولى . وينص على تنظيم فراغ مكشوف ضمن بناء مشيد ، ولا ريب أنه مستوحى من دور العرب في زمن ظهور الاسلام ، ولا سيما من بيت النبي (صلعم) في المدينة ... وعلى هذا فان المسجد الاموي يتألف من صحن فسيح تحده أروقة من جهاته الشمالية والغربية والشرقية ، ومن الحرم الذي هو قاعة واسعة محمولة على عمد ، وقائمة في طرف الصحن الجنوبي . » [٤].وكان بناء هذا المسجدوالاسلوب الهندسي الذي اتبع في إشادته النموذج الذي احتذي في بناء الجوامعالكبرى التي شيدت بعده ، وظل المعماريون يقلدونه وينسجون على منواله قروناً طويلة بعده . ولم يبخل الوليد بشيء في سبيل زخرفة مسجده بأبهى أنواع الزخرفة ، فقد غطى « جدرانه بالرخام المجزع المفصل أشكالا وألواناً ، وأكملت الى السقف بالفسيفساء ، وهي فصوص صغيرة من الزجاج الملون بينها المذهبة والمفضضة وتتخللها الاصداف الناصعة البياض . رصفت بحيث تألف منها كل ماخطر على بال الفنان من رسوم هندسية ونباتية وآيات قرآنية ومناظر للطبيعة بينها القصور والدارات التي تجري من تحتها الانهار وتحف بها الاشجار . أما سقوفه فقد صنعت من الخشب المحلى بالنقوش الموشى بالذهب . وعلقت القناديل والثريات بسلاسل من الذهب الخالص ،

---

(١) مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١٦٧ .

(٢) كريزويل ، المصدر السابق ، ص ٤٥ .

(٣) مشاهد دمشق الاثرية ، ص ١٨ .

(٤) مشاهد دمشق الاثرية ، ص ٢١ .

ثم أرخيت على أبوابه استار الحرير » [1] ولم يكن الجامع الاموي في دمشق الانجاز العمراني الوحيد للوليد بن عبد الملك ، فهو الذي أمر باعادة عمارة مسجد النبي في المدينة أيضاً . ويذكر الطبري في أحداث سنة ٨٨هـ أن الوليد أمر فيها بهدم مسجد الرسول (صلعم) وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها في المسجد . وكان رسوله الى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة يحمل رسالة يأمره فيها بأن يدخل حُجَر أزواج الرسول في مسجد الرسول وأن يشتري الابنية أو الاراضي التي تقع في مؤخره أو حوله حتى تغدو مساحته مائتي ذراع في مائتي ذراع . وطلب الرسول من عمر أن يقدّم القبلة إن استطاع وأن يدفع أثمان الاراضي والبيوت التي تحتاجها عملية توسيع وإعادة بناء مسجد الرسول . وبعد أن تم شراء الاراضي وهيئت العدة اللازمة بدأ البناؤون في تشييد البناء الجديد . وفي الطبري خلاف حول من قام بعملية هدم البناء ، فبينما تذكر رواية للواقدي أن الفعلة الذين قاموا بالعملية أرسل بهم الوليد من الشام ، يذكر هو نفسه (الواقدي) في رواية ثانية أن الفعلة الذين هدموا البناء كانوا من المدينة ، وأن الذين قاموا بالبناء هم الفعلة الذين أرسلهم الوليد . ويتابع الواقدي روايته الثانية هذه فيذكر أن الوليد حين عزم على توسيع وإعادة عمارة مسجد الرسول بعث الى ملك الروم بعزمه ويطلب اليه العون ، فبعث اليه ملك الروم « بمائة الف مثقال ذهب ، وبعث اليه بمائة عامل ، وبعث اليه من الفسيفساء بأربعين حِمْلا ، وأمر أن يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خُرّبت ، فبعث بها الى الوليد ، فبعث الوليد بذلك الى عمر بن عبد العزيز . » [2] وينقل اليعقوبي عن الواقدي رواية مماثلة للرواية التي ينقلها عنه الطبري [3] . وعندنا أن هذه الرواية بالشكل الذي جاءت فيه فيها شيء من نقص أو خطأ ، إذ لا يعقل أن يكتب الوليد الى امبراطور بيزنطة بعزمه على تجديد بناء مسجد

---

(١) الريحاوي ، مدينة دمشق ، ص ١٧٦ . ومن أجل تفاصيل أوضح واكثر عن بنيان هذا المسجد وكل ما يتعلق به انظر ما كتبه كريزويل في كتابه سابق الذكر .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .

الرسول ويطلب عونه ، وأن يقوم الامبراطور البيزنطي بارسال الذهب والعمال والفسيفساء اليه وأن يجهد في جمع الفسيفساء من المدن البيزنطية الخربة ليرسلها الى خليفة دمشق ، وبينهما ما بينهما من حروب وصراع ، هذا فضلا عن أن عملية كهذه لا تهم الامبراطور البيزنطي ولا تتناسب مع الصراع المسيحي الاسلامي الذي كان قائماً في هذه الفترة • ويبدو أقرب الى المقبول ما يذكره البلاذري من أن الذي أرسل المال والفسيفساء الى عمر ابن عبد العزيز هو الوليد،وأن العمال الاجانب الذين ساهموا في عملية البناء هم من الروم والقبط من أهل الشام ومصر ، [1] ، أي من رعايا الدولة العربية الاسلامية ، وليس من رعايا امبراطور بيزنطة • ويذهب السمهودي في التفصيل أكثر من ذلك فيذكر أن العمال الاقباط تولوا بناء حرم المسجد• وأن العمال الروم بنوا جوانبه والجزء الخلفي منه [2] • وكان من المنجزات العمرانية الجديدة في هذا المسجد جعل المحراب على شكل فجوة في الحائط• ويعلل كريزويل هذا التطور في شكل المحراب الى العمال الاقباط الذين ساهموا في بناء المسجد والذين تولوا بناء الحرم ، وذلك بسبب من تقليدهم المثل الذي يتبع في بناء الكنائس [3] • وقد استمر العمل في بناء هذا المسجد سنتين وفرغ من بنائه سنة ٩٠ هـ [4] • ويذكر اليعقوبي أن الوليد بعث الى خالد بن عبد الله القسري ، وهو على مكة ، بثلاثين ألف دينار ، فضربت صفائح وجعلت على باب الكعبة وعلى الاساطين التي داخلها وعلى الاركان والميزاب ، فكان بذلك أول من ذهّب الكعبة في الاسلام•وبعد أن أتم هذين الانجازين الرائعين : إعادة بناء مسجد الرسول في المدينة ، وتذهيب الكعبة، قام في العام ٩١ هـ بالحج لينظر الى المسجد في وضعه الجديد ، والى الكعبة بعد أن صفحت أبوابها وأركانها وأساطينها بالذهب ، فجرى له استقبال

---

(١) فتوح البلدان ، ج ١ ص ١٣ •

(٢) انظر ، السمهودي ، الخلاصة ، ط • مكة ، ص ١٣١ •

(٣) كريزويل ، المصدر المذكور سابقا ، ص ٤٤ •

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ •

حافل ، وقام ببعض الاعمال الخيرة ، وجرى حديث هذه الزيارة والاعمال على ألسنة الناس لامد طويل [1] .

والى جانب العمارات الدينية هذه التي تمت زمن الوليد ، هناك العديد من الآثار العمرانية المدنية التي انجزت في فترة حكم هذا الخليفة وبأمر منه. ومن بين هذه المخلفات قصور عديدة كقصر مينية على بحيرة طبريا ، والذي اكتشف العالم الآثاري شنايدر خلال أعماله التنقيبية فيه بين سنتي ١٩٣٦ - ١٩٣٩ قطعة من المرمر كتب عليها بخط كوفي جميل أنه من بناء الوليد بن عبد الملك [2] ، وقصير عمرة الذي يقع في الصحراء في وادي البطم على بعد حوالي (٥٠) ميلا شرقي مدينة عمان الحالية . وقد بناه الوليد بن عبد الملك في تاريخ غير مؤكد بين سنتي ٧١١ - ٧١٥ ميلادية [3] . ويبدو أن هذا البناء « كان يؤدي غرضين ، فيستعمل مربعاً تبدأ منه رحلات الصيد ، ويستعمل كذلك للاستجمام » [4] . وكانت جميع حيطانه الداخلية مغطاة بالصور والرسوم الملونة الجميلة . ومن هذه القصور الصحراوية التي عني الوليد بتشييدها والعيش فيها واللجوء اليها كلما ضاقت به حياة المدن أو تاقت نفسه الى الصحراء ، قصر حمّام الصرح (أو السراح) ،[5] أو حمّام الصَرَخ كما يسميه كريزويل [6] . وهو يشبه قصير عمرة لا من حيث الهدف من انشائه ، بل أيضاً من حيث الشكل الهندسي وعدد القاعات والحمام الملحق به . وكانت جدران القصر مغطاة بالصور الملونة ، وأعظم ما يستلفت النظر فيه القبة المضلعة التي تقوم فوق قاعة المدخل .

وفي ختام هذا الحديث عن منجزات الوليد العمرانية ، لا بد من

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .
(٢) من اجل وصف هذا القصر ، انظر ، كريزويل ، ص ٨٢ - ٨٤ .
(٣) انظر من أجل ذلك ، كريزويل ، ص ٩١ - ٩٣ ، و ، لانكستر هاردنج ، آثار الاردن تعريب سليمان موسى ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٥ ، ص ١٥٧ .
(٤) آثار الاردن ، ص ١٥٧ .
(٥) آثار الاردن ، ص ١٥٥ .
(٦) كريزويل ، ص ٩٩ .

الوقوف قليلا عند قضية بناء مسجدقبة الصخرة والمسجد الاقصى المتجاورين، والذين تختلف المصادر في قضية نسبة بنائها إلى عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد • على أن النقوش وأوراق البردي وبعض الروايات التي يذكرها المؤرخون ترجع بناء قبة الصخرة الى عبد الملك ، كما ذكرنا آنفاً والمسجد الاقصى الى الوليد بن عبد الملك • ولعل السبب في التخليط بين البنائين واللبس في اسم بانيهما يعود الى قربهما وتجاورهما من جهة، والى مافعله الخليفة العباسي المأمون حين زار بيت المقدس وأمر بازالة اسم عبد الملك من النقوش الكوفية في مسجد قبة الصخرة ، ولكنه نسي أن يزيل التاريخ المنقوش على القبة وهو عام ٧٢ هـ الذي يقع في خلافة عبد الملك • وتبقى قضية بناء المسجد الأقصى، فقد ظهر منذ أمد ليس بالبعيد ما يؤكد أن بناءه قد تم زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وما ذاك إلا ورقة بردي تعرف باسم « بردية أفروديتو » ، وهي عبارة عن رسالة رسمية أرسلها قرة بن شريك ، الذي ولي مصر للوليد سنة ٩٠ هـ [١] بعد عبد الله بن عبد الملك ، الى أحد حكام منطقة مصر العليا ، ويأمره فيها أن يدفع أجور بعض العمال من منطقته الذين ساهموا في بناء المسجد الأقصى [٢] • وهذه البردية لا تدع مجالا للشك بأن بناء الأقصى يعود الى زمن الوليد لا الى زمن أبيه • ويؤكد هذه الحقيقة ما يذكره جورج مارسيه أثناء حديثه عن زخارف المسجد الأقصى حيث يقول أن بعض النحاتين الأقباط قد ساهموا في زخرفة وتزيين بعض ألواح هذا المسجد [٣] •

الاصلاحات الداخلية وأعمال البر والاحسان في زمنه : يعقد الطبري مقارنة بين خلافة الوليد وخلافة أخيه سليمان ، فيقول : « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه، فانما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع • فولي سليمان فكان صاحب

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ •

(٢) من أجل برديه افروديتو ، وغيرها من البرديات المتعلقة بهذا الموضوع ، انظر ، كريزويل، المصدر نفسه ، ص ٤٣ •

(٣) انظر ، جورج مارسيه ، الفن الاسلامي ، ترجمة الدكتور عفيف بهنسي ، ط • وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٤٦ •

نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن التزويج والجواري»[١].
وفي هذا الكلام شيء كثير من صحة . فالى جانب ما ذكرناه في الفقرة السابقة عن أعماله العمرانية الضخمة ، هناك منجزات أخرى تظهر اهتمامه باصلاح الطرق وتسهيل السبل والثنايا وحفر الآبار في مختلف البلدان . وقد كتب في عام ٨٨ هـ الى عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز وعماله في سائر البلدان بضرورة الاهتمام بالمرافق العامة وتأمين مياه الشرب وما شابه من أمور تؤمن الرغد والرفاه للرعية[٢]. ولم يقتصر اهتمامه على المرافق العامة بل أولى رعاياه اهتماما كبيرا ، فكان ، كما يقول اليعقوبي ، « أول من عمل البيمارستان للمرضى ، ودار الضيافة ، وأول من أجرى على العميان ، والمساكين والمجذمين الأرزاق . وكان ممن أحدث قتل العصاة ... وأول من أجرى طعام شهر رمضان في المساجد ، وصام الاثنين والخميس فأدمنه . »[٣] . وقد كلفته هذه الأعمال العمرانية وهذا الاحسان الى المحتاجين والمرضى مالا كثيرا ، « فانكسر الخراج في أيامه »[٤] ، رغم اتساع رقعة الفتوح التي تمت في زمنه وتوارد أموال الغنائم الى بيت المال . وكان يكره أن يسأل الفقير الناس ، وكان يقول : « لا تسألوا الناس » ، لذا أعطى الفقراء والمصابين بالجذام ، كما اعطى لكل مقعد خادما ، ولكل ضرير قائداً.
« وكان الوليد يمر بالبقال ، فيقف عليه فيأخذ حزمة البقل ، فيقول : بكم هذه ؟ فيقول : بفلس . فيقول : زِدْ فيها . »[٥] . وهذا دليل على رفاه الناس في عهده ومقدرتهم على الشراء وازدهار اوضاعهم المعاشية وكثرة النقد المتداول بين أيديهم .

ويحلو لبعض الباحثين ن ينسبوا للوليد اعتماده على القيسية بالشام ، واقصاءه الكلبية بحجة أن أمه قيسية[٦] ، وأن الحجاج ساعده الأيمن قيسي

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٩٧ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٧ .
(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ .
(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩١ .
(٥) لطبري ، ج ٦ ، ص ٤٩٦ .
(٦) أمه ولاّدة بنت العباس بن جَزْء العبسى ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ص ٤١٩ ـ ٤٢٠ .

أيضا • وهذا الزعم لا يستند على أي أساس من الصحة ولا تؤيده أخبار سيرته في الحكم •

والواقع أن الوليد كان كأبيه يستعمل من الناس ويقرّب اليه منهم من كان يعتقد فيه الخير والفائدة له ولملكه • وما هذا الموقف من بعض الباحثين الا امعانا في بدعة العصبية ومحاولة لتفسير الكثير من احداث الفترة الاموية على ضوئها • هذه البدعة التي ذهبت بالبعض الى حدّ تقسيم الخلفاء الأمويين الى خلفاء قيسيين وخلفاء يمنيين ، واظهار ان الخليفة اللاحق كان يستعمل دوما العصبية التي طرحها جانبا وأبعدها سلفه • وطبيعي أن نرفض هذه البدعة وان لا نقبل أن تحمّل قضية العصبيات أكثر مما تحمل •

وقد توفي الوليد في منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ ، تاركا الخلافة من بعده لأخيه سليمان •

شخصية الحجاج ونهايته : في نهاية هذا الحديث عن خلافة الوليد ابن عبد الملك لا بد من الوقوف عند شخصية القائد الذي لعب أبرز الأدوار في هذه الفترة من فترات حكم البيت الأموي • وفي الحديث عن الحجاج لا بد من التفريق بين دورين من ادوار ولايته : الدور الذي مرّ عليه وهو عامل لعبد الملك ، والدور الذي قضاه وهو عامل للوليد •

ففي خلافة عبد الملك كان الحجاج لا يعدو كونه عاملا عليه ان يقبل أوامر خليفته ، وألا ينتظر من الخليفة الموافقة على كل ما يريد • ولما جاء الوليد تغير الحال وأصبح الحجاج الحاكم المطلق الذي فوّض اليه لا أمر المشرق فحسب بل أمر المغرب في بعض الأحيان •

ويفسر البعض هذه الثقة المطلقة التي منحه ايّاها الوليد بأن الحجاج كان صاحب اليد الطولى في اقناع عبد الملك بالبيعة للوليد من بعده وخلع أخيه عبد العزيز كما نصت وصية أبيهما مروان بن الحكم •

وقد وصل نفوذ الحجاج الى حد انه طلب من الوليد عزل ابن عمه

عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة فقبل الوليد ذلك ونفذ طلب الحجاج •
ويحدثنا الطبري عن أسباب هذا الموقف المعادي من الحجاج لعمر بن عبد العزيز فيقول : « وكان سبب ذلك فيما ذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب الى الوليد يخبره بعسف الحجاج أهل عمله بالعراق ، واعتدائه عليهم ، وظلمه لهم بغير حق ولا جناية ، وأن ذلك بلغ الحجاج فاضطغنه على عمر وكتب الى الوليد إن من قِبَلي من مرّاق اهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا الى المدينة ومكة وان ذلك وهن • فكتب الوليد الى الحجاج : أن أشر عليّ برجلين • فكتب يشير عليه بعثمان بن حيّان وخالد ابن عبد الله • فولّى خالدا مكة وعثمان المدينة ، وعزل عمر بن عبد العزيز • »[1] •

فلما جاء عامل المدينة الجديد أخرج منها كل من كان فيا من أهل العراق سواء كان تاجرا أو لاجئا أو فارا من وجه الحجاج ، وردهم جميعا الى الحجاج ليقتص منهم •

وهكذا نستطيع القول ان الحجاج قطف ثمار جهده الطويل في خلافة عبد الملك زمن ابنه الوليد وأصبح العراق ترفرف عليه رايات السلام والهدوء • فانصرف الحجاج الى الاصلاح والاعمار ، سيما وأن الفتن والثورات قد خربت الكثير ، وأصبح الالتفات الى الناحية العمرانية أمرا ضروريا• وكان الحجاج كالخليفة الوليد يحب العمران ، وتحسين الضياع، وتنظيم الري ، وتعمير الأرض ، وكري الترع والانهار ، وتجفيف المستنقعات • وقد انتج في هذا الحقل انتاجا خصبا نجد ثبتاً موسعا له في الطبري مما لا ضرورة لذكره •

ومن أجل تعمير الارض أمر الحجاج الفلاحين من أهل القرى الذين نزحوا من قراهم وقدموا المدن للسكن والعمل بالعودة الى قراهم • كما أنه

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢ •

أمر بمنع ذبح الثيران ليبقى منها العدد الكافي لفلاحة الارض • وقد قال في هذا أحد الشعراء :

شكونا اليه خراب السّواد فحـرّم جهـلا لحوم البقر

والكثير من الفتوحات العسكرية التي تمت زمن الخليفة الوليد كان الحجاج صاحب الفضل في المبادرة للقيام بها • فهو الذي بعث قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان بعد يزيد بن المهلّب لفتح منطقة ما وراء النهر ، فأتم قتيبة ما ندب من أجله ووصل الى حدود الصين • وهو الذي سيّر محمد ابن القاسم الثقفي لفتح حوض نهر السند بالهند • فهـو اذن كـان يحسن اختيار الرجل المناسب للقيام بالمهمة الخطيرة ، فطبقت شهرته الآفاق ، وخافه الناس • « فكانت المرأة اذا اعتدي عليها تقول : يا حجاج ، فيلبي دعوتها »•

ولم يكن من عادة الحجاج الخروج في الحملات العسكرية ، وانمـا كان يشرف على تجهيزها بنفسه ، ويزودها بكل ما تحتاجه ، فقد قيل عن الجيش الذي سيّره برئاسة محمد بن القاسم الثقفي انه جهز بكل شيء حتى الخيوط والمسالّ • وكان ينفق في هذا السبيل المال الكثير ، ولـكنه كان يعرف أن ما يصرفه من مال سيردّ اليه من أخماس الغنائم التي تنالها الجيوش ومثال هذا أنه انفق على تجهيز الحملة التي خرجت مع محمد بن القاسم لفتح السند حوالي ٦٠ مليونا مـن الـدراهم ، ولكنّ أخماس غنائمها التي ردّت الى بيت المال بعد عودتها بلغت ١٢٠ مليونا • وقد علق الحجاج على هـذا بقوله : « شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين الف الف درهم ورأس داهر • » •

لقد استمرت ولاية الحجاج على العراق مدة تقارب العشرين عاما • ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك وله من العمر ثلاث وخمسون أو اربع وخمسون عاما • وقد سأله أحد عواده وهو على فراش الموت :كيف تجدك؟ فأجابه « سفر طويل وزاد قليل ، فويلي ان لم يرحمني الجبّار » • وكانت

تركته حين مات مصحفه وسلاحه وبضع مئات من الدراهم فقط • وقد أقر الوليد جميع عمال الحجاج بعد موته ولم يغير منهم أحدا •

والحق أن الحجاج وزياد بن أبيه كانا أعظم من ولي الامارة في العهد الاموي • وقد عرف بنو العباس فضلهما فتمنّوا على الله لو انه هيأ لهم عمالا كمثلهما لانهما كانا مثالا في الاخلاص والامانة والحرص على مصلحة الدولة والبيت الحاكم لم يتوفر مثلهما لبني العباس •

ومن المفيد الممتع عقد المقارنة بين زياد والحجاج لاجتلاء الفوارق بينهما واظهار صفات كل منهما : لقد كان زياد رفيع الشأن عالي الذكر قبل انضمامه لمعاوية • أما الحجاج فيدين بمركزه لعبد الملك الذي اكتشفه ورفع من مقامه • وهناك ناحية اخرى يظهر الفرق فيها واضحا جليا بينهما وهي ان زيادا استطاع اخضاع العراق وحكمه دونما مساعدة من الخارج في حين أن الحجاج لم يستطع ذلك الا بمساعدة من الشوام ، مما أدى في النهاية الى اشعال نار الخصومة بين عرب الشام وعرب العراق • وليس الحجاج في ذلك مقصرا عن زياد ولكن ظروف الثورات التي قامت في العراق في عهده والتي اشتركت فيها كل الفئات كان من غير الممكن التغلب عليها بعناصر محلية • وكان لا بد من استقدام جيش غريب من الخارج لاخمادها •

ويتميز عهد الحجاج بالمنجزات الضخمة التي تمت خلاله ، ففي عهده ضربت النقود العربية لأول مرة بالمشرق ، وعربت الدواوين ، ونظم الخراج ، وعمّرت الأرض ، ونقّطت المصاحف وغير ذلك •

كما اشتهر الحجاج بحزمه وشدته في معاملة العصاة وحلمه وعفوه عمن يستسلم اليه • فقد عفا عن الذين حاربوه في البصرة ودير الجماجم بعد أن استسلموا وفوّضوا اليه امرهم وكان لا يؤمن بالخرافات والاباطيل فلم يقبل أقوال رجاله يوم رمى الكعبة بالمنجنيق وارعاد السماء وتفسير هذه الظاهرة أنه قال لهم : « انا ابن نجد واعرف صواعقها » • وكل ذلك لاعتقاده بأن ابن الزبير احدث الفتنة وفرّق صفوق الجماعة فهو يستحق العقاب ولو

عاذ بالكعبة • ولم يكن موقفه هذا يقتصر على ابن الزبير بل على كل عاص يخرج عن سلطان الدولة ، فعامل الفقهاء العراقيين والقراء هناك نفس المعاملة حتى ذكر أنه قتل في احدى المعارك احد عشر الفا ، وذكر آخزون أن عدد قتلاه بلغ مئة وعشرين أو مئة وثلاثين الفا • ورغم ما في هذه الروايات التي دُوّنت بأيد عباسية أو شيعية من مبالغة ، فانه بلا شك كان قاسيا في معاملة الثائرين ، رحيما على من يعلن الخضوع •

وأخيراً لا بـد من القول ان الحجاج كان من الشخصيات النادرة في تاريخنا العربي التي تستحق كل تقدير ، والتي تحتاج الكثير من الدراسة العميقة التي تخرجها من ظلام التهم الى نور الموضوعية والحقيقة التاريخية •

• • •

الفصل الخامس

خلافة سليمان بن عبد الملك

القضية القيسية اليمنية في زمنه :

بويع سليمان بالخلافة بعد وفاة اخيه الوليد بن عبد الملك وذلك تنفيذا لوصية ابيهما عبد الملك بن مروان[1] • وقد عمل سليمان حال استلامه العرش على تنفيذ ما كان قد اعتزمه أخوه وسلفه من تجهيز حملة لحصار القسطنطينية وفتحها • فجهز الحملة وسيّرها للعاصمة البيزنطية ولكنها لم تستطع تحقيق الهدف الذي ارسلت من أجله وعادت بعد ان فشلت في مهمتها[2] ، وستكون هذه الحملة وبقية المنجزات العسكرية زمن سليمان موضع حديث مفصل في فقرة لاحقة •

ولم يكن سليمان راضيا عن سياسة أخيه الوليد الذي فوّض الى الحجاج سلطات واسعة ، وأفرط في الاعتماد عليه ، وكان يحب يزيد بن المهلب عدو الحجاج وسجينه • وكان ابن المهلب قد هرب من سجن الحجاج سنة ٩٠ وتوجه الى فلسطين قاصدا سليمان الذي كان يقيم بالرملة أثناء خلافة أخيه • وقد احتفى سليمان بيزيد واكرمه أيّما اكرام وتوسط له عند أخيه ، فعفا هذا عنه ودفع عنه المال الذي طلبه منه الحجاج• وقد بقي يزيد في ضيافة سليمان في الرملة مدة تسعة أشهر ، رسما اثناءها الخطط وعملا على مناوئة الحجاج[3] •

---

(١) بايع عبد الملك لابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان سنة ٨٥ هـ ، وذلك بعد وفاة أخيه عبد العزيز بن مروان • انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤١٦ •

(٢) من أجل حصار القسطنطينية زمن سليمان ، انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٢ _ ١٤٣ •

(٣) من أجل هرب يزيد من سجن الحجاج ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٨ وما بعدها •

وتعزو بعض المصادر سبب غضب سليمان على الحجاج الى مسعى هذا الاخير لحمل الوليد على عزل سليمان عن ولاية العهد وتولية ابنه مكانه[١] ، ولكن الحقيقة هي أن الخلاف بين الحجاج وسليمان اقدم من هذا وان عزم الوليد على خلع اخيه لم يذكر الا في نهاية ولايته وذلك سنة ٩٦ ، في حين ان الجفاء بين الأثنين يعود الى سنة ٩٠ هـ حين قدم يزيد بن المهلب على سليمان في الرملة .

وكان الحجاج يتوقع الشر من سليمان اذا هو تولى الخلافة بعد أخيه، لدرجة انه كان يدعو الله ان يميته في خلافة الوليد حتى لا يصيبه سوء على يد عدوه سليمان . وقد استجاب الله دعاء الحجاج فمات في آخر خلافة الوليد ، وظل أصحابه من بعده لينصبّ عليهم غضب سليمان وليصبحوا عرضة لانتقامه . وفعلا أمر سليمان بعد توليته الخلافة بعزل عثمان بن حيان المري عن ولاية المدينة وخالد بن عبد الله القسري عن ولاية مكة ، وكلاهما من رجالات الحجاج وصحابته[٢] . أما قتيبة بن مسلم الباهلي عامل خراسان وصاحب الفتوح العظيمة في المشرق فقد أراد استباق ما قد ينتظره من شر على يد الخليفة الجديد ، لذلك دعا جنده الى الخروج عليه . فوافقه بعضهم وخالفه البعض الآخر ، كما خالفه بنو تميم وانتهى أمره بتآمر جماعته عليه وقتلهم اياه سنة ٩٦ وأرسلوا رأسه الى الخليفة بدمشق[٣] . كذلك انتهت حياة محمد بن القاسم الثقفي فاتح الهند العظيم نهاية مماثلة ، اذ أنه أحضر الى واسط حيث سُجن وقُتل على يد صالح بن عبد الرحمن الذي كان يتولى خراج العراق لسليمان بن عبد الملك[٤] . وغير خاف أن السبب الرئيسي لنقمة سليمان على محمد بن القاسم هو قرابته للحجاج .

واحتل يزيد بن المهلب زمن سليمان المكان الذي كان للحجاج زمن

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٩٨ .
(٢) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٥ ، ٥٢٢ .
(٣) من أجل مقتل قتيبة ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٦ ــ ٥٢٢ .
(٤) من أجل مقتل محمد بن القاسم ، انظر ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦١٨ ــ ٦١٩ .

الوليد ، وقد جعل هذا البعض يذهبون الى القول بأن سليمان انتهج سياسة مغايرة لسياسة الوليد ، اذ انه اعتمد على اليمنية في حين أن اخيه كان يعتمد على القيسية • وقال بهذا الرأي أيضا المستشرق دوزي الذي فسر ارتفاع مكانة آل المهلب واعتماد الخليفة عليهم بأنه نصر لليمنية يقابل انكسار شوكتهم زمن الحجاج الذي تمادى في انحيازه الى القيسية بسبب خروج ابن الاشعث عليه وتمرد ابن المهلب وكلاهما يمني[1]• يضاف الى هذا أن الحجاج قيسي لأنه من ثقيف ، وقد اتخذ معظم رجالاته وحاشيته من جماعته القيسيين •

وفي الرد على هذا الرأي يمكننا أن نقول ان اعتماد الحجاج على القيسيين عامة والثقفين خاصة لم يكن خطة دائمة ثابتة تمسك بها ولم يحد عنها • فقد كان من عادة رجال القبائل التقرب من كل عظيم ذي نفوذ أو سلطان مهما كانت صلتهم به رغبة في الاستفادة منه ومن نفوذه • وحتى يجنوا من وراء هذا التقرب ما يمكن جنيه من فوائد ومكاسب •

ولم يكن سبب اعتماد عبد الملك وابنه الوليد على الحجاج أنه كان قيسيا ، بل لأنه كان شخصية قوية تفوض اليها الامور ويتكل عليها • فسيادة الحجاج نابعة من شخصيته لا من عشيرته • واعتماد الخلفاء عليه كان لذاته لا لقوة قبيلته • كذلك كانت نقمة سليمان عليه نقمة شخصية لا دخل لعشيرته بها فسليمان كان يعتقد أن سياسة الحجاج في العراق قد أضرّت بمصالح البيت الأموي في هذا القطر ، وان نقمة العراقيين على البيت الأموي قد تضاعفت بسبب الاسلوب الذي ساس فيه الحجاج امور العراق • وان الهدوء الذي ساد العراق في أخريات حكم الحجاج كان هدوءا مصطنعا سببه سياسة الفتك والبطش التي انتهجها الحجاج ، وأنه في اللحظة التي يجد العراقيون متنفسا سينفجرون في وجه الجلاد الذي اذاقهم سوء العذاب •

---

(١) انظر رأي دوزي هذا في ، تاريخ مسلمي اسبانيا ، ج ١ ، ترجمة حسن حبشي ، ط • دار المعارف ، ص ١٢٩ وما بعدها •

كل هذا دعا سليمان الى كره الحجاج والى البطش بأعوانه الذين ساعدوه في سياسته هذه ، فهو لم يعزل رجال الحجاج ولم ينتقم منهم لأنهم كانوا قيسية بل لأنه كان يرى في تأييدهم لسياسة الحجاج ومعاونته على تنفيذها جريمة أضرّت بمصالح البيت الأموي في العراق فاستحقوا العقوبات التي نالوها •

ومن الحقائق التي تؤيد وجهة النظر هذه التي نحن في صدد عرضها ان سليمان عزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية مكة ، واليمنية يعدون خالدا منهم • فلو كان الأمر أمر عصبية يمنية ضد عصبية قيسية سلفت لما عزل خالد زمن سليمان ولما استعمل زمن الوليد • كذلك كان قتيبة من باهلة الذين لم يدخلوا في المنازعات القبلية يومئذ ولم يكن لهم شأن يذكر • وكان خصومه في خراسان من قبائل مضر قيسية بينما كانت القبائل القيسية في الجزيرة معه • وكانت باهلة تساكن قبائل الجزيرة القيسية •

وأخيرا هناك حادث موسى بن نصير فاتح الاندلس الذي كان من اليمنيّة على ما تزعم بعض المصادر [1] ، والذي لاقى هو وابنه عبد العزيز بن موسى أشنع مصير على يد سليمان الذي كان على حد زعم هؤلاء من انصار اليمنية واعداء القيسيّة • لقد مات موسى بن نصير فقيراً مهاناً بعد قدومه الى دمشق في أول خلافة سليمان ، وكذلك ابنه عبد العزيز ما تمقتولا بايعاز من الخليفة • فهل كان يحلّ بهما هذا المصير لوان الخليفة كان يبني سياسته على أسس من العصبية اليمنية ضد القيسيّة • هذا فضلا عن ان سليمان قد استاء لمقتل قتيبة[2]، وأن أمه كانت قيسيّة فهو وأخوه الوليد أخوان شقيقان من أم واحدة •

---

(١) هناك خلاف حول أصل موسى بن نصير ، فمن قائل أنه كان مولى لبني أمية واصله من عين التمر ، ومن قائل انه من لخم ، أو ينتسب الى بكر بن وائل • انظر من أجل ذلك ، فتوح البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ، وعبد الله عنان ، دولة الاسلام في الاندلس ، العصر الاول، ص ٢٠ •

(٢) يذكر الطبري أنه لما جيء لسليمان برأس قتيبة قال : « ما أردت هذا كله • » ، انظر . الطبري ، ج ٦ ، ص ، ٥١٩ •

وهكذا فأحداث عصر سليمان لا يجوز أن تُفسَّر على ضوء العصبيّة القبليّة، ولكن على ضوء التنافس بين رجالات الدولة المختلفين من خلفاء وولاة وقواد • وكان هذا التنافس العامل الاهم في زيادة الانقسام وفي استغلاله ، ولا يجوز للمؤرخ الحق أن يلحق بالعصبية القبليّة كل القضايا والمنازعات التي قسمّت القبائل الى جبهات وجعلتها تقف مواقف مختلفة أملتها عليها مصالحها لا عصبياتها •

أعمال يزيد بن المهلب في العراق :

حلّ يزيد بن المهلب محل الحجاج في ادارة شؤون العراق ولكن الناس لم ينظروا اليه كنظرهم الى الحجاج • فقد امتنع رتبيل أمير سجستان عن دفع الاتاوة • ولما قيل له زمن يزيد بن عبد الملك « ما بالك كنت تعطي الحجاج الاتاوة ولا تعطيناها ؟! قال : كان الحجاج رجلا لا ينظر فيما أنفق اذا ظفر ببغيته ولو لم يرجع اليه درهم ، وانتم لا تنفقون درهما الا اذا طمعتم في أن يرجع اليكم مكانه عشرة • »[1] •

وكان أهل العراق قد سرّوا لخلاصهم من الحجاج ووفاة مؤيده الوليد بعده وظنّوا أنهم سكونون أحسن حالا في ظل من سيخلفونهما • ولكنهم ما لبثوا ان اكتشفوا أن اختلاف الرجال لا يعني بالضرورة تغيّر الحال الى أحسن فقد اضطهد يزيد بن المهلب آل الحجاج وعذبّهم كما رأيناه ولكنه سار على نهج الحجاج وخطته في ادارة البلاد، وقد أقام بواسط، وأبقى جنداً من الشام في العراق كما فعل سلفه • ورأى ان طريقه الحجاج في جباية الاموال هي من الاشياء التي جعلت العراقيين يكرهونه، لذلك طلب الى سليمان اعفاءه من جمعها،وأن يعهد الى غيره بهذه المهمة • فتم له ماأراد، وعهد الخليفة الى رجل كان يعمل في ديوان الخراج عند الحجاج وهو صالح بن عبد الرحمن الذي عرّب ديوان الخراج للحجاج بأمر جباية الخراج • وقامت بين صالح ويزيد بعض المشاكل بسبب طلبات يزيد المالية

---

(١) فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٥٦٤ •

التي رفض صالح أن يقبل بها ، أو أن يسمح بتنفيذها • ووقف في وجه يزيد الذي كان يريد ان ينفق المال كيفما شاء ودونما رقيب • ولكن لم تكن ليزيد السمعة الحسنة التي كان يتمتع بها قتيبة ، ولم يكن يستطيع جمع الناس حوله وكسب احترامهم كما كانت حال سلفه ، وغزا أثناء اقامته هذه جرجان وطبرستان وكتب الى سليمان يذكر الغنائم الكثيرة التي حصل عليها ويبالغ في الوصف ، فأساء الى نفسه دون ان يعرف لان هذه المبالغة والمغالطة في ذكر الارقام عرضته الى حساب عسير مع عمر بن عبد العزيز الذي سيتولى منصب الخلافة بعد سليمان[1] •

وفاة سليمان :

لم ينتقل سليمان الى دمشق بعد تسلّمه منصب الخلافة وظل مقيماً في الرملة اذ كان أهل فلسطين يحبونه ويأنس هو في الاقامة بين ظهرانيهم ، كما قضى شطراً من خلافته في معسكر دابق بشمال الشّام حيث كان يشرف على الاعمال الحربيّة التي كان يقوم بها الجيش الاسلامي ضد الروم ، وحيث كانت تقوم الاستعدادات لتجهيز الحملة التي ستذهب لحصار القسطنطينية • وقد وافته المنية بدابق سنة ٩٩ بعد أن تولى الخلافة نحوا من ثلاث سنوات •

واذا كان الطابع المميز لخلافة أخيه الوليد هو البناء والعمران واشادة المصانع وعمارة الضياع ، فان عهد سليمان كان عهداً مال الناس فيه الى التحدّث عن اللهو والغناء والجواري على سنّة خليفتهم•ومع أنه كان محبّاً للهو لا يحرم نفسه متعة من متع الحياة فانه عمل على مكافحة التهتّك بالمدينة ، فكتب الى عامله هناك « ان احص من قبلك من المخنثين والمغنين ، وأكرم الاتقياء وعلماء الدين ، وأخل السجون ، وأحسن الى العلويّين »[2]

---

(١) انظر تفاصيل ولاية يزيد بن المهلب على خراسان ، في الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٢٣ ومابعدها•
(٢) الاغاني ، ط • بولاق ، ج ٤ ، ص ٥٩ ــ ٦١ •

وولّى المدينة رجلا من الانصار من أحفاد عمرو بن حزم الذي كان قد شاغب على عثمان بن عفّان[1].

وكان أعظم ما يؤثر لسليمان اعتماده على رجاء بن حيوة ، وتقريبه له، وضمّه الى حاشيته • وكان رجاء هذا رجلا صالحاً بدأ نجمه يلمع زمن عبد الملك ، وعظم شأنه في خلافة الوليد ، ووصل الاوج زمن سليمان • ورجاء ابن حيوة هو الذي أشار على سليمان بتولية عمر بن عبد العزيز العهد من بعده[2]، وكان عبد الملك قد أوصى أن تكون الخلافة من بعده لابنائه الوليد وسليمان ويزيد على التوالي • فأراد الوليد خلع سليمان وتولية ابنه فلم يفلح • وكذلك أراد سليمان أن تكون الخلافة من بعده لابنه أيوب ولكنه مات قبل أبيه ، فأراد أن يجعلها لابنه داود ولكن سليمان مرض مرضةالموت قبل عودة داود من حصار القسطنطينية • فما كان من رجاء بن حيوة الا أن أشار على سليمان بأن يكون الامر من بعده لعمر بن عبد العزيز وأن يكون العرش بعد عمر ليزيد بن عبد الملك ، فقبل سليمان وكان رجاء الى جانبه في دابق•ولمّا مات سليمان خرج رجاء الى الناس وأعلمهم بوفاة الخليفة وطلب اليهم البيعة للشخص الذي ورد اسمه في الوصيّة فبايعوا وهم لا يعلمون اسم الخليفة الجديد •

ولما تمت البيعة أعلمهم أنه عمر بن عبد العزيز فرضوا به رغم الدهشة التي انتابتهم لخروج الامر من ذرية عبد الملك•وقامت همهمات بدأها هشام ابن عبد الملك،ولكن الامور سويّت وآل الامر الى عمر الثاني الذي سيكون عهده عهداً جعل الكثيرين من المؤرخين يلحقون أسمه بأسماء الخلفاء الراشدين لصلاحه وتقواه وعدالته •

المنجزات العسكرية زمن سليمان : على الرغم من قصر فترة حكم سليمان ، وعلى الرغم مما يتهمه به بعض المؤرخين من حب للهو والملذات ،

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ٥٢٢ •
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٠ •

فان الحديث عن خلافته لا يجوز أن ينتهي دون تناول ما قام به من أعمال في الميدان العسكري ، كانت جزءاً من سياسة الخلفاء الامويين عامة ، وهي توسيع رقعة الامبراطورية ومجالدة الروم البيزنطيين ومحاولة الاستيلاء على عاصمتهم بقصد إسقاط حكمهم ونشر الاسلام في الربوع التي يسيطرون عليها . وكان الاستعداد لغزو القسطنطينية قائماً على قدم وساق زمن الخليفة الوليد كما رأينا حين داهمه الموت وآلت الخلافة الى أخيه سليمان . وأراد سليمان أن يكون له شرف تحقيق ما لم يتح لاخيه تحقيقه ، فقام في العام ٩٧ هـ بالاستمرار في إعداد الجيوش التي تهيؤ لغزو القسطنطينية ، وسيّر حملتان بريتان ضد ابر البيزنطي احداهما بقيادة ابنه داود بن سليمان والاخرى بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ، كما أرسل حملة بحرية بقيادة عمر بن هبيرة الفزاري[١] . وكانت أهداف هذه الحملات الاستمرار في أشغال العدو براً وبحراً استعداداً للحملة الكبرى . هذا ومن الجدير بالذكر أن أغلب أقطار بلاد الخلافة الاسلامية قد ساهمت في الجهد المبذول لتهيئة الحملة المترقبة بما تحتاجه من عدة وعتاد . « فأبحر اسطول من مصر الى شواطىء الشام لجمع أخشاب من سواحل لبنان ليصنع منها سفن جديدة في دور الصناعة بمصر ، لتعزيز الاسطول الاسلامي المتجه لحصار القسطنطينية . »[٢]. ويبدو أن أخبار هذا النشاط الاسلامي قد وصلت للامبراطور البيزنطي أنا ستازيوس الثاني ،فاراد عرقلتها واعتراض السفن المصرية التي كانت تحمل الإخشاب من لبنان ، ولكن محاولته فشلت[٣]، وقامت جيوش مقاطعة أوبزيكيون التي كانت متجهة الى رودوس التي اختارها أناستازيوس مركزاً لتجميع قواته ، باعلان العصيان وخلعت الامبراطور وأعلنت جابياً للضرائب في أوبزيكيون اسم تيو دوسيوس أمبراطوراً[٤]. وهكذا تحولت الاستعدادات الحربية لصد الهجوم العربي الى حرب أهلية

---

(١) انظر أخبار هذه الحملات البرية والبحرية في ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٢٣ .

(٢) العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢١٦ .

(٣) انظر كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٠ ، والعدوي ، ص ٢١٦ .

(٤) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٠ .

دامت ستة أشهر ، وانتهت بعد صراع دام بأن ارتقى عرش بيزنطة الامبراطور ليون الثالث الذي سيجري حصار القسطنطينية بزمنه[1].

ويبدو أن سليمان قد عرف بهذه الاضطرابات الداخلية في بيزنطة ورأي أن الحال ملائمة لبدء الغزو المرتقب فأعد في دابق في شمال الشام معسكرا كبيرا يكون مقرا لادارة العمليات العسكرية ضد القسطنطينية.وسار بنفسه سنة ٩٨ هـ إلى دابق[2] ، وكان كما يقول الطبري ، حين نزل دابق قد « أعطى الله عهدا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش الذي وجهه الى الروم القسطنطينية . »[3]. وكان على الجيش الاسلامي الموجه لحصار القسطنطينية مسلمة بن عبد الملك ، وكانت أوامر سليمان اليه : « أن يقيم عليها (أي القسطنطينية) حتى يفتحها أو يأتيه »[4]. وأقام مسلمة مع جيشه في أرض الروم وبنى بيوتا من خشب وأمضى شتاء عام ٩٨ هـ وصيفه يستطلع المواقع ويقوم بالغارات . وأمر جنده ألا يستعملوا ما معهم من مؤن وأن يزرعوا الارض التي حولهم ويأكلوا من زرعها ومما يصيبونه من غاراتهم وأن يحتفظوا بهذه المؤن لوقت الحاجة[5].

كان مسلمة يقوم بهذه العمليات التمهيدية والصراع على العرش في بيزنطة على اشده ، وتيودوسيوس ما يزال يتربع على هذا العرش . وكان ليون حاكم مقاطعة الأناضول من أشد القادة العسكريين البيزنطيين طموحا ويحلم بالوصول الى الحكم ، وقد عرف العرب عنه ذلك وقدروا أن العرش سيكون من نصيبه ، فأرادوا أن يستغلوا هذه الخصومات لصالحهم وأن يتصلوا بليون ليعقدوا معه صفقة تساعدهم في تحقيق هدفهم . وقد وافق ليون على القيام بهذه المفاوضات لأنها اذا تمت كما يشتهي وأمن التحالف مع

---

(١) انظر من أجل هذه الاحداث ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٧ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣١ .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ .
(٥) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣٠ ، وابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٧ .

العـرب يستطيع أن يتفـرغ لتصفية حسابـه مع الحكومـة المركزيـة في القسطنطينية ، ويصل الى العرش دون خوف مما قد تسببه له الجبهة العربية من مضايقات • وقد سار العرب قدما في طريق مفاوضة ليون واعترفوا به امبراطورا مقبلا لبيزنطة[1]، وجرت بينهم وبينه مراسلات من أجل الاتفاق على شروط الصلح وهتفت القوات العربية المرابطة أمام أسـوار عمـورية « يحيا الامبراطور ليون • »[2]• ويذكر الطبري وابن الاثير[3]أخبار هذه المفاوضات والخدعة التي قام بها ليون لتضليل العـرب واظهـار أن الروم سيستسلمون لهم ويقبلون بسيادتهم وسيدفعون لهم عن كل رأس رومي دينارا اذا هم احرقوا ما معهم من مؤن كدليل على صدق نيتهـم في العودة وترك الأرض الرومية لأصحابها • وقد انطلت الحيلة على العرب وسمحوا باحراق ما كانوا قد حملوه معهم من مؤن • وقد تبين لهم فيما بعد أن عملية احراق المؤن كانت غدرا من ليون،وضاق بهم الحال وكادوا يهلكون جوعا « وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق ، وكل شيء غير التراب »[4]• وكان سليمان أثناء ذلك مقيما بـدابق ، وجاء الشتاء فلم يستطـع أن يمدهم بشـيء •

وقد ثبتت هذه العملية مركز ليون الداخلي واستطـاع أن يشـق طريقه الى العاصمة البيزنطية حيث جرت بينه وبين تيودوسيوس مفاوضات انتهت بأن أعطى ليون الأمان لتيودوسيوس وابنه على حياتهما ، فتنازل لـه تيودوسيوس عن العرش واعتنق الرهبنة وعاش في ايفيزوس• وفي الخامس والعشرين من آذار سنـة **٧١٧م** دخـل ليـون مدينة القسطنطينية فتـوج امبراطورا في كنيسة القديسة صوفيا باسم الامبراطور ليون الثالث ، واتيح

---

(١) انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤١ •

(٢) انظر ، العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٢١٧ •

(٣) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣١ ، وابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٧ — ٢٨ •

(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣١ •

له أن يحكم بيزنطة فترة طويلة وأن يكون مؤسس سلالة حاكمة جديدة هي السلالة الايزورية[1].

ولم يتح لليون أن ينعم بهذا الظفر طويلا إذ كانت الجيوش الاسلامية تحث الخطى باتجاه القسطنطينية ، فأسرع بتنظيم دفاع المدينة ضد الهجوم العربي المرتقب واكمل الاستعدادات التي بدأها الامبراطور السابق اناستازيوس الثاني • وقضى العرب هذه الفترة في تدعيم خطوط مواصلاتهم وتأمين مؤخرتهم • واستولى مسيلمة بجيشه البالغ ٨٠ ألف جندي علىمدينة برغام ، ثم عبر الدردنيل عند ابيدوس وعسكر أمام اسوار القسطنطينية في ١٥ آب سنة ٧١٧[2] • وبعد اسبوعين من وصول مسلمة الى اسوار القسطنطينية دخل مياه البوسفور اسطول اسلامي كبير مؤلف من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا السفن الصغيرة الاخرى[3] • ونظم مسلمة التعاون بين الجيشين العربيين البري والبحري ، واحتل الاسطول الاسلامي مدخل البوسفور الجنوبي لقطع الاتصال بين المدينة وبحر مرمرة وبحر إيجه • وقد استعان ليون الثالث لصد الهجوم العربي بقبائل البلغار وأرسل زعيمهم ترفل بقوات من رجاله شاركت في حرب العرب[4].

وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا وشديدا ، واستمر حتى حل فصل الشتاء الذي كان شديد البرودة مما عرقل عملية الحصار واضطر المسلمين الى تحمل الكثير من المشاق • وفي مطلع الربيع وصلت لمسلمة نجدات برية وبحرية جديدة ، فقد جاءه اسطول من مصر وآخر من شمال أفريقية ، كما وصلته نجدات برية عن طريق آسية الصغرى وكيليكيا • واستخدم المسلمون النفط وسلاحا يشبه المدفعية في حصار

---

(١) من أجل هذه الاحداث ، انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ •

(٢) العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، ص ٢١٩ •

(٣) العدوي ، ص ٢٢٠ •

(٤) انظر ، كتابنا ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٣ •

القسطنطينية وابدوا من ضروب الشجاعة وحب الاستشهاد ما جعلهم مضرب الأمثال[1] .

وفي هذه الفترة التي اشتد فيهـا الحصار العـربي للقسطنطينيـة توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك ، وارتقى عرش الخـلافة في دمشق عمر بن عبد العزيز . ورأى هذا الخليفة الجديد أن ظروف الجيش الاســلامي وقسوة شتاء عام ٧١٧ ــ ٧١٨ قد أديا الى هلاك الكثيرين من الجند المسلمين، كما أن أحوال الدولة في عهده اقتضت إيجاد فترة من الاستقرار وتوقف في الفتوح حتى يدعم هذا الصرح العظيم الذي غدا يضم امبراطورية تمتد من حدود الصين شرقا الى الاندلس غربا ، ومن بحر آرال شمالا الى شلالات النيل السفلى جنوبا . لهذا كله أمر مسلمة بن عبد الملك في ١٥ آب ٧١٨م أن يعود بجيوشه وأساطيله الى الشام ، أي بعد حصار دام عاما كاملا ، وبدا وكأن المشروع العربي في فتح القسطنطينية قد فشل ، ولكن بعد فترة من التوقف لم تطل عاود العرب المسلمون شن هجماتهم السنوية على الحدود البيزنطية . وإذا كان حصار القسطنطينية لم يؤد الهدف الذي قصد منه ، فقد كان له فضل صرف همة البيزنطيين الى الدفاع عن عاصمتهم والتخلي عن مخططاتهم في استعادة شمالي افريقية من العرب . وهكذا فقد أثمر هذا الحصار ثمرة طيبة أخرى ، وهي بقاء شمال افريقية في ظل السيادة العربية، ولم يفكر البيزنطيون في استعادتها من العرب بعد ذلك . ويذكر البلاذري أن النتيجة المباشرة لانسحاب العرب من أمام أسوار القسطنطينية كانت أن أخذ الروم بمهاجمة ثغور المسلمين في الشام ، ولكن هذه الهجمات كانت

---

(١) كان من أشهر أبطال حصار القسطنطينية هذا ، رجل يدعى عبد الله البطال ، الذي كان من حرس مسلمة بن عبد الملك وقد ابلى في هذا الحصار بلاءا رائعا اكسبه شهرة عظيمة . وقد عرف فيما بعد كبطل لقصص عديدة اشبه بالاساطير واعتبره الاتراك بطلا قوميا ودعوه السيد غازي . وانشىء على قبره بالقرب من اسكي شهر تكيـة ومسجـد لأبنـاء الطريقـة البكتاشية . وقد استشهد البطال في معركة ضد البيزنطيين سنـة ٧٤٠ م . ويقـال ان البيزنطيين رسموا صورته على بعض كنائسهم لتذكير الناس بما له من بأس وشجاعة . انظر ، العدوي ، ص ٢٢٢ .

مؤقتة ولم تؤد الى أية نتيجة ذات أهمية وكانت أهم هذه الغارات البحرية غاراتهم على اللاذقية زمن عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ [١] .

وإذا كانت محاولة سليمان لفتح القسطنطينية لم تؤد الهدف المنشود ، فان محاولاته العسكرية في منطقة الشرق كانت أفضل حظا وأكثر عطاءا . وكما كان مسلمة بن عبد الملك بطل العمليات ضد الروم ، فقد كان يزيد ابن المهلب بطل العمليات في المشرق . وكنا قد ذكرنا أن سليمان قد ولى العراق والمشرق بعد أن عزل كاتب الحجاج يزيد بن مسلم عنهما ، وذلك سنة ٩٧ هـ . وفي حديثنا عن الخصومة بين الحجاج ويزيد بن المهلب أشرنا الى أن السبب في عزل الحجاج يزيدا خوف الحجاج أن يفعل يزيد بن المهلب فعل عبد الرحمن بن الأشعث ، أو لأن يزيدا لم ينفذ رغبة الحجاج في غزو بلاد ما وراء النهر . وقد آل الحال بيزيد بن المهلب زمن الحجاج لا الى العزل فحسب ، بل الى الحبس والعذاب . ولكنه تمكن من الهرب من سجنه والتحق مع اخوته بسليمان بن عبد الملك في الرملة وذلك سنة ٩٠ هـ . ويذكر ابن الأثير اثناء حديثه عن فتح جُرْجان وطَبَرِسْتان زمن سليمان وذلك في أحداث عام ٩٨ هـ ، أن « سبب غزوهما ، واهتمامه (أي يزيد بن المهلب) بهما ، أنه لما كان عند سليمان بن عبد الملك بالشام ، كان سليمان كلما فتح قتيبة فتحا يقول ليزيد : ألا ترى الى ما يفتح الله على قتيبة ؟ فيقول يزيد : ما فعلتْ جرجان ... هذه الفتوح ليست بشيء ، الشأن هي جرجان . »[٢] .

ولما ولى سليمان يزيدا خراسان لم يكن له هم غير جرجان[٣] . وكان العرب قد أخذوا من أهلها الجزية منذ عام ١٨ هـ . وفي عهد عثمان بن

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٩ .

(٣) جرجان هي المنطقة الواقعة جنوب شرقي بحر قزوين ، وهي عبارة عن منطقة سهلية تجري فيها عدة انهار وحولها سلسلة جبال البرز الشاهقة ، وكان يستكنها الفرس الذين يحكمهم مرزبان والترك الذين يحكمهم ملك استمه أو لقبه صول .

عفان دخلها سعيد بن العاص سنة ٣٠ هـ ، وصالح أهلها قبل أن يغزو قوهستان . وظلت جرجان بعيدة عن المخططات العسكرية العربية حتى كانت ولاية يزيد على خراسان .ويبدو أن الظروف الداخلية في جرجان والنزاع الذي نشب بين المرزبان وجماعته من الفرس ، والصول وجماعته من الترك من أهلها ، هو الذي سهل مهمة يزيد . لذا وبعد وصوله الى خراسان بثلاثة أو أربعة أشهر سار بجيش قوامه مائة ألف مقاتل من أهل الكوفة والبصرة والشام ووجوه أهل خراسان والري ومعهم مماليكهم ومواليهم وبعض المتطوعة ، حتى نزل بدهستان[١]. ثم ابتدأ بقُهستان وحاصرها وكان أهلها طائفة من الترك[٢] ، وقد قتل عددا كبيرا منهم . وتمكن في النهاية من أن يجبر زعيمهم صول على الصلح أو لعله قتله[٣] . ولكن أهل جرجان لم يلبثوا أن ثاروا ثانية ونقضوا الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين . فعاد يزيد الى جرجان ثانية ، وقتل عددا كبيرا من أهلها وحلف وأعطى الله عهدا « لئن ظفر بهم ألا يقلع عنهم ، ولا يرفع عنهم السيف حتى يطحن بدمائهم ، ويختبز من ذلك الطحين ويأكل منه . »[٤]. وهذا ما يعرف عند المؤرخين بفتح جرجان « الفتح الثاني »[٥]. وبعد انتهائه من عملياته العسكرية ، قام ببناء مدينة جرجان[٦].

ولما فرغ يزيد من فتح جرجان واخضاعها هاجم طبرستان (وتقع في جنوب بحر قزوين ، وتحيط بها بلاد جرجان من الشرق) التي كانت تسكنها عناصر فارسية ويحكمها حاكم يعرف باسم الاصبهذ.وقد قاتل يزيد الاصبهذ وأجبره على الصلح على أن يدفع جزية قدرها اربعة ملايين درهم

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣٢ .
(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٩ .
(٣) انظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٤١ .
(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٤ .
(٦) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧١ .

وشرط عليه شروطا أخرى[1]. وقد كان ولاء أهل طبرستان للدولة العربية الاسلامية يتذبذب بين خضوع وتمرد حتى زمن مروان بن محمد ، حين غدروا ونقضوا ماكان بينهم وبين العرب من عهود ، الأمر الذي اضطر الدولة العباسية الوليدة لمعالجة تمردهم بعد أن استقر لها الحال .

* * *

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧٢ .

الفصل السادس

خلافة عمر بن عبد العزيز أو (عمر الثاني)

هو ابن عبد العزيز بن مروان عامل مصر الذي كانت له الخلافة بعد اخيه عبد الملك حسب وصية أبيهما مروان بن الحكم ، ولكنه مات قبل اخيه عبد الملك . وأمه من نسل عمر بن الخطاب ، وهي ام عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب . وقد ولد في المدينة في خلافة يزيد بن معاويـة ، وقضى فيها معظم ايام شبابه ، وأثر فيه اهلها وفقهاؤها وذكرياتها . وبعد وفاة أبيه دعاه عبد الملك الى دمشق ، وزوجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك . وفي خلافة الوليد بن عبد الملك عين واليا على الحجاز ، فذهب الى المدينة تحدوه الرغبة في إرضاء أهلها ، والتقرب منهم كي ينسوا ما حل بهم في الماضي على يـد بني أمية وعمالهم .

وفعلا .. اتصل بفقهائهـا وعلمـائهـا وأحسن اليهم ، وتقرب منهم ليخفف من نقدهم للخلفاء في دمشق ، ولعاملهم الحجاج الذي كان وجهـا غير محبوب ولا غريب عن الحجاز . وكانت الحجاز في هذه الفترة موئل الناقمين على سياسة الحجاج من العراقيين ، فكان يفد اليه كل عراقي ناقم او مشاغب .. وقد ازعجت هذه البادرة الحجاج كثيرا ، فطلب من الوليد عزل عمر بن عبد العزيز ، فعزله عن المدينة . على أن هذا لم يؤثر على مركز عمر عند الخليفة الوليد ولا عند اخيه سليمان من بعده ، وظل معززا مكرما لأنه كان معروفا بتقواه وتمسكه بأهداب الدين .

وحين آلت الخلافة اليه لم يسر على نهج سلفه سليمان ، ولم يقبل على

الدنيا • واتخذ من سيرة جده عمر بن الخطاب مثـلا يحتـذى ويسار على هديه • وكان لا يرغب في الفتوح لاعتقاده أن أسلافه من الامويين لم يقوموا بها لرفع راية الدين ، ولنشر كلمة الاسلام ، واشهار دين الله ، ولكن من أجل المغانم التي يحصلون عليها •

وانسجاما مع رأيه هذا أمر بعودة الجيش الذي كان قد أرسل زمن سليمان لحصار القسطنطينية[1]• كما همَّ بايقاف القتال في منطقـة ما وراء النهر ولكنه لم يفعل ، لأنه رأى أن الاسلام قد انتشر في تلك الديار ، فأبقى الوضع على ما كان عليه ، وأمر قادة الجيش الاسلامي بأن لايتوغلوا أكثر مما فعلوا ، حتى لاتصيب المسلمين كارثة وكتب الى عبد الرحمن بن نُعَيْم يأمره باقفال مَن وراء النهر من المسلمين بذراريهم ، وقال له : « اللهم اني قـد قضيت الذي علي ، فـلا تغزو بالمسلمـين ، فحسبهم الذي فتـح الله عليهم »[2] •

على أن هذا لايعني أن العرب في عهده قد أوقفوا كل نشاط عسكري لهم ، ففي الاندلس مثلا فتحت في عهده مدينة ناربون الفرنسية وحصونهـا ويبدو أن هدفه الأول لم يكن ايقاف الفتح بل الانصراف الى معالجة الشؤون والقضايا الداخلية ، والانصراف الى معالجة المسائل التي لها مساس بشعبه ، والاكتفاء بالحروب التي لابد منها ، والتي تفرض عليه فرضا •

العمال في عهده :

ومن أجل تنفيذ هذه السياسة ، عزل عمر بن عبد العزيز أغلب الولاة الذين كانوا يشرفون على ادارة الاقاليم في عهد سلفه ، وعـين مكانهم من يعتمد عليهم من الرجال • كما استدعى يزيد بن المهلَّب وحبسه لأنه لـم يدفع خمس الغنائم التي غنمها من الحروب التي قام بها في جرجان وطبرستان

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٣ •
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٨ •

ابّان ولايته على خراسان ، والتي بالغ في مقدار ماحصل فيها من غنائم ، كما كتب بذلك الى سليمان بن عبد الملك[1] .

وقد ولى خراسان لعمر بن العزيز الجراح بن عبد الله الحكمي ، والكوفة عبد الحميد بن الرحمن القرشي ، وهو من سلالة عمر بن الخطاب وكان على البصرة في زمنه عدي بن أرطاة ، وعلى الجزيرة عمر بن هبيرة الفزاري ، وعلى الهند عمر بن مسلم الباهلي وهو أخو قتيبة[2] .

وكان الجرّاح الحكمي ،وعمر بن مسلم الباهلي منجماعة الحجاج. اما عدي بن ارطاة ، وابن هبيرة الفزازي فكانا من القيسيّة . ولم يكن تعيين عمر لهؤلاء الولاة على اساس من عصبياتهم القبليّة ، او انتمائهملقيس أو يمن ، بل لكونهم اشخاصاً مشهود لهم بالمقدرة والتقوى .

هذا في المشرق ، اما في المغرب ، فقد جعل على الاندلس السمح بن مالك الخولاني ، وهو من اليمنيّة . وولى افريقيا اسماعيل بن عبد الله ، لاعتماده عليه ولاعتقاده انه هو والسمح ممن لاتؤثر فيهما الاهواء القبلية ولا يظلم عندهما صاحب حق.وكان عمر لايكتف بانتقاء الرجال الصالحين، ويوليهم المناصب ، ويتركهم وشأنهم ، يفعلون ما يريدون ، بمجرد انهم يرسلون اليه اموال الخراج ، بل كان يراقبهم مراقبة دقيقة ، ويطالبهم باحقاق الحق ، ونصرة المظلوم ، واقامة الحدود .

وكان جده عمر بن الخطاب مثله الاعلى الذي يسير على سنته وهديه، فاعتمد على الفقهاء وقرّبهم ، وجعل للقاضي منزلة ممتازة ومستقلة . وكانت الدولة في رأيه لاتصلح الا بأركانها الاربعة : الوالي ، والقاضي ، وصاحب بيت المال ، والخليفة . وفي هذا يقول : « ان للسلطان أركانا لايثبت الا

---

(١) يذكر البلاذري أن يزيد بن المهلب بعد فتح جرجان وطبرستان عاد الى خراسان وكتب الى الخليفة سليمان بن عبدالملك يعلمه أنه حصل على خمسةوعشرين الف الف درهم منعملية الفتح . فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وقع الكتاب في يد عمر فأخذ يزيد به وحبسه لعدم دفعه خمس هذا المبلغ لبيت المال . انظر ، فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧١ .

(٢) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٤ .

بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا »[1] .

اما اشهر قضاته فكانا عامر الشعبي على قضاء الكوفة والحسن البصري على قضاء البصرة[2] .

سياسته المالية :

كان لعمال الاقاليم واجبات كثيرة اهمها : نشر الامن ، وأخذ البيعة ، وتصريف شؤون الرعية ، وجباية ما يستحق لبيت المال من خراج وجزية وغير ذلك من ضرائب . وكان عمر بن الخطاب اول من عني من الخلفاء بمسح الاراضي الزراعية ، وتنظيم موارد الدولة الاقتصادية . وقد أتم الحجاج عمل عمر بن الخطاب ، واستن من التشريعات ما اعتقده في صالح خزانة الدولة . وظل الحال كذلك ، حتى جاءت خلافة عمر بن عبد العزيز، فقام هذا الخليفة باصلاحات جديدة في هذا الميدان،وهي الاصلاحات التي تعرف باصلاحات عمر الثاني المالية .

ومن المعروف ان عمر الثاني قد أحدث انقلابا في حقل التنظيم الضرائبي في الاسلام ، وحاول أن يعيد الامور الى ما كانت عليه زمن عمر الاول ، وذلك بالغاء التنظيمات التي وضعها من سبقه من خلفاء بني امية وعمالهم . وكانت العودة الى سنن عمر المالية تتمثل في نظر الخليفة الجديد بالامور التالية :

١) منع العرب من استملاك الاراضي في البلاد المفتوحة .

٢) ان لاتؤخذ الجزية من غير العرب بعد اسلامهم ، على ان يدفعوا الخراج عن ارضهم .

ويرى فلهوزن أن نسبة هذين الامرين الى عمر بن الخطاب من الاخطاء

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٨ .

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٤ .

الشائعة . وان ابن الخطاب لم يأمر بشيء من هـذا . وان هذه القـواعـد المالية نشأت بعده ، وتطوّرت بالتدريج[1] .

وفي بحثنا لاصول التنظيم المالي في الاسلام قبل عمر بن عبد العزيز ، لابد لنا من ان نذكر ان العرب فتحوا العراق والشام ، ومن ثم توغلـوا في المشرق حتى وصلـوا حـدود الصين ، وفي المغرب حتى وصلـوا اواسط فرنسا . وقد استولوا على بعض هذه البقاع عنوة وعلى بعضها الآخر صلحا : اما البلاد التي استولوا عليها عنوة فغنائمها وأراضيها وسبيها للمقاتلة بعد اخذ خمسها للدولة ، وذلك تنفيذا لما جاء في الآية الكريمة « واعلموا انما غنمتم مـن شيء فان الله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» فكانوا يقطعون الخمس ويوزعون الاخماس الاربعة على المحاربين . وفي ذلك يقول يحيى بن آدم في كتاب الخراج ما يلي : « فأما الغيمة ففيها الخمس لله وهو مردود مـن الله عـلى الذين سمى الله : للرسول ولـذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، لا يوضع في غيرهم ، وذلك الى الامام يضعه فيمن حضره منهم بعد ان يجتهد رأيه ويتحرى العدل ولا يعمل في ذلك بالهوى . وما بقي بعد الخمس فهو للذين غلبوا عليه من المسلمين يُقسَّم بينهم بالسوّية . (وقالوا) للفرس سهمان ولصاحبه سهم »[2].

أما الارض فلم تقسم بين المقاتلـة لاسباب أهمهـا : ان العرب كانوا مشغولين بالحرب ولا يجوز صرفهم الى فلاحة الارض . هذا فضلا عن قلة خبرتهم بالشؤون الزراعية وما سيؤديه جهلهم بها من خراب للارض وقلة واردائها .

لهذا كله تركت الارض بايدي اصحابها الاولين يستغلونها ويدفعون خراجها . وبكلمات أخرى عدت ملكيـة الارض الزراعيـة المفتوحـة الى الدولة ، وأبقى أصحابها عليها يستغلونها نيابة عن الدولة التي هي صاحبـة

---

(١) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٥ .

(٢) طبعة ليدن (١٨٩٥) ، ص ٤ .

رقبتها • يقول يحيى بن آدم : « فان الارضين الى الامام أن رأى أن يخمسها ويقسم أربعة أخماسها للذين ظهروا عليها فعل ذلك ، وان رأى أن يدعها فيئاً للمسلمين على حالها أبداً فعل • »[1] بعد أن يشاور في ذلك ويجتهد رأيه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وقف بعض ما ظهر عليه من الارضين ، فلم يقسمه وقد قسم بعض ما ظهر عليه •

الى جانب هذا النوع من الاراضي التي تسمى عادة بالاراضي الخراجية ، كانت هناك الصوافي ، (جمع صافية وهي الاراضي التي قتل أصحابها أو هربوا واراضي الدولة مما كان لملوك الفرس وأشرافهم وارض البريد والمعابد) ، وتعتبر هذه الاراضي من أملاك الدولة • تستغلها هي اذا أرادت أو تعطيها لمن يزرعها ويدفع عنها الخراج وكانت مساحة أراضي الصوافي كبيرة ، ومواردها غنية ، وجلّها في منطقة السواد • وكان يترك الى الامام أمرها « ان شاء أقام فيها من يعمّرها ويؤدي الى بيت مال المسلمين عنها شيئاً ويكون الفضل له • وان شاء انفق عليها من بيت مال المسلمين ، واستأجر من يقوم فيها ويكون فضلها للمسلمين وان شاء أقطعها رجلا ممن له غناء عن المسلمين » ،[2] أي ان فيها ثلاث حالات : إما أن تؤجّر ، واما ان تستغلها الدولة وتنفق عليها من بيت المال ، وتأخذ غلاتها منفعة عامة للمسلمين ، واما أن تقطع لاحد الناس •

وكانت القاعدة كما هو معروف ان الارض التي تؤخذ عنوة تترك بيد أصحابها لاستغلالها ودفع الخراج عنها • وكان ما يتم عملياً هو أن الدولة تأخذ هذا الخراج ، وتدخله في ميزانيتها العامة ولا توزعه على المقاتلة الذين اشتركوا في الفتح رغم ان الشريعة أعطتهم الحق في أربعة أخماس مايغنمون • واكتفت الدولة بأن أعطت المقاتلة العطاء فقط ، الذي كان الخليفة يحدد مقداره •

---

(١) كتاب الخراج ، يحي بن آدم ، طبعة ليدن ، ص ٤ •

(٢) كتاب الخراج ، يحي بن آدم ، ص ٨ •

واذن فانه لم يكن هنالك فرق بين الاراضي التي تبقى بيد أصحابها ، وهي أرض الخراج ، وبين الصوافي ، لان موارد كل منهما كانت تذهب الى بيت المال • وكل منهما هو في الحقيقة ملك الدولة •

التنظيم المالي :

كان بدء تنظيم موارد بيت المال في عهد عمر بن الخطاب الذي نظم أمور الجباية ، وصنّف الاراضي ، واستمرت العمليات التنظيمية بعد عمر أيضاً • وكانت الخطوات تتوالى والتفسيرات توضع كل حسب اجتهاده ، ووفق ما يرى • وكان في زمن ابن الخطاب نوع آخر من الاراضي هي القطائع،وهي الاراضي التي يشتريها العرب بما لهم أو تقطعهم اياها الدولة•

وقضية اقطاع السلطة الارض لاشخاص،قديمة تعود الى عهد الرسول وابي بكر وعمر الذين كانوا يقطعون الارض لخيار رجالهم ، وذلك من ارض الدولة وصوافيها ، ويروى ان الرسول الله صلى الله عليه وسلم « أقطع رجلا أرضاً ، فلما كان عمر ترك في يده ما كان يعمّره واقطع بقيتها غيره » • واقطع أبو بكر الزبير • واقطع عمر علياً ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبيد الله ابن مسعود ، واسامة بن زيد[١] ، حتى أصبح هؤلاء وغيرهم من أصحاب الاموال العظيمة •

هذا وقد كان لسادات العرب قطائع وأراض في العراق • ولكنهم في زمن الفتوح كانوا لايقيمون وزناً للارض وغلاتها لما تدره عليهم الفتوح من غنائم وخيرات لا تحصى • أما حين توقفت الفتوح وانقطع سيل الغنائم عن التدفق ، فقد أقبلوا على الارض يعمروها ويستغلوها ويبيعوها ويشتروها ويستقطعوها إلى غير ذلك • وكان يحق للرجل اذا وجد أرضاً مهملة ان يستغلها ويجعلها له • وقد حدث في زمن علي بن ابي طالب أن جاءه رجل فقال له : « أتيت أرضاًقدخربت وعجز أهلها عنها فكريت أنهارها وزرعتها، قال : كل هنيئاً وأنت مصلح غير مفسد ، معمّر غير مخرّب »[٢]•

---

(١) الخراج ، يحي بن آدم ، ليدن ، ص ٥٧ •
(٢) الخراج ، يحي بن آدم ، ليدن ، ص ٤٥ •

ويقال إن الرسول الكريم قال : « من أحيا أرضاً ميتة فهي له ، وليس لعرق ظالم حق » • وقال عمر بن الخطاب : « ان من أحيا مواتاً فهو أحق به ، وقال ايضاً : من عطل أرضاً ثلاث سنين لم يعمّرها فجاء غيره فعمرها فهي له » [١] •

فملكية الارض اذن مشروعة ، ولم ينـه عمر بن الخطاب كما يزعم البعض عن شرائها • وهنـاك خبر في كتاب يحيى بن آدم مفاده أن شخصاً اشترى أرضاً من أرض الخراج ثم أتى عمر فأخبره بما فعل ، فقال له عمر: « ممن اشتريتها ؟ •• » قال : من أهلها • قال : « فهؤلاء أهلها للمسلمين ، أبعتموه شيئاً ؟ » قالوا : لا ، قال : « فاذهب فاطلب مالك حيث وضعته » [٢] •

ويمكننا ان نستنتج من هذا الخبر أن عمر أو غيره من رجال الدولة كانوا لا يشجعون انتقال الارض من أصحابها الاصليين الى ملاك جدد من العرب لان أهلها في رأيهم أقدر وأصلح لزراعتها • هذا فضلا عن انها حين تكون في ايدي أصحابها فهي أرض يدفـع عنها الخراج • أما حـين تنتقل ملكيتها الى عربي مسلم فتصبح أرضاً عشرية ، والعشر أقل من الخراج •

وكان الخراج زمن عمر يفرض على الارض سواء أسلم أصحابها أم لم يسلموا ، أما الجزية فكان يسقطها عمن يعتنق الاسلام • وهناك من يعتقد ان العرب زمن هذا الخليفة كانوا يعتبرون أن دفع الجزية مـن قبـل الامم المغلوبة هو اعتراف من أفراد هذه الامم بخضوعهم للفاتحين ، ويرجح فلهاوزن ان هـذا التفريق بين الجزيـة والخراج لم يكن واضحـاً زمن عمر ، وانه لم يتبلور ويتحدد الا في عهود من خلفه • ويقودنا هذا الرأي إلى الحديث عن نظريتين تتعلقان بالنظام المالي في الاسلام يدور حولهما نقاش طويل في يومنا هذا • وأقصد بهاتين النظريتين : نظرية فلهاوزن ، ونظرية دينيت •

يقدم فلهاوزن في كتابه « تاريخ الدولة العربية » صورة للنظام المالي

---

(١) الخراج ، يحي بن آدم ، ليدن ، ص ٦٠ ــ ٦٥ •
(٢) الخراج ، يحي بن آدم ، ليدن ، ص ٣٩ •

منذ الفتح وحتى عصر عمر بن عبد العزيز ، كما يبحث في التغيرات التي أدخلها عمر الثاني على هذا النظام[١]. وقد ظلت هذه الصورة معتمدة من قبل الكثيرين من الباحثين في موضوع التاريخ الاقتصادي للدولة العربية لفترة طويلة من الزمن ، حتى جاء المستشرق دانيل دينيت ، وقام بدراسة موسعة للموضوع في كتابه «الجزية والاسلام»[٢]، وقد قدم دينيت تفسيرات جديدة لبعض القضايا المتعلقة بالنظام المالي للدولة العربية تستحق الكثير من الاهتمام والتقدير . ونحن وإن كنا لسنا في موضع تقديم دراسةاختصاصية حول موضوع التاريخ الاقتصادي ، فانا نرى من المفيد أن نقدم ملخصاً لاهم النقاط الرئيسية في الرأيين ، وأن نحاول استجلاء التغييرات التي أدخلها الخليفة عمر بن عبد العزيز ، الذي هو موضوع الدراسة في هذا الفصل .

يلخص دينيت في الفصل الاول من كتابه « الجزية والاسلام » رأي فلهاوزن في النقاط التالية[٣] .

١ - فرض العرب وقت الفتح إتاوة تتكون من مبلغ معلوم من المال، وقدر معين من الحاصلات الزراعية[٤].

٢ - كان تقدير الاتاوة على السكان وجمعها منهم موكولا إلى هيئة من الاهالي والموظفين الكنسيين الذين كانوا يقومون بهذه الواجبات من قبل الفتح .

٣ - وليس هناك من شك في أن هذه الاتاوة كانت حصيلة ضريبة على الارض وأخرى على الدخل - أو بعبارة أخرى ضريبة الرأس - ....

٤ - وعلى ذلك فان اصطلاحي خراج وجزية اللذين استعملا بمعنى ضريبة الأرض وضريبة الرأس على الترتيب كانا لما يزيد عن قرن من الزمان

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٢٦٣ - ٣٠١ .
(٢) دانيل دينيت ، الجزية والاسلام ، ترجمة الدكتور فوزي فهيم جادالله ، ط ٠ بيروت١٩٦٠.
(٣) دينيت ، ص ٢٩ - ٣١ .
(٤) يبدو أن دينيت يقصد بالمبلغ المعلوم من المال ، ما يعرف باسم الجزية ، وبالقدر المعين من الحاصلات الزراعية ، الخراج أو ضريبة الأرض .

لفظين مترادفين ولم يتعد مدلولهما معنى « إتاوة » ، ولم يميز العرب انفسهم بين ضريبة الارض وضريبة الرأس إلا منذ عام ١٢١ هـ •

٥ ـ كان دخول الاسلام يعفي صاحبه من جميع الضرائب على الاطلاق وليس من ضريبة الرأس فحسب •

٦ ـ تعفى الأرض التي يملكها غير المسلم من الضرائب إذا تحول المالك الى الاسلام أو إذا باعها الى مسلم •

٧ ـ ترتب على ذلك أن نشأ دافع اقتصادي قوي الى دخول الاسلام ، وترتبت على دخول الاسلام أفواجاً ثلاثة آثار :

آ ـ كان لابد أن يقل الدخل الذي يجمعه العرب •

ب ـ أصبحت الاعباء المالية على الجماعات التي تدفع الاتاوة لا تحتمل، إذ القي عبء الضرائب التي كان يؤديها الذين دخلوا في الاسلام على كواهل الذين احتفظوا بأديانهم (الى جانب أعبائهم الأصلية من الضرائب) •

ج ـ ترك كثير من الذين أسلموا أراضيهم وقراهم وهاجروا الى المدن العربية حيث أصبحوا موالي للعرب مع ما كان يكتنف موقفهم من حيف سياسي اذ لم يمنحوا المساواة الاجتماعية التامة مع حماتهم العرب ، لاسيما في مسألة الحصول على العطاء من الدولة ، وترتب على ذلك أن اصبحوا يشكلون خطراً دائماً يهدد الاستقرار الحكومي •

٨ ـ ولكي يمنع الحجاج بن يوسف ، والي العراق ، تدهور الدخل أعاد دون سند شرعي ، جميع التزامات الاتاوة على الذين يسلمون وارغمهم على ترك المدن وأعادهم الى أراضيهم •

٩ ـ أصدر الخليفة التقي عمر بن عبد العزيز في عام ١٠٠ هـ قراراً يقضي بأن دخول الاسلام يعفي المرء من جميع التزامات الاتاوة ، ولكنه

لكي يمنع تحول الملكية من فئة الأرض الخاضعة للضريبة الى الفئــة المعفاة منها ، منع عمر بيع الارض الى مسلم كما منع تحولها الى الفئة المعفاة بتحول صاحبها الى الاسلام ابتداء من سنة ١٠٠ هـ وبذلك اصبح أمام معتنق الدين الجديد أن يختار ، أحــد أمرين : اما أن يبقى على ارضه ويؤدي ايجــاراً مساوياً للضريبة ، أو يرحل عنها ويذهب الى المدينة • وفي أغلب الأحوال • كان يختار الأمر الثاني •

١٠ ــ وأخيرا في عام١٢١هـ أصدر نصر بن سيار حاكم خراسان قرارا يلزم الجميع سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين أن يؤدوا ضريبة الارض منذ ذلك التاريخ ، أما ضريبة الرأس فقد اعتبرت صغارا وتحقيرا لا يلزم به سوى غير المسلمين •

١١ ــ ولما كان معظم فقهاء المسلمين ومؤرخيهم يخالفون هذه النقاط العشر ، فهم لذلــك ــ في رأي ڤلهاوزن ــ قد ارتكبوا التزوير عامــدين ، تزويرا تفسره ، وان كانت لا تبرره ، محاولاتهم الرجوع بأصول النظــم الاقتصاديــة الى زمن الفتح ، فيقول ڤلهاوزن : « ويميل الفقهــاء المسلمون دائما الى ارجاع النظم التي حدثت تدريجيا ، والتي نشأت نتيجة لميول أو حاجات دعت اليها الظروف شيئاً فشيئاً ، يميلون لارجاعها الى بدء الاسلام ويؤيدون ذلك بسنة الرسول وخلفائه الأول » •

ويقول دينيت بعد ذلك انــه هناك « ثــلاث نقاط قررها ڤلهاوزن لم تعارض أبداً في كل ما كتب بعده في الموضوع ، وتتلخص فيما يلي :

١ ــ ميل المصادر العربية إلى أن تنسب إلى عهد أسبق نظماً تنتمي إلى عهد متأخر••

٢ ــ لفظتا خراج وجزية مترادفتان وتعنيان الاتاوة •

٣ ــ الرأي القائــل بأن دخول الاسلام كــان يعفي المرء من جميــع التزامات الاتاوة »[1] •

---

(١) دينيت ، ص ٣٦ •

أما دينيت فيعترض على امكانية التسليم بهذه النقاط لأسباب يمكن تلخيصها بالأمور التالية(١) :

١ ـ **مسألة المنهج :** ڤلهوزن ، على حد زعم دينيت ، يقدم أولا فرضية ثم يسوق الشواهد على صحتها ، ويرفض كل ما لايتفق معه من الشواهد ، ويصفه بأنه زائف ومختلق دون أن يقدم برهاناً على زعمه •

٢ ـ **مسألة الاصطلاحات المتناقضة :** يقول دينيت ان ڤلهاوزن يورد عبارات مثل : « جزيـة على أرضهم » ، و « خراج على رؤوسهم » ، ليقيم الدليل على أن لفظي « جزية » و « خراج » كانا مترادفين في معناهما ، ولكنه يتساءل قائلا : « ولكن ألا يبدو كذلك أن الجزية على الأرض كانت ضريبة وأن الخراج على الرؤوس كان ضريبة رأس »(٢) •

٣ ـ يشير دينيت مشكلة **الجماعة التي كانت تدفع الاتاوة بعد اسلام افرادها** ويقول : « اذا كانت الاتاوة المعلومة ثابتة لا تتغير فسيترتب على ذلك أن يزيد العبء الفردي على كل دافع ضريبة بدخول جيرانه في الاسلام • اذا كان هذا هو الحال فكيف يكون العرب هم الخاسرين في حين أنهم يجمعون القيمة المقررة »(٣) • وعندنا أن هذه الملاحظة سليمة جداً وتنسف قضية المسؤولية الضريبية الجماعية ، واذا صحت هذه المسؤولية الجماعية بالنسبة للتنظيم الضريبي في فترة من فترات التاريخ البزنطي ، فانها لم تكن كذلك في ظل الدولة الاسلامية ، بل كان هناك تفريق بين النوعين المقررين من الضريبة : الجزية والخراج •

٤ ـ لا يتفق دينيت مع ڤلهاوزن في أن ضريبة الرأس (الجزية) كانت ضئيلة جدا الى حد أن الاعفاء منها لم يصبح دافعاً اقتصاديا يحدو الناس للاسراع في الدخول بالاسلام للتخلص منها • ويورد بعض النصوص التي

---

(١) انظر ، دينيت ، ص ٣٦ ـ ٤٢ •

(٢) دينيت ، ص ٣٨ •

(٣) دينيت ، ص ٣٨ •

تثبت أن الاعفاء من ضريبة الرأس (الجزية) كانت سبباً في ترك الكثير من المسيحيين دينهم ودخولهم في الاسلام[1] •

٥ ـ يعترض دينيت على تحديد فلهاوزن لعام ١٢١ هـ كتاريخ للفترة التي اتخذ فيها كل من لفظي خراج وجزية معناه الخاص المميز له ، ويورد آراء مستشرقين آخرين حول هذا الموضوع[2] •

٦ ـ ويناقش دينيت قضية تشنيع فلهاوزن على الفقهاء والمؤرخين المسلمين الذين نسبوا نظما مستحدثة الى الخلفاء الأول حتى يبرروا النظم المعمول بها في أيامهم • ويرفض زعم فلهاوزن هذا باستدلالات مأخوذة من مؤرخين وفقهاء متقدمين[3] •

وينتقل دينيت بعد ذلك ليقرر الحقائق التالية :

١ ـ إن الاتفاقات التي تمت عند الفتح بين الفاتحين والشعوب المغلوبة لم تكن موحدة ، بل كانت هذه الاتفاقات تختلف بحسب ظروف كل مصر وأنه في المصادر اكثر من شاهد يثبت بوضوح صحة هذه الفرضية • ويقرر ان الوضع في خراسان لم يكن هو ذاته في السودان أو في مصر•وعلى ذلك ، ففي رأيه أن « تشريع نصر بن سيار في خراسان يمكن فهمه فيما يختص بهذه الولاية فحسب ، ولا يلقي ضوءاً ما على الوضع في أي مكان آخر • ومن المهم جداً أن نتذكر ـ على سبيل المثال ـ ان فقهاء المدرسة العراقية كانوا يكتبون في حدود ما هو صحيح بالنسبة للعراق لا بالنسبة لمصر مثلا »[4] •

٢ ـ لا يقبل دينيت أن استعمال « الخراج » و « الجزية » كلفظين مترادفين كانا يعني إتاوة ، ويقول إن هذين اللفظين انما استعملا بمعنى « ضريبة » • فحين يقول أبو يوسف صاحب كتاب « الخراج » : « خراج

---

(١) انظر ، دينيت ، ص ٣٨ ـ ٣٩ •
(٢) انظر ، دينيت ، ص ٣٩ •
(٣) انظر مثلا ، ص ٤٠ ، من كتاب دينيت •
(٤) دينيت ، ص ٤١ •

رؤوسهم » فعلينا أن نفهمها بمعنى الضريبة المفروضة على رؤوسهم ، وحين يقول البلاذري : « أرضاً عليها الجزيـة من أرض الأعاجم » فانما يقصد : أرضاً عليها ضريبة الأرض • وأن كلاً من كلمتي « خراج » و « جزية » قد يعني : ضريبة الأرض ، أو ضريبة الرأس حسب العبارة التي تحدد ما اذا كانت الضريبة على الارض أو على الرؤوس أو الرقاب[1] •

بعد هـذا العرض لخلاصة عن النظريتـين اللتين تبحثان أهم نقـاط النظام الاقتصادي في الدولة العربية ، نعود لمتابعة الحديث عن التغييرات التي ادخلها الخليفة عمر بن عبد العزيز في التنظيم المالي للدولة ، منطلقين مـن بعض النقاط الأساسية التي كانت تشكل العمود الفقري لهذا التنظيم في الفترة السابقة لعهده • وأهم ما نلاحظ في هذا الصدد انه كان أهل البلاد المفتوحة يؤدون للعرب المسلمين إتاوة ينص عـلى مقـدارها اذا دخلت بـلادهم في حوزة المسلمين صلحاً • أما فتحت بلادهم عنوة ، صارت البلاد وأهلها ملكاً للفاتحين العرب ، وفرضت عليهم الاتاوة بالمقدار الذي يريده الفاتحون •

ومن المفروض في الاساس ان الذي يسلم من سكان البلاد المفتوحـة لا تفرض عليـه إتاوة الفتح جزية كـانت أم خراجا • وان الارض التي يستملكهـا عربي مسلم او يسلم عليها صاحبها غـير العربي لا تعـود ارضا خراجية لان المسلم لا يؤدي الاتاوة للدولة ، والخراج جزء من الاتاوة ، فهو مواطن كسائر المواطنين في دولة الاسلام ، وما يستحق عليه من ضرائب للدولة ، انما هو صدقة أو زكـاة عن أمواله ، حددها الشرع ليتقرب بهـا الى الله •

ولكن ظروف قيام الدولة وشعور الحكام منذ عهد عمر بن الخطاب بالمسؤوليات المالية الجسيمة التي تترتب على الخزانة العامة ، جعلتهم يأخذون الخراج عن الارض من الذين اسلموا ، لان لخراج كان يشكـل الجزء الاكبر من الواردات •

---

(١) دينيت ، ص ٤١ ـ ٤٢ •

وكانت نظريتهم في أخذ الخراج مبنية على ان الارض المفتوحة هي من غنائم الفتح • فهي ملك للسلطان ، وهو صاحبها • وعلى الذي يستغلها ان يدفع خراجها • فكان الرجل من اهل السواد اذا اسلم واقام بارض يؤخذ منه الخراج[1] •

ويعيد يحيى بن آدم تاريخ الخراج كضريبة الى ما قبل العرب المسلمين ، فيقول : « وأما سوادنا هذا فانا سمعنا انه كان في ايدي النبط فظهر عليهم أهل فارس فكانوا يؤدون اليهم الخراج ، فلما انتصر العرب على الفرس تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والدهاقين على حالهم وأخذوا الخراج بعد أن مسحوا الارض »[2] • وصاروا يجبون الخراج كما جباه الفرس قبلهم من كل منطقة مقدار معين من المال يؤديه أهلها ، أسلموا أم لم يسلموا ، قل عددهم أم كثر •

وقد أدت جباية الخراج من أهل الريف الذين اسلموا ، وثقل وطأته عليهم ان صاروا ينزحون الى المدن تاركين جماعتهم • فقلت نتيجة لذلك الايدي العاملة في القرى ، ولم تزرع الارض في بعض الجهات • وتوجهت جموع الفلاحين المسلمين المهاجرين الى البصرة والكوفة ، ولكن عرب هذين المصرين لم يرحبوا بهم لكثرة الموالي الذين كانوا فيهما قبلا • وكان جلّ الموالي من الفرس الذين اسرهم العرب في ميدان القتال ، واعتقوهم فاسلموا وعاشوا في المدن في ظل سادتهم العرب وانتسبوا بالولاء الى القبائل العربية • وكان الموالي يؤلفون طبقة كبيرة لعبت دورا هاماً في المجتمع ، وفي الثورات المختلفة التي قامت في العراق • وكانت حوافزهم اقتصادية وسياسية واجتماعية وغير ذلك • وكانوا حين يخرجون الى القتال لا يعتبرون من المقاتلة لانهم كانوا مجبرين على الخروج بحكم تبعيتهم لسادتهم الذين ينتمون اليهم فهم اذن لا يأخذون العطاء الذي يستحق للمقاتلة رغم اشتراكهم في

---

(١) انظر ، يحي بن آدم ، ص ٤٣ •

(٢) يحي بن آدم ، ص ٨ •

الحروب ، ورغم انهم مسلمون يحق لهم ما يحق لغيرهم من اخوانهم في الدين • وقد ظهرت روحهم الناقمة هذه في حركة المختار التي قمعت بقسوة ونتج عنها عدد كبير من الضحايا • وحين هاجرت الى البصرة والكوفة جموع الفلاحين من القرى ، ازداد عنصر الموالي فيهما قوة ، وكثر عدده ، حتى كاد المعسكران اللذان أنشأهما عمر بن الخطاب في الاساس ليكونا مستقرا للجند العربي يفقد ان طابعهما العربي ، ويصبحان مركزين لاخلاط من الناس العرب فيهما عنصر واحد بين عناصر أخرى كثيرة •

واذا أردنا أن نستعرض الاسس التي اعتمد عليها النظام المالي الذي كان متبعاً أيام عمر بن الخطاب لوجدنا أن ظروف فتح كل مصر من الأمصار والأوضاع الضريبية التي كانت سائدة فيه قبل الفتح ونوعية المشاكل التي يقدمها النظام المالي والاجتماعي والطبقي لهذا المصر ، هي التي فرضت على عمر المبادىء العامة التي أقرها كناظم للشؤون المالية لهذا المصر • ففي العراق مثلا وحين طرحت مشكلة أراضي السواد ، توصل عمر الى قرار بعد التشاور مع كبار الصحابة ، يلخصه لنا فيما يلي : « ••• ولكن رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد اغنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم ، فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس على وجهه وأنا في توجيهه ، وقد رأيت أن احبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج ، وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم »[1] • وكانت حجة عمر في قراره هذا ان تقسيم الأرض بين المحاربين الذين فتحوها سيؤدي الى حرمان الدولة من الشطر الاكبر من دخل هذا المصر ، والدولة تحتاج هذا الدخل لشحن الثغور ودفع العطاء وإعالة فقراء المسلمين وما الى ذلك من الأعباء المالية التي تقع على كاهل الدولة[2] • وهكذا غدت ملكية السواد ملكية موقوفة لا تباع ولا توهب لأنها من حق بيت مال المسلمين ، وفرض عليها الضريبة التي

---

(١) أبو يوسف ، كتاب الخراج ، ط • المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ص ٣٠ •
(٢) أبو يوسف ، ص ٣٠ •

تختلف المصادر والروايات حول كميتها والأسلوب الذي اتبع في فرضها ، كأن يؤدي كل جريب من الارض ضريبة موحدة قدرها درهم واحد نقداً وقفيز واحد من المحصول عيناً دون تمييز بين أنواع المحاصيل التي تزرع ، أو ربط ضريبة الأراضي بنوع المحصول الذي تنتجه[1] • ونستطيع أن نستخلص من النصوص والروايات الاولية أن سكان السواد « كانوا يؤدون ضريبة على الارض ربطت على أساس قدر معين من المحصول لكل جريب ، وأنهم كانوا يؤدون ضريبة رأس كذلك قدرت حسب دخولهم ، يجمعهافي معظم الحالات رؤساء القرى المحليون أو الدهاقين »[2] • ودون من أجل ذلك الديوان سنة ٢٠ هـ على نمط الديوان الفارسي الذي وضعه له أحد مرازبة الفرس الذين كانوا في المدينة بقوله[3] : « يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً ، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه ، لا يشذ منه شيء ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل » • ويبدو ان الديوان الذي بدأ العمل به زمن ابن الخطاب كان بسيطا ولم يستوعب كافة المشاكل المالية التي تواجه الدولة ، وأن هذا الديوان تطور مع مرور الزمن ، وأن بدايات الاصلاح المالي قد تأخرت حتى زمن معاوية بن أبي سفيان الذي بحث في زمنه للمرة الألى قضية أراضي الصوافي (وهي أراض كانت لكسرى وأسرته ولم تكن ضمن الأراضي التي يدفع عنها الخراج) ، وقد أمر معاوية المسؤول عن الخراج في العراق سنة ٤١هـ أن يقوم بجرد هذه الأراضي واحصائها واستغلالها • فقام مسؤول الخراج بذلك وزاد خراج العراق مايعادل الخمسين مليون درهم[4] • ويظل هناك أمر لا بد من التوقف عنده ونحن بصدد الحديث عن بدايات التنظيم المالي الذي تم زمن عمر بن الخطاب وهو قضية الدخول في الاسلام وما يستتبعه من تحول في المسؤولية الضريبية بالنسبة للمؤمن الجديد • أو بمعنى

(١) انظر ، دينيت ، ص ٥٥ ، وما بعدها •
(٢) دينيت ، ص ٦٢ •
(٣) انظر ، الفخري في الآداب السلطانية ، ص ٦٨ •
(٤) انظر ، اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢١٨ •

أوضح : هل كان الدخول في الاسلام يعفي صاحبه من ضريبة الرأس فقط ، أم هل كانت أرضه أيضاً تتحول من أرض خراجية إلى أرض عشرية ؟! وفي الاجابة على هذا التساؤل لا بد أن نفرق بين النوعين من الضريبة اللذين كانت تتألف منهما الاتاوة المفروضة : الجزية (ضريبة الرأس) والخراج (ضريبة الأرض) •

فالدخول في الاسلام كان يعفي المرء من ضريبة الرأس ، ولكن ليس من ضريبة الارض ، الا في حالة واحدة يذكرها يحيى بن آدم اذ يقول : « قال حسن في أرض الخراج لأهل الذمة : من أسلم منهم فهو حر مسلم ، ويطرح الجزية عن رأسه ، وله الخيار في أرضه ، إن شاء أقام فيها يؤدي عنها ما كانت تؤدي ، وإن شاء تركها فقبضها الامام للمسلمين مع مافي يديه ، مما كان في أيدي أهل فارس »[1] •

أي أن اعفاءه من التزاماته الضريبية عن الارض ، لا يكون الا اذا ترك أرضه وهاجر عنها ، وبذلك يعفى من كل ما كان عليه من ضرائب قبل اسلامه •

أما النظام الضريبي الذي عمل به في سورية بعد الفتح ، فلا يمكن فهمه إلا اذا وضعنا في اعتبارنا الظروف التي رافقت الفتح من جهة ، والنظام المالي الذي كان معمولاً به في هذه البلاد أيام الادارة البيزنطية لها • ولعل أهم نقطة تجدر مراعاتها عند الحديث عن ظروف الفتح العربي لسورية أن هذا الفتح لم يتم دفعة واحدة ولم تستسلم المدن السورية كلها بشكل موحد ، فبعضها حوصر أكثر من مرة ، و بعضها اذعن وطلب الاستسلام ، وبعضها قاوم وفتح عنوة • كما أن فتح بعض المدن مر بأكثر من مرحلة اذ هوجم أهلها فأذعنوا أول الأمر فشرط عليهم ، ثم ما لبثوا أن نقضوا الصلح فعاد العرب لمهاجمتهم وأخضعوهم خضوعاً نهائياً فشرطوا عليهم مجدداً • الأمر الذي أدى الى وجود أكثر من نص في المصادر العربية يتعلق بالشروط

(١) يحي بن آدم ، كتاب الخراج ، ط • المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ ، ص ٢٢ •

التي تم الصلح عليها • ولا يمكن اعتبار أي نص نصاً يتضمن الأحكام النهائية لشروط الصلح الا اذا تأكدنا من المناسبة التي عقد فيها ولأي فترة من فترات الفتح يعود • الامر الذي يجعل اعتماد نص عملية معقدة ولا يمكن التثبت منها الا بعد تمحيص وتدقيق للأسباب التي أوردناها • ولن ندخل في بحثنا هذا في متاهة هذه النصوص ، بل يكفي أن ننبه الى ذلك ، وأن نشير الى أن النصوص التي سنعتمدها هي في رأينا النصوص التي يمكن اعتبارها أقرب الى الصيغ النهائية التي اعتمدت في التعامل المالي بعد الفتح •

أما فيما يتعلق بالنظام الضرائبي الذي كان يعتمده البيزنطيون في سورية ، فيمكننا أن نقول أن التشريع المالي البيزنطي كان يفرق بين ضريبة على الأرض وضريبة على الرؤوس • وضريبة الارض كانت تقوم على أساس تقسيم البلاد الى وحدات « لا تساوي في المساحة وانما في قيمة المحصول الذي تغله •• ويؤدى عن كل منها نفس الضريبة المحددة • وقد سجل الاحصاء عدد الوحدات في كل مدينة ذات حكومة محلية وما يتبعها من أرض وقرى وضياع • وفي كل سنة عند اعلان الضريبة الأساسة عن الوحدة كان على موظفي الحكم الذاتي في المدينة أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوي مقدار الضريبة الاساسي عن الوحدة مضروباً في عدد وحدات كل مدينة »[1] •والى جانب هذه الأراضي العامة في المدن والقرى ، كانت هناك ضياع امبراطورية وضياع خاصة يمتلكها كبار الشخصيات بشروط استثنائية ،وملكيات صغيرة يملكها فلاحون أحرار[2] • وكان يقوم بجمع الضرائب عن الأراضي موظفو الحكومة المحلية في المدينة ، وعلى عاتقهم أن يقدموا كل عام مبلغاً من المال هو مجموع ما على الاراضي من ضرائب مقدرة[3] • هذا فضلاً عن الأراضي التي كانت تابعة للكنيسة أو التي كانت ملكاً لبعض السادة والأشراف ، والتي

---

(١) دينيت ، ص ٩٥ ـ ٩٦ •

(٢) دينيت ، ص ٩٦ •

(٣) انظر ، دينيت ، ص ٩٧

لم تكن معفاة من الضرائب ، بل تدفع ضرائبها مباشرة للحكومةالامبراطورية وليس عن طريق موظفي المدينة المسؤولين عن جباية الضرائب[1] • وكما كانت هناك ضرائب على الارض كانت في سورية في العهد البيزنطي ضرائب على الرؤوس ، وقد استمر وجود هذه الضريبة حتى جاء الفتح العربي[2] •

وحين فتح العرب سورية ، وكانت ظروف فتحهم لمدنها المختلفة غير واحدة كما أسلفنا ، فقد وضعوا شروطاً في معاهدات الصلح تتعلق بالمسؤوليات المالية المترتبة على سكانها ، نورد فيما يلي نموذجين لهما ، وهذين النموذجين لهما في رأينا صفة المثل الذي اتبع بعد الفتح في أغلب المدن السورية •

النموذج الأول منقول عن الطبري وفيه يتحدث عن فتح حمص بعد حصار المسلمين لها ، وهو الحصار النهائي الذي دانت المدينة بعده للعرب بشكل نهائي • يقول الطبري :

« ••• فنادوا (أي أهل حمص) : الصلح الصلح ••• فأجابوهم ••• فصالح بعضهم على صلح دمشق ، على دينار وطعام ، على كل جريب أبداً أيسروا أو أعسروا • وصالح بعضهم على قدر طاقته ؛ إن زاد ماله زيد عليه ، وإن نقص نُقِص ، وكذلك كان صلح دمشق والأردن »[3] • ويتضح من هذا النص انه كان في سورية نظامين ، أخذ بهما العرب في فرض الضرائب على أهل سورية : ضريبة محددة ، قدرها دينار على كل رجل الى جانب كمية محددة من الغلة عن كل جريب ، أو ضريبة تتناسب مع الحصول ، اذا زاد محصول الرجل زادت ، واذا قل أنقصت •

أما النموذج الثاني فمنقول عن البلاذري وفيه يتحدث عن الشروط التي صولح عليها أهل بعلبك • يقول البلاذري[4] : « ولما فرغ أبو عبيدة

---

(١) انظر دينيت ، ص ٩٧ •
(٢) دينيت ، ص ٩٩ وما بعدها •
(٣) الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٠ •
(٤) فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ١٧٧ •

من أمر مدينة دمشق سار الى حمص ، فمر ببعلبك فطلب أهلها الأمان والصلح ، فصالحهم على أن أمنهم على انفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم ... من أسلم منهم ، فله مالنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا الى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج . شهد الله وكفى بالله شهيدا . . . والمطلع على أغلب عقود الصلح التي وقعها العرب مع سورية ، يلاحظ أن العرب استعملوا الموظفين الذين كانوا يعملون زمن الادارة البيزنطية المحلية للمدن ، واتخذوهم وكلاء عنهم في جباية الضرائب ، كما كان الحال من قبل . ويتضح من كثير من الاشارات التي توردها المصادر أن العرب صادروا الضياع الخاصة التي تركها ملاكها من أهل البلاد ، كما صادروا أراضي الحكومة ، وعاملوها بشكل يختلف عن المعاملة التي كانت تعامل بها الأراضي التابعة لاشراف الادارة المحلية للمدن . واقطعوا الكثير من هذه الاراضي المصادرة ، بمناسبات وعلى مراحل استمرت طوال العصر الأموي[1] . ولعل أهم تغيير احدثه العرب في النظام الضريبي في سورية هو أن عمر بن الخطاب أمر بأن تسري ضريبة الرأس على جميع طبقات المجتمع وألا يعفى منها أحد . وكان عمر قد فعل ذلك في السواد حين ألزم الدهاقين والموظفين الآخرين بدفعها ، رغم انهم كانوا معفيين منها زمن الفرس[2] . ولعمر أيضا يعزى تغيير مقدار الجزية في سورية ، فقد كانت أول الامر دينارا ، الا أن عمر جعلها فيما بعد تتدرج حسب طاقة الفرد الى اربعة دنانير ، وذلك كحد أقصى للأغنياء ، وتقل عن ذلك بالنسبة للفقراء . وقسم الناس الى ثلاث فئات : غني ومتوسط وفقير ، وجزية كل منهم حسب حاله[3] . وهناك أخيراً ما يعرف باسم عهد عمر للنصارى والذي أعطاه عمر لسكان بيت المقدس ، والذي دار نقاش طويل

---

(١) انظر ، دينيت ، ص ١٠٧ .

(٢) دينيت ، ص ١٠٨ .

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٧٠ .

حوله ، فاعتبره البعض زيفاً واختلاقاً ،[1] واعتبره آخرون وثيقة حقيقية لايرقى اليها شك[2] • وأياً كان الصحيح في أمره فانه يمثل حداً مقبولاً ومعقولاً من الشروط التي كانت تمنح لسكان البلاد المفتوحة ومن الرعايا الذميين ، ويتماشى مع مافي النصوص الأخرى من شروط الصلح التي فتحت لبقية المدن السورية • وأهم البنود التي تتضمنها الوثيقة الأصلية يمكن أن تلخص فيما يلي[3] :

١ ـ يعطي العهد للمسيحيين أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، وكل ما يتعلق بحرية العبادة وحرمة الكنائس ومنع تخريبها واغتصاب أملاكها •

٢ ـ يمنع اليهود من سكن بيت المقدس •

٣ ـ تترتب الجزية على أهل بيت المقدس كما هو حال أهل المدن الأخرى •

٤ ـ من في بيت المقدس من الروم له الحق في الرحيل ، كما أنه لمن أراد من أهل المدينة أن يرحل معهم الحق في ذلك •

٥ ـ من يبق من الروم في بيت المقدس تترتب عليه الواجبات الضريبية والمسؤوليات المترتبة على سكان هذه المدينة ، ولا سيما الجزية •

٦ ـ لا تطالب السلطات العربية الاسلامية الناس بدفع الضرائب حتى يحل موسم الحصاد •

ويبدو أن النصوص الأخرى لهذا العهد ، التي ترد في مصادر غير الطبري ، والتي تتضمن شروطاً تتعلق بلباس النصارى وأزيائهم واحتفالاتهم الدينية واستعمالهم للنواقيس وارتفاع بيوتهم وغير ذلك من أمور ، هي

---

(١) انظر ، الفصل الأول من كتاب : تريتون ، الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين ، النص الانكليزي ، أو الترجمة العربية •

(٢) انظر ، دينيت ، ص ١١٠ ـ ١١١ •

(٣) انظر عهد عمر هذا ، في الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٩ •

عبارة عن إضافات متأخرة وليست من صلب العهد الذي وضع زمن عمر ، وأن النص الذي ينقله لنا الطبري هو النص الأقرب الى الصدق والدقة •

أما عن التنظيم المالي في مصر ، فامكانيات الحصول على معلومات دقيقة عنه ، متوفرة اكثر من أي جزء آخر من أجزاء الامبراطورية العربيـة ، وذلك بفضل ما تقـدمه لنا أوراق البردي من معلومات وافرة حول هـذا الموضوع •

ويذكر دينيت أن النظام الاداري في مصر الذي كان معمولاً به عند الفتح يعود الى عهد جستينان • وأن مصر كانت مقسمة الى خمس مقاطعات والمقاطعـات الى مديريات ، والمديريات مقسمة الى أقاليم ومدن ذات ادارة محليـة[1] • وكـان تقدير الضرائب يعود الى الحاكم العام ، الذي كـان يصدر في شهر تموز أو آب من كل عام منشوراً يرسل الى المديريات فيـه تقدير للضرائب التي تجمع نقداً ، وما يترك منها في مصر للنفقات المحليـة وما يرسل الى الخزانة المركزية • وكان حكـام المديريات ، عندما يصلهم منشور الحاكم العام وفيه حصتهم من الضرائب ، يعممونه على النـاس في شهري أيلول وتشرين الأول • أما المبالـغ المطلوبة من المدن ذات الحـكم المحلي وكـذلك القرى ، فكـان من اختصاص حاكم الاقليم[2] • ويقوم المسؤول عن جميع الضرائب ومعاونوه بجمع الضرائب المفروضة على سكان المدن وما يملكونه مـن أراض خارج المدن • والى جانب هـذه الضرائب النقدية ، كانت هناك ضريبة تسمى ضريبـة القمح وتقـدر حسب مساحة الأرض وخصوبتها ، وضريبة على الرؤوس[3]

ولما فتـح العرب مصر اتسم فتحهم بنفس السمات التي رأيناهـا في الاقاليم الأخرى : أي معاهدات مؤقتة مع البلاد التي لا تسقط دفعة واحدة ، أو التي فتحت ثم عادت وانتقضت عـلى الفاتحـين ، وعـاد الفاتحون لتثبيت

---

(١) دينيت ، ص ١١٥ •
(٢) دينيت ، ص ١١٧ •
(٣) دينيت ، ص ١١٩ •

سلطانهم عليها ، كالاسكندرية مثلا ، ومعاهدات نهائية ينص فيها على مقدار الاتاوة المفروضة ، وهـذه المعاهدات لا تتغير ، وتحدد فيها ضريبة الارض بشكل قاطع . وتقدم لنا المصادر العربية عدداً ضخماً من الروايات والاخبار المتعلقة بالتنظيم المالي الذي أقامه العرب في مصر . وستقدم فيما يلي نصين مأخوذين عن ابن عبد الحكم ، يمكن أن نصفهما بأنهما من أهم النصوص المتعلقـة بموضوع الضرائب المصريـة . ويصف ابن عبد الحكم في النص الأول كيف كانت تقدر الضريبة على الأرض :

« وكـان عمرو بن العاص ، لما استوسق له الامر (على مصر) ، أقر قبطها على جباية الروم . وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكـثر أهلها زيد عليهم ، وإن قل أهلها وخربت نقصوا . فيجتمع عرفاء كل قرية وماروتها ورؤساء أهلها فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور ، ثم اجتمعوا ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع . ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الارض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الارض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم مـن جملة الارض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى مافي كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم .. ثم ينظرون مابقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عـدد الأرض ، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم . فان عجز أحـد وشكا ضعفا عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وإن كـان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحّوا قسموا ذلك على عدتهم ... وكان عمر بن الخطاب .... يأخذ ممن صالحه من المعاهدين ما سمّى على نفسه لا يضع من ذلك شيئاً ولا يزيد عليه ، ومن نزل منهم على الجزية ولم يسم شيئاً يؤديه نظر عمر في أمره ، فاذا احتاجوا خفف عنهم ، وان استغنوا زاد عليهم بقدر استغنائهم »[1] .

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر . ط . توري ، نيوهافن ، ١٩٢٢ . ص ١٥٢ .

أما النص الثاني الذي يقدمه لنا ابن عبد الحكم فهو التالي :

« قال يحيى : ونحن نقول الجزية جزيتان : فجزيــة على رؤوس الرجال وجزية جملة تكون على أهل القرية يؤخذ بها أهل القرية ، فمن هلك من أهل القرية التي عليهم جزية مسماة على القرية ليست على رؤوس ترجع الى قريته في جملة ما عليهم من الجزية • ومن هلك ممن جزيته على رؤوس الرجال ولم يدع وارثاً فان ارضه للمسلمين • »(١) •

ويفهم بشكل واضح من النص الاول أن عمرو بن العاص ، بعد أن تم له فتح مصر ، سار على النهج الذي كانت تسير عليه الادارة البيزنطية في مصر • ويبدو واضحا من هذا النص أن الضرائب لم تكن ثابتة أو محددة ، بل تختلف كميتها من عام لآخر حسب وفرة المحصول • وهـذا ما يسمى بالخراج النسبي (نسبة الى ما تعطي الارض مـن محصول) ، وهو غـير الخراج المسمى أو المعلوم (وهو الخراج المحـدد الذي لا يتغير ، أعطت الارض أم أجدبت) • وكـانت القرى ، كما هو ظاهر من النص ، تعتبر مسؤولة مسؤولية جماعيــة عن الضريبة ، وتقوم هي فيما بينها بتوزيـع ما يصيب كل فرد من حصته من الضريبة حسب مقدرته • ويميز النص بعد ذلك بين هذه الطريقة ، والطريقة الثانية المتعلقة بضريبة الرؤوس والتي كان مقدارها يزيد وينقص حسب حالة الشخص المادية •

وطبيعي أن هذا النص يتناول بشكل واضح ضريبة الارض : ما كان منها نقداً) أو ضريبة قمح • أما في النص الثاني فيخبرنا ابن عبد الحكم أنه كان في مصر نوعان من الجزية : جزية عامة على القرى (جزيه هنا بمعنى ضريبة) ، وجزية على الرؤوس • وجزية الرؤوس كانت تعتبر جزءاًمـن الجزية (الاتاوة) العامة • وهكذا وبعد هذا الاستعراض للنظام المالي الذي كان مطبقا في مختلف الأمصار بعد الفتح يمكننا أن نقول أن الأسس التي قام عليها النظـام المالي الذي مطبقاً بشكل عـام أيام عمر بن الخطاب يمكن أن تتلخص فيما يلي :

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٥٤ •

١ ـ يؤخذ الخراج أو الاتاوة من أهل البلاد المفتوحة اذا هم بقوا في ارضهم يستغلونها ، ويكون مقدار الخراج اما بقدر ما اتفق عليه بين الطرفين حين جرى الصلح بينهما ، أو كما يفرض الفاتحون عليهم اذا فتحت ديارهم عنوة •

٢ ـ المسلمون لا يدفعون الخراج ولكن يدفعون الصدقات والعشور •

٣ ـ الغنائم للمقاتلة توزع عليهم حسبما جاء في القرآن الكريم •

وحين كانت خلافة عمر الثاني فقد اعاد هذا الخليفة النظر في السياسة المالية للدولة ، واتبع الاسس التالية في الجباية :

١ ـ اقر عمر الثاني مبدأ اعفاء المسلمين (عربا او غير عرب) من تأدية الاتاوة جزية أو خراجاً • وهو المبدأ القديم الذي كان يعمل به عمر الاول في الفترة الاولى حين كانت واردات الدولة تأتي بالدرجة الاولى من الغنائم ومن الخراج الذي يدفعه أهل البلاد المغلوبة •

٢ ـ منع عمر الثاني بيع الاراضي الخاصة بالخراج حتى لا تقل مساحتها بتحويلها الى قطائع للمسلمين لا تجب عليها الا ضريبة العشر •

٣ ـ سمح بالهجرة من الريف الى المدينة ، ولم يقف بوجهها كما فعل الحجاج •

على انه لم ينجح في تغيير الاوضاع والعادات التي كانت سائدة قبله بكليتها ، وظلت هناك أشياء تجري كما كانت في السابق • فمثلا لم يتوقف بيع ارض الخراج الى المسلمين ، مما اضطر المسؤول عن الجباية في العراق الى تطبيق خطة الحجاج ، وصار يأخذ الخراج عن أرض المسلم وغير المسلم من العرب •

على انهم اخذوا يفرقون بين الخراج والجزية ، فانحصرت الجزية في غير المسلمين ، فان اسلموا سقطت عنهم واستمروا في دفع الخراج عن

الارض كغيرهم من المسلمين من غير العرب • وبذلك حافظت الدولة على موردها الذي كانت تأتي غالبيته من الخراج • اما الجزية فلم تكن تشكل بنداً هاماً من بنود الواردات • ونستطيع ان نقول أنه ليس مؤكداً ان الحجاج كان يأخذ الجزية من الموالي في البصرة والكوفة ، وان نقمتهم عليه لم تكن بسبب أخذ الجزية منهم بل لانه لم يسوهم بالعرب ، وحرمهم من العطاء •

واحدث الحجاج أمراً آخر ، اذ انه كما يذكر البلاذري ، اخذ الخراج من الارض التي اسلم اصحابها واشتراها عرب مسلمون • يقول البلاذري : « قالوا : وبالفرات أرضون اسلم أهلها عليها حين دخلها المسلمون ، وأرضون خرجت من أيدي اهلها الى قوم مسلمين بهبات وغير ذلك من أسباب الملك ، فصيرت عشرية وكانت خراجية ، فردها الحجاج الى الخراج ، ثم ردها عمر بن عبد العزيز الى الصدقة ، ثم ردها عمر بن هبيرة الى الخراج•فلما ولي هشام بن عبد الملك رد بعضها الى الصدقة،ثم ان المهدي امير المؤمنين جعلها كلها من اراضي الصدقة •» [1] •

ويتضح مما تقدم انه كان من سياسة الحجاج أخذ الخراج عن الارض ، سواء كان أصحابها من العرب المسلمين أم من غيرهم ، حفظاً لموارد الدولة • وهناك أمرا آخر وهو ما عرف عن الحجاج من رده للموالي الذين تركوا قراهم الى هذه القرى ليعمروا الارض ويستغلوها ، والذي حمل الحجاج على هذا العمل :

١) رغبته في أن يؤمن عمارة الريف كي لا تبور الارض ، لأن الارض للدولة ، وبوارها يعني عدم استطاعة أهلها دفع ما عليهم من ضرائب للخزانة العامة•وبالتالي نقص موارد هذه الخزانة •

٢) هدف الحجاج ايضا الى التخلص من شغب الموالي وما كانوا يثيرونه من قلاقل بانضمامهم لكل الثورات التي كانت تقوم في حواضر

---

(١) فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٥١٢ .

العراق ضد الدولة الاموية • هذا فضلا عن مطالبتهم الدائمة في ان يكون لهم نصيب في العطاء ، وان تكون أرزاقهم كأرزاق المقاتلة العرب •

٣) ان اختلاط الموالي بالعرب في المدن والمعسكرات يفسد صفاء العنصر العربي ويقضي على التقاليد العربية • وهو يريد عروبة خالصة لجيشه الذي يعتمده في قتال شعوب غير عربية تسكن ارضا غير عربية •

هذا من جهة الحجاج • أما الموالي فكان يحفزهم على ترك قراهم والهجرة الى المدن أنهم بعد اسلامهم اصبحوا بلا أرض ، وليس لديهم ما يساعدهم على اقامة أودهم ، الا العمل في خدمة الملاك الزراعيين سادة كانوا أم دولة • ففضلوا النزوح الى المدن والعمل في الصناعة أو التجارة أو في خدمة السادة • ومع مرور الايام صاروا يطالبون بالعطاء ، وان يعاملوا كمعاملة العرب ما داموا مسلمين مثلهم ، وهذا ازعج الحجاج الذي لجأ للأسباب التي ذكرناها آنفاً ، الى اعادتهم الى قراهم •

وجدير بالملاحظة ايضا ان المجتمع العراقي في زمن الحجاج كان ينقسم الى جبهتين كبيرتين : **الاولى** • الجبهة العربية ويمثلها الحجاج ورجالاته من العرب اصحاب المراكز العليا في الادارة والجيش الذين كان لهم العطاء والوظائف الكبرى وكانت هذه الفئة تزهو بأن الاسلام نبع منها ، وأن القرآن نزل بلغتها ، فهي لا تريد ان يدانيها احد في مركز او ثروة • **والثانية** : جبهة الموالي الذين اسلموا وآمنوا بأن الاسلام دين المساواة ، ولكنهم صدموا لانهم لم يعاملوا كأخوتهم في الدين ، العرب ، رغم انهم الكثرة الكاثرة ، وانهم سكان البلاد المفتوحة الاصليين • وقد جعلتهم نقمتهم يتآمرون على العنصر الظالم ، وينضمون لكل ثورة تقوم ضده • كما انهم أخذوا يفسرون القرآن بحسب مصلحتهم وما يناسب أهواءهم ، فصار اسلامهم اسلاما مشوها ، يحمل في طياته الحقد وحب الانتقام •

كان هذا هو الحال زمن الحجاج وقبل تولي عمر بن عبد العزيز مقاليد الامور ، ومعلوم أن هذه النقمة التي كانت في بدايتها اقتصادية واجتماعية ،

انقلبت الى حقد سياسي وديني كان لا بد ان يشغلا بال الخليفة الجديد وان يحفزاه وهو التقي الورع الذي ينظر الى الامور بمنظار المساواة والعدل ، للقيام بعمل يعيد الامور الى نصابها الاسلامي الصحيح • وفعلا ، ما كاد يتسلم العرش حتى بدا واضحا انه يريد معالجة الوضع باسلوب غير اسلوب الحجاج •

أمر عمر الثاني بأن لا يؤخذ الخراج عن أراضي العرب المسلمين التي اشتروها من أهل الذمة ، ولا عن الاراضي التي اسلم اصحابها عليها بعد ان كانوا من اهل الذمة[1] • وكتب الى عماله بالامصار يأمرهم بتنفيذ ذلك ، فكتب الى عامله بالكوفة كتابا جاء فيه : « ولا خراج على من اسلم من أهل الارض »[2] • وأمر عمر بن عبد العزيز بأن لا يسمح للمسلمين بشراء أرض أهل الذمة بعد سنة مائة • اي انه منع انتقال ملكية الارض التي هي بحوزة أهل الذمة الى المسلمين حتى تظل هذه الاراضي خراجية ولا تصبح عشرية بانتقالها الى مسلم ، وذلك ليضمن نسبة دخل ثابت لبيت مال المسلمين، وحتى لا يقل هذا الدخل بتحول ضريبة الارض من الخراج وهو الاكثر الى العشر وهو الاقل • وقد جاء هذا في نص يذكره ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق[3] • وفيه يحدثنا المؤلف عن الارض ، وتطور جبايتها ، وانتقالها من أهل الذمة الى العرب المسلمين ، وما فعله الحجاج وعمر الثاني • وتأتي أهمية هذا النص من انه يتناول بالبحث الاوضاع في بلاد الشام التي لم تردنا اخبار كافية عن جبايتها كما هو الحال بالنسبة للاخبار الوفيرة عن العراق • ونثبت فيما يلي هذا النص لأهميته : « **أجمع أصحاب رسول الله** صلى الله عليه وسلم رأيهم على إقرار ما كان بأيدي أهل الذمة من أرضهم يعمّرونها ويؤدون منها خراجا للمسلمين فمن أسلم منهم رفع عن رأسه الخراج ، وصار ما كان بيده من الارض وداره بين أصحابه من أهل قريته

---

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢ •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٩ •

(٣) طبعة عبد القادر بدران ، دمشق ١٣٢٩ هـ ج ١ ، ص ١٨٢ ــ ١٨٥ •

يؤدون من خراجها ، ويسلمون له رقيقه وحيوانه ، وفرضوا له في ديوان المسلمين ، وصار مـن المسلمين ، له مالهم وعليه ما عليهم . ولا يرون أنـه وان اسلم أولى بما كان من ارضه بين اصحابه من أهل بيته وقرابته (قريته) ولا يجعلونها صافية للمسلمين ، وسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة للمسلمين . ويرون انه لا يصح لاحد من المسلمين شري ما في ايديهم من الارضين ... وكرهوا للمسلمين ايضا شراءها صونا لما كـان من ظهـور المسلمين على البلاد ، وعلى من كان يقاتلهم عليها ولتركهم . وكانت البعثة الى المسلمـين وولاة الامر في طلب الامان قبل ظهورهم عليهم . قالوا : وكرهوا شراءها منهم طوعا بما كـان من ايقاف عمر وأصحابـه الارضين محبوسة على آخر هذه الامة من المسلمين المجاهدين لاتباع ولا تورث قوة على جهاد من لم يظهروا عليه من المشركين ، ولما ألزموه انفسهم من اقامة الجهاد المأمور به في قوله عزّ وجل (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) والآية (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) . ان بدء هـذه القطائع كانت من الارضين التي كانت تحت يد انباط القرى . فلما هزم الله الروم وهربت تلك البطارقة عما كان في أيديها من تلـك المزارع فلحقت بأرض الروم ، ومن قتـل منها في تلك المعارك التي كـانت بين المسلمـين والروم . فصارت تلك المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة يقبّلها والي المسلمين كما يقبّل الرجل مزرعته (يقبّلها : يعطيها قبالة أي مزارعة، وتعني يضمّنها) ... قالوا : فلم تزل تلك المزارع موقوفة مقبّلة تدخـل قبالتها بيت المال (كالخراج) حتى كتب معاوية في إمرته على الشام الى عثمان ان الـذي أجراه عليه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقـدم عليه من وفود الاجناد ، ورسل أمرائها،ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها. ووصف في كتابه هذه المزارع الصافية وسمّاها له ، وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له وقال : انها ليست من قرى أهـل الذمة ولا من الخراج . فكتب اليه بذلك عثمان كتاباً ، فلم تؤل بيـد معاوية حتى قتـل

عثمان وأفضى الى معاوية الامر فأقرها على حالها ، ثم جعلها من بعده حبسا على فقراء أهل بيته والمسلمين ، قالوا : ثم ان اناسا من قريش وأشراف العرب سألوا معاوية ان يقطعهم من بقايا تلك المزارع التي لم يكن عثمان اقطعه اياها ، ففعل ، فمضت لهم اموالا يبيعون ويمهرون ويورثون • (كذلك فعل عبد الملك : فانه اقطع رجالات العرب ما بقي منها بعد معاوية) ••• ثم ان عبد الملك سأل القطائع وقد مضت تلك المزارع لاهلها فلم يبق منها شيء • فنظر عبد الملك الى ارض خراج قد باد أهلها ولم يتركوا عقبا فأقطعهم (أي اشراف الناس) منها ورفع عليها ما كان من خراجها عن أهل الخراج ، ولم يحمّله أحدا من أهل القرى وجعلها عشرا ••• قالوا فلم يزل يفعل ذلك حتى لم يجد من تلك الارض شيئاً • فسأل الناسُ عبدَ الملك والوليد وسليمان قطائع من ارض القرى التي بأيدي أهل الذمة فأبوا ذلك عليهم • ثم سألوهم أن يأذنوا لهم في شري الارض من اهل الذمة فأذنوا لهم على ادخال اثمانها بيت المال ، وتقوية أهل الخراج من على خراج سنتهم مع ما ضعفوا عن أدائه ، وأوقفوا ذلك في الدواوين ، ووضعوا خراج تلك الارض عمن باعها منهم وعن أهل قراهم وصيّروها لمن اشتراهاتؤدي العشر • فلما ولي عمر بن عبد العزيز ، رأى تلك القطائع التي اقطعها عثمان لمعاوية (رضي الله عنهما) ومعاوية وعبد الملك والوليد وسليمان • فلم يردها على ما كانت عليه صافية ، ولم يجعلها خراجا ، وامضاها لاهلها تؤدي العشر • قالوا : واعرض عمر عن تلك الاشرية فاذن لاهلها فيها لاختلاط الامور فيها لما وقع بها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ، فلم يقدر على تخليصه ولا على معرفة ذلك • قالوا وأعرض عن تلك الاشرية التي اشتراها المسلمون فلم يغير منها شيئاً وامضاها لاهلها ولمن كانت في يده كالقطائع ، وجعل عليها عشرا ، ولم يجعل عليها ولا على من صارت اليه بميراث او شراء جزية • قالوا : وكتب بذلك كتابا قريء على الناس في سنة مائة وأعلمهم أنه لاجزية عليها ، وانها ارض عشر • وكتب ان من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فان بيعه مردود • وسمى سنة مائة سنة المدة • فسماها المسلمون

بعـده بذلك ، فأمضى ذلك في بقيـة ولايته ، ثم أمضاه يزيد وهشام ابناء عبد الملك • فتناهى الناس عن شرائها بعد سنة مائة ، ثم اشتروها اشرية كثيرة • كانت بيد أهلها يؤدون العشر ولا جزيـة عليها حتى أفضى الامر الى ابي جعفر المنصور • فرفعت اليه تلك الاشرية وأنها تؤدي العشر ولا جزيـة عليها ، وان ذلك اضرّ بالخراج وكسره ، فأراد رد الاشرية التي عقدت بخلاف أمر عمر بن عبد العزيز الى اصحابها ، فلم يقدر • فوضع الخراج على ما كان بيد الانباط من أهل الشام ، وعلى الارضين التي اشتراها المسلمون بعد سنة مائة ، وأرسل رجاله سنة ١٤١ هـ الى الشام لمعرفة اراضي هـــذه الاشرية ومساحتها » •

ان ابن عساكر صاحب هذه الاخبار من كتاب القرن السادس الهجري وواحد من مشاهير فقهاء دمشق ومحدثيها • وقد توفي سنة ٥٧١ هـ • بعـد أن وضع كتابه المشهور : «تاريخ دمشق» • ويظهر ان ابن عساكر كان كغيره من الفقهاء تحت تأثير الآراء الشائعة التي مضى عليها زمن والناس يؤمنـون بها • وفحوى هذه الشائعات أن عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة كانوا أصحاب اليد الطولى في تنظيم الاحوال الجديدة بعـد وفاة الرسول الكريم • وذلك لأن الفتوحات تمت في عهد هذا الخليفة ولأن هذه الفتوحات أحدثت تبديلا في واقع التنظيم الاداري والمالي للدولة • وبهذا يكون عمر ابن الخطاب وصحبه من جماعة رسول الله هم الذين وضعوا أسس التنظيمات المالية والادارية ، ووضعوا حلولا عامة للمشاكل التي اعتقدوا انها ستظهر في المستقبل • وكان الاعتقاد السائد أن اعطاء الاشراف العرب القطائع من صوافي الدولة ، وبيـع ارض الخراج للعرب المسلمين ، مخالف للقواعـد والسنن التي وضعها عمر بن الخطاب والصحابة من قبل ، وأن كل مخالفة لهذه القاعدة حصلت بعد مقتل عثمان وفي العهد الأموي بشكل خاص •

وهذا الرأي لا يؤيده الواقع • وقد مرت بنا نصوص من قبل يستدل منها أن عمر والرسول من قبـل عمر قد اقطعوا أناساً أراضي من صوافي

الدولة • أما عمر الثاني فقد اضطر الى معالجة الوضع المالي والى تنظيم الخراج بعد ان وجد ان املاك الدولة والصوافي ، والاراضي الخراجية قد تناقصت مساحتها ، وتبددت ، وحصل عليها اناس مسلمون ، فعمد لمعالجة الوضع بأن وضع القواعد التالية :

١) منع بيع ارض الخراج بعد سنة معينة ، (١٠٠ هـ) •

٢) عدم السماح باقطاع الصوافي للناس من اجل المحافظة على ريعها الكامل للدولة •

على أن عمر بن عبد العزيز أبى أن يأخذ الخراج عن ارض من اسلم

ويقال ان جماعة من أهل السواد كتبوا الى عمر بن عبد العزيز في ارضين في ايديهم يطلبون منه ان يرفع عنها الجزية ، ويضع عليها الصدقة • وكتب اليهم عمر يقول : اما بعد •• فاني لا اعلم شيئاً هو انفع لنائبه المسلمين ومادتهم من هذه الارض التي جعلها الله فيئاً لهم ، فانظر من كان منهم له بها أرض او سكن فأجر على كل جدول[1] منها ما كان يجري قبل ذلك ، ومن لم يكن له بها ارض ومسكن فارددها الى اهلها • »[2] • يقصد بذلك ان الرجل اذا أسلم وبقي في أرضه (عند جدوله) ، يؤدي ما كان يؤديه من قبل • أما اذا ترك قريته وذهب الى احدى الحواضر ، تُضم ارضه الى اراضي أهل القرية التي هو منها • وهذا الكتاب يثير مشكلة هي انه يخالف ما عرفناه من ان عمر كان لا يأخذ من المسلم الخراج ، فكيف فعل ذلك ؟•

يبدو ان عمر اذا صح هذا الكتاب قد اضطر من اجل تأمين موارد الدولة واكثرها من الخراج ، ان يقبل بأخذ الخراج عن ارض من يسلم من أهل القرى ، لانه اذا لم يفعل قلت موارد الجباية • ويحاول البعض ان

---

(١) كانت أرض الخراج في العراق هي الأرض التي ترويها الجداول ، أما أرض العشر فكانت خارج ما ترويه الجداول •

(٢) يحي بن آدم ، ط المطبعة السلفية ص ، ٦٢ •

يوفق بين عمل عمر هـذا وبـين قوله : « ان المسلم لا يؤدي خراجاً » بأن اعتبروا ان ما يؤديه المسلم في هذه الحال انما هو اجر عن استغلاله للارض• ويحتجون بذلك بحادث جرى أيام علي بن أبي طالب ، اذ يقال ان دهقاناً من أهل عين التمر اسلم،فقال له علي بن أبي طالب:«أماجزية رأسك فنرفعها، وأما ارضك فللمسلمين • فان شئت فرضنا لك ، وان شئت جعلناك قهرمانا لنا (أي وكيلا لنا على هـذه الارض) فما اخرج الله عز وجـل من شيء أتيتنا به •[1] أي أن عليًا خيّر الدهقان بين أن يذهب الى المدينة فيفرض له العطاء ، وبين أن يبقى في ارضه ويعمل في عمارتها بالنيابة عن الدولـة فيأخذ أجراً على ذلك • والواقـع أن سياسة الدولة قبـل عمر الثاني ، وفي زمنه بأخذ الخراج من المسلمين وغير المسلمين أمن للدولة موردا ثابتا •
ولو أن عمر الثاني أعفى من أسلم من الخراج لقلت الموارد ولأقفزت ارض الخراج •

وواضح انه لم يرغب في اعفاء من أسلم من دفع الخراج ، لذلك حال دون نقصان الخراج بأن منع بيع الارض الخراجية الى المسلمين من جهة ، وبأن اخذه ممن اسلم من اصحاب الارض بعـد ان احتج بالحادث الـذي جرى بين علي بن ابي طالب وبين الدهقان •

سياسته المالية في البلاد التي فتحت في عهده :

ما فعله عمر بن عبد العزيز في البلاد التي فتحت في عهد اسلافه غـير الذي فعلـه في البـلاد التي فتحت في عهده ، او التي لم يثبت سلطان العرب فيها كبلاد ما وراء النهر والهند وافريقيا والاندلس • كـان الذي اتبع زمن عمر الثاني ان العرب اذا هاجموا بـلاداً عرضوا الاسـلام على اهلها مـن المشركين قبل محاربتهم ، فاذا قبلوا الاسلام لم تؤخذ منهم الاتاوة من خراج وجزية ، وعوملوا كما يعامل المسلمون • كـانت هـذه أوامر عمر ، ولكن

---

(١) يحي بن آدم ، ط • المطبعة السلفية ، ص ٦١ •

هـذه الاوامر ظلت نظريـة ولم تطبق دوما اذ كثيرا ما خالف القادة هـذه الاوامر ولم يعملوا حسب هذه الخطة ، لأن بعض الذين قاموا بالفتوحات لم يخرجوا في سبيل نشر الاسلام بل لاكتساب الغنائم ، ويصبح عليهم قول الشـاعر :

فلا في سبل الله لاقى حمامه أبوك ولكن في سبيل الدراهم

أو كما قال شاعر آخر :

فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز احسب والتمر

لهذا كان عمر لا يحبذ هذه الحروب التي تثار من اجل المغانم ، ولا تثار من اجل وجه الجهاد ، حتى ان البعض ذهب الى حد اتهامه بأنه امر بايقاف الحروب كائنة ما كانت . والحق ان عمر لم يأمر بايقاف الحروب التي كانت لوجه الله والاسلام ، ولكنه أمر بأن لا تكون المغانم هدف هـذه الحروب . لقد كـان عمر يفضل ان يكون اقبال النـاس على الاسلام مـن انفسهم دونما اكراه او اجبار ، واذ اسلم احد الناس عومل كبقية المسلمين لا تؤخذ منه اتاوة ، ويصبح له ما لاخوته في الدين وعليه ما عليهم . ويروي البلاذري انه دعا ملوك الهند الى الاسلام ووعدهم بان يعاملهم كسائر المسلمين وكتب بذلك اليهم يحثهم على الاسلام والطاعة على ان يملكهم ، وان يكون لهم ما للمسلمـين ، وعليهم ما عليهم . وكانت قـد بلغتهم سيرته ومذهبه ، فاسلم الملوك وتسـّوا باسماء عربية[١] . كذلك اسلم كثير من امراء ما وراء النهر ولم تؤخذ منهم الجزية ولا الخراج ، وفرض لهم العطاء . ويذكـر الطبري أن الموالي الذين حاربوا مع العرب في خراسان بلغ عددهم عشرين الفا ولم يأخذوا العطاء ، وأدوا الخراج ، فذهب رجل منهم الى عمر واخبره خبرهم ، وقال له : « يا أمير المؤمنين ، عشرون الفا من الموالي يغزون بـلا عطاء ولا رزق ومثلهم قد اسلموا من اهل الذمة يؤخذون بالخراج ، وأميرنا

(١) انظر ، البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٥ ، ص ٦٢٠ .

عصبي جاف يقف على منبرنا فيقول : أتيتكم حفياً وأنا اليوم عضبّي ، والله لرجل من قومي احب الي من مائة من غيرهم »[1] . فكتب عمر الى عامله في خراسان : « انظر من صلى قبلك الى القبلة فضع عنه الجزية . »[2] . فسارع الناس الى الاسلام فقيل للجراح عامل خراسان : ان الناس قد سارعوا الى الاسلام ، وانما ذلك نفورا من الجزية فامتحنهم بالختان . فكتب الجراح بذلك الى عمر فكتب اليه عمر : « ان الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً »[3] . وكتب عدي بن أرطاة الى عمر بن عبد العزيز أما بعد : فان الناس قد كثروا في الاسلام وخفت أن يقلّ الخراج . فكتب اليه عمر : فهمت كتابك ، والله لوددت أن الناس كلهم اسلموا حتى نكون انا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا . »[4] .

وفي عهده دخل في الاسلام عدد كبير من البربر ولم يؤخذ منهم الخراج ويذكر صاحب كتاب فتوح البلدان[5] «أن عمرو بن العاص كتب في شرطه على أهل لواتة من البربر من أهل برقة ، ان عليكم ان تبيعوا أبناءكم ونساءكم فيما عليكم من الجزية . (فقيل في ذلك) لو كانوا عبيداً ما حل ذلك منهم . (وروي) أن عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيّات (نساء لواتة) : ان من كانت عنده لواتية فليخطبها الى ابيها ، او فليردها الى أهلها» .

واتبع عمر سياسة أخرى في الاندلس فأبقى قسماً من الارض بيد اصحابها الاولين على أن يؤدوا الخراج عنها واخذ قسماً منها ووزعه على المقاتلة بعد ان خصم خمس السلطان او ما يمكن ان نسميه حصة الدولة الشرعية منها باعتبارها غنيمة . ولعله اراد بذلك ان يثبت جذور العرب في الاندلس ، وذلك عن طريق تمليك المقاتلين الارض في البلاد حتى يبقوا فيها ، ويتعلقوا

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٩ .

(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٤) ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ط . مصر ١٣٣١ هـ ، ص ـ ٩٩ ١٠٠ .

(٥) البلاذري ، فتوح البلدان ج ٣ ، ص ٣١٥ ـ ٣١٦

بها • ولم يكن عمر بن عبد العزيز اول من فعل هذا ، اذ انه سبق الى هذا العمل من قبل اشخاص سبقوه في التنظيم الاداري والمالي • وكنا قد ذكرنا أن معاوية حين كان في الشام قد وزّع الارض من الصوافي على اشراف العرب وساداتهم • وكذلك اقطع محمد وعمر وعلي الصحابة بعض الارضين في الحجاز • وما فعل عمر بن عبد العزيز في الاندلس ما هو الا من هذا القبيل وهذا يدحض القول الشائع بأن عمر وغيره لم يوزعوا الارض على المقاتلة في في الاقاليم المفتوحة ، او انهم نهوا عن استملاكها • والاصح أن يقال ان تمليك الارض كان بالنسبة اليهم جزءاً من عملية تعريب الاقاليم المفتوحة ، وتثبيت اقدام العنصر العربي في هذه البلاد الجديدة ، وايجاد مصالح للعرب فيها •

بعض أعماله المالية في الحجاز واليمن وخراسان :

كان أبو بكر وعمر قد اخذا واحة فَدَك في شمال المدينة بالحجاز من ورثة الرسول على اعتبار انها ليست له بل للدولة • فلما جاء عمر بن عبد العزيز خالفهما في ذلك وردها الى ورثة فاطمة بنت محمد[1] • كذلك رد دارا بمكة لاصحابها من ورثة طلحة بعد ان صادرها خلفاء بني امية من قبله[2] •

ويذكر البلاذري أن محمد بن يوسف اخا الحجاج عامل اليمن قد أساء السيرة ، وأخذ اراضي الناس بغير حق ، وضرب على أهل اليمن خراجاً جعله وظيفة عليهم (فريضة) • فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب الى عامله يأمره بالغاء تلك الوظيفة والاقتصار على العشر[3] •

وكانت عشور عُمان ترسل الى البصرة ، فأمر عمر ان تبقى في عمان

---

(١) انظر من اجل امر فدك البلاذري ، الفتوح ج ١ ص ٤٣ ـ ٤٤ •

(٢) الطبري ج ٧ ، ص ٣٦ •

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٩٩ •

نفسها ، وتوزع على فقرائها • وقد جاء في رسالته الى عامله هناك أن يقسم ما وجد بعمان من العشور والتمر والحب على فقراء أهلها ، ومن سقط اليها من أهل البادية ، ومن اضافته اليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل[1] •

وكانت الصدقات والعشور التي تجبى من القبائل في اقطار الجزيرة كنجد وحضرموت وعمان واليمامة والحجاز ، لا ترسل كلها الى الخليفة بل كانوا يوزعونها على الفقراء في الاقطار التي جمعت منها ، وخاصة في أيام الضيق •

أما ابقاؤه خراج خراسان فيها وتوزيعه على أهل الحاجة من أهلها فلا يجوز اعتباره قاعدة عامة عمل بها عمر في جميع الاقاليم • فقد كان لما فعله في خراسان أسباباً خاصة ، أهمها : انه أراد ارضاء أهلها • ويوضح هذا ما كتبه الى عامله على الخراج بخراسان فهو يقول له : « وليس من ثغور المسلمين ثغر أهمّ اليّ ولا اعظم عندي من ثغر خراسان فاستوعب الخراج واحرزه (أي احصل عليه) في غير ظلم ، فان يك كفافا لاعطيتهم فسبيل ذلك ، والا فاكتب اليّ حتى احمل لك الاموال فتوفر لهم اعطياتهم • قال : فقدم عقبة الطائي (عامل الخراج) فوجد خراجهم يفضل عن اعطياتهم فكتب الى عمر فأعلمه ، فكتب اليه عمر ان اقسم الفضل في أهل الحاجة »[2] •

قضية توزيع العطاء :

أما بالنسبة لتوزيع العطاء على المقاتلين المقيمين في المعسكرات والحاميات او في ميادين القتال فلم يتبع الخلفاء والولاة قاعدة واحدة في تقدير نصيب المقاتل من العطاء • فكان بعضهم يخرج من يغضب عليه من جداول العطاء ، او يضم من يرضى عنهم اليها ، أو يزيد في مقدار ما يوزعه على المقاتلة ، أو

---

(١) البلاذري ، ج ١ ، ص ١٠٦ •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ •

ينقصه بحسب الوضع ، وبحسب اهوائه • لذلك كثيرا ما كان المقاتلة يتذمرون او يثورون مطالبين قوادهم وولاتهم بأن توزع عليهم أموال كافية، باعتبار انهم هم أصحاب الحق الشرعي ، لأن أربعة أخماس الارضين انما هي لهم ، وبسيوفهم أو بسيوف آبائهم فتحت هذه البلاد التي تدر الخير ، والتي يذهب خراجها الى بيت المال وهو بالاصل حق لهم وليس للدولة •

وليس صحيحاً ما يزعم من ان عمر بن عبد العزيز اظهر الخضوع لرغبات المقاتلة ، وتلبية طلباتهم ، والصحيح انه حاول ارضاءهم بالذي كان يقدر عليه ، فلم يحصر العطاء في العرب وحدهم ، بل وسّع دائرته وادخل غيرهم فيه • فالموالي الذين كانوا يحاربون مع العرب في خراسان عاملهم كغيرهم من العرب المسلمين فلم يأخذ منهم خراجاً ، بل اعطاهم الاعطيات والارزاق •[1]

ومن المشكوك فيه ان يكون عمر الثاني قد عامل جميع الذين كانوا يسلمون من أهل الذمة ، ويتركون اراضيهم ليقيموا في البصرة والكوفة كمعاملته لأبناء المقاتلة من العرب الذين فتحوا البلاد وهاجروا الى الامصار ، واقاموا فيها بعد ان اتموا الفتح • ولو انه فعل ذلك ، لعدّ ذلك غير مشروع من الناحية الفقهيّة ، وكذلك لأن الارض التي فتحت اعتبرت ملكا للعرب الاولين الذين فتحوها ، وخراجها يدخل في بيت المال ليوزع عليهم ، وعلى ابنائهم من بعدهم • ومن ناحية أخرى كان يحتمل ان يؤدي التساوي الى نتائج وخيمة • فلو انه فعل ذلك ، لغضب عليه العرب جميعا • اذ كانوا لا يتساهلون في هذا الامر باعتبار انهم هم الذين اراقوا دماءهم وفتحوا البلاد ، وصارت خيراتها لهم ، فهل يعقل ان يسلموها بالبلد الاخرى الى غيرهم ؟

وقد كان العطاء غير محصور بالرجال من المحاربين ، بل كانوا يعطونه لابنائهم ونسائهم ، فلما جاء معاوية انقص ما كان يعطى لهؤلاء • وفي زمن

(١) الطبري ، ج ٦ ، ٥٦٩ •

عبد الملك الغي عطاء النساء والاولاد • ولما اتى عمر بن عبد العزيز اعـاده اليهم ، ففرض لعيال المقاتلة وذراريهم ولكل مولود وفطيم • ومما فعله عمر انه فرض للفقراء والزمنى ما يساعـدهم ، ولم يقصر أعماله الخيرية عـلى أهل الحجاز والشام ، بل شملت العراق وخراسان[١] •

معاملته لغير المسلمين :

ينقل ڤلهاوزن في كتابه (الدولة العربية وسقوطها) نصاً عن المؤرخ البيزنطي تيوفانس يقول أنـه حدثت هزّة قويـة في بـلاد الشام أيام عمر فأمر عمر بمنع شرب الخمور في المـدن ، واجبر النصـارى عـلى اعتنـاق الاسلام ، فالذين اسلموا منهم لم يأخذ منهم اتاوة ، واما الذين ابوا فقـد امر بقتلهم ، فاستشهد عدد كبير منهم • وامر بأن لا تقبل شهادة النصراني على المسلم • وكتب رسالة دينية الى الامبراطور ليون رغبة منه في حمله على اعتناق الاسلام • ويرى ڤلهاوزن في هذه الرواية جوانب صحيحة وجوانب خاطئة ويقول انه من الصواب القول بان عمر كان مسلما متحمساً لاسلامه ، وان النصارى عرفوا ذلك وشعروا به • ولكن من الخطأ القول بأنه اجبرهم على الاسلام ، او انه قتـل الذين لم يفعلوا لأن في ذلك مخالفة صريحـة للاسلام ، الأمر الذي كان عمر لايقدم عليه ، ولا يقوم به ، لأنه كان مسلماً صادقاً[٢] •

والمعروف ان عمر بن عبد العزيز عامل النصارى معاملة حسنة حسب ما تنصّ قواعـد الدين ، فترك لهم حرياتهم الدينية وكنائسهم ، وكتب الى عماله : لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار[٣] •

حتى أنه اراد ان يرد الى المسيحيين كنيسة مار يوحنا التي اخذها منهم الوليد

---

(١) انظر الطبري ج ٦ ، ص ٥٦٩ ــ ٥٧٠ •

(٢) انظر ، ص ٢٨٩ من الكتاب المذكور •

(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٧٢ •

الاول بغير حق ، شريطة أن يتركوا للمسلمين كنيستهم في باب توما التي لا تحق لهم ، لان شروط الصلح بين الجيش الفاتح لدمشق وسلطات دمشق ، أنه ما كان خارج اسوار دمشق وفتح عنوة فهو للمسلمين • ولكن النصارى لم يقبلوا واتفقوا مع السلطات الاسلامية ان يتركوا للمسلمين كنيسة مار يوحنا وتبقى لهم كنيسة مار توما مقابل ذلك[1] • وعمر في موقفه هذا كان يعمل بما هو مفروض عليه بحسب الشروط يومئذ ، ولم يكن بامكانه الا أن يفعل ذلك على أساس ان كل ما وقع بيد العرب عنوة فهو لهم •

أما موقفه في فرض الاتاوات فقد كان غير ذلك ، اذ انه انقص ما كان يؤديه أهل أيلة وأهل قبرص باعتبار ان الاتاوة التي فرضت عليهم إبان الفتح قد زيدت فأمر بأن تحط الى مقدارها الاول الذي صولحوا عليه • اما أهل نجران باليمن فقد صالحهم الرسول على ان يبقوا على دينهم وأن يؤدوا له كل عام ألفي حلة ، ثمن كل منها أربعون درهما ، وتبقى لهم أموالهم وديارهم •

ولما تولى عمر بن الخطاب ، أخرج النصارى من أهل نجران واتباعهم من اليهود من جزيرة العرب ، واباح لهم السكنى في العراق أو الشام حسب مشيئتهم • وقيل انه اشترى اراضيهم واعطاهم تعويضاً عنها من اراضي السواد • وكانت مساكنهم في النجرانية عند الكوفة • وكان عليهم ان يؤدوا الاتاوة التي صولحوا عليها زمن محمد • فكان رئيسهم يجمعها منهم • وفي عهد عثمان قلّ عددهم بالموت أو بالاسلام فأنقص الاتاوة مئتي حلة، وكذلك فعل معاوية بعده • وفي عهد الحجاج زيدت إتاوتهم مئتين ، لأنه اتهمهم بمساعدة ابن الاشعث في حركته الثورية •

فلما جاء عمر الثاني شكوا اليه حالهم، وأن عددهم قلّ بسبب الحروب والفتن التي كثيرا ماوقعت في ناحيتهم • ثم ظهر له أن عددهم اصبح أربعة

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٩٩ •

آلاف بعد ان كانوا اربعين ألفاً • فأخذ منهم الاتاوة بالنسبة لعددهم لا الى اراضيهم وثروتهم ، بعد اخراج عدد الموتى والذين اسلموا منهم • وبما أنهم كانوا يؤدون ألفي حلة يوم كان عددهم أربعين ألفا ، أي بما يعادل ثمانين الف درهم • فقد طلب اليهم أن يؤدوا عشر ذلك لان عددهم بلغ أربعة آلاف فطالبهم بمئتي حلة ثمنها ثمانية آلاف درهم •[1]

وكتب عمر الى عامله في الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن القرشي يأمره بأن يعامل أهل الذمة بالعدل ، وأن يأخذ منهم الخراج بلين ، وأن لا يأخذه بمقدار واحد من الارض المزروعة والارض غير المزروعة • ويقول له في هذا الكتاب : « وان قوام الدين العدل والاحسان •• ولاتحمل خرابا على عامر ولا عامراً على خراب •• انظر الخراب فخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر ، ولا تأخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض • »[2] •

ومنع عمر ولاته من أن يأخذوا كل ما يزيد عن الخراج ، أو ماهو ليس منه ، كالهدايا التي كان يقدمها الناس لولاتهم وامرائهم في عهد الفرس في مناسبات معلومة ، كأعياد النيروز ، والمهرجان ، وما يقدم لصغار العمال في حفلات الزواج ، وضرائب الجمارك ، وغير ذلك •[3]

وكما ذكرنا آنفاً فقد منع عمر اهل الذمة من بيع أراضيهم الخراجية الى المسلمين حتى لا تصبح عشرية ، وتقل موارد الدولة • وبذلك وقف في وجه العرب ، وحال دون تسلطهم على ارض الخراج ، لانهم اذا فعلوا ذلك تصبح أرضا عشرية •

---

(١) البلاذري ، الفتوح ، ج ١ ، ص ٩٠ - ٩١ •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٩ •

(٣) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق احمد عبيد • الطبعة الثالثة ، دمشق ١٩٦٤ ، ص ١٦٠ •

وفاة عمر بن عبد العزيز

في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ، توفي عمر بن عبد العزيز بدير سمعان • وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة اشهر وبضعة أيام • وبوفاته آلت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك

ومما يجب ان يذكر في ختام هذا الحديث عن خلافة عمر بن عبد العزيز الذي لم يطل عهده ، ولم تحدث فيه أحداث جسام ، أن الخوارج في زمنه خرجوا في العراق بقيادة زعيم لهم اسمه شَوْذَب وهو من بني يشكر ، وكان مخرجه بجوخى في ثمانين فارساً اكثرهم من ربيعة ، فكتب الى عامله على العراق عبد الحميد بن عبد الرحمن يأمره بألا يشتبك معهم في قتال إلا إذا سفكوا الدماء وأفسدوا في الارض • فنفذ عبد الحميد وصية الخليفة وانفذ اليهم جيشاً وأمره بألا يبادئهم بقتال[1] • وجرت بين عمر وشوذب مراسلات اتفقا بنتيجتها أن يرسل شوذب الى عمر رجلين من أتباعه ليناظرانه[2] ، وجاء الرجلان الى عمر وجرت بينه وبينهما مناظرة طويلة أقنعهما فيها بحججه[3] •

كما أنه في عام ١٠٠ هـ قبض على يزيد بن المهلب وحبسه لانه لم يدفع ما كان قد ادعاه في كتابه الى سليمان بن عبد الملك من انه اخذ من عملياته العسكرية في خراسان مبلغ خمسة وعشرين الف الف درهم • وظل في محبسه بد هلك حتى بلغه مرض عمر مرض الموت[4] •

وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة العظيم ، الذي عده الكثيرون الخليفة الراشدي الخامس لصلاحه وتقواه ، ومحاولته العودة بالامور الى ما كانت عليه زمن جده عمر بن الخطاب •

---

(١) من أجل أمر الخوارج زمن عمر بن عبد العزيز ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٥ — ٥٥٦

(٢) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٨٣ — ٨٤ ، ٨٩ — ٩٠ •

(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٧ — ١٣١ •

(٤) من أجل موقف عمر بن عبد العزيز من يزيد بن المهلب ، انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٧ — ٥٥٨ ، وفتوح البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٧١ •

الفصل السابع

خلافة يزيد بن عبد الملك (يزيد الثاني)

آلت مقاليد الخلافة إلى يزيد بن عبد الملك ــ أو كما يعرف في بعض الأحيان بيزيد الثاني أو يزيد بن عاتكة (نسبة إلى أمه عاتكة ابنة يزيد بن معاوية) ــ بعد وفاة عمر بن عبد العزيز • وكان سليمان بن عبد الملك قد أوصى أن تكون له الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز • ومسألة بيعة يزيد مرتبطة عند بعض الرواة بوفاة عمر بن عبد العزيز غير الطبيعية على ما يزعمون • إذ ينقل الطبري عن أبي عبيدة خبراً مؤداه أن هذا الخليفة حين ثار شَوْذَب الخارجي بالعراق وطلب إليه أن يرسل إليه من يناظره وقال : « فهلم أناظرك ، فان كان الحق في أيدينا دخلتَ فيما دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا • » • وقد أرسل شوذب رجلين من جماعته لمناظرة عمر بن عبد العزيز ، وجرت بين الرجلين والخليفة مناظرة دار فيها الحديث حول أمور عدة من بينها خلافة يزيد بن عبد الملك ، إذ قالا له : « أخبرنا عن يزيد ، لمَ تقره خليفة بعدك ؟ قال صيّره غيري • قالا : أفرأيتَ مالاً لغيرك ثم وكّلتَه إلى غير مأمون عليه ، أتُراكَ كنت أديتَ الأمانة إلى من ائتمنك !؟ قال : فقال : انظراني ثلاثاً • فخرجا من عنده ، وخاف بنو مروان أن يُخرِج ما عندهم وفي أيديهم من الأموال ، وأن يخلَعَ يزيد ، فدسوا إليه من سقاه سماً ، فلم يلبث بعد خروجهما

من عنده إلا ثلاثاً حتى مات ». [1] ولا يقبل فلهاوزن هذه الرواية ، ويعلل رفضه لها بأن المؤرخين القدماء الذين يعول عليهم لم يذكروها ، وانها انما تعبر عن الأسف من أن عمر بن عبد العزيز الخليفة المصلح قد فارق الدنيا قبل الأوان،وأن النظام الذي كان سائداً قبله عاد من جديد[2]. ويبدو أن عمر كان لا يستجيب لشكاوى بني أمية الذين ساءهم تقشفه وتقتيره عليهم في الأعطيات ، حتى أنه هددهم حين عاتبوه في ذلك بالانسحاب إلى المدينة وجعل الأمر شورى[3] . ولكن هذا التهديد لا يعني أنه كان يقصد حرمانهم من الخلافة أو جعلها في غيرهم . وقد ذكر ابن سعد في أكثر من مناسبة أن مرضه الذي مات فيه قد استمر حوالي العشرين يوماً[4] ، كما يذكر أخباراً عن مرضه تبين أن مرضه كان طبيعياً ويستدل على ذلك بشهادة زوجته والطبيب المعالج له[5] . لهذا كله ، فانا نميل إلى الاعتقاد بأن رواية أبي عبيدة عن موته مسموماً رواية غير مقبولة ، وان خلافة يزيد لم تكن بغير رضا عمر بن عبد العزيز ، بل كانت بموافقته ولحرصه على الوفاء بعهد سلفه سليمان بن عبد الملك .

وكانت تجري في عروق يزيد دماء مروانية وسفيانية ، فهو مرواني من جهة أبيه ، وسفياني من جهة أمه كما أسلفنا . ويربط البعض بين هذه القرابة ليزيد بن معاوية وبين حب يزيد بن عبد الملك لحياة اللهو والمجون ويقولون إن يزيد الثاني قد ورث عن جده لأمه ما يعرف عنه من ميل للهو والشراب ، ولسنا نرى ذلك الرأي،وعندنا أن كثيراً مما ذكر عن اليزيديين في هذا المجال مبالغ فيه وهو جزء من حملة التشويه العباسية ضد خلفاء البيت الأموي . وكان يزيد الثاني حين ولي الخلافة في التاسعة والعشرين

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٥٦ .
(٢) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٠١ .
(٣) ابن سعد ، الطبقات ، ط . دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ج ٥ ، ص ٣٤٤ .
(٤) ابن سعد ، ج ٥ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٨ .
(٥) المصدر السابق ، ص ٤٠٤ .

من عمره[1] ، وقد استغل بعض المؤلفين وعلى رأسهم صاحب الأغاني شبابه وبعضاً من أخبارحياته الخاصة ليظهروه بمظهر الفاسق الفاجر الذي لاتهمه شؤون الدولة بل ينصرف بكليته إلى الحياة العابثة مع جاريتيه حبابة وسلامة اللتين غدا لهما أوسع النفوذ في كل الأمور ، حتى أن حبابة كانت تولي وتعزل العمال بغير إذنه[2] • وفي هذا مبالغة واضحة لا تستقيم مع النقد السليم للأخبار والروايات[3] •

مقتل شَوْذَب الخارجي

كنا ذكرنا قبلاً شيئاً عن المراسلات والمناظرة التي تمت بين عمر بن عبد العزيز وشوذب وبعض من رجالاته • ولما مات عمر أراد عبد الحميد ابن عبد الرحمن عامل العراق زمن عمر أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك فأمر أحد قواده بمحاربة شوذب • وتتالى قواد الخليفة في لقاء شوذب ورجاله وكانوا يسقطون الواحد تلو الآخر • واستمر الحال كذلك حتى وجه يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة إلى الكوفة ، فشكا له الكوفيون حالهم مع شوذب وماسقط على يديه من قتلى منهم ، فجمع جيشاً عدته عشرة آلاف مقاتل وعلى رأسه سعيد بن عمرو الحرشي وأمره بالمسير لقتال شوذب ، وقد استطاع جيش الحرشي أن يقضي على شوذب بعد معارك طاحنة وذلك سنة ١٠١ هـ[4] •

فتنة يزيد بن المهلب

تعتبر هذه الفتنة أهم الأحداث الداخلية زمن الخليفة يزيد الثاني • وإذا أردنا أن نستقصي أصولها لوجدنا أنه كان لصلة المصاهرة التي كانت

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٧٤ •

(٢) انظر أمثلة على هذه المبالغات والأخبار في الأغاني ، ط ، دار الكتب ، ج ١٥ ، ص ١٢٢ وما بعدها حيث نقرأ أخبار حبابة ، والأغاني ، نفس الطبعة ، ج ٨ ، ص ٣٣٤ وما بعدها حيث نقرأ أخبار سلامة •

(٣) انظر بحثنا باللغة الانكليزية عن الحياة الاجتماعية في العصر الاموي ، ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤ •

(٤) من أجل مقتل شوذب ، انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٧٥ ـ ٥٧٨ •

تربط هذا الخليفة بأسرة الحجاج[1] أثرها في إساءة العلاقات بينه وبين ابن المهلب ، لأن ابن المهلب حين ولي العراق زمن سليمان بن عبد الملك عذب آل الحجاج ، فعاهد يزيد بن عبد الملك الله لئن مكّنه من يزيد بن المهلب « ليقطعن منه طابقاً »[2] • ويذكر أبو مخنف أنه حين بلغ ابن المهلب وهو في محبسه زمن عمر بن عبد العزيز أن الخليفة عمر الثاني مريض وأن الخلافة ستؤول بعده إلى يزيد بن عبد الملك دبر أمر هربه من السجن • أما الواقدي فيزعم أن يزيد بن المهلب إنما هرب من سجن عمر بعد موت عمر[3] • ويبدو أن ابن المهلب قصد البصرة بعد هربه ، وتمكن من السيطرة عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها وهو عدي بن أرطاة الفزاري فحبسه وخلع يزيد بن عبد الملك • وطبيعي أن يقصد ابن المهلب البصرة فهي موطن أسرته من المهالبة ومستقر قبيلته أزد عمان • وكان عدي حين سمع بهرب ابن المهلب قد أخذ أهل بيته الموجودين في البصرة وحبسهم بناءاً على أوامر الخليفة • وجرت بين ابن المهلب وعدي مراسلات عرض فيها ابن المهلب على عدي إخلاء أهله وجماعته مقابل أن يصالحه على البصرة ، ويقوم هو بتصفية حسابه مع يزيد بن عبد الملك • ولكن عدياً رفض هذا العرض • فلجأ ابن المهلب إلى استمالة الناس إليه وأخذ يفرق فيهم الذهب والفضة[4] فانضمت إليه القبائل اليمنية كربيعة والأزد ، أما بقية تميم وقيس فقد ظلت في صف الوالي الأموي للعداء الذي كان بين هذه القبائل والقبائل اليمنية • ولكن هذا الولاء لعدي لم يدم طويلا لأنه في الوقت الذي كان فيه ابن المهلب يوزع الذهب والفضة على من ينضم إليه من الناس ، كان عدي « لا يعطي إلا درهمين درهمين ، ويقول لا يحل لي أن أعطيكم من بيت المال

---

(١) تزوج يزيد بن عبد الملك ابنة محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج وانجبت له زوجته هذه ابنه الوليد الذي صار خليفة فيما بعد • (انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٤) •

(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٤ •

(٣) انظر الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٤ ، و ص ٥٦٥ •

(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٨٠ •

درهماً إلا بأمر يزيد بن عبد الملك »[1]، الأمر الذي أدى الى تراخي أنصاره من قيس وتميم ، بل وبعض جند الشام ، وأخذوا يتفرقون عنه ، فانتهت الحال بعدي الى أن غدا قليل الأنصار واضطر الى الالتجاء الى قصر الامارة الذي كان يضم أيضاً من كان قد سجنهم من المهالبة . وعرف المهالبة بارتفاع شأن زعيمهم يزيد فقويت معنوياتهم ، وحدثت بينهم وبين حرسهم مناوشات انتهت بتمكنهم من الافلات والهرب من السجن . ولم تمض أيام قليلة حتى سقط القصر في يد ابن المهلب ، ووقع عدي بن أرطاة أسيراً واقتيد الى ابن المهلب . وكان يزيد بن عبد الملك ، بناءاً على وساطة أحد أقرباء ابن المهلب، قد بعث بأمان للمهالبة جميعاً ، ولكن حين عاد الوسيط بالأمان من دمشق ، كان يزيد بن المهلب قد حقق نصراً كبيراً واستولى على قصر الامارة وحبس عدي بن أرطاة وحث الناس على جهاد أهل الشام لأن جهادهم في رأيه « أعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم . »[2] . وقد أثارت هذه الدعوى الحسن البصري الذي ما تزال ذاكرته عامرة بأخبار ما ارتكبه يزيد بن المهلب من أفعال حين كان والياً على العراق زمن سليمان بن عبد الملك ، فدعا الناس الى الانفضاض من حوله وارتأى أن خير ما يفعله هو العودة الى السجن حيث وضعه عمر بن عبد العزيز[3] . ولكن دعوة الحسن البصري هذه لم تلق قبولاً من الناس ، وظل أمر ابن المهلب في صعود ، فخرج من البصرة بعد أن تمت له السيطرة عليها وولى عليها مروان بن المهلب ، وتوجه الى واسط حيث بقي فيها بضعة أيام وذلك في أواخر عام ١٠١ هـ ، ثم تركها بعد أن ولى عليها ابنه معاوية وسار الى الكوفة للقاء مسلمة بن عبد الملك الذي وجهه الخليفة لحربه[4] . وكان مسلمة يسير على شاطىء الفرات ، وحين اقترب من المكان الذي كان يعسكر فيه ابن المهلب عقد جسراً على النهر وعبر بجيشه للقائه[5] . وجرت بين الجيشين معركة هائلة ابتدأت

---

(١) الطبري . ج ٦ ، ص ٥٨٠ ـ ٥٨١ .
(٢) الطبري . ج ٦ . ص ٥٨٧ .
(٣) الطبري . ج ٦ ، ص ٥٨٧ .
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٠ .
(٥) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٠ .

يوم الجمعة الرابع عشر من شهر صفر سنة ١٠٢ هـ . وقد سقط يزيد بن المهلب قتيلاً في ميدان المعركة وسقط معه أخواه حبيب ومحمد ، كما استطاع جيش مسلمة بن عبد الملك أن يأسر نحواً من ثلاثمائة من رجال ابن المهلب بعد اقتحام معسكره ، وضربت أعناق بعضهم . ومن ناحية أخرى كان معاوية ابن يزيد بن المهلب يتولى الأمر في واسط نيابة عن أبيه ، فلما بلغته أخبار مقتل أبيه واعمامه وبعض الأسرى ، أخرج اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في سجنه فأمر بقتلهم وكان بينهم عدي بن أرطاة أمير البصرة من قبل يزيد بن عبد الملك[١] .

ولما تم النصر لجيش الشام سار آل المهلب باتجاه البصرة حيث تجمعوا هناك، ثم ركبوا السفن خلسة وحملوا فيها أموالهم ونساءهم ونزلوا في شاطىء كرمان . وبلغت أخبار هربهم مسلمة بن عبد الملك فأرسل في طلبهم فحاولوا الالتجاء الى قندابيل من شاطىء السند ، ولكن مطارديهم الأمويين لحقوا بهم. وأبلى المهالبة بلاءاً حسناً في قتال مطارديهم حتى قتلوا عن آخرهم باستثناء اثنين منهم استطاعا النجاة هما أبو عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل ، وقد لحقا بخذقان ورتبيل[٢] . وأرسلت رؤوس القتلى الى يزيد بن عبد الملك فعلقها في الشام وحلب . أما النساء فقد أراد مسلمة أول الأمر أن يبيعهن بيع الرقيق ، ولكنه تخلى عن ذلك بعد أن تدخل الجراح بن عبد الله الحكمي ، وهو من رجالات البيت الأموي المخلصين ، وأرسل تسعة فتية أحداث الى يزيد بن عبد الملك ، فأمر هذا بأن تضرب أعناقهم[٣] . كما صودرت أموال المهالبة امعاناً في التبكيل بهم .

وبهذا انتهت حياة أسرة عظيمة ، كان للكثير من أفرادها دور بارز في الأحداث السياسية والعسكرية التي جرت زمن الأسرة الأموية .

وتكريماً للنصر الذي تم على يدي مسلمة ولاه أخوه العراق بجميع

(١) الطبري ، ج ٦ ص ٦٠٠ .
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٦٠٢ .
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ .

أقطاره فجمع له ولاية الكوفة والبصرة وخراسان ، وذلك سنة ١٠٢ هـ على ما يذكر الطبري[١] • ولكنه لم يلبث أن عزله عنه في نفس العام ، وكان سبب عزله على ما يذكر الطبري هو انه لم يرفع من خراج العراق أو خراسان شيئاً الى بيت المال أثناء ولايته[٢] • وولى يزيد العراق عمر بن هبيرة الفزاري بعد مسلمة ، ويبدو أن من جملة العوامل التي حفزت يزيد لتعيين ابن هبيرة في هذا المنصب ، أن هذا الأخير كان من رجالات الحجاج المخلصين• وكان ابن هبيرة يشغل زمن عمر بن عبد العزيز منصب ولاية الجزيرة • ولما تسلم ولاية العراق عهد بولاية خراسان الى سعيد بن عمرو الحرشي •

السياسة القبلية زمن يزيد بن عبد الملك : القضية القبلية وصراع العصبيات التي حاول عبد الملك بن مروان أن يخمد أوراها باقامته نوعاً من التوازن بين الزعامات المتطاحنة عادت لتطل برأسها بعد وفاته ولا سيما زمن ابنه سليمان • وجاء عمر بن عبد العزيز الذي رفع شعار المساواة عالياً ، وجعل من دولته دولة يرتكز الحكم فيها على شعائر الاسلام ، ليخمد كل صوت لا ينسجم وهذه المساواة التي تصنف الرعية لا حسب انتماءاتهم القبلية،بل حسب تقواهم وتفانيهم في خدمة العقيدة•وحين آلت الخلافة الى يزيد بن عبد الملك عادت العصبية لتطل برأسها ولتظهر في أكثر من مناسبة من المناسبات التي تقتضيها ظروف الحكم وشؤون الدولة • وواضح أنه منذ أن تحقق النصر في مرج راهط للبيت الأموي بمساعدة اليمنية ، وأراد عبد الملك أن يعيد للقيسية شيئاً من نفوذها وسلطانها حتى يستل من نفوس رجالها كل حقد ، ونفوذ القيسية في تزايد • وقد وصل هذا النفوذ درجة عالية على يد الحجاج ، وجاء يزيد بن عبد الملك الآن ، لما كان بينه وبين آل الحجاج من صهر[٣] ، ليخطو الخطوة الواضحة في نصرة القيسية • فكان

---

(١) الطبري ج ٦ ، ص ٦٠٤ •

(٢) الطبري • ج ٦ • ص ٦١٥ •

(٣) انظر ما كتبناه حول هذا الامر في مطلع بحثنا عن خلافة يزيد الثاني •

ما ذكرناه في الفقرة السابقة من قضائه على المهالبة ، وجاء بعد ذلك تعيينه لعمر بن هبيرة على العراق وخراسان • فعمر بن هبيرة ، قيسي متعصب لقيسيته ، وقد أثار تعيينه حفيظة الكثيرين[1] ، لأنه لم يأل جهداً في الاساءة الى قبائل الأزد واليمن بوجه عام ولا سيما من كان منهم يقطن خراسان • وقد اعتبر القيسيون أن النصر الذي تحقق ضد المهالبة هو نصر لهم • ولسنا نشك في أن النزاع الشخصي الذي احتدم زمن الحجاج بن يوسف بينه وبين ابن الأشعث وابن المهلب كان من جملة العوامل التي زادت في شقة الخلاف بين قبائل قيس ويمن ، وواضح مما ذكرناه عن فتنة يزيد بن المهلب أن انتماء الخليفة الجديدة الى آل الحجاج وصهره لهم كان من بين العوامل التي حدت بابن المهلب الى الهرب من سجنه وإعلان العصيان على الدولة • وحين تم له النصر عليهم وضربهم تلك الضربة القاصمة التي لم تبق ولم تذر ، بدا وكأن الخليفة يريد بالقضاء عليهم القضاء على العصبية اليمنية واقتلاعها من جذورها • واكتملت هذه الصورة حين ولى العراق ابن هبيرة وأطلق يده ، وهو القيسي المتعصب ، في حكم هذا الاقليم يعيث فيه قتلاً وجوراً وظلما • وقد يكون من الانصاف أن نقول أن ما تم في العراق زمن يزيد بن عبد الملك ليس بالضرورة نتيجة لخطة سياسية مدبرة مسبقاً وتهدف الى القضاء على اليمنية ، بل ربما كانت مجرد رغبة في الانتقام من المهالبة الذين صوبوا سهامهم نحو ملكه واعلنوها عليه حرباً هددت وجود دولته ، بله شخصه • والسبب الذي يدعونا الى هذه الفرضية هو أن دراستنا لسيرة يزيد الثاني الشخصية واستقصاءنا لأخبار فترة حكمه تجعلنا نميل الى الاعتقاد بأنه لم يكن رجل دولة بعيد النظر يخطط ويدبر ، أو يدرك النتائج التي سترتب على فعلة يقوم بها أو أمر يبرمه • ولنا في سياسته التي

---

(١) يقول الشاعر الفرزدق في تعيين ابن هبيرة على العراق وذلك في معرض تهكمه على هذا التعيين :

ولقد علمتُ لئن فزارة أُمرت ... أن سوف تطمع في الامارة أشجع

ومعلوم أن فزارة هي من أهم قبائل غطفان القيسية وأن أشجع هي في أدنى مراتب الشرف في السلم القيسي •

اتبعها في الشام دليل آخر على هذا الذي نذهب إليه : ففي الشام لا نجد يزيداً يحابي القيسية على اليمانية ، بل نراه يعتمد على اليمنية اعتماداً كلياً ، حتى أن الجيش الذي أرسله لمحاربة المهالبة كان في غالبيته من القبائل اليمنية ، وكان قاتل يزيد بن المهلب رجلاً من كلب كما يذكر الطبري[١] ، وكان الكلبيون هم الذين تعقبوا المهالبة الهاربين وأبادوهم • وكل ذلك يظهر أن التهمة التي يوجهها البعض الى يزيد بن عبدالملك من أنه بعث روح العصبية بين اليمانية و القيسية[٢] تهمة مبنية على بعض المظاهر والأحداث دون التعمق في جميع جوانب حكم هذا الخليفة • وإذا أردنا أن نذهب في نقاشنا هذا مدى أبعد ، لاستطعنا أن نقول أنه حتى تعيين عمر بن هبيرة والياً على العراق هو عند بعض المصادر ، لا مظهراً من مظاهر تعصبه للقيسية ، بل نتيجة للتأثير القوي الذي كان لجاريته حبابة عليه ، وأنها هي التي أوحت ليزيد بتعيينه ، فانصاع يزيد لرغبتها[٣] •

وفي نهاية هذا الحديث عن خلافة يزيد بن عبد الملك لا بد لنا أن نذكر أن عهده لم يتميز بأعمال عسكرية كبيرة في الخارج • فما عدا بعض المعارك التي قادها سعيد الحرشي والي خراسان في منطقة سمرقند ، والمواقع التي جرت بين الجيش الاسلامي وعناصر الخزر في أرمينيا التي انتهت بهزيمة الجيش الاسلامي أول الامر مما دعا الخليفة الى استعمال الجراح بن عبد الله الحكمي على أرمينيا وامداده بجيش كبير ، الأمر الذي ساعد الجراح على تحقيق بعض الفتوح في تلك البلاد النائية ، لا نسمع عن عمليات عسكرية على الجبهة البيزنطية أو غيرها من الجبهات ويبدو أن فترة حكمه القصيرة ، وأحداث العراق الدامية ، شغلته عما عداها فلم يتح له أن يقوم بانجازات كبيرة في الداخل أو الخارج •

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٧ •
(٢) انظر مثلا ، عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الامويين ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦ ، ص ٢٧٢ •
(٣) انظر ، الأغاني ، ط • دار الكتب ج ١٥ ، ص ١٢٧ •

ويبدو أنه كان يريد أن تكون الخلافة من بعده لابنه الوليد ، ولكن انه كان صغير السن ، فنصح بأن يجعل الخلافة من بعده لأخيه هشام ، فقبل النصيحة وعهد بالخلافة لأخيه ومن بعده لابنه الوليد .

وفي الخامس والعشرين من شعبان سنة ١٠٥ هـ توفي يزيد بن عبد الملك بعد حكم دام أربع سنين ، وتختلف الروايات في سنه آنذاك فبعضهم يقول أنه كان في الثالثة والثلاثين ، ويقول آخرون أنه كان أكبر من ذلك ، حتى أن بعضهم يجعله في الأربعين[١] .

★ ★ ★

(١) انظر الروايات المختلفة حول عمر يزيد حين توفي ، في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٢ .

الفصل الثامن

هشام بن عبد الملك

كان يزيد بن عبد الملك قد جعل الخلافة من بعده لأخيه هشام ثم لابنه الوليد بن يزيد بعد هشام • وقد سمّي هشام نسبة الى جده لامه ، هشام بن اسماعيل المخزومي • وقد أتته شارات الخلافة بعد وفاة يزيد وهو في الرصافة[1] (المدينة الصحراوية القريبة من الرقة التي بنيت زمن الروم وجدد بناؤها فيما بعد) وكان هشام على ما يبدو يحب الرصافة اذ انه اقام بها بعد ان اصبح خليفة ، وترك دمشق لانها كانت تعاني من وباء الطاعون حين تسلم الخلافة •

ويصف المؤرخون هشاماً بأنه كان قليل الشبه بأخيه يزيد ، وانه كان على عكسه بعيد النظر يعرف كيف يسوس لامور ، طيب السيرة ، جريئاً في تنفيذ مشروعاته ، كما انهم يصفونه بأنه لم يكن كسلفه عمر بن عبد العزيز من حيث الدين والاعراض عن كل ما هو دنيوي[2] •

وقد اظهر هشام منذ مطلع حكمه ميلا واضحا لليمنية وجفوة للقيسيين الذين عاثوا في الارض فسادا زمن أخيه • وكان اول ما فعله ان عزل عمر

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥ •

(٢) انظر بعضاً من أخبار هشام وسيرته الشخصية واخلاقه وصفاته في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠١ وما بعد •

ابن هبيرة والي أخيه على العراق ، وهو قيسي ، وعيّن بدلاً عنه خالد بن عبد الله القسري وذلك في شهر شوال سنة ١٠٥ هـ [١] .

وتعتبر ولاية خالد على العراق من أهم احداث فترة خلافة هشام . فخالد يعتبر في مصاف زياد والحجاج ، وولايته تستحق منا وقفة ندرس فيها اخبار الدولة ، من خلال دراستنا لاخباره .

خالد بن عبد الله القسري :

بدأ خالد بن عبد الله القسري حياته في عهد الحجاج . وبناء على مساعي الحجاج ، ارسله الوليد بن عبد الملك واليا على مكة عوضا عن عمر ابن عبد العزيز سنة ٩١ هـ ، بدعوى أن الحجاز في ولاية عمر اصبح معقلا للثائرين والناقمين على حكم الحجاج من أهل العراق[٢] . وقد أظهر خالد همة ونشاطاً في ملاحقة العراقيين المقيمين في مكة ، وذلك بأن حرّم على أصحاب البيوت في هذه المدينة ايواء أي عراقي دون اذن الوالي ، وجعل أصحاب البيوت مسؤولين عمّن فيها .

وباعتبار أنه كان من رجالات الحجاج ، فان سليمان بن عبد الملك عزله ، وأقصاه عن الامارة . واستمر كذلك شخصاً عادياً حتى كانت خلافة هشام الذي وسّد اليه أهم منصب في الدولة .

قدم خالد العراق وجعل واسط مقر ولايته كما فعل الحجاج من قبل ، وصرف همّه لادارة امور الدولة . ويبدو ان خالداً كان اميل الى السلم منه الى العنف رغم انه لم تعوزه الهمّة ، الا انه لم يكن في عداد أهل الحرب . وكان الناس يعرفون فيه هذه الخصلة ، ويعيّرونه بها .

وقد حدثت في أواخر أمرته بعض الفتن من جانب الشيعة والخوارج[٣]

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٦ .

(٢) انظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في فصلنا عن خلافة الوليد بن عبد الملك .

(٣) انظر اخبار بعض هذه الفتن في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٣٠ وما بعدها .

ولكنها كانت فتنا صغيرة غير ذات بال • ونستطيع القول أن العراق،في عهده عاش فترة من الهدوء لم تكن مألوفة في فترات حكم الذين سبقوه•وازدهرت الحياة الاقتصادية في العراق اثناء ولايتـه ، واستقطبت محبة الناس عـلى اختلاف مشاربهم ، رغم ان حكمه لم يخل من المعارضة ، ومن قيام بعض الحركات المعادية لشخصه •

ولم يبن خالد شخصيته على أساس من عصبية قبلية يعتز بها • فقبيلة قسر التي ينتسب اليها قبيلة ضعيفة لم يكن لها شأن كبير • وهكذا لم تكن لخالد قوة أو دعم من قومه ، ولم يكن يستند على عصبيـة قبلية يعتد بها • وقسر من بجيلة ، وبجيلة لم تكن تنتسب لا الى مضر ولا الى اليمن • وقد ساعده هذا على ان يكون بعيدا عن النزاعات القبلية بحكم عدم انتمائه الى حزب معين • على أن هذا الحياد لم يجنبه عداوة قيس اذ أن القيسيين كانوا مضطرين بطبيعة الحال لأن يعتبروه عدوا لهم لانه جاء ليزيل سلطان ابن هبيرة القيسي • يضاف الى هذا ان اغلب القبائل القيسية لم تتقبل تعيينه قبولا حسناً ، وشعرت منذ البدء أنها في صف غير صف الأمير الجديد • ويبـدو ان خالداً حين عهد اليه بهذا المنصب قد آلى على نفسه ان يبتعد عن تيارات النزاعات القبليـة ، ولكنـه لم يلبث أن وجـد نفسه منغمساً في لجّة هـذه المنازعات ، اذ أن عداوة مضر دفعته دفعاً الى محاباة اليمانيين وأخذ جانبهم •

وقد لاقى خالد الى جانب عداء قيس عداء المتزمتين من المسلمين ، وقد فرضت عليه هذه العداوة فرضاً بحكم كونـه ابن أم نصرانية ظلت عـلى نصرانيتها،وتمسكت باهدابها • وكان مما اثار السخط الديني عليه انه بنى لأمه في الكوفة كنيسة قبالة المسجد الجامع ، وسمح للنصارى بوجه عـام أن يبنوا كنائس جديدة،واظهر تسامحا مع اليهود ايضا ، واستعمل اشخاصاً ذميين ومجوس في اعمال الخراج وبعض الاعمال الادارية[١] •

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٣١ •

كل هذا جعل اعداءه يثيرون من حوله الاقاويل ، فأخذوا يشيعون ان أصله يهودي من تيماء ، وأن جدّه كان من موالي عبد القيس ، وأنه زنديق كافر فاجر . ونسبت اليه اقاويل واحاديث في ذم بئر زمزم والكعبة ، والنبي ، وآل الرسول والقرآن ، وكل مقدسات الاسلام[1] . وقد جاء طعن خالد ايضاً من ناحية أخرى ما كان يظن انها ستتسبب له طعنا . وهذه الناحية هي قضية اهتمامه الشديد بأمور الزراعة . اذ أنه قيل في ذلك أنه كان ينافس هشام بن عبد الملك . ونسبت إليه أخبار كثيرة تتحدث عن تجفيف مستنقعات واستملاك اراضيها ، واصطفائه للاراضي الجيدة الخصبة وتملكه لها قسراً . وعند الطبري قائمة بأسماء ضياعه الكثيرة التي حصل عليها بشكل غير شرعي[2] .

ويبدو أنه من الصحة بمكان كبير ان خالداً اثرى كثيرا وتملك من الاقطاعات ما جعله في مصاف كبار الاغنياء ، ولكنه كان من جهة أخرى يستخدم المال الوفير الذي حصل عليه في اجتلاب قلوب الناس ، وفي اغداق الهبات والاموال على خاصته واتباعه حتى يجعل لنفسه عصبة تدافع عنه وتحميه اذا ألمت به نائبة من النوائب .

كل هذه الامور جعلت من خالد موضع شكوى الناس ، وكثر الساخطون عليه ، وفسرت أعماله الخيرة كحفره للترع ، وكريه للانهار بأنها أعمال ليس المقصود منها الصالح العام ، وانما مصالحه الخاصة وزيادة ثروته . ولم تكن خصلة الاهتمام بالزراعة ، واستملاك الارض خاصة بخالد ، بل كان يجاريه بهذا امراء البيت المالك ويفوقه فيها الخليفة نفسه . على ان الناس لم يتجرأوا على الخليفة ، فتجرأوا على عامله الذي كان مكروها للاسباب التي ذكرناها من قبل . وقد زاد في كره الناس له اعتقادهم بأن الاموال التي كان يبعثرها ذات اليمين وذات اليسار ، لم تكن من غلات

---

(١) انظر ما جاء حول ذلك في ، الأغاني ، ط . بولاق ، ج ١٩ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٥١ _ ١٥٢ .

ضياعه فقط ، بل كانت من بيت المال الذي استباحه على حد زعمهم لمآربه وأغراضه الخاصة [1] •

رغم هذا كله ، ورغم التذمر الشديد والنقد اللاذع الذي تعرض له خالد كوالٍ ، فانه لبث في إمرته على العراق ما يقرب الخمسة عشر عاماً • وهي باستثناء ولاية الحجاج اطول مدة قضاها وال في هذا القطر • ولكن في النهاية لم يستطع الخليفة ان يصم آذانه عن صرخات المتذمرين التي تعالت وبلغت حداً لا يمكن التغاضي عنه ، فاضطر لأن يستمع اليها وأن يعمل بوحي من الحاحها ، فقد تضافر قوم من اشراف قريش كان خالد قد استخف بهم وأهانهم ، تضافروا مع أعدائه من القيسيين ، وأوغروا صدر الخليفة عليه ، وأثاروا في نفس الخليفة الرعب مما قد يقع له هو نفسه نتيجة لازدياد نفوذ خالد •

وزاد في شكوك الخليفة وريبته في أمر خالد ظهور هذا الاخير بمظهر الرئيس الكريم السيد ، وتفوهه بكلمات يُشتم منها استخفافه بالخليفة ، مما جعل الخليفة يعزله ، ويعين مكانه يوسف بن عمر الثقفي ، وهو قيسي من أقرباء الحجاج ، وكان قد تولى إمرة بلاد اليمن لسنين طويلة[2] •

عزل خالد وقبض عليه ، وسجن في الكوفة • أما يوسف بن عمر الوالي الجديد فقد جعل مركز اقامته في مدينة الحيرة (وهي مدينة نصرانية صغيرة تقع بجوار الكوفة)• وكان هشام قد أمر يوسف بالانتقال اليها حتى لا يساكن الشوام الكوفيين بلدا واحداً • وقد بقي خالد في السجن مع أخيه اسماعيل وابنه يزيد وابن اخيه المنذر بن أسد مدة ثمانية عشر شهراً • ولم يناصره أحد من اليمنيين ، ولم يقم احد بأي عمل لنصرته •

وكان من الطبيعي ان يحاسب خالد بعد سجنه على الاموال التي

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، الدولة العربية وسقوطها ، ص ٣٢٠ — ٣٢١ •

(٢) انظر من اجل قضية عزل هشام بن عبد الملك لخالد ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٤٧ وما بعدها •

تصرف بها • واستأذن يوسف بن عمر الخليفة هشام في أن تطلق يده على خالد لمحاسبته واسترداد الاموال منـه ، فلم يأذن له هشام بذلـك • فألح يوسف ، وبنتيجة هذا الالحاح سمح له الخليفة بذلك مرة واحدة • وبعث مع يوسف حرسيا وطلب اليه ان يخبر يوسف ان الخليفة قد اقسم الايمان المغلظة انه اذا اتى على خالد اجله وهو تحت العذاب فانه سيقتله به •

وفي شوال سنة ١٢٠ هـ • أمر هشام باخلاء سبيل خالد لأن التحقيق معه لم يصل الى أية نتيجة • فخرج خالد من السجن ، وذهب الى بلـدة القرية قرب الرصافة حيث كان يقيم هشام • وحاول جاهدا ان يأخذ الاذن من هشام لمقابلته • ولكن الخليفة كان يرفض في كل مرة ، رغم وساطـة مستشاره الابرش الكلبي الذي كان يوليه الخليفة كل انواع الثقة •

وأقام خالد في القرية حتى صفر من عام ١٢٢ هـ ، حيث غادر القرية متوجها الى دمشق ، وأقام هناك بعد ذلك •

على أن يوسف بن عمر ظـل في الحاحه على الخليفـة لمطاردة خالد ومحاسبته واستطاع في النهاية أن يقنع الخليفة بأن يأذن له بأخذ يزيد بن خالد على الاقل ، فأذن له الخليفة بذلك،لان يزيداً كان قد فر من السجن• وقد وقف الى جانب يوسف في عدائـه لخالد كلثوم بن عيـاض القسري صاحب الشرطة في دمشق ، رغم أنه كان ابن عم خالد • وبحكم وظيفتـه كان هو الذي يراقبه أثناء اقامته بدمشق • وقد دبّر كلثوم تهمـة الصقها بخالد وأولاده ومواليه ، وتتلخص هذه التهمـة : بأن خالداً وزمرتـه كانوا يشعلون كل ليلة الحرائق في دور دمشق بقصـد الوثوب عـلى بيت المال وذلك في فترة كانت فيها الدولة مشغولـة بحرب لها مـع الروم • وصدّق هشام التهمة ، وكان الذي جعل هشاماً يصـدق ذلك أن منشأ التهمة هـو كلثوم ابن عم خالد ، ولا يمكن لابن عم أن يتحامل على ابن عمه زوراً • فكتب هشام الى كلثوم يأمره بحبس خالد وزمرته ومواليه كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساءاً • ولم يمض أمد طويل حتى تبين أن خالداً قد وقع ضحية

ظلم شديد ، وأنه لم تكن له من علاقة بهذه الحرائق ، وأن هذه الحرائق كانت من فعل رجل عراقي له جماعة تضرم النار في البيوت ، حتى اذا وقعت الفوضى بنتيجة الحرائق ، أغاروا على البيوت فنهبوها •

ولمّا تيقن هشام من هذه الحقائق كتب الى كلثوم يعنفه على ذلك ويأمره باخلاء سبيل خالد وجميع آله •وكان هشام في كل مرة تصله وشاية عن خالد لا يسارع الى تصديقها ، ولا يقوم بأي عمل انتقامي من خالد خادمه القديم الا بعد فحص وتمحيص • وهناك ما يشبه الاجماع على أن كل قصاص نزل بخالد زمن هشام كان دون رضى هشام ، وأنه كان يندم في كل مرة يوقع فيها قصاصاً بخادمه القديم • وفي السنوات الأخيرة من خلافته اذن له أن يقيم في دمشق آمناً مطمئناً غير هياب لأي دسيسة توضع ضده[1] •

العراق بعد خالد وفتنة زيد بن علي :

يمكننا أن نصف عهد خالد في العراق بأنه عهد هدوء وطمأنينة • ولكن ما لبث الحال أن تغير بعده ، وبدأت الفتن والثورات تتوالى • وأهم ما وقع في العراق بعد خالد ، هو فتنة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب • وأم زيد هذا ، أم ولد أهداها المختار بن أبي عبيدة لعلي بن الحسين فولدت له زيداً وأولاداً آخرين[2] • وتتحدث المصادر[3] عن الأسباب التي أدت إلى قيام زيد بثورته فتذكر ما خلاصته أن يوسف بن عمر عامل هشام على العراق كتب إلى الخليفة هشام مدعياً أن خالد القسري قد أودع ستمائة ألف درهم عند زيد بن علي وأن زيداً ينكر هذه الوديعة•

---

(۱) من اجل نهاية خالد والاخبار الواردة في هذه الفترة ، انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥٤ وما بعدها •

(۲) انظر ، مقاتل الطالبيين ، ص ۱۲۷ •

(۳) من اجل فتنة زيد بن علي انظر ، مقاتل الطالبيين ، ص ۱۳۳ وما بعدها ، والطبري ، ج ٧ ، ص ١٦٠ وما بعدها •

فبعث هشام إلى زيد يستدعيه إليه فقدم زيد من المدينة أو الرصافة[1] على هشام وأكد له أن خالداً لم يودع عنده شيئاً . وطلب هشام من زيد أن يذهب بنفسه إلى يوسف ليواجهه بهذا ويناقشه في التهمة التي اسندها إليه. ولكن زيداً أبدي تخوفه من مقابلة يوسف وما قد يتعرض له من إهانة أو تعذيب من قبل هذا الأخير . ولكن هشاماً أصر على رحيله إلى العراق . وزوده بكتاب إلى يوسف يطلب إليه فيه أن يحقق معه ومع صحبه فان ثبتت التهمة عليهم أعادهم إليه ، وان هم أنكروا ولم يقدموا بينة على انكارهم فليستحلفهم بالله بأن خالداً لم يودع لديهم شيئاً فان هم فعلوا ، فليخل سبيلهم[2] . ويبدو أن الخليفة كان يشك في نوايا زيد وأن له مطامح في الخلافة ، ففاتحه بذلك وقال له : « لقد بلغني أنك تؤهل نفسك للخلافة وأنت ابن أمة ! قال : ويلك ! مكان أمي يضعني ؟ والله لقد كان اسحق ابن حرة واسماعيل ابن أمة ، فاختص الله عز وجل ولد اسماعيل ، فجعل منهم العرب ، فما زال ذلك ينمى حتى كان منهم رسول الله[3] . وترك زيد مجلس هشام بعد هذا الحوار وتوجه إلى العراق حيث قدم على يوسف ابن عمر ، فطالبه يوسف بالمال، فأقسم زيد أغلظ الأيمان أن لا علم له بها ، ولكن يوسف لم يقبل قسمه . ويزعم اليعقوبي أن يوسف أجرى مقابلة بين زيد وخالد بن عبد الله القسري، وأن خالداً أنكر أن يكون قد أودع عند زيد أي مبلغ من المال[4]، ولكن يوسف استمر في سجن زيد وتعذيبه ، فبلغ الخبر هشاماً فبعث إلى يوسف يأمره باخلاء سبيل زيد والسماح له بترك الكوفة والسفر إلى المدينة . وأراد زيد ترك الكوفة ، ولكن شيعتها

---

(١) يدعي صاحب مقاتل الطالبيين ان زيداً كان حينئذ يقيم في الرصافة (انظر ، ص ١٣٣) ، في حين ان الطبري (ج ٧ ، ص ١٦٠) يذكر في رواية انه كان في المدينة ، وفي أخرى (ج ٧ ، ص ١٦١) انه كان يقيم في الرصافة . أما اليعقوبي فلا يحدد مكان اقامته قبل قدومه إلى هشام (انظر ، اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٥) .

(٢) انظر نص الكتاب في مقاتل الطالبيين ، ص ١٣٤ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

أقبلوا عليه وألحوا عـلى ضرورة بقائه وقالوا له انهـم يرون فيـه المنصور المرتجى وأن زمنه سيكون الزمن الـذي يهلك فيه بنو أميـة[1] • وكانت حجتهم في استبقائه أن السلطان الشامي في الكوفة لا يستند إلا على بضـع مئات من الجنود الشوام ، لا حول لهـم ولا طول أمـام الآلاف المؤلفة مـن الكوفيـين الذين ينصرونهم بقلوبهم ودمائهم وسيوفهم • وقـد فعل هـذا الكلام في نفس زيد فعله واغتر بالوعود تزجى له ، على أن هـذا لم يمنعه من أن يحتاط لنفسه ، وأن يقوم ببعض الأعمال التي اعتقد أنها تقيه شرور المباغتة • ومن هذه الأعمال الوقائية التي قام بها أنـه كان يغير الـدار التي ينزل فيها كل ليلة ، فلا يبيت في نفْس الدار ليلتين متواليتين ، حتى لا تعلم السلطات بمقره فتأخذه على حين غرة[2] •

وظل زيد في الكوفة مـدة عشرة أشهر يستعـد ويتهيؤ للثورة عـلى الآمويين • ومدّ رقعة دعوتـه الى البصرة والموصل والمناطق المجاورة حيث أخذت له البيعة ، وحتى تجمّع له من الجند المقاتلين ما يزيد على الخمسة عشر الفـاً في الكوفـة وحـدها ، سوى أهـل المـدائن والبصرة وواسط والموصل[3] •

وكانت بيعة الناس له تنص على مايلي : « انـّا ندعوكم الى كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهـاد الظالمين والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، وردّ المظالم واقفال المجمّر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » •[4] وكان الناس حـين يبايعون يقسمـون الايمـان المغلظـة على الوفاء بما عاهدوا ، والاستماتة في سبيل نصرة الحق •

كان كل هذا يجرى ويوسف بن عمر غافل عما يدور • وبعد فترة

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ •
(٢) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٧٢ •
(٣) الفخري ، ص ١٠٦ •
(٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٧٢ •

طويلة من الاستعدادات من جانب زيد ، تسرّبت بعض الأنباء الى يوسف عمّا يدبّره زيد وذلك عن طريق رجلين من جماعة زيد وقعا في قبضة يوسف[1] . ولمّا عرف زيد بأن أخبار استعداده قد تسربت الى يوسف ، قرر التعجيل بالثورة مخافة أن يؤخذ على حين غرّة .

وتناهى هذا الخبر أيضا الى علم يوسف ، كما تناهىاليه ان زيداً قد حدّد ليلة الاربعاء الأول من صفر سنة١٢٢هـ كموعد للقيام بحركته[2] . وفي يوم الثلاثاء السابق للثورة بساعات دعا يوسف أهل الكوفة للاجتماع به في مسجد المدينة ، ولمّا تكاملت عدّتهم اغلق عليهم ابواب المسجد وحاصرهم فيه ، ووضع عليهم حراساً من الجنود الشوام .

وفي ليلة الاربعاء وكانت ليلة مظلمة شديدة البرد ، جاء زيد ومعه حوالي مئتين أو يزيد من الرجال . وأراد ان يخلص الكوفيين من الحصار الذي فرض عليهم في المسجد ، ولكن لم تستطع هذه القلّة من الرجال ان تقف في وجه جند الشام . على أن زيداً لم يقنع بهذا الاندحار وظل الاربعاء والخميس يناوش الجند الشوام ، ويتراشق معهم بالسهام . وقد اصيب زيد بسهم في جبهته اليسرى مما اضطر معه ان يتراجع مع البقية الباقية من جنوده الى الكوفة . وفي الكوفة توفي زيد متأثراً بالسهم الذي اصابه . ووقعت جثته بيد الشوام فصلبوه في الكوفة بعد ان قطعوا رأسه ، وارسلوه الى الخليفة هشام بن عبد الملك الذي امر بنصب الرأس على باب مدينة دمشق . وبعد عرضه في دمشق لفترة من الزمن ارسله الى المدينة حيث ظل معلقاً حتى مات هشام[3] .

وأما يحيى بن زيد الذي كان غلاما صغيراً فقد استطاع الفرار الى

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٨٠ .

(٢) مقاتل الطالبيين ، ص ١٣٦ .

(٣) من أجل مقتل زيد ، انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ١٨٠ وما بعدها ، ومقاتل الطالبيين ، ص ١٤٠ وما بعدها ، واليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

خراسان حيث اقام في بلخ متخفياً مدة عدة سنوات[1] • ولكنه كشف أمره فيما بعد فاخذ ينتقل من مكـان الى آخر حتى كانت سنة ١٢٥ حـين القي القبض عليه وقتل وذلك في خلافة الوليد بن يزيد ، أو الوليد الثاني ، كما سنرى •

ورغم ان هذه الثورة انتهت بالفشل ، ورغم انها لم تحقق لآل البيت، كسابقاتها ، ما كانوا يرجونه من خلع الامويين وطردهم ، فانها كانت على جانب كبير من الأهمية لانها كانت حلقـة في سلسلة طويلـة مـن ثورات شيعيّة متلاحقة اعقبتها • وتضافرت هذه الجهود الشيعية مع الجهود التي كان يبذلها الدعاة العباسيون ، وعلى رأسهم ابو مسلم الخراساني الـذي اتخذ من مقتل يحيى بن زيد ، والثأر له ، منطلقاً للثأر من الامويين • وما لبثت كل هذه الحوادث ان تضافرت وانتهت بموقعة الزاب سنة ١٣٢ ، التي كتبت الصفحة الاخيرة في حياة الدولة الاموية • ويحيي بن زيد ، كان كما ذكرنا ، قد هرب الى خراسان ونزل عند أحـد الدهاقنة ، ودعا الى نفسه سراً[2] • فكتب يوسف بن عمر الى عامله على خراسان نصر بن سيار ، أن يأخذ يحي أشد الأخذ ، فتمكن نصر من حبسه • ولما توفي هشام وآلت الخلافة الى الوليد بن يزيد ، كتب الوليد الثاني الى نصر أن يؤمنه ويخلي سبيله ويرسله اليه[3] • ولكن يحي بدلاً من أن يذهب الى الوليد أعلن الثورة في منطقة من خراسان يقال لها الجوزجان ، حيث قابلـه جند نصر وقتلوه وصلبوه ، بعد ان قضوا على جميع من كان معه من رجال وذلك سنة ١٢٥ هـ[4] • وظلت جثته ، على ما يقول الاصفهاني ، مصلوبة حتى وقت ظهور العباسين الذين انزلوه وأقاموا له مشهداً[5] • واذا اضفنا الى ثورة

---

(١) انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ١٨٩ •

(٢) كتاب المقالات والفرق للقمي ، ط • طهران ، ١٩٦٣ ، ص ٢٠٥ •

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة •

(٤) مقاتل الطالبيين ، ص ١٥٧ ــ ١٥٨ •

(٥) مقاتل الطالبيين ، ص ١٥٨ •

زيد بن علي وابنه يحي أن خراسان عموماً كانت في هذه الفترة تعيش وضعاً مضطربا وقلاقل مستمرة ، بسبب النزاع بين العصبيات العربية بعضها مع بعض من جهة ، وبسبب الأوضاع الاقتصادية لفئات السكان المحليين من جهة أخرى ، لوجدنا مبرراً لزعمنا بأن الثورات الشيعية المتلاحقة في هذه الفترة ، كانت من أهم العوامل التي ساعدت على اسقاط الحكم الاموي ، لأنها استغلت ظروف البيئة المختلفة وجمعت عناصر الناقمتين على الحكم تحت لوائها لتقذف بهم في وجه السلطة الاموية المتداعية • ولم تكن هذه الظروف القلقة الطابع العام للحياة في مصر بعينه فقط ، بل كانت سمة الحياة في أمصار كثيرة أخرى كبلاد ما وراء النهر حيث كانت أحوال الموالي تستدعي العلاج السريع ، وفي الهند حيث كان جور الولادة وظلمهم السبب الذي دعا ملوكها الى الارتداد عن الاسلام ، وفي مصر حيث أساء العمال الأمويين معاملة الأقباط ولا سيما في ميدان الضرائب وجبايتها[1] ، الأمر الذي أدى في النهاية الى تعاظم الشكوى وتزايد عدد الناقمين ، مما عجل في سقوط البيت الأموي الحاكم •

حروب هشام ضد الروم والترك والسُغْد :

لم تقتصر عناية هشام على الشؤون الداخلية ، بل وجه همه أيضاً الى الحروب والفتوحات • وخاضت الدولة في زمنه معارك مختلفة في جبهات متعددة في الشرق والغرب • ومنذ مطلع حكمه استأنفت الدولة عملياتها العسكرية ضد الروم ، اذ ان الحروب في هذه الجبهة كانت قد توقفت منذ غزو العرب للقسطنطينية الذي جرى سنة ٩٨ ـ ٩٩ والذي استنزف من قوة الدولة الشيء الكثير •

ويحدثنا البلاذري صاحب فتوح البلدان ان الخليفة هشام بنى منذ

(١) من أجل الوضع المالي في مصر ، انظر دينيت ، ص ١١٥ وما بعدها •

مطلع عهده الحصون والمسالح في مواجهة الروم[1] • وكان يقوم في كل صيف بغزوات كبيرة ، وكان في كل مرة يوجه غزوتين أو ثلاثاً في وقت واحد لتلتقي في مكان معين • وكان الذي يقود هذه الغزوات ابناه معاوية وسليمان اللذان عرفا بالشجاعة والاقدام[2] • ومعاوية هذا هو جد الفرع الأموي الذي أسس الدولة الاموية في الاندلس وتوفي سنة ١١٨ أثناء قيامه ببعض العمليات العسكرية ، وكان هشام يرشحه للخلافة من بعده ولكنه توفي قبل أبيه[3] •

وحرب الروم والعرب في هذه الفترة يلمع فيها اسم عربي اشتهر جداً عند العرب والروم ونسجت حول قصة حياته وأعماله الاساطير والروايات ، وهو عبدالله البطّال ، وفي تاريخ الطبري أخبار كثيرة عن الأعمال والمعجزات التي تحققت على يد البطّال هذا ، ومن بينها أنه تمكن من أسر الامبراطور قسطنطين[4] • وقد قتل البطال سنة ١٢٢ أثناء قيامه باحدى العمليات في أرض الروم[5] • ، كما سنرى بعد قليل •

ويمكننا أن نذكر أن الحروب العربية الرومية زمن هشام لم تتمخض عن نتيجة حاسمة لأي من الطرفين • فقد بذل العرب مجهوداً كبيراً في هذه الحروب وتوصّلوا لتحقيق بعض الفتوحات • وكانت هذه الفتوحات تجري في شهور الصيف فاذا جاء فصل الشتاء نراهم يتخلّون عما فتحوا ، ويغادرون هذه المواقع ليهاجموها من جديد في صيف قادم • كما أن الروم استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات على الجيش الاسلامي في بعض المواقع كالمعركة التي جرت سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠م) والتي استطاع الروم فيها القضاء على جيش عربي عند موقع أكروينون قرب عمورية من أعمال مقاطعة فريجيا وذلك

---

(١) انظر أسماء هذه الحصون والمسالح ، في البلاذري ، فتوح ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩ •

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٩٠ ، ١٠٩ وغيرها •

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠٧ •

(٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٩٠ •

(٥) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٩١ •

زمن الامبراطور ليون الثالث•وهذه الموقعةهي الموقعة التي سقط فيها البطل العربي عبد الله البطال قتيلاً • وقد شجّع هذا النصر الروم في العام التالي للقيام بهجوم على بعض المواقع العربية،ولكنهم ما لبثوا أن ارتدواخاسرين، اذ أن الخليفة هشام قاد بنفسه الجيش العربي في هذا الهجوم الجديد ، واستطاع أن يحقق النصر على أعدائه •

هذا فيما يتعلق بالجبهة الرومية ، والى جانب هذه الجبهة فقد خاض العرب حروباً أخرى في الشمال الشرقي من الدولة الاسلامية ضد الترك الذين يعيشون وراء بحر الخزر•وفي هذه الجبهة الأخرى لم يكن النصر دوماً حليف العرب • ففي سنة ١١٢ هـ ، هزم العرب هزيمة كبيرة أمام الترك • ولكن هذه الهزيمة ما لبثت أن تحوّلت الى نصر على يد قائدين من البيت الأموي هما مروان بن محمد ومسلمة بن عبد الملك • وفي الاندلس قام العرب بأعمال عسكرية كثيرة ، لا مجال لتفصيلها هنا • كذلك فيمنطقة بلاد نهر الشاش (ما وراء النهر) كانت الحروب دائبة بين الدولة وبين السكان المحليين • ويعود تاريخ الحروب في هذه المنطقة الى زمن سابق • ففي خلافة عمر بن عبد العزيز حين أعلن هذا الخليفة الصالح أن الجزية تسقط عن كل مسلم ، دخل كثير من أهل السغد في الدين الاسلامي تلبية لنداء عمر ، وأملاً في التخلص من الجزية • على أن عمّال الجزية الذين جاؤوا بعد عمر لم يتقيّدو دوماً بهذا الوعد • وكان كل واحد منهم يسير على سياسة قد يناقضه فيها تماماً الذي يخلفه • فكان بعضهم يعفي اناساً من الجزية ويفرضها على الآخرين رغم اسلامهم • وكثرت المشاكل في هذه الرقعة من العالم الاسلامي مما أغضب أهل السغد وجعل نفوسهم تمتلىء حقداً ، حتى أنهم فضلوا الارتماء في أحضان الترك أعدائهم القدماء ، ودعوهم الى بلادهم[1] •

وزاد الحالة خطورة في هذه المنطقة أن أهل التقى والورع من العرب

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، ص ٣٣٣ •

القاطنين في تلك الجبهات ، كانوا يعلنون صراحة وقوفهم الى جانب أهل السغد ، ويظهرون العطف عليهم • ولم يقتصروا في عطفهم على الكلام فحسب بل شرعوا للعمل في مساعدتهم وبدأ واضحاً للسلطة العربية في هذه الرقعة من الامبراطورية أن حلّ المشكلة لن يكون سهلاً يسيراً • اذ أن التكتل كان كبيراً والجيوش التي ترسل لا تستطيع القيام بما يجب لاخماد نار الفتنة •

وكانت أخبار هذه الفتنة ترد تباعاً الى هشام ، حتى أنه كان اذا جاءه رسول يحمل خبراً عن انتصار حققه العرب في خراسان ، لا يصدق هذا الخبر ، ويعتبره مدسوساً كاذباً[1] • ونظر هشام بجدّ وامعان في أمر منطقة خراسان،وكان امامه أكثر من حلّ وأكثر من رغبة للعمل لصالحها• فبعد عزل خالد بن عبد الله القسري عن ولاية العراق ، وتولية يوسف بن عمر على هذا القطر كان يوسف يمنّي النفس بأن يعهد اليه الخليفة بأمر خراسان الى جانب العراق • وكان يريدها صافية لنفسه ، لأن خراسان اقطاع غني يدر على الذي يتولى أموره ما لايحسب من الخيرات • وقد حاول يوسف ما وسعته المحاولة أن يضغط على الخليفة ليحقق له هذا الحلم • ولكن الخليفة بعد تفكير شديد ، وتقدير للاخطار التي قد تنجم عن تسليم يوسف وهو القيسي الامرة على خراسان ، وما قد يثيره هذا التعيين من حزازات ومشاحنات بين القيسية واليمنية هناك ، قرر أن يحول بين يوسف وبين هذه الولاية ، فعين نصر بن سيّار الكناني ، وهو رجل سن وتجربة،وقائد حنكته التجارب،وعامل له خبرة قديمة ، عينه على ولاية خراسان فقطع بذلك الطريق على يوسف واطماعه[2] • وقد أصاب هشام في اختياره ، لأنه لم تكن لنصر عصبية قبلية في خراسان • وكان يستطيع أن يتصرف بحيادونزاهة،وهما أمران يحتاجهماهذا الاقليم أشد الاحتياج•

---

(١) انظر مثلا ، الطبري ، ج ٧ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ •

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ١٥٤ •

وفاتـه وصفاته :

انتقـل هشام الى جوار ربّه في الرصافة يوم الاربعـاء في السـادس من شهر ربيـع الآخر سنة ١٢٥ • ولـم يـكن حـين توفي قـد تقدمت به السن كثيراً • فكان كما يزعـم المؤرخون في أواسط العقـد السادس مـن عمره[١] •

ويتحدث المؤرخون باسهاب عن صفات هشام الخَلْقية والخُلُقية ، وعن أوضاع الدولة في زمنه ، ويقفون منه مواقف مختلفة • فيقولون إنـه كان أحول العينين ، ولا يصفونه بالجمال والبهـاء • ولكنهم يصرّون على الجانب الاخلاقي في شخصيته فيصفونه بأنـه كان دقيق النظر ، متيقظاً في سلطانه ، سائساً لرعيته • كما يصفونه بالتقـوى وحسن الاسلام ، وبأنـه من طراز السلف الصالح ، وأنه لم يفعل ما يغضب رجال الدين • وكان يعقد الصداقات مع المحـدثين أمثال الزهري وأبي الزناد ، وكان يعـادي القائلين بالقدريّة[٢] •كمايصفونه بعدم التعصب ضد المسيحيين،ويذكرون في هذا المجال انـه سمح لمسيحي انطاكية بأن يعينوا شخصاً لشغل كرسي بطريركية انطاكية بعد أن كانوا قد حرموا من هذا مـدة أربعـين عاماً • ولكنه اشترط عليهم أن يعينوا لهذا المنصب صديقاً له هو الراهب ستيفانوس (يسميه العرب اصطفان)[٣] •

وهناك أكثر من قصة عن عدله،وحسن معاملته لرعاياه من النصارى، اذ يقال مثلاً أن رجلاً من النصارى ضرب أحمد غلمان محمد بن هشام فشجّه وعوضاً عن أن يرفع محمـد صاحب الغـلام ، الأمر الى القاضي ، أرسل رجلاً من جماعته فضرب النصراني • ولمّا بلغ الأمر هشاماً ضرب الرجل ، وشتم ابنه محمداً وعنّفه ، للاعتداء على أحد الرعايا •

---

(١) انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠٠ •
(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ •
(٣) فلهاوزن ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ •

وتدل دراستنا لما تم في زمن هشام من أعمال على ان هشاماً كان ينزه نفسه عن الحزبية أو العصبية ، وانه كان يسعى ما وسعه الجهد لأن يقيم التوازن بين الفرقاء المختلفين في دولته • وقد نجح في هذا بعض النجاح ، ولكنه لم يستطع ان يلغي العصبية نهائياً لانها كانت متأصلة في نفوس الناس بالرصافة ، والا يواجه الامور بنفسه ، وان يجعل بينه وبين الناس حجاباً فلا يراهم ولا يرونه،وانما يتصل بهم عن طريق مستشاره وصديقه الأبرش الكلبي • وفعلاً كان الأبرش موضع ثقة هشام • وكان الناس يلجأون الى الأبرش قبل أن يلتجأوا الى الخليفة ليكون واسطتهم اليه • ولكن هذا لا يعني أن هشاماً كان يخاف مواجهة الناس كما يزعم بعضهم ، كما انه لا يعني أن سكناه الرصافة كان هروباً من الناس ، لان عادة السكن في البادية لم تكن بدعة أوجدها هشام • وقد سبقه اليها كل الذين جاموا قبله من خلفاء بني أمية ما عدا معاوية •

يضاف الى هذا ان الجهاز الاداري زمن هشام كان جهازاً يتمتع بدرجة عالية من الدقة والانتظام وحسن سير العمل • وقد حاول هشام جهد المستطاع ان يقضي على الفساد الذي كان موجوداً قبله • ففي مجال العطاء ، درجت عادة بعض الذين كانوا متسلمين للامور في زمن اسلافه أن يمنحوا العطاء لا للمقاتلة فقط ، ولكن للمتنفذين ، وذوي الجاه والسلطان دون أن يكون لهؤلاء أي أثر يذكر في الجهاد الذي شرع العطاء من أجله• وقد أمر هشام أن يخصص العطاء للمقاتلة فقط ، وان لا يعطاه أحد من الاشراف أو رجال البيت الاموي المالك الا اذا كان في صفوف المقاتلة • كما انه راقب ميزانية الدولة العامة وأحسن تدبيرها وضغط نفقاتها حتى اتهم بالبخل والتقتير •

وقد اساء البعض فهم هذه الناحية فاتهموه بتكديس الاموال في خزانته الخاصة ، وفي الثراء على حساب الدولة • واذا لم يجيء انصاف هشام من

المؤرخين العرب المسلمين فقد جاء انصافه من المؤرخ البيزنطي المشهـور تيوفانس • اذ ينقل ڤلهاوزن نصا عن تيوفانس يتحدث فيه هذا المؤرخ عـن هشام ويقول عنه : « انه في عهده شرع في بنـاء الدور ، وانشاء الضياع في المدن والقرى ، وفي عمل البساتين البديعة ، وفي تجفيف الأرض »[1] • وحتى في هذا الميدان ، ميدان الخدمات العامة ، التي قام بها هشام من أجل الصالح العام ، فقد اتهم بأنه انما فعل ذلك جريا وراء مصالحه الخاصة ومن أجل عمارة ضياعه واقطاعاته ، وانه لم يقم بذلك في سبيل الصالح العام •

وربما جاء هذا الاتهام بسبب ان هشاماً كان من كبار ملاك الارض ، ومن اكبر المنتجين للغلال والمواد الزراعية • وكان ينافسه في هذا الميدان واليه خالد القسري حتى قيل ان هشاماً كان يمنع خالداً من انزال غلاله الى السوق قبل ان تنزل غلاّت الخليفة وتباع • وفي هذا ما فيه من لعب بمصالح الجماهـير الاقتصاديـة ، وغلاء للاسعار لا يبرره ثراء الخليفـة الخاص •

وقد تسربت اخبار حبه للمال الى خارج حدود الامبراطورية العربية ، حتى ان صاحب كتاب الصلة الاسباني الذي اكمل تاريخ ايزيدور يقول عنه فيما نقله ڤلهاوزن مايلي : « وقد استولى عليه الجشع وجمع له العمال الذين بعثهم الى المشرق والمغرب مـن الأموال ما لم يجمع للملوك الذين كانوا قبله • ولذلك رأى غير قليل من الناس أنه قد ملكه الجشع المعيب فانصرفت نفوسهم عن الولاء لسلطانه »[2] • وغير خاف ان في هذا الكلام مبالغة شديدة ، ولكنه رغم هذه المبالغة فانه ينبيء عن اهتمام هشام بمصالحه المادية الشخصية ، وسعيه الحثيث للحصول على الاموال •

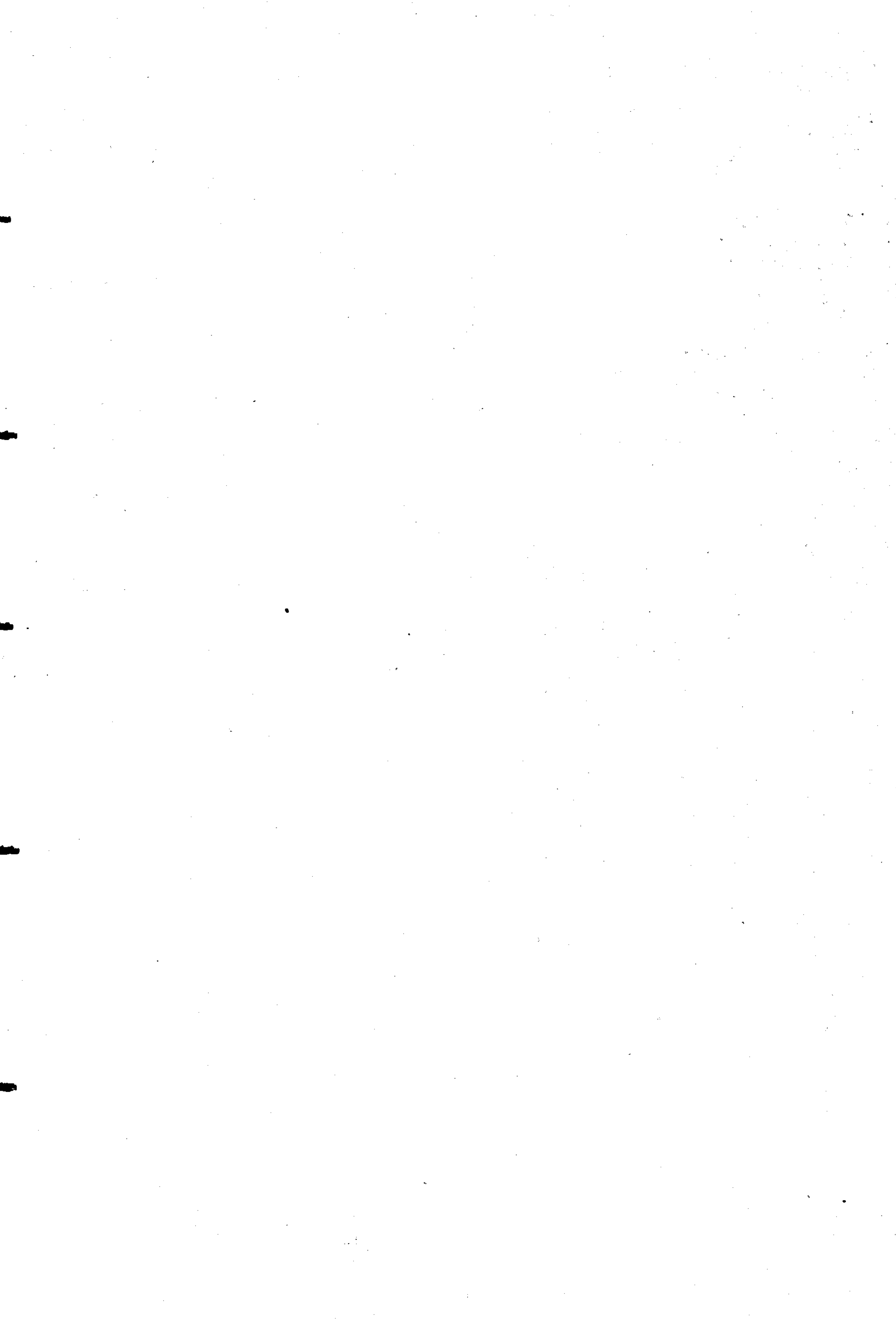
---

(١) انظر ڤلهاوزن ، ص ٣٣٦ ، والحاشية رقم (٢) من نفس الصفحة •

(٢) انظر ڤلهاوزن ، ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ ، والحاشية رقم (١) من ص ٣٣٧ •

القسم الرابع

الخلفاء الأمويّون المتأخرون وسقوط الدولة الأموية



الفصل التاسع

خلافة الوليد الثاني ويزيد الثالث

الوليد الثاني : نشأته وتسلمه الخلافة :

نصت وصية يزيد بن عبد الملك التي عهد فيها بالخلافة الى اخيه هشام بأن يكون ابنه الوليد صاحب الحق في العرش بعد عمّه هشام • والوليد بن يزيد او الوليد الثاني هو في نظر الكثير من المؤرخين من اكثر الخلفاء الامويين شهرة في ميدان واحد هو ميدان اللهو والفسق والمجون •

وهذا الزعم في رأينا مثال على الظلم الصارخ الذي اوقعه المؤرخون الذين كتبوا في ظل العباسيين بالاسرة الاموية وبرجالاتها • ويجدر بنا أن ننبه الى ان ما نجده في المصادر عن خلاعة ومجون وفسق الوليد الثاني أمر مبالغ فيه الى ابعد الحدود • ونحن وان كنا لا نملك الا النزر اليسير من الحقائق التي تدفع هذه التهمة عن الوليد الثاني ، فانّا نستطيع القول ان المؤرخين الذين كتبوا في ظل العباسيين وجدوا في شخص الوليد نواحي ضعف ، ومواضع للنقد ، فما كان منهم الا ان ضخموها وزادوا فيها تقربا من الاسرة العباسية الحاكمة او بغضا بالاسرة الاموية قاتلة الحسين وعدوّة الشيعة اللدودة • حتى أن صاحب الأغاني الذي بالغ في وصف مجون الوليد بن يزيد يقول في ترجمته له : « ••• و له أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره • ومن الناس من ينفي ذلك عنه وينكره ويقول : إنه نُحله وأُلصق إليه • »[1]

(١) الأغاني ، ط • دار الكتب ، ج ٧ ، ص ٢ •

تتحدث المصادر عن الوليد بن يزيد فتصفه بجمال الصورة ، وبالفتوة والشباب وبأنه كان من مستوى عقلي جيد ، ساعد في صقله وتهذيبه مؤدبه عبد الصمد بن عبد الاعلى الشيباني اللغوي المشهور .

وقد نشأ الوليد في بلاط عمه هشام . وكان يعرف أن الوليد يشكل حجر عثرة بالنسبة لآماله في ولاية العهد ، فعامله معاملة قاسية خشنة وأسرف في ابعاده عن السلطة ، وفي دفعه الى المجون واللهو أملا منه في أن يسعد في هذا المسلك فيبتعد عن المطالبة في العرش . والوليد من ناحية أخرى وجد نفسه حرا طليقا من أية مراقبة ، فاندفع كشاب يلهو ويشرب ويصطاد ، وينتقل من مكان الى آخر يصحبه الندماء والموسيقيون والشعراء والمغنون . وقد استغل هشام ذلك وجعله موضع الحديث في مجالسه ليسيء سمعته أمام الناس ويتهيأ الجو لبيعة ابنه[1] .

ولما مات معاوية بن هشام الذي كان يعلق عليه هشام آماله بالنسبة لولاية العهد ، وبدا واضحاً ان الخليفة لن يستطيع أن يقدم بديلا صالحاً عن الوليد ، اتجه همه لاصلاح الوليد ، لكن الوقت كان قد فات ، وكانت شخصية الوليد قد تبلورت ولم يعد من السهل تغييرها . فقامت نتيجة لذلك مشاحنات وخصومات وتباغض بين الخليفة وولي عهده . وحمل الوليد الحقد الشديد في نفسه ضد عمه ، واعتقد أن عمه انما يحاول أن يظهره بهذا المظهر ليبعده عن الخلافة . وبدا للمراقبين الحياديين في البلاط ان ولي العهد لا يستطاع اصلاحه ، وانه من الضروري ان يستبدل بانسان أصلح . وبدأت محاولات للضغط عليه للتنازل عن هذا المنصب ، ولكنه رغم كل المضايقات التي فرضت عليه من قبل هشام وحاشيته ، رفض التنازل ووقف باصرار دون حقه . ولما كثر الضغط عليه وزاد عن الحد المحتمل قرر ان يترك القصر وأن ينطلق للعيش مع حاشيته على سجيته . وصادف في هذه الفترة أن مات مسلمة بن عبد الملك الذي كان يبسط جناح

---

(١) الأغاني ، ط . دار الكتب ، ج ٧ ، ص ٣ .

الحماية على الوليد ، ويحاول ان يخفف من حدة العداء بين هشام وابن اخيه[1] • فوجد الوليد ان الفرصة مناسبة اكثر من أي وقت مضى لان يترك قصر الخليفة في الرصافة وان ينطلق الى مكان منعزل يقع في الشرق من فلسطين هو الازرق[2] ، حيث نزل عند ماء يقال له (الاغدف) وهناك امضى وقته ممعناً اكثر من ذي قبل في لهوه ومجونه•وكأنه بهذا انما يتحدى عمه ، ويرد على القيود التي حاول ان يفرضها عليه •

وكان اثناء اقامته يترقب موت عمه • وكان كلما أتاه البريد يسرع الى صاحبه متسائلاً : هل مات الأحول ؟•• يريد بذلك أن يضع حداً لأيام بؤسه وغربته المفروضة • وبعد انتظار طال على الوليد ، مات هشام • فتنفس هو وصحبه الصعداء واحتفلوا بهذه المناسبة بشراب كثير ولهو أكثر[3] • وكان هشام قد سجن اثناء حياته عياض بن مسلم كاتب الوليد ، فما كاد الموت يغمض جفني هشام حتى ترك عياض سجنه وأسرع الى القصر فختم أبواب الخزائن بما فيها ، حتى انه لم يبق قمقم نحاس يستطيع الذين سيغسلون الخليفة المتوفى ان يستعملوه في غسله • كما انه اشعر المجتمعين لدفن هشام انه لن يوفر لهم الكفن الذي يحتاجه المتوفى • وزاد في هذا الموقف أنه أمر بانزال هشام عن الفراش الذي كان عليه • وأمر بأن يحمل خارج الغرفة التي كان فيها •[4] •

وسارع عيّاض لارسال شارات الخلافة الى الوليد ، كما ابلغه بتفاصيل ما قام به • وكان أول ما فعله الوليد بعد أن آلت اليه الخلافة أن أمر بان تحصى أموال هشام ، وأن تصادر ، وأن يؤخذ ابناؤه وعماله وحاشيته وان يعاملوا اشنع معاملة • ومن ثم غادر مستقره في الأزرق الى دمشق حيث

---

(١) انظر ، الاغاني ، ج ٧ ، ص ٦ •

(٢) هو الأزرق عند الطبري (ج ٧ ، ص ٢١١) ، أما صاحب الأغاني فيسميه الابرق (انظر ، ج ٧ ، ص ٨) •

(٣) انظر ما يذكره صاحب الأغاني حول ذلك ، ج ٧ ، ص ١٦ وما بعدها •

(٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١٥ •

اخـذت له البيعـة ، وجاءتـه الوفود ووصلته تهـاني العمـال والولاة في الامصـار[1] .

وأراد الوليد منذ اليوم الأول أن يظهر الفارق بينه وبين عمه الأحول البخيل ، فكان أول امر يصدره بعد قدومه الى العاصمة ، والاحتفال بتنصيبه أن أمر بزيادة اعطيات الناس عشرة دراهم وللشوام عشرين درهما . كما رد الاعطيات الى أهـل المدينة ومكة ، بعد أن كان هشام قد منعها عنهم . واجرى الارزاق على المرضى والعجزة ، وكساهم ، وأمر لهم بالخدم للعناية بهـم[2] .

وقد رأى الوليد انه اذا استمر في سياسة البطش بآل هشام فانه سيؤلّب على نفسه البيت الاموي ويكسب عداء الناس من افراد اسرته . لذلك اكتفى بأن أهان بعض الاشخاص من اولاد هشام فضرب سليمان بن هشام مئـة سوط ونفاه الى عمّان حيث أمر بسجنه . كما حبس يزيد بن هشام[3] ، وحاول أيضاً أن ينتقم من بعض اتباع هشام ورجالاته المقربين ، فقد انتقم من بني القعقاع لانهم وافقوا هشاما على خلعه . وكان احد رجالهم عاملا على قنسرين ، وكـان آخر عاملا على حمص فعزلهما الوليـد ودفعهما الى عدو هما يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاوي فتولى تعذيبهما حتى ماتا . وكانت بينه وبين بني القعقاع عداوة لان رجـلا من بني القعقاع كان قبل عشرين عاما قد ضرب عمر بن هبيرة أباه مئة سوط بأمر هشام[4] .

وقد عزل الوليد الثاني عمّال هشام الذين كانوا بالمدينـة ودمشق ، وبعث الى المدينة خاله يوسف بن محمد يوسف الثقفي ، وهو اخوامه ، أم الحجاج .. وبعث الى دمشق رجلا آخر من ذرية الحجاج وهو عبد الملك ابن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي . وكذلك استبقى نصر بن سيّار

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١٦ .
(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١٧ .
(٣) انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣١ ــ ٢٣٢ .
(٤) انظر تفاصيل هذا الحادث في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٧ .

في خراسان . وهما العاملان القويان اللذان كانا صاحبي شأن وخطر ، كما استبقى الابرش الكلبي في منصب مستشار ، واعتمد عليه كما اعتمد عليه عمه هشام من قبل .

موقفه من الدين :

لم يختلف موقف الوليد الثاني من الدين ورجالاته عن موقف عمه هشام . فقرّب أبا الزناد المحدّث الذي كان صاحب مكانة زمن عمه هشام. ولكن علاقاته بالزهري قد ساءت ، لان هذا الاخير كان قد عابه في خلافة عمه ، وحض عمه على خلعه . ولكن الزهري كان حسن الحظ ، فتوفي قبل خلافة الوليد . حتى قال عنه الوليد « لو بقي الفاسق (يعني الزهري) لقتلته »[1] .

أما القدريّة الذين كانوا على علاقات سيئة مع البيت الحاكم منذ عهد عمه هشام ، فقد ابقاهم في جزيرة دهلك حيث نفاهم هشام من قبل[2] . وكانت علاقاته بالنصارى علاقات حسنة . ولم يسمع عن اية اساءة في معاملتهم في عهده سوى ما يذكر من أنه قتل رجلين منهم لانهما عابا الرسول ، وأظهرا ذمّ الاسلام .

ويذهب البعض الى تفسير أوامره باخراج أهل قبرص منها للاقامة بالشام او للذهاب الى بلاد الروم ، بأنه عمل موجّه ضد الرعايا النصارى . وحقيقة الامر ان هذه العملية لا تمت الى الدين بأية صلة ، وانما كانت عملية سياسية بحتة . وقد جاء في الطبري[3] ، في ذكر الحوادث التي جرت سنة ١٢٥ ما يلي : « وفيها أغزى الوليد بن يزيد اخاه الغمر بن يزيد ابن عبد الملك وأمّر على جيش البحر الأسود بن بلال المحاربي ، وأمره أن

---

(١) الأغاني ، ط . دار الكتب ، ج ٧ ، ص ١١ .
(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ .
(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٢٧ .

الوقوف قليلا عند قضية بناء مسجدقبة الصخرة والمسجد الاقصى المتجاورين، واللذين تختلف المصادر في قضية نسبة بنائها إلى عبد الملك بن مروان أو ابنه الوليد • على أن النقوش وأوراق البردي وبعض الروايات التي يذكرها المؤرخون ترجع بناء قبة الصخرة الى عبد الملك ، كما ذكرنا آنفاً والمسجد الاقصى الى الوليد بن عبد الملك • ولعل السبب في التخليط بين البنائين واللبس في اسم بانيهما يعود الى قربهما وتجاورهما من جهة، والى مافعله الخليفة العباسي المأمون حين زار بيت المقدس وأمر بازالة اسم عبد الملك من النقوش الكوفية في مسجد قبة الصخرة ، ولكنه نسي أن يزيل التاريخ المنقوش على القبة وهو عام ٧٢ هـ الذي يقع في خلافة عبد الملك • وتبقى قضية بناء المسجد الأقصى، فقد ظهر منذ أمد ليس بالبعيد ما يؤكد أن بناءه قد تم زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وما ذاك إلا ورقة بردي تعرف باسم « بردية أفروديتو » ، وهي عبارة عن رسالة رسمية أرسلها قرة بن شريك ، الذي ولي مصر للوليد سنة ٩٠ هـ [1] بعد عبد الله بن عبد الملك ، الى أحد حكام منطقة مصر العليا ، ويأمره فيها أن يدفع أجور بعض العمال من منطقته الذين ساهموا في بناء المسجد الأقصى [2] • وهذه البردية لا تدع مجالا للشك بأن بناء الأقصى يعود الى زمن الوليد لا الى زمن أبيه • ويؤكد هذه الحقيقة ما يذكره جورج مارسيه أثناء حديثه عن زخارف المسجد الأقصى حيث يقول أن بعض النحاتين الأقباط قد ساهموا في زخرفة وتزيين بعض ألواح هذا المسجد [3] •

الاصلاحات الداخلية وأعمال البر والاحسان في زمنه : يعقد الطبري مقارنة بين خلافة الوليد وخلافة أخيه سليمان ، فيقول : « وكان الوليد صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه، فانما يسأل بعضهم بعضا عن البناء والمصانع • فولي سليمان فكان صاحب

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٢ •

(٢) من أجل برديه افروديتو ، وغيرها من البرديات المتعلقة بهذا الموضوع ، انظر ، كريزويل، المصدر نفسه ، ص ٤٣ •

(٣) انظر ، جورج مارسيه ، الفن الاسلامي ، ترجمة الدكتور عفيف بهنسي ، ط • وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٤٦ •

واذا صح ان الوليد الثاني كان رجل لهو وطرب ، فانه لا يصح بحال من الأحوال أن ننساق وراء التهويل والمبالغات التي نقرؤها في كتب الأدب عن اغراقه في اللهو والعبث الى حد يجعله يتحلل من كل مبدأ أخلاقي • ففي هذه الأخبار والروايات مبالغات لا يمكن أن تصدّق • كما أن في بعض الاشارات الأخرى في نفس هذه المصادر ما يدحضها ويجعلنا نستشم مقدار المبالغة فيها • وأغلب الظن أن هذه الروايات المبالغ فيها الى الحد الذي وصفنا ما هي الا حصيلة لحقد عباسي على شخصية أموية ُوجد فيها مجال للطعن فضُخِّم وُهوِّل واستغل الى حد يتجاوز كل ما هو معقول •

وأياً كان فقد استنفذت هذه الحياة الواسعة التي عاشها الوليد،وبذخه وكرمه ، والأموال التي احتاجتهاهذه الحاشية اللاهية الماجنة،جميع ما جمع هشام وكدّس من أموال • وشعر الخليفة بأن حاجته الى المال حاجة فوق ما تستطيعه خزانة الدولة ، فأخذ يبحث عن المال في كل وجه • ولقد استغلّ هذه الحاجة يوسُف بن عمر الثقفي استغلالاً ذكياً ولكنه لا يخلو من خسّة • فقد فاوض يوسف بن عمر الخليفة بأن يشتري منه خراسان ونصر بن سيّار ، عاملها ،ومن يتبع نصراً من عمّال في أقاليم المشرق بمال وفير يسد حاجات الخليفة • وكان المعنى العملي لهذه الصفقة[1] ، ان خراسان وعاملها نصراً ومن يأتمر بأمرته من العمال في المشرق صاروا تابعين ليوسف ، بعد أن كان نصر مستقلاً لا يأتمر الا بأوامر الخليفة مباشرة • وتبعاً لنصوص هذا الاتفاق أصبح من المفروض أن يجمع يوسف خراج وضرائب خراسان ، وأن يرسل المبلغ المتفق عليه الى الخليفة ، وان يحتفظ لنفسه بما يتبقى • ورغم أن المبلغ المتفق عليه كان مبلغاً كبيراً فقد كان مقداراً لهذه الصفقة لو انها تمت أن تثمر بالنسبة ليوسف أموالاً طائلة ونفوذاً على خراسان وعلى نصر بالذات • وكتب يوسف الى نصر يأمره بالقدوم عليه ، وحمل ما يستطيع حمله من الهدايا والأموال إلى الخليفة •

---

(١) انظر تفاصيل هذه الصفقة في الطبري ، ص ٢٢٤ وما بعدها •

وباعتبار أن نصراً بحسب الاتفاق بين يوسف والخليفة قد غدا يتبع يوسف، فقد انصاع لأوامره ، وأخذ يجمع من أهل خراسان الهدايا ، وطلب من عماله أن يعينوه على ذلك • ويقول الطبري عن عمل نصر هـذا ما يلي : «فلم يدع بخراسان جارية ولا عبداً ولا برذوناً فارهاً الا أعدّه ، واشترى ألف مملوك ، وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل ، وقال بعضهم : كان قد أعد خمسمائة وصيفـة وأمر بصنعة أباريق الذهب والفضـة وتماثيـل الظباء ورؤوس السباع والأيايل (جمع أيّل) وغير ذلك • »[1] •

وبعد أن جمع نصر كل هذه الهـدايا وأنفق مالاً كثـيراً للحصول عليها ، وسار في موكب كبير من الخيل والبراذين والقيان حاملات الصنوج في طريقهم الى الشام ، بلغه خبر مقتل الوليد ووقوع الفتنة في الشام ، فعاد الى قصر الامارة في خراسان وهرب يوسف بن عمر دون أن يتمكن من تحقيق مشروعه في السيطرة على خراسان •

الثورة على الوليد الثاني ومقتله :

ذكرنا فيما سلف أخبار ثورة زيـد بن علي في الكوفة ومقتلـه سنة ١٢٢ هـ • وقلنا إن ابنه يحيى هرب الى خراسان واختفى فيها • وبعد أن تولى الوليد الخلافة سنة ١٢٥ هـ،وجد يحيى بن زيد أن الفرصة قدسنحت له ليعلن أمره،وليدعو الناس للقيام على بني أمية،ونفذ يحيى ما اعتزمه من اعلان الثورة ولكنه اخفق •واستطاعت قوى الدولة الاموية أن تقبض عليه، وأن تقتله وتحتز رأسه ، وترسله الى الخليفة الوليد ، كما ذكرنا في الفصل السابق •

ولما وصل رأس يحيى الى الوليد أمر بجمع رجالات الدولة وسادات القوم ليروا الرأس منصوباً كعبرة لمن تسوّل له نفسه التجرؤ على سلطان الخليفة • واعتبرت المناسبة مناسبة لتجـديد الولاء للخليفة ، فأخـذ الناس

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ •

يقبلون على دار الخلافة مهنئين وأقيمت الاحتفالات بذلك . ووصلت أخبار هذه التظاهرة السياسية التي استغل فيها رأس حفيد الرسول ، إلى المشرق ، فازدادت نقمة الناس ، وكثر القيل والقال بينهم . وزاد في تأزّم الوضع أن الخليفة أرسل كتاباً الى يوسف بن عمر عامله على العراق يقول له فيه : « فانظر عجل العراق فاحرقه ، ثم انسفه في اليم نسفاً »[1] . فعمل يوسف ما أمر به سيّده ، وأنزل جثة يحيى وكانت معلقة وأحرقها ثم ذرّها في الفرات .

كانت هذه الحادثة نقطة البدء في استشراء النقمة ، وقد زاد الأمور سوءاً ما كان من تعذيب خالد القسري ، ومقتله بالحيرة سنة ١٢٦[2] . وقد أدّت هذه العملية الثانية الى قيام موجة استياء عامة في نفوس اليمنية كان وقعها أشد من مقتل يحيى وأبيه . وذلك لأن خالداً كان أشد الناس اخلاصاً لبني أمية وخلفائهم ، ولأنه كان من الذين تفانوا في خدمة هذا البيت . فهو اذن لا يستحق هذا العذاب ، وهذا المصير .

واذا أضفنا الى اخلاص خالد للبيت الأموي بشكل عام فان لخالد يداً على الوليد الثاني كان عليه ألا ينساها ، وهي أنه أبى أن يوافق هشاماً على خلع الوليد الثاني وظلّ مخلصاً له بعد خلافته ورفض نصيحة رجاله بالثورة على الوليد وقال لهم : « فاني أكره أن تكون الفرقة والاختلاف على يدي . »[3] .

وقد اعتبر اليمنية مقتل خالد اهانة لهم ، واعتبروا الخليفة ويوسف بن عمر وآل الحجاج مسؤولين عنه . ولأول مرة في تاريخ النزاعات القبلية تتوحّد القبائل اليمانية بالعراق والشام وتتخذ موقفاً موحداً من الخليفة بسبب الذي حل بخالد . وكان أشد القبائل اليمانية نقمة على

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٠ .

(٢) انظر ، تفاصيل موقف الوليد الثاني من خالد القسري ، والاحداث التي انتهت بمقتله زمن هذا الخليفة في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥٨ وما بعدها .

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥٨ .

الخليفة بنو كلب بالشام ، لانهم عرفوا خالداً بعد أن قضى أيامه الأخيرة عندهم بدمشق ، وصار له بينهم أصدقاء كثر •

وتحولت نقمة اليمنية من صراع بينهم وبين القيسية الى نقمة فاعلة محصورة بالخليفة بالذات ، الذي اعتبر مسؤولا عن دم أهدر لا عن اثارة عصبية قيسية ضده • والدليل على ان النقمة اليمانية انحصرت بالخليفة ، أن هذه النقمة لم تصدر عن اليمينية فحسب ، بل انضم اليهم القيسية من قبيلة عبس ، لأن الخليفة بالنسبة اليهم مسؤول ايضاً عن نكبة آل القعقاع الذين هم منهم ، كما أشرنا آنفاً •

وهكذا انقسم عالم القبائل العربية في هذه الفترة الى قسمين : قسم مع الخليفة ، ويضم رجالاً قلائل من اليمانية بينهم بهرانية حمص وبعض من بني عامر من كلب ، وبعض من بني سليم بن كيسان •

واضيفت الى هذه الدماء التي سفكت باسم الخليفة اقوال واشاعات تتهم الخليفة بالزندقة ، وعدم الايمان بالاسلام • وزاد في حدتها الدعاية التي اثارها ضده جماعة القدرية الذين كان قد نفاهم الى دهلك •

وخلاصة القول ، كما يقول الطبري : « فأجمع على قتل الوليد جماعة من قضاعة واليمانية من أهل دمشق خاصة »[1] •

بدأت المؤامرة لقتل الوليد منذ أن كان خالد بن عبد الله القسري مقيما بدمشق • وكان على رأس المتآمرين رجال من البيت الاموي كيزيد بن الوليد الأول ، وآخرون من سادات القبائل مثل منصور بن جمهور الكلبي • وفعلا ، ذهب بعض هؤلاء المتآمرين الى خالد ، وطلبوا اليه ان ينضم اليهم فلم يجبهم[2] • وكان الوليد قد اتبع هواه ، وعمل دون استشارة بني أمية ، واستمر في لهوه وصيده ونسائه • وأساء الى آل هشام خاصة فضرب

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ •

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ •

سليمان بن هشام مئة سوط ، وحلق رأسه ولحيته ، وحبسه . وأخذ جارية كانت لآل الوليد بن عبد الملك فأبى ردّها الى أصحابها فقال له عمر ابن الوليد يهدده : « تكثر الصواهل حول عسكرك[1] .

وزاد في شعور الناس الناقمين أن عليهم أن يعملوا بسرعة للتخلص من الخليفة ، أن شائعات بدأت تتسرب مفادها أن الخليفة عازم على أن يجعل ولاية العهد من بعده لابنيه الحكم وعثمان ، وكانا غلامين صغيرين دون سن الحكم[2] ، وهما لأمين من الجواري . وكان التقليد حتى الآن أن لايكون الملك لابن جارية . وهذا مسلمة بن عبدالملك رغم بلائه وبطولاته لم يستطع أن يصل الى العرش لانه ابن جارية . وقد نصح خالد القسري الخليفة بألا يسير قدماً في أمر البيعة لأولاده . وزادت هذه الشائعات في نقمة أبناء الوليد الأول على الخليفة بشكل خاص لانهم كانوا يطمعون بالخلافة لأنفسهم ، ويعتقدون بأنهم أحق بني أمية بها وانها كان يجب أن تؤول اليهم منذ توفي سليمان فأخذها غيرهم اذ ولى عمر الثاني ثم جاء عمهم يزيد الثاني وجعلها أولاً لعمهم هشام ثم لابنه الوليد . والآن يجيء الوليد فيعلن أنه سيحرمهم منها أيضاً،وأنه سيجعلها في غلامين صغيرين من ذريته من أبناء الجواري . وانضم الى صف ابناء الوليد الاول أبناء هشام وغيرهم من رجالات الأسرة المروانية ، لا سيما بعد أن سرت شائعة مفادها أن الوليد الثاني يريد قتلهم وأنه « اتخذ مئة جامعة وكتب على كل جامعة أسم رجل من بني أمية ليقتله بها »[3] .

وقد التفّ هؤلاء الأمراء الناقمون من أبناء الوليد الأول وهشام حول بعضهم البعض وانضم اليهم رجال من سادات بني كلب ساعدوهم ونظموا

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ .

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١٨ .

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٢

حركتهم بدمشق ، وكانوا في غالبيتهم من طبقة العمال المعزولين ، وهم الذين أرادوا أن يشركوا معهم خالداً القسري ولكنه أبى •[1]

وبعد مقتل خالد القسري انضم الى المتآمرين ابنه يزيد بن خالد وكان له فيها دوراً هاماً •

أما السفيانية فقد انحازوا الى الوليد لأنه كان أقرب اليهم نسباً ، اذ كانت جدته عاتكة بنت يزيد بن معاوية منهم ، ومن ابرزهم أبو محمد السفياني وهو زياد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية[2] • وكان من جماعة الوليد الثاني أيضاً رجل مرواني أولاه ثقة كبيرة هو العباس بن الوليد بن عبد الملك[3] • ورتبت الأمور على أساس أن يكون المرشح للخلافة بعد الوليد الثاني يزيد بن الوليد بن عبد الملك • و كان يزيد أبرز اخوته وأشدهم طموحاً وتوقاً للخلافة • وكان يكثر الكلام في الوليد وينقده • وكان الناس يميلون اليه لما يظهره من تنسك وزهد • وكانت أمه أم ولد سغدية أو ايرانية • واعتمد في كسب الجماهير على الظهور بمظهر التقي الورع[4] • وقد هيأ المتآمرون كل شيء لاغتصاب الخلافة ، وعينوا يوماً للقيام بها[5] وفي اليوم المضروب أقبل يزيد بن الوليد الى دمشق مع سبعة رجال على حمير • ولبثوا خارجها وفي الليل دخل يزيد دمشق سراً وبدأ اتصالاته باصحابه ، وكان أكثرهم في أطرافها وقراها • وكان جلهم في منطقة المزة فسار اليها يزيد وأخذ البيعة من أهلها ثم رجع الى دمشق وتوجه مع أصحابه الى المسجد فدخلوه وتغلبوا على حراسه ، ووجدوا فيه سلاحاً كثيراً أخذوه وأعلنوا أمرهم ، وحبسوا خازن بيت المال وصاحب البريد وكل من كانوا

---

(١) انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٣

(٢) وقد ولاه الوليد حين بلغه خبر ثورة يزيد بن الوليد عليه امرة دمشق ، انظر الطبري ج ٧ ، ص ٢٥١ •

(٣) يذكر الطبري أن العباس بن الوليد هذا ، كان في جملة الأمويين الذين حاربوا في صف الوليد الثاني ، انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩ •

(٤) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٢ •

(٥) انظر تفاصيل الخطة التي رسمها يزيد بن الوليد والأعمال التي قام بها والتي انتهت بمقتل الوليد الثاني في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٣٩ وما بعدها •

يحذرونه من رجال الدولة وعمالها . وصدف ان كان في هذه الفترة بالذات عامل دمشق وهو عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي قد خاف وباءاً انتشر في دمشق فتركها وذهب الى قطنا (قطن) حيث أقام ومن ثم فتحت أبواب دمشق للانقلابين فدخل من باب الجابية زهاء الف وخمسمائة من بني كلب ، ثم جاءت السكاسك في نحو من ثلاثمائة رجل دخلوا من باب شرقي ، وجاء من داريا رجال من بني عبس ودخلوا من الباب الصغير ، وأقبل رجل من تغلب مع أهل دوما وحرستا فدخلوا من باب توما ، وجاء رجل من لخم مع أهل دير المران فدخلوا من باب الفراديس[1] .

وهكذا فتحت كل الأبواب وتدفقت منها خيول الثوار . وكان أكثر الرجال من قبائل كلب وغسّان ولخم وكندة والسكاسك واليمانية وعبس وقيس وتغلب وغير ذلك .

ولم يجد يزيد مقاومة تذكر حين دخوله برجاله الى دمشق لأن أغلب رجال حامية المدينة كانوا في الأقاليم . و فياليوم التالي بايع أهل دمشق يزيد الثالث ، وأتموا بيعتهم له قبل الظهر .

وبعد أن تولى يزيد الثالث الخلافة في دمشق،أخذ يعد العدة لمحاربة الوليد الثاني فدعا الناس الى التطوع فلم يتقدم منهم الكثير ، فاضطر لأن يرشوهم بالمال وأعلن أن من سار فله الفان ، فاجتمع ألفا رجل أعطى كلاً منهم ألفين . وجعل القائد على هذا الجيش الصغير عبد العزيز بن الحجاج ابن عبد الملك ، وهو ابن عمه ، ومعه منصور بن جمهور الكلبي ، وآخرون من رؤساء لخم وكلب[2] .

وعلم الناس بأمر هذه الحملة فخرج رجل من موالي الوليد الثاني على فرس لينقل الخبر الى سيده في الأغدف . فلما وصل اليه وأبلغه الخبر

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٢) الطبري ، ج ٧ . ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

كان جزاؤه أنه ضربه مئة سوط وعنّفه أشدّ التعنيف . وتدارس الوليد الأمر مع أصحابه فأشاروا عليه أن ينسحب الى حمص أو الى تدمر أو الى حصن قريب[1] . ولكنه لم يفعل . وحين علم باقتراب حملة عبد العزيز من دياره ترك الاغدف والتجأ الى حصن قريب ومعه مئتا رجل . ثم أتاه من تدمر بعض فوارس بني عامر من كلب بقيادة ابن أخ الأبرش . وجاءه من حمص ٥٠٠ فارس . وكان الرسل يأتون الى الوليد الواحد بعد الآخر حاملين له أخبار الحملة القادمة اليه ، ولكنه كان قليل الاكتراث لا يعد للأمر ما يستحق من عدة . وظل حاله كذلك حتى شاهد جند الحملة بأم عينه . وعوضاً عن أن يلتف حوله جنده ، نجدهم يطالبونه بدفع الأموال لهم ، ويلحون في طلب الدفع ، سيما وأنهم علموا أن ما عنده من أموال قد قل .

وبدأت البلبلة في صفوف جنده ، وأخذ رجاله ينفضون من حوله ، وقد سهل هذا مهمة عبد العزيز . ورغم أن الوليد الثاني قد قاتل قتالاً شديداً إلا أن انفضاض جنده عنه جعله يبقى في الميدان وحيداً . فانسحب الى داخل الحصن وحاول أن يخاطب الجند الموجودين في الخارج ، وأن يستثير نخوتهم ، ولكن دونما جدوى . فعاد الى غرفة في داخل الحصن وجلس وقال « يوم كيوم عثمان » فدخلوا عليه وقتلوه[2] .

وكان مقتله يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦[3] . وقد أدى مقتل الوليد الى امور كثيرة ، كان أهمها ازدياد البغض والعداوة بين القبائل ، وانهيار الجبهة الاموية في الشام ، وضياع هيبة الخلافة .

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٤٣ .

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٤٦ .

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥٢ .

خلافة يزيد الثالث وابراهيم :

بعد مقتل الوليد الثاني اجمع القوم على مبايعة يزيد الثالث بن الوليد الأول . وقد استهل عهده بالقاء خطبة شرح فيها الظروف التي جاءت به الى الحكم ، والمنهاج الذي سيعتمده في الحكم . وقد جاء فيها : « أيها الناس ، اني والله ما خرجت أشرا ولا بطرا ، ولا حرصا على الدنيا ولا رغبة في الملك ... ولكني خرجت غضبا لله ورسوله ودينه ، داعيا الى الله وكتابه وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم ، لمّا هدمت معالم الهدى ، وأطفىء نور أهل التقوى ، وظهر الجبّار العنيد المستحل لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة . مع انه ما كان والله يصدّق بالكتاب ، ولا يؤمن بيوم الحساب وانه لابن عمي في الحسب ، وكفيّي في النسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، وسألته أن لا يكلني الى نفسي ، ودعوت الى ذلك من اجابني من أهل ولايتي ، وسعيت فيه حتى أراح الله منه العباد والبلاد بحول لله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس ، ان لكم علي ألا اضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا أكري نهراً ، ولا اكثر مالا ، ولا اعطيه زوجة ولا ولدا ، ولا أنقل مالاً من بلدة الى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم ، فان فَضَل فضل نقلته الى البلد الذي يليه ممن هو احوج اليه ، ولا أُجمّركم في ثغوركم فأفتكم وأفتن أهليكم ولا أغلق بأبي دونكم ، فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولا احمل على أهل جزيتكم مايجليهم عن بلادهم ويقطع نسلهم . وان لكم أعطياتكم عندي في كل سنة ، وأرزاقكم في كل شهر حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم . فان وفيتُ لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة . وان انا لم أف لكم فلكم أن تخلعوني ، إلا ان تستتيبوني فان تبتُ قبلتم مني ، فان علمتم أحدا ممن يُعرَفُ بالصلاح ويعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فأردتم ان تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . أيها الناس ، انه لا طاعة لمخلوق في

معصية الخالق ، ولا وفاء له بنقض عهد ، انما الطاعة طاعة الله ، فأطيعوه بطاعة الله ما أطاع فاذا عصى الله ودعا الى المعصية ، فهو أهل أن يُعصى ويُقتل . أقول هذا واستغفر الله لي ولكم »[1] .

تتضمن هذه الخطبة ، كما يستطيع المرء أن يلاحظ ، عدة نقاط ، أولها شرح للظروف التي استدعت قيام الثورة على الوليد الثاني ، وتعليل هذه الثورة بأنها كانت ثورة على انسان فاسق خليع لا يستحق ان يكون خليفة للمسلمين . ويتضمن الجزء الثاني من الخطبة شرحاً غير مفصل لاهم النقاط الاساسية التي سيعتمدها الخليفة الجديد في حكمه . وتتلخص الوعود التي قطعها يزيد الثالث على نفسه بنقاط ست هي ما يلي :

١) وعد بألا يعمل على اثراء نفسه أو أي فرد من أفراد اسرته .
٢) وعد انه سيصرف ريع كل منطقة على المنطقة نفسها ، وما يفضل بعد تسديد حاجات المنطقة يمكن نقله الى منطقة محتاجة أخرى .
٣) وعد المقاتلة الذين جمروا في بعوثهم طويلا ، بأنهم سيعادون الى اهليهم .
٤) وعد بأن باب الخليفة سيكون مفتوحا للجميع ، وبأنه سيعمل على احقاق الحق .
٥) وعد بحسن معاملة أهل الذمة .
٦) وعد باعطاء الارزاق والاعطيات في حينها ، دونما تأخير أو حاجة للمطالبة .

كما وعد الخليفة في نهاية خطبته بأنه سيسهر ما وسعه السهر على تنفيذها ، وان الناس في حلّ من بيعته اذا لحظوا فيه تقصيراً .

والخطبة بمجملها اشبه ببيان وزاري يتقدم به مسؤول تسلم مقاليد

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

الحكم مجددا لشرح الظروف التي جاءت به ، وخطته في العمل بشكل عام.

وما كاد ينتهي من هذه الخطبة حتى تقدم الناس منه يجدّدون له البيعة . ورغم ان عهد يزيد لم يطل فاننا نستطيع القول إنه كان اجمالاً يعتمد على اليمانية ، وخصوصاً بني كلب اعتماداً كلياً . فقد عزل في زمنه يوسف بن عمر الثقفي والي العراق ، وولي هذا القطر عوضاً عنه منصور ابن جمهور الكلبي ، رغم المحاولات التي قام بها يوسف بن عمر للاحتفاظ بالامارة عن طريق اثارة الانقسام والحزازات بين العناصر القيسية واليمنية[1] .

وكان يوسف رجلا يمكن ان يوصف بالجبن بشكل عام ، اذا انه لما علم بمقدم منصور الى العراق هرب من الحيرة وذهب الى الشام ، واختفى في أرض البلقاء في شرقي الاردن . وظل مختفياً حتى دل عليه رجل من بني كلب ، ولما جاؤوا للقبض عليه وجدوه لابسا لبسة النساء ، وجالساً في وسط حلقة من نسائه وكأنه واحدة منهن . وقيل ايضا انه جد بين جمع من النسوة القين عليه قطيفة خزّ وجلسن على حواشيها وهن حاسرات.وقد أخذ بعد القاء القبض عليه الى دمشق حيث سجن ، وتعرّض للهزء والسخرية من الذين كانوا معه في السجن ، وظلّ في سجنه الى أن مات يزيد الثالث ، وقتل قبيل دخول مروان الثاني دمشق على يد يزيد بن خالد القسري ثأراً لأبيه[2] .

وقد دخل منصور بن جمهور العراق وحطّ رحاله في البصرة ، ثم انتقل الى الكوفة واستولى على ما في بيت المال من أموال ، وأمر باخلاء سبيل المساجين ، ودفع المتأخر من العطاء لاصحابه . ولم يلق مقاومة تذكر من يوسف أو غيره في هذا الاقليم . على ان ولايته لم تطل اذ ان يزيداً قد

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(٢) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٧٤ .

عزله ، وأرسل عوضاً عنه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وكان محبوباً من العراقيين وله بين الناس مكانة مستمدة من مكانة ابيه[1] .

هذا بالنسبة للعراق ، أما في بقية الامصار فقد اختلف الوضع حسب كل مصر . ففي سجستان والسند استسلم الناس الى العهد الجديد دونما مقاومة تذكر . وتولى الامر في هذه البقعة رجل من بني كلب . أما نصر ابن سيّار والي خرسان ومروان بن محمد عامل ارمينيةوالجزيرة فقد رفضا الاعتراف بالامر بالواقع ولم يقبلا تسليم ما بأيديهما من صلاحيات لممثلي الخليفة الجديد[2] . ولم يتح للامور ان تتعقد اكثر من ذلك لان يزيد الثالث ما لبث ان توفي في سنة ١٢٦ نفسها ، بعد حكم لم يدم سوى ستة أشهر وكان قبل وفاته قد أخذ البيعة من الناس لاخيه ابراهيم بتشجيع من جماعة القدرية كما يروي الطبري[3] . وكان القدرية من الفئات القوية سياساً وفكرياً في هذه الفترة . وكان يزيد واخوه من المؤمنين بمبادئهم . وأراد القدرية ان يبقى ما كان لهم من نفوذ فحثوا يزيداً على البيعة لاخيه ففعل .

وكان الناس يلقبون يزيداً هذا بيزيد الناقص ، ويقول الطبري : « وإنما قيل يزيد الناقص لنقصه الناس الزيادة التي زادهموها الوليد بن يزيد في أعطياتهم ، وذلك عشرة عشرة ، فلما قتل الوليد نقصهم تلك الزيادة ، ورد أعطياتهم الى ما كانت عليه أيام هشام بن عبد الملك . وقيل أول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد . »[4] .

أما أخوه ابراهيم فيبدو أن أمر الخلافة لم يتم له ، فقد كان « يسلم عليه جمعة بالخلافة ، وجمعة بالامرة ، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٨٤ .
(٢) من أجل موقف نصر بن سيار ومروان بن محمد من خلافة يزيد الثالث ، انظر على التوالي الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ ، ٢٨١ ـ ٢٨٤ ، ٢٩٥ .
(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٩٥ .
(٤) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٦١ ـ ٢٦٢ .

ولا بالامرة . »[1] . وظل حاله كذلك حتى قدم مروان بن محمد فخلعه ، وقتل عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، لأن يزيد الثالث كان قد بايع لعبد العزيز ، بعد أخيه ابراهيم[2] .

* * *

---

(۱) الطبري ، ج ۷ ، ص ۲۹۹ .
(۲) الطبري ، ج ۷ ، ۲۹٥ .

الفصل العاشر

الفتنة الثالثة وخلافة مروان الثاني

الفتن الثلاث :

بدأت الفتنة الاولى كما هو معلوم بمقتل الخليفـة عثمان بن عفان سنة ٣٥ ، وانتهت بعام الجماعة سنة ٤١ هـ •

كذلك الفتنة الثانية فقد بدأت بخلافة يزيد بن معاوية سنة ٦٠ هـ • وانتهت بمقتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ •

أما الفتنة الثالثة ، فتبتدىء بمقتل الوليد الثاني ، وتنتهي بمقتل مروان ابن محمد سنة ١٣٢ هـ وسقوط الدولة الأموية •

ويعتبر المؤرخون ان مقتل الوليـد الثاني كان نذيراً بانهيار الأسرة الأموية وان هذا الانهيار قد تم على ايدي رجال من بني أمية انفسهم ، وان ما حل بالاسرة الاموية كان من أعمال اشخاص أمويين ، لأن الذين قتلوا الوليد الثاني لم يقتلوا شخصاً خارجاً أو مدسوساً على السلطان ، وانما قتلوا انساناً له بيعة في الاعناق وقد استخلف من قبل خليفة منتخب هو هشام بن عبد الملك • لذا فان مقتل الوليـد الثاني كان نقطة البـدء في تحدي فكرة الشرعية ، ومسماراً ضخماً في نعش الخلافة ، كمنصب له قدسيته وهيبته •

وتناولت هذه الفتنة الاسس المكينة التي اعتمد عليها الحكم الاموي بشكل عام اذ كان القائمون بها من أهل الشام أولاً ، وأمويين ثانياً ، وكلا العنصرين أساس في تثبيت السلطان الاموي •

وهكذا وبعد ان كان الحكم الاموي يقوم على قاعدة قوية متراصة اصبح هذا الحكم بعد مقتل الوليد الثاني يستند على جماعات متفرقة ، غير متجانسة ، وليس لها من هدف يوحدها •

فقد اعتمد الامويون منذ ان قامت خلافتهم في بلاد الشام على أهل الشام كمجموعة واحدة ، لها هوى واحد ، تؤيد البيت الحاكم ، وتمحضه ثقتها • وكان بنو كلب العنصر البارز في هذا التجمع الشامي المساند للبيت الاموي • على أن الاحداث الاخيرة فرقت هذه الجماعة الموحدة ، وخلقت بينها عدة تيارات يرتبط كل منها بفئة وجد أن مصالحه معها • وطبيعي ان ضعف القاعدة وتفككها سيؤدي الى تصدع البناء الاموي بكامله ، لا في المركز فحسب ، ولكن في الاطراف بشكل اوضح وأدق •

وكان الذي يقف في وجه ثورة الاطراف خوف هذه الأطراف من الجبهة الشامية الموحدة التي تتفانى في حب آل أمية ، وتنطلق لنصرتهم في كل قطر ومصر • ولكن حين تخلخلت هذه القاعدة المؤيدة للبيت الأموي في الشام كان طبيعيا ان تتخلخل هيبة هذا البيت في جميع الاطراف ، وان يشعر الناقمون والثائرون الذين يعملون في الخفاء والمتآمرون الذين يعدون العدة لاستلاب السلطة ان فرصة ذهبية قد سنحت ، وان هذه الفرصة يجب ان تستغل وان تكون الضربة قاضية ، لان البيت الحاكم لن يستطيع الرد عليها •

وهكذا كثر المشاغبون ، وعمت الفتن الاطراف ، وظهر على مسرح الأحداث مغامرون وطلاب ثروة وجاه يريدون ان يحققوا لانفسهم في هذا الظرف ما عجزوا عن تحقيقه حين كان الجسد الاموي جسدا صلبا متماسكاً •

مروان الثاني واصلاحاته العسكرية :

في هذا الجو المضطرب الذي فقدت فيه مقومات الدولة ، وتقسمت فيهالجبهة الواحدة،ظهر مروان بن محمد وهو سليل فرع من البيت المرواني كان يضمر النقمة على عبد الملك وأبنائه وخاصة على ابناء الوليد الأول وهشام لأنهم هم قتلة الوليد الثاني ولأنهم كانوا قبلا قد حرموه والفرع الذي ينتمي اليه من الوصول الى الخلافة •

وأبوه هو محمد أخو عبد الملك بن مروان • وقد شغل منصب عامل الجزيرة أرمينية سنوات عدة ، قاد خلالها الجيوش لمحاربة الروم • وقد تسلم مروان بن محمد امارة الجزيرة وأرمينية سنة ١١٤[١] • وكانت اذربيجان أيضاً تابعة له •

وغير خاف ان الذي وسدوا اليه الحكم في منطقة كهذه المنطقة التي يختلف تركيبها السكاني عن الاقاليم الأخرى ، والتي فرضت عليها العروبة والاسلام فرضاً قسرياً من الخارج ، لا بد وان يكون شخصا قويا محنكا الى جانب تحليه بالشجاعة والجرأة • وقد اثبت مروان انه يتحلى بكل هذه الصفات المطلوبة ، وانه يحمل ما وسّد اليه من اعباء ، وانه الى جانب حنكته في الادارة قائد لا يشق له غبار •

وفي جميع المواقع التي خاضها ضد الروم أيام كان عاملا كان النصر الى جانبه ، واستطاع ان يتوغل داخل اراضي الروم وان يثبت السلطان العربي في هذه البقعة النائية من الارض • وقد شغل مروان منصب عامل الجزيرة وملحقاتها مدة اثني عشر عاما ، تمرس خلالها في شؤون الادارة والحرب حتى صار من مهرة القادة الذين يستطيعون ان يعيدوا النظر في

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٤٢ • ومروان هذا كان عند البعض يلقب بمروان الحمار ، وكان يسمى أيضا بمروان الجعدي لانه تتلمذ على الجعد بن درهم • أما تسميته بالحمار فسببها أن العرب كانت «تسمي راس كل مائة سنة حمارا وكانت ولاية بني أمية قاربت مائة سنة في أيام مروان فسموه مروان الحمار » (اخبار الخلفاء ، ص ٢٣٤ أ) •

التكتيك العسكري وان يقيموا تكتيكاً جديداً • وفعلاً فانه يعود لعهد مروان هـذا ما تم من تغيير في فنون القتال التي كـانت متبعـة في الجيش العربي الاسلامي • هذا الجيش الذي اصبح له في ظل مروان اسلوبا فنيا جديدا في القتال يختلف عما كان عليه من قبل •

وقـد تناول التغيير لا اسلوب القتال فحسب ، بـل نوعية الرجـال المقاتلين • فقد وضح لرجال الدولة خلال عهد طويل من الاعمال الحربية ان الاعتماد في الجيش عـلى المقاتلة المتطوعين الذين كانوا يؤلفـون الجزء الاكبر من الجيش الاسلامي منذ ان قامت فترة الفتوح أمر خاطيء ، وأن هذا النوع من الجنود المتطوعة لا يصلح للعمل في الحملات التي تسير الى اماكن بعيـدة ، ولمدد طويلة ، وان هذا النوع مـن المهام يقتضي جنودا محترفين ، صناعتهم القتال ، وعندهم استعداد مادي ونفسي له •

ومع مرور الزمن • وبعد ان خفّت موجة الفتوحات الاولى ، وآل الحكم الى بني امية ، أخذ الامويون يتخلون عن فكرة المتطوعة،ويستعيضون عنهم بجنود نظاميين دائميين يتألفون من عناصر شاميـة اصبحت لها خبرة بقضايا القتال • ولم يعد الاساس في الجيش القتال من أجل الغنيمة ، بـل أصبح المقاتل موظفاً في الدولة يأخذ عطاء مقرراً سواء قاتل أم لم يقاتل•وفي أوقات الحاجة كانت الدولة تستدعي افواجا من المقاتلين الجدد وتمنيهم الوعود عن طريق زيادة اعطياتهم • وقد بدأ هذا النوع من الترغيب منـذ زمن الخليفة يزيد الاول الذي أمر بأن يعطي كل من يشترك في الحملـة الى الحجاز مئة دينار بالاضافة الى عطائه الثابت • كذلك اعطى يزيد الثالث كل من خرج لقتال الوليد الثاني الفي درهم • ووعد الوليد الثاني رجـاله المحصورين معه بأنه سيعطي كلا منهم خمسمائة درهم ان هم ساهموا في الدفاع عنه • واستمر هـذا النوع من الترغيب حتى كانت خلافـة مروان الثاني الذي اذاع سنة ١٣٠ هـ بأنه سيعطي كل رجل من رجاله الأربعـة

آلاف الذين انتدبهم لمحاربة الخوارج في اليمن مئة دينار وفرسا لركوبه وبغلا لحمل اثقاله •

هذا من ناحية العطاء • أما من ناحية التركيب البشري للجيش فقد كان التغيير الكبير أن الجيش كان يتألف في أول الأمر من قبائل تحارب كمجموعات قبلية فحلّ محلّها الآن رجال مقاتلون من مختلف القبائل • يخضعون في قيادتهم لا الى رؤسائهم القبليين بل الى قوّاد مجربين تنتقيهم الدولة • وقد سمّيت هذه الفرق الجديدة بأسماء القوّاد الذين كانوا يقودونها ، كالوضّاحية نسبة الى القائد عمر بن وضّاح ، والذكوانية نسبة الى القائد مسلم بن ذكوان وغيرهما •

وهناك ناحية ثالثة في الاصلاح العسكري تناولت اسلوب القتال • فبعد أن كان العرب في الجاهلية وصدرالاسلام يتقاتلون على طريقة الصف ، يتقابل الخصوم في صفوف طويلة بينهما فسحة يتبارز فيها المتبارزون من شجعان الطرفين ، أصبح اسلوب القتال الجديد هو اسلوب الكراديس ، أي الوحدات الصغيرة المتراصة التي يسهل تقدّمها وتأخرها ، وتبديل مواقعها •• وقد قيل إن مروان بن محمد هو الذي أدخل نظام الكراديس ووضعه موضع العمل • ولكن الحقيقة ان هذا النظام كان معروفاً من قبل وقد استعمل في بعض المرات القليلة • ولكن مروان هو الذي عممه وجعله اسلوباً معتمداً اعتماداً نهائياً في القتال •

ويستدل البعض من نسبة هذه البدعة العسكرية الى مروان بأن مروان كان رجلاً شهد له بطول الباع في الميدان العسكري •

وكانت وفاة يزيد الثالث ، وبيعة أهل الشأم لأخيه ابراهيم ، هذه البيعة التي لم تتم بالاجماع والتي يشك البعض في أنها كانت بناءاً على وصية

أخيه يزيد أو عهده له[1] من المشاكل الخطيرة التي حلت بدولة بني أمية بالشام والتي أدت إلى مضاعفات كثيرة كان أهمها اتكاء الجروح المميتة التي كانت تنخر الجسد الأموي المتداعي • وقد أثار هذا الجو المضطرب والصراع على السلطة بين أفراد البيت الأموي مطامع الأحزاب والأشخاص التواقين لانتزاع السلطة من أصحابها الأمويين • فالى جانب ما كانت تقوم به الأجهزة السرية العباسية من استغلال منظم لهذه الفوضى في الحكم من أجل توسيع رقعة دعوتها وضم العناصر المناوئة المختلفة الى صفوفها وماكانت تهيؤه ليوم قريب تضرب فيه ضربتها القاضية ، الأمر الذي لا نوي التعرض له في هذه الدراسة لأهميته واتساعه وضرورة تخصيص دراسة شاملة ومعمقة له ، كانت هناك الفئات المعارضة الأخرى التي تتربص بالبيت الحاكم وتتحين الفرص للانقضاض عليه وخلع طاعته واقتناص السلطة منه • ومن هذه الفئات فئة الخوارج ، التي استغل أحد رجالاتها ، واسمه سعد بن بَحْدَل من النمر بن قاسط هذه الفوضى، فخرج بالجزيرة في شعبان سنة **١٢٦** هـ • ويذكر خليفة بن خياط أنه قطع دجلة الى قَرْدا[2] ثم سار حتى نزل المرج من كور الموصل ، فوجد أن شخصاً آخر من حمير يدعى أبو كرب قد خرج في ناس كثيرين وتلقب بأمير المؤمنين ، وبعد مداولات بين الاثنين تبين أن سعيداً خرج قبل أبي كرب فقبل أبو كرب أن يتنازل عن الأمر لسعيد • ونزل سعيد على مدينة الموصل ، ثم ما لبث أن تركها وارتحل إلى

---

(١) يذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الشام بايعوا ابراهيم بن الوليد ما خلا أهل حمص فانهم أبوا أن يبايعوه • كما يذكر حديثاً على لسان أبي العلاء بُرْد بن سنان خلاصته أن شخصاً اسمه قَطَن (وهو مولى عبد الرحمن بن حنبل الكلبي صاحب خاتم الخلافة زمن يزيد الثالث) دخل على يزيد وهو على فراش الموت وطلب منه أن يولي عهده أخاه ابراهيم فرفض يزيد ذلك . فما كان من قطن إلا أن افتعل عهداً على لسان يزيد بتولية أخيه ودعا أناساً فاشهدهم عليه • ويؤكد أبو العلاء في روايته عدم بيعة يزيد لأخيه ابراهيم بقوله : « ولا والله ما عهد يزيد شيئاً ولا إلى أحد من الناس • » • انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني . ص ٥٥٨) •

(٢) قردا ، أو قَرْدي : موقع في شرقي دجلة مقابل الجزيرة • انظر ، الحاشية(١) من تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٣ •

شهر زور حيث وجد شخصاً آخر اسمه شيبان بن عبد العزيز اليشكري اجتمع الناس حوله ولقبوه بأمير المؤمنين • وبعد نقاش بين الاثنين تبين أن سعيداً خرج قبل شيبان ، فتنازل له شيبان وسار معه • وكان شيبان قد قتل شخصاً آخر من أهل الشام ادعى الخلافة قبله ، وهزم أصحابه[1] • وهذا الخبر ، الذي نقرأ فيه أسماء أربعة أشخاص ادعوا الخلافة في وقت واحد ، وليس بينهم من له نباهة أو ذكر عال على صعيد الجماعة الاسلامية بكاملها أو يستطيع أن يستقطب ولاء هذه الجماعة ، خير دليل على ما سقناه من قول بأن الحال بعد مقتل الوليد الثاني وموت يزيد الثالث وخلافةابراهيم ابن الوليد كانت تستدعي علاجاً سريعاً لا يقبل التأجيل •

وكان مروان بن محمد خير من يقوم بالمهمة ، فهو ابن محمد بن مروان أشد ولد مروان بأساً وأشجعهم ، حتى أن أخاه عبد الملك كان « يحسده على شجاعته ••• وكان وجهه لمحاربة مصعب (بن الزبير) فقتله وقتل ابراهيم بن الاشتر »[2] • كما أنه ولي لعبد الملك الموصل والجزيرة وأرمينية ، وقام بغزوات ضد الروم سنة ٧٥ هـ وتغلب عليهم في أكثر من موقع[3] • وابنه مروان بن محمد هو من أم كردية أخذها أبوه من عسكر ابن الأشتر[4] • وكان مروان قد ولي الجزيرة وأرمينية لهشام ابن عبد الملك وللوليد بن يزيد من بعده ، فلما بلغه مقتل الوليد انصرف الى الجزيرة وأعلن الثورة على قتلته على النحو الذي سنفصله في الفقرة اللاحقة •

مروان في الجزيرة :

لم تكن خبرة مروان تقتصر على الأمور العسكرية فحسب ، بل كان أيضاً ذا باع طويل في شؤون السياسة ، وكان على صلات وثيقة بعدد كبير

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٣ •
(٢) البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٨٥ •
(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٨٦ •
(٤) البلاذري ، انساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٨٦ •

من رجالات عصره ، وبطبقات المجتمع المختلفة ، وبزعماء الاحزاب، فعرف دخائل الأمور واتجاهات الناس ونواياهم . وحين آلت الخلافة الى الوليد الثاني كتب اليه يهنؤه ، ويذم هشاماً[1] رغم أن هذا الأخير هو الذي عينه والياً على الجزيرة . ولما قامت المؤامرة على الوليد الثاني لم يشترك فيها مروان . وبعد مقتله أخذ يحرض أخاه الغمر للانتقام من الذين قتلوه ويقول له : « فان دمه غير ضائع »[2] .

وقد استغل مروان بن محمد مقتل الوليد الثاني أحسن استغلال،وكما طالب معاوية من قبل بدم عثمان قام هو ليطالب بدم الوليد وسماه الخليفة المظلوم[3].وقد أظهر في أول الأمر انه أعطى البيعة ليزيد الثالث ، وأنه لن يخالف اجماع أهل دمشق.ثم ما لبث أن جاء من أرمينية الى الجزيرة قاصداً حران ، مظهراً البيعة ليزيد بن الوليد[4] ، ومحاولاً الانتظار حتى تنجلي له الأمور . وقد ثار في هذه الفترة على مروان جنوده من اليمانية من أهل الشام . لانه تركهم لحماية الثغور في آسيا الصغرى ، ولأنه كان لا يعتمد عليهم ولا يكل اليهم المهام الجسيمة.وقد ظهر بين هؤلاء الجند زعيم يماني من فلسطين هو ثابت بن نعيم الجذامي . وقد دعا ثابت الجند الى التمرد والعصيان فوافقوه على دعوته . وطلبوا من مروان أن يعيدهم الى ديارهم بالشام وقالوا له انهم يريدون من عودتهم مبايعة الخليفة الذي بايعه أهلوهم وأخوانهم ، ورأى مروان أنه لا بد من قمع هذا العصيان ، فتآمر مع فريق من الجند وتمكن من القبض على ثابت بن نعيم وأولاده ، فحبسهم وسرّح اليمانية ، وأقام بحرّان منتظراً ما ستنجلي عنه الأمور في دمشق[5] .

---

(١) انظر نص هذا الكتاب في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) انظر نص كتاب مروان بن محمد الى الغمر بن يزيد أخي الوليد بن يزيد في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٨١ وما بعدها .

(٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، ج ٥ ، ص ١٨٧ .

(٤) الطبري ، ج ٧ . ص ٢٨٣ ، ٢٩٥ .

(٥) انظر تفاصيل هذا الحادث في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٩٦ وما بعدها .

ولما كان في حرّان جاءه كتاب من الخلية الجديد يزيد الثالث ، يطلب منه فيه البيعة ، ويعده مقابل ذلك انه سيوليه ما كان بيد أبيه محمد بن مروان من الجزيرة وأرمنية والموصل وأذربيجان ، فقبل مروان ، وبايع للخليفة الجديد . وحتى يظهر حسن نيته وجّه وفداً من لدنه الى الخليفة بدمشق يضم بعض زعماء الجزيرة ورجالاتها[1] .

مسيره الى دمشق :

بعد أن توفي يزيد الثالث سنة **١٢٦** هـ وآلت الخلافة من بعده الى أخيه ابراهيم ، الذي بايعه فريق قليل من الناس ، وخاصة في جنوب بلاد الشام ، ولما علم مروان بموت يزيد بعث الى الوفد الذي كا نقد أرسله الى يزيد يأمره بالعودة. وفعلاً ، كان الوفد ما يزال بعيداً عن دمشق في مدينة منبج فعاد الوفد الى الجزيرة[2] . وخرج هو من حرّان تاركاً وراءه ابنه عبد الملك ، ومعه جيش من أصحابه . وسار حتى وصل الى قنسرين حيث مال اليه سكان هذه المدينة الذين كانت غالبيتهم من القيسية وبايعوه . وكان على رأسهم يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، وانضم الى جيشه عدد من أهل قنسرين ، فسار بهم وبمن كان معه من أهل الجزيرة الى حمص حيث انضم اليه أيضاً بعض رجالاتها ، ومنها توجه الى عين الجرّ بين دمشق وبعلبك حيث التقى بجيش أرسله ابراهيم أخو يزيد . وكان يقود هذا الجيش سليمان بن هشام[3] .

كان سليمان هذا قد حارب الروم واكتسب خبرة في فنون القتال ، وكانت عدة جيشه مئة وعشرون ألف فارس على حد زعم الطبري ومعه حرسه من الذكوانية ، وهو مليء بالثقة أن النصر سيكون له . وكان جيش مروان أقل من جيش سليمان اذ يقدره الرواة بثمانين ألف جندي ، وقد

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٩٨ .
(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ .
(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ – ٣٠١ .

جرت المعركة بين الجيشين ، وكان النصر حليف مروان لانه على حد زعم راوي الخبر كان مجرباً مكابراً . وقد أمر مروان ثلاثة من قواده أن يقوموا بقطع الأشجار من الجبل المجاور وأن يقيموا جسراً على النهر حتى يعبروا عليه مع ثلاثة آلاف من الجند . فلما فعلوا ذلك ، وأقاموا الجسر ، التفوا على جيش سليمان من الخلف ، وباغتوهم من حيث لا يشعرون . فدبّت الفوضى والذعر في جيش سليمان. وهكذا كان النصر حليف مروان، ولكنه لم يقتلهم ما عدا اثنين منهم كان لهما يد في مقتل الوليد . وبعد أن أخذ البيعة منهم لابني الوليد الحكم وعثمان اللذين كانا مسجونين في دمشق مظهراً بذلك انه لم يكن يطالب بالخلافة لنفسه ، وانما قام ثأراً للوليد ، ومن أجل عودة الشرعية الى نصابها ، وتسليم الخلافة الى ابني الوليد اللذين كانت لهما بيعة في أعناق الناس منذ أن كان أبيهما حياً[1] .

ويقول البعض ان هذه المظاهرة التي قام بها مروان كانت مظاهرة مقصودة وانه انما قصد منها ان ينبه انظار السلطة في دمشق الى ابني الوليد فتملكهم الغيرة والخوف فيقتلونهما . وهكذا يصفو له الجو وتصبح مطالبته بالخلافة عملية شرعية بعد وفاة اللذين كانا أحق بها منه .

وفعلاً فقد تم ما توقع مروان اذ ثار النقاش في دمشق بين اصحاب السلطة حول مصير الغلامين ، وكان تقدير الفريق الاقوى ان الغلامين اذا أبقيا في السجن حتى يصل مروان الى دمشق فانه سيخرجهما من سجنهما . وسيوسد الخلافة لاحدهما . فالافضل اذن ان يُقتلا حتى يُتخلص من كل خطر قد يتأتى من بقائهما على قيد الحياة . وفعلاً ، أمر سليمان بن هشام بقتلهما بعد ان وصل الى دمشق ، وتم ذلك بنتيجة مؤامرة دبرها يزيد بن خالد القسري الذي قال انه ارسل رجلا الى السجن قتلهما وقتل معهما

---

(١) انظر تفاصيل هذه المعركة في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ . وانظر أيضاً أخباراً مماثلة حول هذا الموضوع ، في ، تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٤ ــ ٥٦٥ .

يوسف بن عمر الثقفي . ولم ينج من القتـل احـد سـوى أبـو محمـد السفياني[1] .

بعد هذا وحين وصلت الاخبار بأن مروان أصبح على أبواب دمشق ، تـدَبّـر سليمان وابراهيم أمر خروجهما من دمشق قبـل وصـول مروان إليهما ، وفعلا وصل مروان الى دمشق ليجدها خـاليـة من أي مسؤول لـه أهميته . وما كاد يستقر في العاصمة حتى وضع يده على ما كان في بيت المال من أموال ، واخذه وقسمه فيمن معه من الجنود وخرج بعد ذلك من دمشق وذهب الى تدمر حيث كان يقيم بنو كلب[2] .

خلا الجو لمروان بعد مقتـل الغلامين ابني الوليد ، وبايعه الناس في دمشق يوم الاثنين في ٢٩ صفر سنة ١٢٧ هـ . وكان أول المبايعين له أبو محمد السفياني وشهد ان الغلامين قبل مقتلهما قد عهدا اليه بالخلافة . وبعد ان أخذ البيعة لنفسه اقتصّ من الذين قتلوا الوليد[3] ، وحاول استئصال شأفة الفئة التي كانت تعرف باسم القدرية وقتل بعضا من رجالاتها .

على انه لم يظهر في كـل هذه الاعمال ما كان يتوقـع منه من قسوة وبطش ، ولم يلجأ الى العنف الا مع قلة قليلة جداً من ألد خصومه عداء لـه . ويقال ان فئة من الشوام بعـد دخول مروان بن محمد الى دمشق

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ . اما الخبر كما هو وارد في تاريخ خليفة بن خياط فـلا يفهم منه أن يوسف بن عمر الثقفي قد قتل مع ابني الوليد الثاني ، بـل على العكس ، يفهم منه أن الذي قتل ابني الوليد هو يوسف بن عمر . ونص الخبر كما ورد عند خليفة بن خياط هو كالتـالي : « فقتل يوسف بن عمر الحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد . » (القسم الثاني ، ص ٥٦٥) . وواضح أنه من غير المعقـول أن يكون الذي قتلهما هو يوسف بن عمر ، والأصح أن الذي تولى قتلهما مولى ليزيد بن خالد بن عبد الله القسري ، اسمه أبو الأسد ، كما جاء في الطبري . وعندي أن محقق تاريخ خليفة بن خياط قد وقع في خطأ من نوع ما أثناء التحقيق ، لا سيما وأن رواي الخبر عند خليفة يتابع قوله حول نفس الموضوع بعد ذلك وفي نفس الصفحة فيقول : « ويقال : ولي قتلهما مولى لخالد بن عبد الله (القسري) يقال له ابو الأسد . » .

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ .

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٦ ، والطبري ، ج ٧ ، ص ٣١١ .

نبشوا قبر يزيد الثالث وصلبوه على باب الجابية • والاكيد انهم فعلوا هـذا بمبادرة منهم لا بايعاز من الخليفة الجديد ، لأن مروان اتبع سياسة المسالمة ، ونسيان الماضي ، وحاول استرضاءالعناصر العربية المختلفة ولا سيما رجالات الاجناد الشامية في فلسطين والاردن ودمشق وحمص واكثرهم من القبائل اليمانية • واظهر حسن نية تجاههم بأن ترك اليهم أمر اختيار ولاتهم دونما تدخل منه • وكدليل على هـذه الخطة المتسامحة ، وبنتيجة ترك مروان لرجالات الاجناد أمر اختيار ولاتهم ، فقـد ظفر ثابت بن نعيم الجـذامي بولاية فلسطين ، رغم انه كان من الد اعداء مروان ، وانه قد ثار عليه من قبل في ارمينية(١) •

وبعد ان تم الامر لمروان بالشام انصرف الى منزله بحرّان بالجزيرة وأقام بها مجدداً ، وهناك جاءه سليمان بن هشام وابراهيم بن الوليد ، وطلبا منه الامان فاعطاهما إياه وعفا عنهما •

مروان في حرّان :

اعتمد بنو الوليد الاول في الحركة التي نظموها ضد الوليد الثـاني على القبائل اليمانية من كلب وقضاعة خاصة • وباعتبار ان مروان الثاني قام ليطالب بثأر الوليد الثاني ، فانه استند الى القبائل القيسية والى بعض الفئات من اليمانية التي كانت تشايعه • ولهذا كان طبيعياً ان يجعل مروان الثاني مستقرّه في حرّان بالجزيرة كما فعل ابوه مـن قبـل وحيث نشأ مروان وعرف الناس وعرفوه ، وحيث كان للقيسية الغلبة والنفوذ •

كـانت دمشق العـاصمة الاسمية للـدولة الأمويـة بعـد معاوية • وأغلب الخلفاء الذين جاؤوا بعده فضلوا الاقامة بالبادية أوفي مواقع أخرى لأسباب صحية أو عسكرية أو غير ذلك و لكنهم جميعـاً لم يفكرو بنقـل العاصمة من دمشق • أما مروان فقد تركها وأقام في حرّان التي أصبحت

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٢ •

العاصمة الجديدة،والتي انتقلت اليها دوائر الدولة بمافيذلكبيت المال[1].

كانت عملية نقل العاصمة الى حرّان إساءة ضخمة الى أهل الشام عامة ، ما عدا سكان بعض المناطق الشمالية . فقد خسر أهل الشام بانتقال العاصمة من دمشق المركز الممتاز الذي كان لهم والخيرات العميمة التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم من الخليفة ، واتصالهم به ، واعتماده عليهم، وتقديمه لهم على غيرهم.لذا،عمت النقمة في الشام وأخذ الناس يتذكرون الأيام الخوالي حين كانت بلادهم قبلة الأنظار وملتقى جميع الذين يقصدون الدولة لعمل أو لغيره . وزاد في هذا الجو الناقم على مروان أنه كان ابن أمة ،[2] وهم لم يعتادوا أن توسّد خلافتهم الا الى صريح من جهة الأب والأم . كما أنه مغتصب للخلافة لم تصله عن طريق إرث شرعي أو بيعة كما تعارف الناس من قبل .

كل هذا خلق جواً جديداً سيكون طابعه الثورات الدائمة والقلاقل ، الأمر الذي سيكون شغل الخليفة الشاغل طوال فترة حكمه .

الثورات في بلاد الشام زمن مروان :

كان انتقال العاصمة الى حرّان اذن، والخلاف بين القيسية واليمانية، ونقمة امراء بني أمية على فريق أو آخر ، عوامل جعلت الجو مهيأ لقيام الفرقة بين الناس،والانقسام الى شيع واحزاب ، وبالتالي الى بثروح التمرد، واشاعة الفوضى ، والاستعداد للثورة . وفعلاً ما كادت الخلافة تؤول الى مروان ، وما كاد يقوم ببعض التدابير التي أغضبت أهل الشام بشكل عام حتى اشتعلت نيران الثورة منذ مطلع سنة ١٢٧.وبدأت بفلسطين التي كان يليها ثابت بن نعيم الجذامي الذي كان يكنّ عداوة قديمة لمروان وانتشرت الثورة حتى وصلت الى حمص ،[3] المدينة التي أظهر أهلها من

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، ص ٣٦٤ .

(٢) أمه كردية أخذها أبوه من عسكر ابن الاشتر ، كما ذكرنا من قبل .

(٣) من أجل ثورة حمص على مروان بن محمد ، انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٢ وما بعدها ، وتاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٦ _ ٥٦٧ .

قبل ميلاً الى الوليد الثاني ، ومخالفة لقتلته ، وموافقة لمروان في مسيرته الانتقامية للخليفة المقتول • ولكنهم الآن انقلبوا على مروان وطلبوا المدد من بني كلب في تدمر فجاءهم منها نحو من ألف فارس كما يزعم الطبري[1] •

كان مروان يومئذ في حماة فبلغه خبر قيام أهل حمص عليه ، فغذّ السير اليهم ، وبلغ مدينتهم بعيدعيد الفطر بيومين أي في شوّال سنة ١٢٧• وكانت الكلبيّة فيها قد أغلقوا أبوابها ، وحاولوا الاعتصام داخل المدينة • ولكن خيل مروان المحدقة بحمص اجبرت أهلها على الاستسلام وعدم المقاومة[2] •

كذلك ثار أهل الغوطة ، وولّوا عليهم يزيد بن خالد القسري ، وحاصروا دمشق فوجّهاليهم مروان شخصاً من زعماءالقيسية هو أبو الورد حفيد زفر بن الحارث الكلابي • وقد استطاع أبو الورد أن يحرق المزّة وأن يقتل رأس الثائرين يزيد بن خالد القسري[3] •

أما ثابت بن نعيم فانه جمع رجاله وحاصر مدينة طبرية ، فكتب مروان إلى أبي الورد أن يتوجه اليها • فلما اقترب منها هرب ثابت فلحقه أبو الورد ، وفرّق جموعه وأسر أبناءه•ومن ثم أسره هو وقتله ، وقتل عدداً من أتباعه بعد أن قطع أيديهم وأرجلهم[4] •

وكان طبيعياً أن تشتعل نيران الثورة أيضاً في تدمر مستقر الكلبية • وكان مروان يعرف أن ثورة تدمر ستكون أشد من غيرها ، لذلك سار اليها بنفسه وفي نيته أن يفتك بالثائرين فتكاً يردعهم ويردع غيرهم ممن تسوّل له نفسه الثورة عليه • وعرف اليمانية بنوايا مروان فآثروا السلامة

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٣ •

(٢) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٢ وما بعدها •

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٣ •

(٤) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٦٧ ، والطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٤ •

والعافية ، وتقدم الأبرش الكلبي زعيم يمانية تدمر من مروان طالباً العفو عن أهله . فقبل مروان التوبة ، وصفح عن التدمريين ، وأمر بهدم سور المدينة . ثم جاءه وفد من رجالاتها ، كما ان فريقاً من أهلها الذين لم يثقوا بعفو مروان هربوا على ما يزعم الطبري الى البرية[1] .

ولاية العهد :

بعد هذه الثورات التي أقضّت مضجع مروان ، وبعد أن استطاع إخماد الفتن التي تلاحقت ضده في كل وجه ، دخل مروان دمشق ، وجمع الناس وأخذ البيعة منهم لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتي هشام بن عبد الملك . وشهد حفل الزواج أمراء البيت الأموي من أبناء الخلفاء السابقين عبد الملك والوليد وسليمان ويزيد وغيرهم من رجالات قريش وسادات العرب[2] .

وظنّ مروان أنه قد أمّن بهذا مستقبلاً هادئاً له ولأولاده ، واعتقد أن خيراً عميماً سيقع له بنتيجة هذه المصاهرة . ولكن كانت الاقدار تخبىء له أشياء كثيرة لم تكن في حسبانه .

حملة العراق :

بعد أن خضعت بلاد الشام لمروان دعا الناس فيها الى السّير معه الى العراق لاخماد فتنه ، فاجتمع له منهم عشرة آلاف مقاتل . أعطاهم الخيل والسلاح ، وأمرهم باللحاق بابن هبيرة (يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري) الذي كان قد وجهه الى العراق في عشرين ألفاً من أهل قنسرين والجزيرة[3] .

ولما وصل الجيش الشامي الى الرصافة التقوا بسليمان بن هشام

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٥ وما بعدها .
(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٤ .
(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٤ .

الذي كان يقيم في قصر أبيه فيها،ودعوه الى خلع مروان ومبايعته بالخلافة، على أن يخرج معهم لحرب مروان • ويقـول الطبري تعليقاً عـلى موقف سليمان ما يلي : « فاستَزَلّه الشيطان فأجابهم وخرج اليهم باخوانه وولده ومواليه • »[1] • مع أن مروان كان قد أكرمه وقرّبه بعد الذي بدا منه ، ورغم أنه كان من الد أعدائه ، وكان باستطاعته البطش به • ولكن سليمان طمع في الخلافة ، وهو رجل يحب الحرب والقتال ، فأعلن أمره ، وطلب من الناس أن يبايعوه ، وسار مع رجاله الى قنسرين فاستولى عليها ، وكتب الى أهل الشام يدعوهم لمبايعته والقدوم عليه • ولاقت دعوة سليمان قبولاً حسناً في دمشق ، وأخذت أعداد كبـيرة من الشوام تتوجـه للانضمام الى سليمان في قنسرين • واجتمع على ما يذكر الطبري تحت رايته نحواً من ٧٠ ألف رجل من أهل الشام والذكوانيّة وغيرهم ، وعسكر في قرية لبني زفر يقال لها خُساف من قنسرين[2] •

وصلت أخبار هذا العصيان والتجمـع الى مروان • فأمر قائـده ابن هبيرة بأن يبقى مع جيشه الذي كان قد انفذه الى الكوفة ، وسار هو لملاقاة سليمان،فوجده في موقع قرب قنسرين•وجرت بين جيش مروان وجيش سليمان معركة قرب هذا الموقع كتب فيها النصر لمروان وهزم سليمان ومن معـه فتبعتهم خيول مروان تقتلهم وتأسرهم • ولما وصلوا الى معسـكرهم استباحه جند مروان ، وانتقموا من الثائرين اشنع انتقام لانهم نقضوا البيعة رغم ان مروان قـد حذرهم من ذلك مراراً • وبلـغ من قسوة مروان في معاقبة الثائرين انه قتل من الأسرى الذين وقعوا في يده ثلاثين الف رجـل على حدّ زعم بعض الروايات وسبعة آلاف على ما تزعم روايات أخرى[3] •

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ • ولا يعلل الطبري سبب خروج الجنـد الشوام على مروان الا بقوله إنهم كانوا « ممن كان مروان قطـع عليه البعث بدير أيوب لغزو العراق مـع قوادهم • » •

(٢) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ •

(٣) انظر التفاصيل في ، الطبري ، ج ٧ ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥ ، وقارن ذلك مـع ، فلهـاوزن ، ص ٣٦٧ •

أما سليمان فقد فرّ مع بقية جيشه الى حمص ثم خرج منها الى تدمر ومنها الى الكوفة ، وقد ترك بقية جيشه في حمص بقيادة اخيه سعيد • فجاء مروان الى حمص وحاصر سعيداً فيها مدة أربعة أشهر واثنين وعشرين يوماً ، سقطت بعدها حمص في يده ، فدخلها وقتل اعدادا كبيرة من الذين ساعدوا سليمان وأخاه •

ويذكر الطبري ان مروان بقي محاصراً لحمص في هذه المرة الثانية مدة عشرة أشهر ، وأنه نصب عليها اكثر من ثمانين منجنيقاً تطرح الحجارة على الناس في الليل والنهار[1] • وفي هذه الرواية مبالغة ما بعدها مبالغة لانه من غير المعقول ان يقضي مروان عشرة أشهر يحاصر حمص لانه معروف لدينا انه قام في هذه الفترة بأعمال عسكرية أخرى ، ويجوز أن تكون الحملة قد دامت مدة عشرة أشهر ، وذلك منذ ان سار مروان من الفرات حتى وصل الى حمص • أما الحصار نفسه فلا يمكن ان يكون قد دام كل هذه المدة •

وايا كان ، فان مروان بعد ان استسلمت له حمص أمر بهدم اسوارها واسوار بعلبك ودمشق والقدس وغيرها من المدن الشامية ما عدا انطاكية • مما يستدل منه أن الثورة عليه قد اشتعلت في جميع هذه المدن فهدم اسوارها كي لا تعود الى الانتقاض عليه •

وقد انهى مروان عملياته العسكرية في الشام في صيف سنة **١٢٨** • ووجّه انظاره الى العراق الذي كان يضطرب بالفوضى ، والذي كان ينتظر من الخليفة ان يقوم بعمل ما لاقرار الوضع فيه •

كان عامل العراق يومئذ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وقد بعثه الى العراق يزيد الثالث سنة **١٢٦** بعد ان عزل منصور بن جمهور الكلبي[2] •

---

(١) انظر التفاصيل في الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٢٦ •

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٧٨ •

وكانت الحيرة يومئذ مقر الحكومة ومعسكر جند أهل الشام ، والحصن الذي يعتصم به جند الدولة وشرطتها ، ويراقبون منه تحركات أهل الكوفة وأعمالهم والمركز الذي ينطلقون منه لكبح جماح كل ثورة تقوم على الحكم . وقد اراد ابن عمر ان يستميل أهل الكوفة . وأهم مظاهر هذا التفكير انه كان يلبي كل طلب يأتيه من الناس بعزل موظف او تغيير مسؤول . كما انه لجأ الى استعمال الاموال كوسيلة لاستجلاب الناس واسترضائهم . فبذل الأعطيات وأغدق الأرزاق على الناس ، بعد أن كان هذا العطاء وهذه الارزاق قد قطعت عنهم من قبل الخلفاء الامويين السابقين بحجة انهم لم يشتركوا في الجهاد . فنقم أهل الشام على ابن عمر وقالوا : « تقسم على هؤلاء فيئنا وهم عدونا »[1] . فقال عبد الله بن عمر لاهل العراق : «اني أردت أن أرد فيئكم عليكم، وعلمت انكم أحق به ، فنازعني هؤلاء (يقصد الشوام) فانكروا علي ، فخرج أهل الكوفة الى الجبّانة وتجمعوا ، فأرسل اليهم قواد أهل الشام يعتذرون وينكرون ويحلفون انهم لم يقولوا شيئاً مما بلغهم . وثار غوغاء الناس من الفريقين فتناوشوا واصيب منهم رهط لم يعرف وعبد الله بن عمر بالحيرة . »[2] .

وقد أسرف ابن عمر في العطاء ، وفي التقرب من رجالات العراق ، ولكنه كان يعطي اناساً دون آخرين . فارضى بذلك فريقاً واغضب فريقا آخر . وقد دخل عليه بعض ممن لم يصبهم رفده معاتبين ومهددين فاضطر لان يوزع الاموال خفية ، فأرسل (١٠٠) الف الى رجل ليقسمها في قومه ، وارسل (١٠٠) الف الى آخر ، واعطى (٢٠) الفا لغيرهما ، وخصص اعطيات يومية لبعض المتنفذين[3] . وهكذا كانت الاموال تنفق بغير حساب وتوضع في مواضع لا تفيد . ولم تنفع ابن عمر هذه الاموال التي قسمها ، ولا تلك الزيادات في العطاء التي أمر بها ، لأن الشيعة من

---

(١) انظر ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٨٤ .
(٢) المصدر السابق ، نفس الصفحة .
(٣) انظر الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٥ .

أهل الكوفة لما رأوا ضعفه على ما يقول الطبري ، اغتمزوا فيه ، واجترأوا عليه ، وطمعوا فيه ، ودعوا الى عبد الله بن معاوية ، خاصة بعد ان علموا بوفاة يزيد الثالث[1] .

وكان ابن معاوية وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، قد قدم على ابن عمر مع اخوته ، فاكرمهم واحسن وفادتهم ، واجرى عليهم كل يوم ٣٠٠ درهم وقيل ان سبب قدوم ابن معاوية الى الكوفة انه انما جاء زائرا لابن عمر ملتمساً لصلته وانه ما كان ليريد مخالفته [2] .

وفي الكوفة تزوج ابن معاوية فتاة من اسرة كريمة فمال اليه فريق من أهلها ثم التفوا حوله لانه من بني هاشم آل الرسول . فعظم قدره في نظرهم واجتمع حوله الناس ، ووجدوا فيه مرشحاً للخلافة يناوئون به الامويين . ومع مرور الايام اخذ انصاره يكثرون ، والتف حوله الزيدية الذين ثاروا ايام هشام بن عبد الملك ، وأيدوه وكونوا نواة حركته ، ثم اظهروا حركتهم واستولوا على القصر وطردوا منه عامل ابن عمر على الكوفة . وازداد عددهم بمن انضم اليهم من موالي وعبيد اهل الكوفة . وبايعه الكوفيون ، وألف منهم جيشاً خرج على رأسه ليحارب ابن عمر المقيم في الحيرة .

وهناك نص في تاريخ الطبري[3] يظهر لنا الاسلوب الذي اتبعه ابن عمر ، واعتماده على المال لتفريق الناس عن ابن معاوية هذا نصه :

« ... حدثنا خراش بن المغيرة بن عطية مولى لبني ليث عن ابيه قال : كنت كاتب عبد الله بن عمر فوالله اني لعنده يوما وهو بالحيرة ، اذ أتاه آت ، فقال : هذا عبد الله بن معاوية قد اقبل في الخلق ، فاطرق مليا .

---

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٥ .

(٢) قارن الروايات الواردة في ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ ، و ص ٣٠٤ .

(٣) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

وجاءه رئيس خبازيه فقام بين يديه كأنـه يؤذنه بادراك طعامه فاومأ اليـه عبد الله أن هاته • فجاء بالطعام ، وقد شخصت قلوبنا ونحن نتوقع ان يهجم علينا ابن معاوية ونحن معه • قال : فجعلت اتفقده هل أراه تغير في شيء من أمره من مطعم أو مشرب أو منظر أو أمر أو نهي ، فاني والله ما انكرت من هيئته قليلاً ولا كثيراً•وكان طعامه اذ أتى به وضع بين كل اثنين منا صحفة قال : فوضعت بيني وبين فلان صحفة ، وبين فلان وفلان صحفة أخرى ، حتى عدّ من كـان على خوانـه ، فلما فرغ من غـذائه ووضوئه أمر بالمال فاخرج ، حتى اخرجت آنية من ذهب وفضة وكُساً ، ففرق اكثر ذلك في قواده • ثم دعا مولى له او مملوكا كان يتبرك به ويتفاءل باسمـه ، أما يدعى ميمونا أو فتحا ، أو اسما من الاسماء المتبرك بها ، فقال لـه : خـذ لواءك وامض الى تلّ كذا وكذا فاركزه عليه ، وادع اصحابك واقم حتى آتيك • ففعـل وخرج عبـد الله وخرجنا معه ، حتى صار الى التـل ، فاذا الارض بيضاء من اصحاب ابن معاوية • فامر عبد الله مناديا فنادى : من جاء برأس فله خمسمائة ، فوالله ما كان بأسرع من أن اتي برأس ، فوضع بين يديه ، فأمر له بخمسمائة فدفعت الى الذي جاء به • فلما رأى أصحابه وفاءه لصاحب الرأس ، ثاروا بالقوم فوالله ما كان إلا هنيهة حتى نظرت الى نحو من خمسمائة رأس قد القيت بين يديه • وانكشف ابن معاوية ومن معـه منهزمين • » •

بهذه الطريقة انتصر ابن عمر عـلى ابن معاوية وفرّق رجاله عنـه فعادوا الى الكوفة حيث أبدى رجال الزيديـة منهم بعض المقاومة في قصر الامير ، وشوارع المدينة • وأخيراً استسلموا بعد ان أخذوا الامان من ابن عمر لانفسهم ، ولابن معاوية وذلك في شهر محرم من سنة ١٢٧ هـ •(١)

وخرج ابن معاوية من الكوفة وتوجه الى المدائن ، فبايعه أهلها ، ثم اتاه قوم من أهل الكوفة ومن جهات أخرى انضموا اليه وجلّهم من الموالي

(١) الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ •

والعبيد الفرس • فكثر اتباعه فسار بهم الى منطقة الجبال واستولى عليها • واقام أول الامر في اصبهان ، وفي سنة ١٢٨ خرج منها الى اصطخر في اقليم فارس ، فبايعه أهلها وسائر الناس في فارس وكرمان والاهواز • وجاءه رجال مغامرون عملوا تحت لوائه ، واستغلوا اسمه ليبرروا أعمالهم وحركاتهم • كذلك انضم اليه منصور بن جمهور الكلبي ، وسليمان بن هشام ، وآخرون من بني أمية وبني هاشم الذين تجمعهم النقمة على مروان فقط •

وكان هدف هؤلاء من التجمع تحت لواء معاوية ، تشكيل جبهة لا يجمعها الاعداء مروان • وهكذا كان اتباعه خليطاً من مختلف الفرق والقبائل والنزعات ، تجمعهم مصالح خاصة • أما الدعوة الشيعية ، واما الانتصار لآل البيت فقد كان أمراً ثانوياً فقط ، ولا يأتي في مقدمة الاهداف • وبعد ان أن خرج ابن معاوية من العراق واتجه الى اقاليم الشرق ، ظل ابن عمر في الحيرة ، وهو صاحب الامر والسلطان ، والمالك لقوة واسلوب في الحكم سهلا له أمر التغلب على ابن معاوية • وقد دعاه هذا الشعور بالقوة الى الانتقاض على مروان ، وعدم مبايعته ، والاعتراف به • وكان في كل ذلك يعتمد على اليمانية من أهل الشام المقيمين بالكوفة والحيرة ، الذين هم في الاساس من جند الدولة في العراق منذ ايام يوسف بن عمر وقد عظم شأنهم الآن بعد أن أصبحت اوطانهم الشامية تحت سيطرة القيسية ، رجال مروان • ولم يعودوا يستطيعون العودة إليها ، لانها تحت امرة اعدائهم من القيسية • بل نرى ان الذي حدث هو نقيض ذلك ، اذ جاءهم منها اصحابهم الذين غضب عليهم مروان كاخوة خالد القسري وأبنائه ومنصور بن جمهور الكلبي وغيره من رجالات بني كلب[1] •

كان هذا هو الحال في العراق ، فماذا كان موقف مروان من الذي كان يجري هناك ؟•• لقد ترك مروان ابن عمر وشأنه في العراق أول

---

(١) انظر ، فلهاوزن ، ص ٣٧١ ـ ٣٧٢ •

الأمر ، ثم عزم على ان يقاتلهم على يـد رجل نشأ في مدرسة الحجاج هو النضر بن سعيد الحرشي احد رجالات القيسية المشاهير • وقد تمكن النضر من استمالة المضرية اليه بعد ان كانوا مع ابن عمر في جيش اهل الشام • أما اليمانية منهم وخاصة بنو كلب ، فقد ظلوا على ولائهم لابن عمر وكانوا اكثر عددا من المضرية • وكانت الحيرة معقل اليمانية من أهل الشام وابن عمر ، وكانت الكوفة معقل المضرية والنضر بن سعيد الحرشي •

وقد قامت بين الفريقين منازعات متلاحقة ، ومعارك صغيرة ، لم تؤد الى نتيجة نهائية • وظلّ الفريقان على هـذه الحال الى ان ظهر الخوارج كعنصر جديد في الميدان السياسي في العراق •

والمهم أن نلاحظ ان معركة الخوارج في هذه الفترة كانت قوية جداً، وكان رجالهم ، أكثر عدداً من رجالهم في الفترات السابقة في أول عهـد الدولة الاموية في الحكم ، حين كانوا يكتفون بالمناوشات ، والمعارك الصغيرة في حروبهم مـع اعدائهم ، وحين كانوا مطبوعين بطابع التعصب الشديـد لعقيدتهم وآرائهم ، وحين كانوا لا يقبلون في صفوفهم الا من آمن بما كانوا يؤمنون

ومن ناحية أخرى لم تشكل حركة الخوارج في أيامها الاولى تهديدا لكيان الدولة الامويـة • وذلك لأن هدفهم كان يومئذ خـلاص انفسهم ، وتطهيرها من مفاسد الدنيا ، وفي دعوتهم الى العمل وتكفيرهم للقَعَدَة ، شيء من الصوفية المغرقة •

أما الآن فقد تبدل موقفهم بعد أن مضى على دعوتهم نحواً من تسعين عاماً • فقد كـثر عددهم بمن انضم اليهم من مختلف الطبقات ، ولم تعـد حركتهم تقتصر على المؤمنين الصادقـين في ايمانهم ، بل اصبحت حركـة سياسية اكثر منها دينية • وبالتالي غدت مستعدة لان تقبل في صفوفها كـل من يجيء ، صادقاً كـان أم غـير صادق ، مستغلا أم صاحب هوى ورأي خـاص •

فالفارق اذن بين خوارج الامس وخوارج اليوم أن خوارج اليوم لم يجاهدوا في سبيل عقيدة آمنوا بها ، بل في سبيل مصالح دنياهم . وأرادوا ان تكون الدولة لهم . واتبعوا في سبيل ذلك نفس الطرق التي كان يتبعها غيرهم . وكادوا يبلغون اهدافهم ويتغلبون على خصومهم ، ولو أن ذلك تم لهم لما امكننا ان نعدهم في الخوارج .

بدأ الخوارج حركتهم الجديدة في الجزيرة موطن مروان ، وكان دعاتها من ابناء ربيعة المقيمين في شمال الجزيرة ، لا من قيس المقيمين في جنوبها . وكانت قيس ناقمة على مضر لانها أقامت في ديارها ، واخرجتها منها ، ولأن النبوة والخلافة كانت من مضر . ومن ربيعة بنو شيبان ،وكانت ديارهم من ناحية الموصل على جانبي دجلة ، وهم الذين رفعوا من شأن الخوارج ، وصاروا دعاتهم وعماد حركتهم منذ أيام شبيب البطل الخارجي، الذي تغلب عليه الحجاج ، كما هو معلوم سنة ٧٨ هـ .

فلما قتل الوليد الثاني خرج في الجزيرة رجل من الخوارج من بني شيبان ، اسمه سعيد بن بحدل الشيباني . وقد بايعه الناس خليفة ، وبعد ان تخلص من منافس له مخالف في الرأي مضى نحو العراق لما بلغه من تشتت الأمر بها ، واختلاف أهل الشام وقتال بعضهم بعضا كما يذكر خليفة ابن خياط[(١)] .

وهكذا ترك الجزيرة معقل مروان وموطن القيسية . وذهب الى الكوفة وفي طريقه اليها مات من طاعون اصابه ، فتولى الامر بعده الضحاك ابن قيس الشيباني من قبيلة مرّة التي ينتمي اليها شبيب[(٢)] . ثم انضم اليه جماعات أخرى من خوارج أرمينية واذربيجان ، سار بهم جميعا نحو الكوفة . كان بالكوفة يومئذ النضر بن سعيد الحرشي ومعه المضريين ،

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط . القسم الثاني ، ص ٥٦٣ . وهو عند الطبري سعيد بن بهدل الشيباني ، انظر ، ج ٧ ، ص ٣١٦ .

(٢) انظر تفاصيل ثورة الضحاك ، في الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٦ وما بعدها .

وبالحيرة عبد الله بن عمر ومعه اليمانية ، وبين الفريقين يومئذ حزازات يقتتلون من أجلها •

فلما دنا منهم الضحاك اصطلح ابن عمر والحرشي فصار امرهم واحدا • واتفقوا على قتال الضحاك •

وفعلا ، جرت بين جيش مشترك لابن عمر وللحرشي وجيش الضحاك موقعة هزم فيها ابن عمر والحرشي اقبح هزيمة ، حتى اضطر الحرشي الى الخروج من الكوفة واللحاق بمروان • أما ابن عمر فذهب الى واسط وكان قد سبقه اليها رجاله من الكلبية اليمانية •

وفي شعبان ۱۲۷ هـ ، توجه الضحاك الى واسط وحاصر ابن عمر فيها • وقيل غير هذا ، اذ ان هناك روايات تدعي ان النضر لم يذهب مباشرة الى الشام ، وانه ذهب اول الامر الى واسط ، ومن ثم الى الشام • وانه عاد هو وابن عمر الى ماكانا عليه قبل قدوم الضحاك من صراع وقتال من أجل ولاية العراق ، التي أمر مروان ان تكون للنضر ، ولكن عبد الله بن عمر أبى أن يسلمها له •

كان جيش الضحاك كبير العدد ، فشدد الحصار على ابن عمر في واسط حتى خرج اليه منها منصور بن جمهور الكلبي ، وكان من قواد ابن عمر وطلب الأمان ، وبايع الضحاك خليفة ، وأقر أنه كان على ضلال ، وانه خالف الاسلام وكفر • (والخوارج لا يعدون الرجل مسلما الا اذا كان على مذهبهم • فالمسلمون الذين لم يكونوا معهم عدوهم كفارا مشركين) • واخيرا ، فعل ابن عمر ما فعله منصور وانضم الى الخوارج ، وبايع الضحاك بالخلافة ، وقد قال احد الشعراء في بيعته هذه ساخرا :

الم تر ان الله أظهر دينه فصلّت قريش خلف بكر بن وائل[1]

---

(۱) الشاعر هو شُبَيْل بن عَزْرة الضُبَعي ، انظر ، تاريخ خليفة بن خياط ، القسم الثاني ، ص ٥٧١ •

وبهذا .. عبّر الشاعر عن شعوره وشعور الناس واستغرابهم لموقف ابن عمر اذ لا يجوز عندهم ان يتبع رجل من قريش كابن عمر رجلا اعرابياً من بكر بن وائل . وقد قبل ابن عمر ان يكون عاملا من عمّال الخوارج ، اذ أن الضحاك عينه عاملا على كسكر وميسان والاهواز وفارس.

وعاد الضحّاك الى الكوفة ، وما لبث فيها الا قليلا ، حتى غادرها الى الجزيرة ليستعد لملاقاة مروان وجيشه بعد ان فرغ من الشام ، واستولى على الموصل وطرد منها عمال مروان .

وفعلا ، اتاه الناس من كل وجه ، سيّما بعد ان زاد عطاء رجاله ، فبلغ عددهم (١٢٠) الفا ، وأصبح جيشه يضم رجالاً من الكلبية ، كما انضم اليه سليمان بن هشام مع فرقته الذكوانية ، وكان مروان في هذاالوقت ما يزال محاصراً حمص،فلم يرغب في تركها ، وطلب من ابنه عبدالله الذي كان بحران ان يتقدم ويحارب الضحاك ، ويحول دون تقدمه غرباً . فتوجه عبد الله بن مروان الى نصيبين ولكنه حوصر فيها . وفي هذه الأثناء كان مروان قد انتهى من أمر حمص ، فجاء الى الرقة والتقى بجيش الخوارج ، وكانت معركة كبيرة قتل الضحاك فيها ، وقتل من بعده خليفته الخيبري ، وذلك سنة ١٢٨ . وقد انتهى أمر ثورة الخوارج هذه بشكل نهائي في سنة ١٢٩ هـ .

تصفية الاوضاع في العراق والمشرق :

كان يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري من رجال مروان البارزين ، وكان أبوه عاملا على العراق في خلافة يزيد الثالث . وكان مروان قد بعث بابن هبيرة الى العراق سنة ١٢٨ ثم توقف مسيره عند قرقيسيا بسبب عصيان سليمان بن هشام كما ذكرنا .

وفي اواخر سنة ١٢٨ ، تحرك جيش ابن هبيرة فبلغ الكوفة وقاتل

عاملها الخارجي ، وتغلب عليهـا في رمضان سنة ١٢٩ هـ • ثم ذهب الى واسط ، ودخلها واسر عاملها ابن عمر الذي كـان يتولى أمرها من قبـل الضحاك الخارجي • وكان منصور بن جمهور الكلبي يحارب في صفوف الخوارج ، فلما انهزموا فر هو واصحابه الكلبية الى المشرق ، والتحقـوا بابن معاويـة • وتبعه الخوارج الذين هزمهم مروان في ناحيـة الموصل ، واكثر اتباع ابن معاوية في الشرق • وعظم شأنه ، وانضم اليـه جماعات ورجال من الشيعة والخوارج والكلبية وبني العباس ، وبني اميه الذين تجمعهم جميعا النقمة على مروان ، ولا شيء غيرها •

ولكن اجتماع هؤلاء لم يدم طويـلا ، وسرعان ما انفرط عقدهم ، حـين جاءتهم الصدمات من المشرق والمغرب ، وحـين تناهت الى اسماعهم اخبار خراسان • وبعد ان تم أمر مروان ، وقمع الفتن في الشام والعراق ، عاد الى حرّان طلبا للراحة ، وحتى يستطيع تجميع قواه • واعتقـد بأن أقاليم الدولة في الجزيرة والعراق والشام ومصر تدين لـه بالولاء التام • وحتى يثبت اركان حكمه تابع الذين خرجوا ضده من خوارج صنعاء ومكة والمدينة سنة ١٣٠ هـ ، واعمل فيهم يد القتل والابادة •

لقد بقي مروان ثلاث سنوات وهو يحارب اعداءه حتى قهرهم جميعا• وقد اظهر في هذه الحروب بسالة وثباتا عجيبين ، وحقق ما لم يستطعه احد من قبل في ظروف كمثل ظروفه •

أما الفتن التي وقعت في المشرق فقـد ترك أمر اخمـادها الى عاملـه الجديد على العراق ابن هبيرة ، الذي تولى حرب بقيـة الخوارج والقضاء على ابن معاوية وجموعه • وقتـل زعيم الخوارج شيبان بن عبـد العزيز اليشكري ، وانهزم سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور ، وركبا البحر وذهبا الى بلاد السند •

ولمـا انتهى كـل شيء ، وقضى عـلى رجال الفتنة جميعاً في الشـام

والجزيرة والعراق واليمن وحضرموت وغربي ايران ، وظن مروان انه قد انجز عمله لاول ، وهو اخراس الاصوات المعارضة ، ظهر له مالم يكن بالحسبان ٠فقد رفعت آنذاك الرايات السوداء ، وتقدم أبو مسلم الخراساني باسم الدين وباسم آل البيت ظاهرا ، ونيابة عـن طبقـة الموالي المغلوبـة باطنا ، ليدك آخر آمال مروان ، وآخر آمال بني أمية في عرش بدأت اسسه تتزعزع منذ أمد لس بالقصير ٠

ورغم انه ليس في نطاق هذا الكتاب أن ندخـل في تفاصيل أحداث الدعوة العباسية ، والدور الذي لعبته هـذه الدعوة ورجالاتها في اسقـاط الامويين ، إلا انه لا بد أن نشير الى أن صاحب تاريخ الخلفاء قـد أصاب كبد الحقيقة حين قال في وصفه لأيام هـذا الخليفة بأنها كانت « كلها فتناً وحروباً »[1] ٠ فلم تكن فتن الشام والعراق والخوارج وغيرها هي كـل هموم مروان بن محمد ، بـل لعلها أقـل همومه خطورة ، اذا ما قورنت بالخطر العباسي الذي استطاع أن يستقطب كل عوامل الضعف والفساد ، ليفجرها ثورة عارمة دقت المسمار الأخير لا في نعش الخليفـة مروان بن محمد ، بل في نعش البيت الأموي كأسرة حاكمة ٠

لقـد كانت موقعة الزاب (قرب الموصـل) التي جرت في جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ التي هزم فيها مروان الصفحة الأخيرة في سجل حياة هذا الخليفة ، الذي حفل عهده بالاحداث الجسام ، وكانت الخاتمة البائسة لحياته وحياة الأسرة الأموية التي ينتسب اليها ٠

---

(١) تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٤ ب ٠

الفصل الحادي عشر

سقوط الدولة العربية

بعد القضاء على ثورتي المختار وعبد الله بن الزبير بدا الحكم الأموي في أوج القوة والمنعة • فقد استطاع الخليفة عبد الملك بن مروان بعد القضاء على هاتين الفتنتين أن يتربع على عرش دولة يسود الأمن والهدوء مختلف ربوعها ، وأن يسيّر هو ومن أتى بعده من خلفاء ، الجيوش لجهاد الأعداء والقيام بالفتوح • وشاع رفاه مادي بين فئات من السادة والأشراف ، وكان أكثر وضوحاً بين من كان منهم ينتمي الى الأرستقراطية العربية التي كانت تحتل مكان الصدارة في الميادين الاجتماعي والسياسي • ولكن ، وبعد ما لا يزيد على الخمسين عاماً أخذت موجة جديدة من الفتن تطغى على واقع الحياة السياسية للدولة وتنعكس على الحياة اليومية للناس ، وانتهت هذه الموجة الجديدة بسقوط الدولة الأموية وقيام دولة بني العباس التي تعتبر بداية فترة جديدة من فترات تاريخ العرب والاسلام •

ويعتبر البعض ان الانقسامات الداخلية التي حكم الأسرة الأموية بعد خلافة هشام بن عبد الملك هي حجر الأساس في النكبة التي حلت بالبيت الأموي في المشرق • وهذا الزعم فيه شيء كثير من سذاجة أوُ بعد عن الدراسة المعمقة لواقع ما كان يجري داخل الدولة الأموية • وعندنا أن الأمر يتجاوز عجز بعض الحكام أو الخلفاء عن تدبير شؤون الدولة ، أو قيام صراع على السلطة بين أفراد من البيت الحاكم ، أو استفحال أمر العصبية

القبلية ، أو سعي بعض الفئات السياسية المعادية للامويين لاستلاب السلطة منهم ، أو انه كان تنفيسا عن النقمة الاجتماعية والاقتصادية لبعض طبقات المجتمع ، أو غير ذلك من الظواهر التـي تعارف المؤرخون المحـدثون على تعدادها في مجال الحديث عن اسباب سقوط الحكم الأموي، بل هو كل هذه العوامل ، وغيرها مما لم نذكر ، كما أنه النتيجة الحتمية للتيارات الكبرى التي سيرت الأحداث خلال هذه الفترة من جهة ، ولطبيعة المرحلة التي كان يمر بها الحكم العربي الوليد من جهة أخرى • ونحن لو أردنا أن نصنف الأسباب والعوامل التي أدت الى سقوط الدولة العربيـة زمن بني أميـة لما استطعنا أن نجد أولويات نعتمدهـا في هذا التصنيف ، كما أننا لن نـكون قادرين على التركيز على أمروأهمال أمر آخر•فالعوامل متشابكة ومتداخلة، والسقوط كان حتماً مقدراً ، وذلك بسبب المساقات التي سارت فيهاالأحداث والتي لم تكن من صنع فرد أو فئة أو حادث بعينه •

على أن هذا لا يعفينا من الاعتراف بأنه كان في النظـام الأموي نقـاط ضعف كثيرة ، وفي التعرف على نقاط الضعف هذه ما يساعد على ايضـاح المآل الذي آل اليه حكم الأسرة الأموية في المشرق •

وقد جرت عادة المؤرخين القدماء ممن كتبوا عن الدولة الأموية في ظل الحكم العباسي أن يوجهوا تهمة الكفر الى بني اميـة ، وأن ينسبوا اليهـم الاستهتار بالدين وأن يسموا حكامهم « بالملوك » لا « الخلفاء » ، لنفي الصفة الدينية عن فترة حكمهم • وفي هذا ، عندهم ، السبب الكافي لزوال سلطانهم وتقويض أركان حكمهم • ولكن هذا الاتهام لا يقنع المؤرخ المحدث ، ولا يسعه أن يجد فيه المبرر لزوال سلطان هذا البيت ، كما أنه يتنافى مع الحقيقة العلمية التي لا تقبل أن تسلم بأن كل من تقلد الحكم من بني أمية كان كافراً لا يعبؤ بالدين • وعندنا أن التطور السياسـي والاجتماعي للدولة العربيـة الاسلامية بعد عصر الفتوح قد طرح قضايا اجتماعية واقتصادية ودينية لم يكن النظام الأموي قادراً على حلها ، وهو لهذا لا يعتبر مسؤولا عنها ولا

ملوماً بسببها • وهناك فئة من المؤرخين المحدثين على رأسها المستشرق ڤلهاوزن رأت في العوامل القومية والاجتماعية السبب الرئيسي لانهيار البيت الأموي ، كما حاولت أن تبرز أثر الجانب الديني وما قام في زمن حكم هذه الأسرة من حركات دينية تصدى لها الأمويون • وقد تابع ڤلهاوزن في رأيه هذا باحثون عرب وأجانب ، واعتبروا « الثورة العباسية » التي كانت السبب المباشر في سقوط الحكم الأموي حصيلة لتذمر الموالي الذين كانوا يعيشون في ظروف اجتماعية واقتصادية بائسة ، فانضموا الى الحركة العباسية واغنوها بالرجال والأفكار ، واستخدموا اسم آل البيت حتى قيض لهم في النهاية النصر على جلاديهم الامويين • وهكذا فالنصر العباسي في نظر هذه الفئة من المؤرخين كان حصيلة الجهد الذي قام به الموالي الذين استغلوا اسم آل البيت وحركات التشيع أولاً ، ثم التنظيم العباسي ثانياً ليقيموا حكماً يكون العباسيون واجهته السياسية فقط ، ويكونون هم الأداة المحركة له •

وعندنا ان هذا النحو من التفسير أمر غير مقبول وينقصه شيء كثير من عمومية النظرة التي تسمح بوضع كافة العوامل في مكانها الصحيح من الصورة التي نحاول رسمها لأسباب سقوط الحكم الأموي •

ولا بد من البدء بالاعتراف بأنه لا يمكن لباحث في هذا الموضوع أن ينكر أثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في سقوط الحكم الأموي ، ولكن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب ، بل كانت حال الكثيرين غيرهم من العرب أيضاً • وإذا ما استبعدنا بعض الفئات من الارستقراطية العربية القديمة أو التي نشأت زمن الحكم الأموي، وفئة الدهاقين من رجالات الاقطاع الفارسي التي استمر نفوذها في ظل البيت الحاكم ، لوجدنا أن النقمة الاقتصادية والاجتماعية كانت شائعة عند الكثيرين من رعايا الدولة عرباً كانوا أم غير عرب • ونحن مع الدكتور فاروق عمر في قوله : « إن المتذمرين من العرب المستقرين التابعين لقبائل متباينة ، الذين حرموا من العطاء والذين نظروا بعين الحسد إلى اخوانهم المقاتلة من

اصحاب الامتيازات ، كان هؤلاء العرب المستقرين يأملون تغيراً في الطبقة الحاكمة . إن هذا يفسر حقيقة كسب الدعوة العباسية لا لليمانية وحلفائهم الربعية فحسب،بل وحتى المضرية الذين كانوا يشعرون بخيبة أمل. »[1]. وهكذا فان النقمة الاقتصادية والاجتماعية لم تكن انعكاساً لنقمة قومية كان أبطالها الموالي أي اتباع الدولة غير العرب . وليس من شك في أنه لم تتهيأ أسباب قومية للثورة ، إذ اننا إذا اسقطنا بعض التحركات الهامشية التي قامت في بعض مناطق آسيا الوسطى وبلاد البربر « فاننا لانجد إبان الحكم الأموي ثورة اتصفت بأعداء للعرب والاسلام » [2] ، وانه احق أن نقول أن مثل هذه الثورات قد حدثت زمن العباسيين لا الأمويين ، وان الاضطهاد الاجتماعي الذي حدث خلال حكم الأسرة الأموية وما ادى إليه من خروج العناصر المضطهدة على هذا الحكم لم يكن خروجاً على الاسلام ، بل انه تم على العكس باسم المبادىء الاسلامية . وقد ذهب المستشرق دانيل دينيت في بحثه عن « مروان بن محمد » إلى حد القول : « إن نقطة الجدل في اطروحتنا هذه هي أن سقوط الامويين **لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل نتيجة ثورة في سورية** . » [3] .

ويمكننا أن نقول بثقة أن المصادر التي بين أيدينا لاتظهر لنا أن الجماهير الايرانية التي اظهرت حماساً لأبي مسلم الخرساني بعد نجاح الثورة العباسية ، كانت تملك مثل هذا الحماس قبل نجاح ثورته ، أو انها شكلت ، ما يمكن تسميته بحركة جماهيرية ايرانية ضد الحكم العربي .

ويستدعي كل ذلك منا وقفة نحاول من خلالها أن نتعرف على وجهات

---

(١) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٨٣ .

(٢) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، المجلد الأول ، ترجمة بدر الدين القاسم ط . بيروت ١٩٧٢ ، ص ٦١ .

(٣) انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٨٣ .

النظر المختلفة التي حاولت أن تحلل الأسباب التي ادت إلى سقوط الحكم الأموي ونجاح الدعوة العباسية[1] .

إن التفسير التقليدي الذي يعتبر الثورة العباسية ثورة عنصرية إيرانية ضد السيادة العربية ، ويرى أن ما كان يعانيه الموالي من جور في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية هو الذي دفعهم إلى الانضمام إلى هذه الثورة وتبنيها ، تفسير لايمكن فصله عن المرحلة التاريخية التي ظهر فيها . فقد نادى بهذا الرأي مستشرقون من امثال فان فلوتن وفلهاوزن وغيرهما ممن عاشوا في أوربة في أواخر القرن التاسع عشر حيث كانت تنتشر الأفكار القومية ، وحيث كان التفسير القومي للتاريخ هو التفسير الرائج والمقبول . وعلى أساس من هذا الموقف الفكري حاول هؤلاء المؤرخون في تحليلهم لأسباب سقوط الحكم الأموي أن يلحوا على قضية التناقض القومي بين القومية العربية كعنصر حاكم واتباع القوميات الأخرى كعنصر محكوم . كما حاولوا من أجل إثبات هذه الفكرة أن ينتقوا من النصوص ما يؤيد فكرتهم هذه وأن يغفلوا النصوص التي تشرح الأمر من زاوية أخرى . حتى أن فان فلوتن يصل إلى حد القول بأن السبب الرئيسي لنجاح الثورة العباسية هو الأخطاء التي وقع بها الحكام الأمويون الذين فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصادية على الشعوب المحكومة التي دخلت في ظل دولة الاسلام . وفي رأيه أن هذا التمييز في المعاملة أدى إلى انبعاث الروح القومية الايرانية التي كانت السلاح الذي استعمله الشعب الايراني المضطهد للتخلص من الظلم الذي وقع فيه[2] . ويستطيع الدارس لكتاب « السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية » الذي

---

(١) استفدنا فيما كتبناه في هذه الفقرة ، من بعض ما جاء في الفصل الثاني من كتاب ، الدكتور فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) انظر ما جاء عند فان فلوتن حول هذا الموضوع في كتابه ، السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ، الترجمة العربية ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ .

ألفه هذا المستشرق أن يلخص الأفكار الواردة فيه والمتعلقة بالعوامل التي جعلت أهل خراسان يؤيدون الدعوة العباسية ويمحضوها الثقة والدعم بما يلي :

١ ـ الظلم الاجتماعي والاقتصادي الفادح الذي اوقعه الحكام العرب بالفرس المحكومين وما أدى إليه هذا الظلم من كره تأصل في نفوس الفرس ضد العرب وادى بالتالي إلى استيقاظ الروح القومية الفارسية •

٢ ـ التفاف الخراسانيين نتيجة هذا الظلم حول حركة التشيع والحركات التي قام بها آل البيت ضد الحكم الأموي •

٣ ـ انتشار فكرة المهدي (المنقذ) المنتظر لينشر العدل ويؤمن الاستقرار في مجتمع كانت السمة الغالبة عليه هي القلق •

وقد سار ڤلهاوزن في كتابه « تاريخ الدولة العربية » في نفس الدرب التي سار فيها فان فلوتن من قبل ، ولكنه انتبه إلى الدور الذي لعبته القبائل العربية التي كانت تقطن خراسان وفسر نقمتها وتحركاتها على أساس من العصبيةلى القبلية فقط ، دون النظر إلى الدوافع الأخرى التي كانت تدفعها إلى العمل مع الدولة أو ضدها • والواقع أن الذي فات ڤلهاوزن هو عدم ادراكه للتطور الذي دخل على العلاقات القبلية في خراسان ، ورغم أنه أكد أهمية الدور الذي لعبته قبائل عرب المشرق في الثورة العباسية ، فانه رأى في المنازعات والعصبيات القبلية التي قامت في خراسان المحرك للفعاليات التي قام بها زعماء هذه القبائل • ومرت فترة غير قصيرة في التأليف التاريخي الحديث ، كان فيها المؤلفون ينهجون نهج هذين المستشرقين في تفسيرهما لسقوط الدولة الأموية ونجاح الثورة العباسية • على أن الباحث الحديث لايسعه أن يقبل التفسير القومي هذا فحسب ، لأن في المصادر إشارات ونصوص صريحة تتعلق بالدور الذي لعبه العرب اليمانية مثلاً في الثورة العباسية لم تستخدم من قبل الباحثين السابقين • كما أن ظاهرة عدمانتقاض

المدن الخراسانية كلها على الامويين ، أو استغلالها فرصة الثورة على البيت الحاكم لتعلن هي أيضاً الثورة عليه ، لم توضع موضعها الصحيح في دراسة النظرية التقليدية التي تعتمد الفكرة القومية كأساس في تحريك الجماهير الخراسانية ضد الحكم الأموي • وواضح أن هذه الظاهرة تتناقض مع النظرية القومية التي كانت التفسير المعتمد في السابق • وقد ظهرت إشارات إلى هذه الأمور في كتابات المستشرق هاميلتون جب gibb والمستشرق برنارد لويس الذي كتب مادة « Abbasids » في الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية •على أن هذه الاشارات لم تتبلور لتصبح نظرية متكاملة، بل اتسمت بطابع التساؤل والتنبيه ، دون أن تأخذ شكل نظرية متكاملة • وكان المستشرق دانيل دينيت الذي كتب سنة ١٩٣٩ اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه عن الخليفة مروان بن محمد أول من أظهر الشك في التفسير التقليدي بشكل واضح وقالها صريحة أن الوقت قد حان لاعادة النظر في آراء فان فلوتن وفلهاوزن في عوامل نجاح الثورة العباسية التي هي في الوقت نفسه عوامل سقوط الحكم الأموي[١] •

ينطلق دينيت في نظريته هذه من أنه من غير الممكن دراسة فترة حكم مروان بن محمد دون الرجوع إلى الظروف التي سبقت عصره وذلك لأن فشله أمام العباسيين لم يكن بسبب نقص كفاءاته السياسية أو العسكرية أو الادارية ، فهو من احسن الحكام الأمويين كفاءة ، لذا فقد كان ضحية الظروف التي واكبت حكمه أو كانت موجودة وفاعلة قبل تسلمه منصب الخلافة • ويعزو سقوط الحكم الأموي لا إلى الأسباب التقليدية وهي عدم شرعية الحكم الأموي ، وعسف الحكام الأمويين وإساءتهم معاملة أهل التقوى والورع وغير ذلك مما يذكر في العادة ، بل إلى أسباب أخرى من بينها :

---

(١) لم يتح لي أن اطلع مباشرة على اطروحة دينيت عن « مروان بن محمد » لأنها لم تنشر على ما اعرف • وقد اعتمدت في سردي للآراء التي وردت في هذه الاطروحة على ما نقله عنها الدكتور فاروق عمر في كتابه ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٠ وما بعدها •

١ ـ ان مروان بن محمد ، باعتباره ابن أمة كردية من جهة،وباعتبار أنه لم تكن له بيعة في الأعناق من قبل ، ولم يوص له الخليفة السابق بالخلافة فانه كان في نظر الكثيرين خليفة غير شرعي اغتصب الخلافة اغتصاباً بنتيجة الاضطرابات التي اعقبت مقتل الوليد الثاني • وقد أدى كل ذلك إلى رفض أهل الشام الاعتراف بخلافته أول الأمر • ثم إلى ثورة أمراء البيت الأموي ضده مما أدى إلى تصدع الصف الأموي ، وفقدان العنصر الأساسي الذي كان يرفد البيت الأموي بالدعم وهو ولاء أهل الشام لهم •

٢ ـ فشل البيت الأموي في المهمة الرئيسية التي كان عليه أن يوليها اعظم الاهتمام ، ألا وهي إقامة حكومة مركزية قوية • ويرى دينيت في عدم سكنى الخلفاء الأمويين في دمشق بصورة دائمة خطيئة كبيرة أدت إلى أن غدا كل اقليم يعيش شبه استقلال إداري ، يرأسه أميره وتسير شؤونه الدواوين الموجودة فيه • وكان من نتائج فقدان المركزية في الحكم انه لم يعد هناك نظام إداري مسؤول أمام السلطة المركزية في العاصمة • ويضيف إلى ذلك ناحية هامة وهي فقدان الجيش النظامي الدائم الذي تعتمده الدولة حينما تدعو الحاجة،فقد كانت الخدمة العسكرية واجب جميع المسلمين حين تدعو الحاجة ، أما متى انتهت الحرب ، فيعود الناس إلى بلادهم وأهليهم ليعيشوا حياة عادية • وفي هذا ما فيه من أخطار ومساوىء تتناول أمن الدولة وتجعلها غير مزودة بالقوة العسكرية الضرورية لحمايتها حين تقوم الحاجة• كما أن تنظيمات الشرطة والأمن لم تكن على درجة من الكفاءة والمقدرة تستطيع معها مكافحة الشائعات وكشف التنظيمات السرية التي تعمل لتقويض الحكم •

٣ ـ ويأخذ دينيت في تبريره لسقوط الدولة الأموية برأي ابن خلدون في « الأعراب » وعدم معرفتهم بأساليب الحكم أو مقدرتهم عليه من جهة ، وبفطرتهم في عدم الخضوع إلى سلطة أو رئاسة خارجة عنهم من جهة

أخرى ، ويعمم هذا الرأي على « العرب » ويقول إن العرب كأمة أمة صعبة المراس لاتقبل الانقياد لحاكم •

وينهي دينيت فكرته حول سقوط الدولة الأموية بقوله إن سقوط الأمويين لم يكن مظهراً من مظاهر ثورة الفرس على العرب بل تأكيداً « للروح العربية المحبة للاستقلال النافرة من أي نوع من أنواع الضبط والنظام » • ويعلل ما حدث في نهاية الفترة الأموية ونجاح الثورة العباسية بأنه كان كله نتيجة مباشرة لمقتل الوليد الثاني • وواضح أن آراء دينيت ولا سيما ماورد منها الفقرة الثالثة لا يمكن أن تقبل كما جاءت ، وفيها شيء كثير من تصور شخصي لايعتمد على حقائق علمية ثابتة • كما أن فيها شيئاً كثيراً من النظريات العرقية التي تصنف الشعوب إلى فئات وعقليات ، وتعطيها مواصفات فكرية ، الأمر الذي تجاوزته الآراء المقبولة في عصرنا الحاضر • ويظل تأكيده على النواحي السياسية والادارية أمراً له أهميته ، وإن كانت قد فاتته نواحي أساسية أخرى كالناحية الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات القبلية وغيرها •

وقد تابع باحثون آخرون النظر في عوامل انهيار الدولة الأموية ونجاح الثورة العباسية ، وتوصل بعضهم[1] إلى القول بأن من بين هذه العوامل أن السند الرئيسي لأبي مسلم الخرساني جاء من العرب الذين كانوا يقطنون مرو وضواحيها « الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » • ولا ينكر هؤلاء وجود الموالي ضمن انصار أبي مسلم والدور الذي لعبوه في إنجاح حركته • ويتضح من هذا ومن الأدلة التي يستخدمها القائلون بهذه النظريةأن العرب لم يكونوا جميعاً من طبقةالحكام أو المستفيدين من

---

(١) كالدكتور عبد الحي شعبان في اطروحته « الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية في خراسان » التي قدمت الى جامعة هارفرد سنة ١٩٦٠ • وانظر ، أيضاً ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٦ •

خيرات الدولة ومناصبها الكبيرة ، كما حاول فان فلوتن وغيره أن يظهر . بل انه كانت منهم فئات تعيش الأزمات التي يعيشها سكان البلاد المفتوحة ويخضعون لنظام الضرائب القاسي وجور الدهاقين الذين كانوا مكلفين بجمع الضرائب في المقاطعات الشرقية . وقد انضمت هذه الفئة من العرب المستقرين والذين كانوا لا يتمتعون بأي امتيازات إلى صفوف الثائرين على الدولة الأموية وأيدوا الثورة العباسية ووقفوا ضد الفئة العربية الأخرى التي كانت تتمتع بالامتيازات وتتقاسمها مع فئة الدهاقين ممثلي الارستقراطية الايرانية القديمة ، أو من نبه ذكره منهم في ظل الحكم الأموي . ويؤكد كاتب مادة « أبو مسلم » في الطبعة الجديدة من الموسوعة الاسلامية هذا الرأي ويذهب إلى القول بأن أبا مسلم لقي تأييداً شديداً من القبائل اليمانية، كما ينفي أن تكون الدعوة العباسية حصيلة مبادىء « الغلو » التي قام بها بعض المتطرفين . وتوضح دراسات أخرى أن جزءاً كبيراً من الجهد الدعائي الذي قام به الدعاة العباسيون ضد البيت الحاكم كان موجهاً بصورة خاصة « للعرب المقاتلة منهم والمستقرين على السواء . فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية . لقد ادرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول إلى السلطة يجب أولاً كسبهم إلى الدعوة العباسية »[1] .

وطبيعي ألا تلقى هذه الدعوة صدى في نفوس عرب خراسان ، إلا إذا كانت تخاطب أشياء يتحسسونها ويشكون منها . فالى جانب الظروف الخاصة التي كان يعيش في ظلها عرب خراسان من حيث علاقات القبائل بعضها ببعض وعلاقاتهم بالسكان المحليين ، والظروف الاقتصادية السيئة التي كانوا يعيشون في ظلها ، وإهمال سلطات دمشق لشؤونهم التي هيأت كلها المناخ المناسب لتعاظم تذمرهم من السلطة الأموية ، فان العرب المقاتلة أيضاً

(١) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨ .

كان لهم ما يدعوهم إلى التذمر والشكوى • ولعل أهم هـذه الأسواء التي كان يشكو منها العرب المقاتلة هي : تجميد المقاتلـة في الثغور وفي خطوط القتال وعدم السماح لهم في العودة إلى مرو والقرى التابعة لها للعيش مـع أسرهم وقضاء فصل الشتاء بينهم • كما أن بعض الحكام الأمويين كـانوا لا يعطونهم ما يحق لهم من الفيء والغنائم ، ويستلبون منهم بعض النفائس ويحتفظون بها لأنفسهم أو يرسلونها إلى الخليفة ، الأمر الذي كان كثيراً ما يؤدي الى ثورة القـواد وشيوخ القبائـل وافرادها شعوراً منهـم بالغبن المادي الذي كان يلحق بهم • واذا أضفنا الى كل ذلك المنازعات القبلية ، ولا سيما ما كان منها بين شيوخ القبائـل بسبب طموحهـم في الوصول إلى ولايـة خراسان وما كان يؤدي إليه مـن مصادمات مستمرة بين اليمانيـة والمضرية ، لوجدنا أن هذه الأمور بمجموعها قد جعلت هؤلاء العرب يرون في الدعوة العبـاسيـة أملاً في حيـاة أفضـل أو على الأقل أكثر استقراراً ورفاهية •وقد زاد هذه الأمور كلها سوءاً وأضاف في الشعور بفقـد الأمل في الحكم الأموي الحال المتردية التي آلت إليها الأمور في دمشق والصراع الدموي الـذي كان يجري بين أفراد الأسرة الحاكمة منذ زمـن الوليـد الثاني ، فادى كل ذلك إلى إفساح المجال لاستعمال فعالية القوى الثوريـة المضادة التي أحسنت استغـلال هـذه الظروف وانطلق دعاتها ورجالاتهـا يزرعون الحقد والكراهية ضد الأمويين فلاقت دعوتهم صدى واستجابـة سريعـة في النفـوس ، وتضـافـرت هـذه الجهـود العبـاسيـة ، مـع ما كان موجوداً من عوامل النقمة الأخرى لتخط الصفحة الأخيرة في حياة الأسرة الأموية كأسرة حاكمة في المشرق العربي •

واذا انتقلنا من قضية الدور الفعال الذي لعبه عرب المشرق في الثورة التي قضت على الحكم الأموي،وهي قضية لم تعط في السابق حقها من الدراسة والبحث ، وانتقلنا لتفصيل أوفى في قضية أسباب التذمر الاجتماعي ، لوجب علينا أن نبدأ بالقول بأن هذه الأسباب لم تكن متشابهة قطعاً في جميع الأقاليم •

فهناك أولاً قضية العصبية الاقليمية بين الشام والعراق التي بـدأت بسبب انتقال مركز الثقل السياسي في ظل الأمويين من العراق إلى الشام وبالتالي انتقال الخيرات والمزايا المختلفة إلى الشام وحرمـان أهـل العراق منهـا • وباعتبار أن أهل الشام كانوا العصب الرئيسي الذي اعتمـده البيت الحاكـم سنداً لحكمه ، فقد كان طبيعياً أن تثور نقمة أهل العراق وأن تشمل النقمة العرب وسواهم من رعايا الدولة هناك من غير العرب • وفي داخل العراق يجدر بنا أن نـذكر أن الصف العربي لم يكن موحداً ، فقـد كان هناك خلافات القبائل والصراعات العصبية من جهة ، كما كانت هناك الصراعات السياسية والمذهبية بين خوارج وشيعة وزبيرية وغير ذلك ، من جهة ثانية • وزاد الأمور سوءاً أنه في الفترة المتأخرة لم تعد الفتوح المورد المالي الـذي تعتمده القبائل في كسب عيشها ، بل حلت الغزوات الصغيرة محل الفتوح، ولم تعد هذه الغزوات تجلب لهم سوى غنائم محدودة ، الأمر الذي أدى إلى وقوع عبء أعطيات الجند على الدولة • ومن أجل ذلك اضطرت الدولـة أن تزيد في قسوتها في جباية الضرائب فزاد تذمر الناس الذين كان عليهم أن يتحملوا هذا الغرم المادي •

ولا نستطيع أن نفسر ما كان يجري في العراق على أساس أنه كان صراعاً قومياً بين حاكمين عرب ومحكومين غير عرب ، كما ألمحنا آنفاً ، بل كانت هناك مشاكل اجتماعية سببها تذمر الفلاحـين من كبار الملاك الـذين جاروا واستبدوا • وكانت النقمة عارمة بين الموالي بحكم وضعهم الاجتماعي والاقتصادي البائس•وتلخصت وجهة نظرهم بأنهم رغم العبء الخطير الذي يقومون به في اقتصاد المجتمع ، هذا العبء الذي يؤهلهم لأن يكونوا أصحاب الحق الأول في قطف ثمار الرفاه الاقتصادي ، فقـد ظلوا في أدنى المراتب اجتماعياً واقتصادياً•هذا فضلاً عن أن أسيادهم العرب لم يكتفوا باستغلالهم اقتصادياً ، بل كانوا يعتمدونهم أيضاً في خصوماتهم العصبية ، ويجعلونهم وقود هذه الخصومات • ودعت هذه الحال الموالي إلى العودة إلى مبادىء

الاسلام الذي كان موجهاً إلى الناس كافة لا إلى العرب وحدهم والذي لم يفرق بين سادة عرب ومسودين غير عرب ، والذي جعل الأخوة في الدين أساساً للمجتمع الذي دعا إلى إقامته . ورأوا في آل البيت أصحاب الحق الشرعي في حكم المجتمع الاسلامي بكافة قطاعاته ، واتخذت فكرة الثأر ممن اغتصبوا هذا الحق من آل البيت تلقى قبولاً ودعماً منهم ، سيما وأن الأسرة الأموية الحاكمة كانت ملطخة الأيدي بدماء أفراد هذا البيت . ويوصلنا كل ذلك إلى تأييد ما جئنا به سابقاً من أن الثورة على الأمويين والتي اعتمدت الموالي عنصراً أساسياً من عناصرها ، لم تكن ثورة قومية ، لأن دعوة الموالي لآل البيت كانت ستؤدي من ناحية عملية لأن يتسلم الحكم رجل عربي الأصل ، كالأمويين الذين ثاروا عليهم . ولا نستطيع في هذا التحليل لأسباب انهيار الحكم الأموي أن نفرق بين العنصرين السياسي والديني كمقومين من المقومات التي اعتمدتها الحركات المنظمة التي رفعت راية العصيان ضد البيت الحاكم . ونقصد بهذه الحركات حركة الخوارج والشيعة ، هذا فضلاً عن الحركة العباسية التي سبق الحديث عن بعض جوانبها . ورغم أننا لا نستطيع الوثوق تمام الثقة بالمصادر التي بين أيدينا والتي تبحث في أخبار الفترة الأموية لأن مؤلفيها عاشوا في عصر متأخر وكتبوا في ظل ظروف سياسية وعقائدية وشخصية معادية للأمويين فانه من المؤكد أنه كان هناك تلازماً بين القضية الدينية والقضية السياسية عند هذه الفئات . ومعلوم أن منطلق النقاش بالنسبة لكل من الخوارج والشيعة كان يدور حول المؤهلات التي ينبغي أن يتحلى بها الرجل الذي ستوسد إليه رئاسة الجماعة الاسلامية . فالمنصب سياسي ، والمؤهلات دينية ، وفي هذا ما يوضح قضية التلازم التي نشير إليها .

فبالنسبة للفئة الأولى وهي فئة الخوارج ، فان الخلافة يجب أن تعقد لأفضل المسلمين ديناً بقطع النظر عن أصله أو شرف محتده . وقد أدى اعتقادهم هذا الى استقطابهم لعناصر غير عربية (كالبربر في شمال إفريقية الذين اعتنقوا مذهب الخوارج بكثرة) . ولكن غلبة العنصر البدوي في

صفوفهم نفّرت منهم معظم الناس من غير البدو باستثناء البربر • وقد اتسمت حركاتهم بالشدة والعنف والتفاني في سبيل العقيدة الى حد الموت ، وظلوا خلال فترة الحكم الأموي شوكة في جنب هذا الحكم تؤرق مضجعه •

أما الذين كانوا يرون الحق في الخلافة محصوراً بآل البيت ، فكانوا يعتقدون أن مناقب الخلافة لا يملكها إلا أفراد هذا البيت الذين ميزهم الله عن سواهم • ونحن ، وإن كنا لسنا في موضع دراسة حركة التشيع في هذا الفصل من كتابنا ، فانا لا بد ذاكرون أن هذه الحركة هي مظهر من مظاهر الصراع على السلطة بدأ منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان واستمر حتى نجاح الثورة العباسية ، وكانت له ذيوله اثناء حكم بني العباس • وقد استطاع المؤمنون بهذا الرأي أن يقيموا فيما بعد خلافة أتيح لها أن تحكم شطراً كبيراً من العالم الاسلامي وهي الخلافة الفاطمية • وقد تزايدت مع الزمن أهمية هذا الحزب واستطاع أن يستقطب ولاء الكثيرين من العرب وغيرهم وأن يكون مصدر قلق دائم للسلطة ، وأن تكون حركاته وثوراته التي أشرنا الى العديد منها أثناء بحثنا ، من أهم عوامل انهيار الحكم الأموي • ويعزو الكثيرون نجاح الثورة العباسية الى جهود الحزب الشيعي الذي وفر للثورة العباسية المبادىء الفكرية والقوة المسلحة ، وجاء العباسيون في اللحظة الأخيرة فاقتنصوا كل ذلك وانقلبوا على الشيعة واستولوا على السلطة لصالحهم • والحق أن هذا الامر يحتاج الى نقاش أطول وأعمق ، لا يدخل ضمن نطاق بحثنا هنا(١) •

وبعد فان سقوط الدولة الأموية لم يكن حصيلة سبب واحد أو بفعل فئة بعينها ، بل كان مخاضاً طويلاً لعبت فيه كل الأمور التي تعرضنا لها بالبحث في فصلنا هذا دوراً هاماً ، وقد انتهى هذا المخاض بتداعي هذه الدولة وقيام دولة بني العباس ، التي قدر لها أن تتسلم مقاليد الأمور في الامبراطورية العربية الاسلامية •

---

(١) انظر النقاش الذي يجريه كلود كاهن ، في كتابه ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، المجلد الأول ، ص ٧١ وما بعدها

ثبت المصادر

١ ـ المصادر العربية

١ ـ **القرآن الكريم**

٢ ـ **ابن الأثير** الكامل في التاريخ
ط ٠ دار صادر ، بيروت

٣ ـ **الاصبهاني (ابو الفرج)** كتاب الأغاني ط ٠ بولاق ، و ، ط ٠ دار الكتب المصرية ، والجزء ١٧ ، تحقيق علي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٧٠

مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ٠ القاهرة ١٩٤٩

٤ ـ **البخاري** صحيح البخاري

٥ ـ **بدر (أحمد)** دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها، ج ١ ، ط ٠ دمشق ١٩٦٩

٦ ـ **برونوف** الأغاني ، ج ٢١

٧ ـ **البغدادي** خزانة الأدب
ط ٠ بولاق

٨ ـ **البلاذري** انساب الأشراف ، ج ٥ طبعة غويتاين والجزء المطبوع باشراف ألوارت

فتوح البلدان ،
ط ٠ دار النشر للجامعيين ،
بيروت ١٩٥٧

٩ ـ **تريتون** — الخلفاء ورعاياهم من غير المسلمين (الأصل الانكليزي ، أو الترجمة العربية)

١٠ ـ **ابن الجوزي** — سيرة عمر بن عبد العزيز
ط · مصر ١٣٣١ هـ

١١ ـ **حتي (فيليب)** — تاريخ العرب (مطول)
ط · بيروت ١٩٥٠

١٢ ـ **حسان بن ثابت** — ديـوان
ط · تونس ، و ، ط · ليدن

١٣ ـ **الخربوطلي (علي حسني)** — تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي
ط · دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩

١٤ ـ **ابن خلكان** — وفيات الأعيان
ط · مكتبة النهضة ، ١٩٤٨

١٥ ـ **خليفة بن خياط** — تاريخ خليفة بن خياط
تحقيق سهيل زكار ،
ط · دمشق

١٦ ـ **الدوري (عبد العزيز)** — مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي
ط · بيروت ١٩٦٩

بحث نشأة علم التاريخ عند العرب
ط · بيروت ، ١٩٦٠

١٧ ـ **دوزي** — تاريخ مسلمي اسبانيا
ج ١ ، ترجمة حسن حبشي ،
ط · دار المعارف

١٨ ـ **دينيت (دانيل)** — الجزية والاسلام ،
ترجمة الدكتور فوزي فهيم جاد الله ،
ط · بيروت ، ١٩٦٠

١٩ ـ **الدينوري**
الأخبار الطوال ،
ط · عبد المنعم عامر ،
القاهرة ١٩٦٠

٢٠ ـ **رستم (أسد)**
العرب والروم ،
جـزءان

٢١ ـ **الريحاوي (عبد القادر)**
مدينة دمشق
ط · دمشق ١٩٦٩

٢٢ ـ **ابن سعد**
الطبقات الكبرى
ط · دار صادر ودار بيروت ١٩٥٧

٢٣ ـ **السمهودي**
الخلاصة
ط · مكة

٢٤ ـ **الطبري**
تاريخ الرسل والملوك
ط · ابو الفضل ابراهيم

تفسير الطبري

٢٥ ـ **ابن الطقطقي**
الفخري في الآداب السلطانية
ط · مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح
وأولاده ، القاهرة

٢٦ ـ **عاقل (نبيه)**
الامبراطورية البيزنطية
ط · دمشق ١٩٧٠

تاريخ العـرب القديم وعصر الرسول
ط · دمشق ١٩٦٩

٢٧ ـ **ابن عبد الحكم**
فتوح مصر والمغرب والاندلس، تحقيق
توري ، ط · نيوهافن ، ١٩٢٠

٢٨ ـ **ابن عبد الحكم**
سيرة عمر بن عبد العزيز
تحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الثالثة ،
دمشق ١٩٦٤

٢٩ ـ **عبد الحق (سليم عادل)**
ومطلا (خالد)
مشاهد دمشق الأثرية
ط · دمشق ١٩٥٠

٣٠ ـ **ابن عبد ربه** العقد الفريد

٣١ ـ **ابن عذاري المراكشي** البيان المغرب في أخبار المغرب
ط · ليدن

٣٢ ـ **العدوي (ابراهيم احمد)** الأمويون والبيزنطيون
الطبعة الثانية ، الدار القومية للطباعة والنشر

٣٣ ـ **ابن العربي** العواصم من القواصم
ط · المطبعة السلفية ، ١٣٧١ هـ ،

٣٤ ـ **العريني (السيد الباز)** الدولة البيزنطية
ط · القاهرة ١٩٦٥

٣٥ ـ **ابن عساكر** تاريخ دمشق
ط · عبد القادر بدران ، دمشق ١٣٢٩ هـ ، والأجزاء المحققة من قبل صلاح الدين المنجد ، ومحمد احمد دهمان

٣٦ ـ **عمر (فاروق)** طبيعة الدعوة العباسية
الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٧٠

٣٧ ـ **عنان (عبد الله)** دولة الاسلام في الأندلس، العصر الأول،
الطبعة الأولى ، ١٩٤٣ ·

٣٨ ـ **فازيلييف** العرب والروم
ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة

٣٩ ـ **فان فلوتن** السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات في عهد بني أمية ·
ترجمة حسن ابراهيم حسن، و ، محمد زكي ابراهيم ·
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٣٤

٤٠ ـ **فلهاوزن (يوليوس)** تاريخ الدولة العربية
ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة ،
سلسلة الألف كتاب

٤١ ـ **فيصل (شكري)** حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول
ط ٠ دار العلم للملايين ، بيروت

٤٢ ـ **ابن قتيبة** الامامة والسياسة
ط ٠ القاهرة ١٣٢٥ هـ

٤٣ ـ **القلقشندي** مآثر الانافة في معالم الخلافة
تحقيق عبد الستار احمد فراج ،
ط ٠ الكويت ١٩٦٤

٤٤ ـ **القمي** كتاب المقالات والفرق
ط ٠ طهران ١٩٦٣

٤٥ ـ **كاهن (كلود)** تاريخ العرب والشعوب الاسلامية
المجلد الأول ، ترجمة بدر الدين
القاسم ، ط ٠ بيروت ١٩٧٢

٤٦ ـ **لوسترانج** بلاد الخلافة الشرقية

٤٧ ـ **ماجد (عبد المنعم)** التاريخ السياسي للدولة العربية .
عصر الخلفاء الأمويين ٠
الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦

٤٨ ـ **مارسيه (جورج)** الفن الاسلامي
ترجمة عفيف بهنسي ، ط ٠ وزارة
الثقافةوالارشاد القومي، دمشق١٩٦٨

٤٩ ـ **الماوردي** الاحكام السلطانية
ط ٠ البابي الحلبي ، القاهرة ١٩٦٠

٥٠ ـ **المرزوقي** شرح الحماسة

٥١ ـ **المسعودي**
مروج الذهب
ط . محي الدين عبد الحميد ،القاهرة
١٩٤٨

٥٢ **المقـري**
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب
ط . محي الدين عبد الحميد،القاهرة
١٩٤٩

٥٣ ـ **المقريزي**
النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية
وبني هاشم .
ط . ليدن ١٨٨٨

٥٤ ـ **ابن منظور**
لسان العرب

٥٥ ـ **مؤلف مجهول**
تاريخ الخلفاء
نشر النسخة المصورة وكتب المقدمـة
بطرس غرياز نيريج موسكو ١٩٦٧

٥٦ ـ **النص (احسان)**
العصبية القبليـة وأثرهـا في الشعر
الأموي
ط . بيروت ، دار اليقظة العربية

٥٧ ـ **النصولي (انيس زكريا)**
الدولة الأموية في الشام
ط . بغداد ١٩٢٧

٥٨ ـ **النوبختي**
كتاب فرق الشيعة
ط . ريتر ، استانبول ١٩٣٠

٥٩ ـ **هاردنج (لانكستر)**
آثار الأردن
تعريب سليمان موسى ، الطبعة الأولى
١٩٦٥

٦٠ ـ **ياقوت الرومي**
معجم البلدان
ط . الخانجي

٦١ ـ يحي بن آدم
كتاب الخراج
ط . ليدن ١٨٩٥ ، و ، ط . المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ

٦٢ ـ اليعقوبي
تاريخ اليعقوبي
ط . دار صادر ، بيروت ١٩٦٠

٦٣ ـ ابو يوسف
كتاب الخراج
ط . المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

٦٤ ـ المجلات والدوريات ذات العلاقة

* * *

الاول بغير حق ، شريطة أن يتركوا للمسلمين كنيستهم في باب توما التي لا تحق لهم ، لان شروط الصلح بين الجيش الفاتح لدمشق وسلطات دمشق ، أنه ما كان خارج اسوار دمشق وفتح عنوة فهو للمسلمين • ولكن النصارى لم يقبلوا واتفقوا مع السلطات الاسلامية ان يتركوا للمسلمين كنيسة مار يوحنا وتبقى لهم كنيسة مار توما مقابل ذلك[1] • وعمر في موقفه هذا كان يعمل بما هو مفروض عليه بحسب الشروط يومئذ ، ولم يكن بامكانه الا أن يفعل ذلك على أساس ان كل ما وقع بيد العرب عنوة فهو لهم•

أما موقفه في فرض الاتاوات فقد كان غير ذلك ، اذ انه انقص ما كان يؤديه أهل أيلة وأهل قبرص باعتبار ان الاتاوة التي فرضت عليهم إبان الفتح قد زيدت فأمر بأن تحط الى مقدارها الاول الذي صولحوا عليه • اما أهل نجران باليمن فقد صالحهم الرسول على ان يبقوا على دينهم وأن يؤدوا له كل عام ألفي حلة ، ثمن كل منها أربعون درهما ، وتبقى لهم أموالهم وديارهم •

ولما تولى عمر بن الخطاب ، أخرج النصارى من أهل نجران واتباعهم من اليهود من جزيرة العرب ، واباح لهم السكنى في العراق أو الشام حسب مشيئتهم • وقيل انه اشترى اراضيهم واعطاهم تعويضاً عنها من اراضي السواد • وكانت مساكنهم في النجرانية عند الكوفة • وكان عليهم ان يؤدوا الاتاوة التي صولحوا عليها زمن محمد • فكان رئيسهم يجمعها منهم • وفي عهد عثمان قلّ عددهم بالموت أو بالاسلام فأنقص الاتاوة مئتي حلة،وكذلك فعل معاوية بعده • وفي عهد الحجاج زيدت إتاوتهم مئتين ، لأنه اتهمهم بمساعدة ابن الاشعث في حركته الثورية •

فلما جاء عمر الثاني شكوا اليه حالهم،وأن عددهم قلّ بسبب الحروب والفتن التي كثيرا ماوقعت في ناحيتهم • ثم ظهر له أن عددهم اصبح أربعة

---

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٩٩ •

٢ ـ المصادر الأجنبية

1 — Akel (Nabih) — Studies in the Social History of the Umayyad Period.
Ph. D. Thesis, University of London, 1960.

2 — Belayev (E. A.) — Arabs, Islam, and the Arab Caliphate.
ed. Praeger, Pall Mall, New-York, 1969.

3 — Bell (Harold) — The Administration of Egypt under The Umayyad Caliphs.

4 — Blachère (Regis) — Histoire de la Litterature Arabe.
3 Vols., Paris, 1952 - 1966.

5 — Bury (J. B.) — A History of the Later Roman Empire.
Ed. London, 1931.

6 — Creswell — Early Muslim Architecture.
Penguin.

7 — Denett (D.) — Marwan B. Muhammad.
Ph. D. Thesis, Harvard, 1939.

8 — Ostrogorsky (g.) — A History of the Byzantine State.
Ed. Oxford, 1956.

9 — Lammens (H.) — Etudes sur le Regne de Moawiya
Melange de la faculté orientale de Beyrouth, 1-111, 1906-1908.

— Le Califat de Yazid 1er

— Etudes sur le siecles des Omayyades.

Beyrouth, 1930.

10— Panikar (K. M.) — A Survey of Indian History.
Asia Publishing House,
Bombay, 1963.

11— Shaaban — The Social and Political Background of the Abbasid Revolution.
Ph. D. Thesis, Harvard, 1960.

12— Sauvaget (j) — Introduction à l'histoire de l'Orient Musulman.
ed. Cl. Cahen, Paris, 1961.

13— The Cambridge History of Islam,
vol. I., ed. C.U.P., 1970.

14— Encyclopaedia of Islam.
1st. and 2nd. ed.

ثبت الموضوعات

الصفحة

القسم الثالث